

اللغة العربية



اللغة العربية

اللغة العربية

مجلة فصلية محكمة تعنى بالقضايا الثقافية والعلمية للغة العربية

Revue Académique Trimestrielle Indexée

العدد السابع والأربعون 2019

العدد 47
2019

47

المجلس الأعلى للغة العربية - الجزائر

منصات الاعتماد

WWW.ASJP.CERIST.DZ
WWW.HCLA.DZ



المجلس الأعلى للغة العربية

العنوان : 52، شارع فرانكلين روزفلت
ص.ب 575، ديدوش مراد، الجزائر

الهاتف : 213 21 23 07 16/17 +213 21 23 07 07
الموقع الإلكتروني: www.hcla.dz

اللغة العربية

مجلة فصلية محكمة تعنى بالتأصيلات اللغوية والعلمية للغة العربية



السابع والأربعون 2019

الإيداع القانوني
7/20 02

ر.د.م.م
1112.3575
EISSN
6545-2600

اللغة العربية

المدير المسؤول
أ.د. صالح بلعيد
رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

رئيس التحرير
أ.د. عبد الله العشي

نائب رئيس التحرير
د. حياة أم السعد

مديرة التحرير
أ. نورة مراح

المدقق اللغوي
أ. حسن بهلول

اللجنة العلمية للتحريـر



- أ.د. عبد الله العشي
أ.د. حياة أم السعد
أ.د. أحمد عزوز
أ.د. عبد القادر فيدوح
أ.د. آمنة بلعلـى
أ.د. مسعود صحراوي
أ.د. محمد كعوان
أ.د. الطيب دبة
د. الجوهر مودر
د. انشراح سعدي
د. شراف شناف
د. صحرة دحمان

شروط النشر:

- ✓ تنشر المجلة المقالات الرّصينة، ذات العلاقة بقضايا اللّغة العربيّة ومجالاتها؛
- ✓ تُكتب المقالات باللّغة العربيّة، وتلحق بملخصين أحدهما باللّغة العربيّة وآخرهما باللّغة الإنكليزيّة ؛
- ✓ تخضع المقالات للمنهجية العلميّة الأكاديميّة، وتهتمّش ألياً في آخر المقالة؛
- ✓ تخضع المقالات للتّحكيم العلميّ؛
- ✓ يلتزم صاحب المقالة بالتّعديل في الآجال المحدّدة، إن طُلبَ منه ذلك؛
- ✓ تُكتب المقالة بخط Simplified Arabic بسنط 14 في المتن و12 في الهوامش، وترسل على البريد الإلكترونيّ للمجلة الموضّح أدناه؛
- ✓ يكون حجم المقالة بين 3000 و5000 كلمة؛
- ✓ ألاّ تكون المقالة قد نشرت من قبل، ولا مستلّة من مذكرة أو أطروحة جامعيّة؛
- ✓ يتسلّم صاحب المقالة ثلاث (03) نسخ من العدد الذي نشرت فيه مقالته؛
- ✓ تُرفق المقالة بسيرة علميّة موجزة عن الباحث؛
- ✓ لا تعبّر المقالات المنشورة بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للّغة العربيّة.

للاّصال

madjaletalarabia@gmail.com

ASJP.cerist.dz

الهاتف: 00213 21 23 07 16 – الفاكس: 00213 21 23 07 17

المراسلة: مجلّة اللّغة العربيّة، المجلس الأعلى للّغة العربيّة، شارع
فرنكلين روزفلت الجزائر ص.ب. 575 ديدوش مراد – الجزائر

محتويات العدد

الصفحة	العنوان
12 - 9	كلمة رئيس التحرير أ. د. عبد الله العشي
	المحور الأول: دراسات تراثية
38 - 15	البعد الإنساني في فكر مالك بن نبي الأستاذ عثمان بيدي
52 - 39	الصريح والمستلزم عند الأحناف مقاربة تداولية أ. جدي الطيب إشراف أ. د. محمد السعيد بن سعد
74 - 53	جهود الجغرافيين العرب في صناعة الأطالس اللسانية. أ. عقيلة أرزقي
94 - 75	مفهوم "اللغة الوسيطة" في التراث اللغوي العربي مقاربة الجاحظ أنموذجاً د. مبارك بلالي
	المحور الثاني: دراسات لغوية معاصرة
120 - 97	الأبعاد التأويلية لحجاج السخرية في الخطابات الشعرية قراءة حجاجية لقصيدة "أقزام طوال" لأحمد مطر أ. د. عاشور سرقمة أ. محمد الصالح بن حمده

140 - 121	الأخطاء اللغوية الشائعة: تغيّر لغوي أم لحن؟ د. ياسين بوراس
154 - 141	(التماسك والتناسق النصي في جهود عبد القاهر الجرجاني) أ. لوت زينب
180 - 155	قاموسُ اللسانيات لعبد السلام المسري رؤية تحليلية استقرائية. أ. عبد الرحيم البار
	المحور الثالث: دراسات تعليمية
212 - 183	أخطاء الصحافة الجزائرية في ممارسة اللغة العربية وفي التعامل معها التشخيص والعلاج د. علي حلواجي
236 - 213	الانعكاسية Washback والتقويم المفهوم والتأثيرات والأبعاد د/سعيد بكير
266 - 237	الجملة النظامية والجملة النصية دراسة وصفية تحليلية تجاني حبشي
284 - 267	جوانب اللسانيات التداولية الحديثة وعلاقتها بالبلاغة العربية أ. فتحي بوقفطان
	المحور الرابع: دراسات أدبية ونقدية
306 - 287	التشخيص الأدبي للغة في الرواية / " البيت الأندلسي " لواسيني الأعرج أنموذجا 287. قوادري عمر

307 - 320	اللغة الروائية في ضوء الدراسات النقدية المعاصرة أ. سليم بتقة أ. زهر اليوم هطال
321 - 332	تيسير النحو العربي (نقد ورؤية) أ. عبد الوهاب حجازي
333 - 354	حفريات أولية في ذاكرة مصطلح السيرة د. نبيل حويلي
	المحور الخامس: ثقافات
357 - 384	الفهرس الوصفي لمؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلموه المخطوطة والمطبوعة والمفقودة -دراسة وصفية إحصائية- أ. فؤاد بن أحمد عطاء الله
385 - 398	البعد الثقافي والديني لدول المغرب العربي، ودوره في تعزيز الوحدة المغاربية والصمود أمام التحديات الإقليمية والدولية أ. خليفة البشاري
399 - 432	نشأة الخط العربي، بين التوقيف والاصطلاح د. سمير ربوزي
433 - 462	نظام الشخصيات في رواية "التبر" لإبراهيم الكوني _ مقارنة سميائية_. أ. قناوي عبد الحق أ. زويش نبيلة

كلمة العدد

في العامية والفصحى

أ.د. عبد الله العشي

رئيس التحرير

أقرأ أحيانا في الكتابات العلمية والإعلامية ، وأسمع في الندوات والملتقيات أحاديث تدعو إلى ترقية العاميات حتى تصبح على غير ما هي عليه، ولتصير قريبة من اللغة الفصحى، هذا التفكير يثير عددا من التساؤلات يمكن الإشارة هنا إلى بعضها فقط لأن سردها جميعا أمر لا يمكن هنا، فمن ضمن هذه التساؤلات أن هذا التفكير يضمّر مقدمات ليست بالضرورة صحيحة؛ فثمة، أولا حكم ضمني يدعي أن العامية، مهما كانت هذه العامية، هي طريقة في التخاطب قاصرة وتحتاج إلى ترميم وترقية، وأن ترميمها لا يتم إلا بتقريبها من الفصحى، والحقيقة أن اللهجة كيان قائم بذاته ومستقل بكيئونه ، لها وظيفتها ولها بنيتها ولها مجالاتها كما أن لها مستعملها الدائمين والرسميين، ولها نظامها الداخلي وتخضع لإكراهات ذاتية وموضوعية خاصة غير تلك التي تخضع لها اللغة الفصحى، وبالتالي فهي لا تقيم من خلال علاقتها باللغة الفصحى بل تقيم من خلال قدرتها على أداء وظيفتها في التواصل الاجتماعي، وأعتقد أن كل محاولة لتفصيح العاميات هي محاولة ضد حركية المجتمع الذي هو أصل العامية ومحركها والمتحكم في سيرورتها .

صاحبت العاميات اللغة العربية الفصيحة عبر تاريخها، كما صاحبت العاميات اللغات الفصيحة أيضا عبر تواريخها، ولم يكن ذلك عبئا على اللغة لسبب أساسي، وهو أن العامية لم تكن بديلا ولا منافسا ولا عدوا، بل طريقة أخرى في التواصل بين البشر في سياقات خاصة لا تتطلب جهدا أكبر ولا مؤسسة ولا تعليما ولا معلمين، بل تنمو مع الإنسان كما تنمو سائر أعضائه

بشكل طبيعي وتلقائي، وسواء كانت العامية "لغة" أصيلة ومستقلة أم كانت وليدة الفصحى، فهي في الحالين، قد صارت بهويتها الخاصة حتى أصبح لها نظامها النحوي والصرفي والبلاغي وصار لها تراثها الشعري والسردى والفكري والفلسفي، ولها مجالاتها التداولية الخاصة، صارت مؤسسة قائمة بذاتها، في مقابل الفصحى التي لها أيضا أنظمتها اللسانية والبيانية ولها خزانها الفكري والفني والعلمي. هذه هي العامية كما كانت وكما ينبغي أن تكون لكن المشكلة التي تستحق النظر هنا، في رأيي، هي أن الواقع الآن، أن العامية لم تعد مقصورة على مجالها المجتمعي الخاص، بل تعدت إلى مجالات أخرى كانت حكرًا على الفصحى وخدها، وهنا يصبح النظر إلى العامية من منظور آخر، وتعاد أشكالها من موقف مختلف غير الذي سردناه قبل حين؛ إن مؤسسات مثل المؤسسات التعليمية والعلمية والإعلامية والقضائية وغيرها من المؤسسات "الخبوية" يفترض أنها من ممتلكات السلطة اللغوية الفصيحة، كما أن فضاءات الساحات والشوارع والأسواق وميادين الرياضة والترفيه والمناسبات الاجتماعية والحياة العامة من ممتلكات العاميات، وسيصبح من النشاز الداعي إلى السخرية أن تتبادل الفصحى والعامية موقعهما، فتصبح الفصحى في الشارع والسوق والعامية في مدرجات الجامعة أو نشرات الأخبار، ولكن الأمر قد يتجاوز النشاز إلى ما هو أخطر من التبادل إلى الاستيلاء والاعتصاب، حين تحاول العامية أن تكون بديلاً للفصحى وتهجرها من موقعها وتنفيها من "أرضها" ولأنها غالباً ما تعجز، بحكم طبيعة وظيفتها الاجتماعية التي لا تؤهلها للتعبير عن المفاهيم والمجردات والمصطلحات وما على ذلك من مستعملات اللغة الخبوية الخاصة فإنها حينئذ تسعى إلى "الاستقواء بالأجنبي" لإعانتها في استكمال نقصها و"لنفي" الفصحى من موطنها الأصلي، تماماً كما يستعين المتآمر والخائن بالأجنبي على وطنه، هنا مكمّن الخطر، فكما أن هناك خيانات وطنية على مستوى الأفراد فهناك، بالمقابل تماماً، خيانات على مستوى اللغات، وهنا لن تكون القضية قضية لغوية أو قضية علاقة بين وسيلتي تعبير وتواصل، بل هي قضية

فكرية وثقافية وما يتبع ذلك، الأصل في العلاقة بين اللغة والعامية أن تكون علاقة حسن جوار أخلاقي وتوافق أخوي وتعاون أحيانا ، واستثمار مشترك في " المناطق الحدودية"، ولكل منهما وظيفته ومجاله الاستعمالي ، وكان الأمر كذلك مع العربية في علاقتها بالعاميات التي توالدت عبر تاريخ اللغة العربية مشرفا ومغربا .

أعود من حيث بدأت لأقول إن الأمر لا يتعلق بترقية العاميات لتصل إلى المستوى مشارف اللغة الفصيحة، لان العامية تتطور بمنطقة الداخلي وأعتقد أن المحاولات التي سارت في هذه الطريق لم تصل إلى شيء، العامية تكتسب شرعيتها وتستمد حياتها من علاقتها بالتحويلات الاجتماعية، بل الأمر يتعلق بأن للفصحى حرمة ينبغي تقديرها وسيادة يجب احترامها، وحدودا يمنع استباحتها. قبل ربع قرن، مثلا، لم نكن نسمع في الإذاعات والتلفزيون حديثا بالعامية إلا فيما ندر ولا نسمع للعامية لا صوتا ولا همسا في الجامعات وقاعات الدرس والمؤتمرات والمرافعات حتى صارت تلك القلاع الحصينة اليوم مرتعا للعاميات، هكذا تتم العملية: احتلال المجال، ثم احتلال اللغة، ثم احتلال الفكر ثم احتلال الانسان، بعدها يصبح كل شيء قابلا للاحتلال. العامية الآن لم تعد في الحقيقة عامية اعني تلك العامية الممتلئة بالحكمة والقيمة والمعنى تلك التي نسمعها في القصص الشعبي والشعر والمرويات الخاصة وحكايات الشيوخ والعجائز والتحيات والتعاني وفي جلسات الصلح والزواج والمآتم. العامية الآن كيان ممسوخ لا هوية له، لا طعم ولا رائحة ولا لون، والنتيجة الحتمية لدخول هذه العامية إلى المؤسسات الرسمية والخاصة بالفصحى هي تنفيه العقل وترذيل الفكر وتمسيخ الشخصية وتغييب المعنى وتجهيل الإنسان وتفريع كل شيء من دلالاته.

المحور الأول

دراسات تراثية



البعد الإنساني في فكر مالك بن نبي

أ. عثمان بيدي¹

تاريخ الاستلام: 16-04-2019 تاريخ القبول: 22-17-2019

الملخص: يعدّ مالك بن نبيّ من أبرز مفكّريّ الجزائر خلال النّصف الثّاني من القرن العشرين، فقد استطاع أن يحلّل بعمق مشكلات الحضارة، ويقدم شروط بناء الحضارة من خلال العديد من أعماله التي فاقت الثلاثة والعشرين كتابا منها: شروط النّهضة، مشكلة الثقافة، تأملات، ميلاد مجتمع، والاسلام والديمقراطية... وأعماله أكثرها تندرج تحت عنوان "مشكلات الحضارة" وتهدف إلى وضع اسس لنظريّة ثقافيّة تتفق وجميع الثقافات، صالحة لكل الأزمنة وتتنحصر في أربعة عناصر وفيّ مقدمتها المبدأ الأخلاقيّ الذي يتجاوز مستوى العلاقات بين الافراد إلى مستوى العلاقات بين الشّعوب والدّول. وان كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة فالإنسان اساس الحضارة عند مالك بن نبيّ ومصيره مرهون بثقافته.

الكلمات المفتاح: البعد الإنسانيّ، مالك بن نبيّ، الإنسان، ثقافة، حضارة

Abstract: Malik bin Nabi is one of the most prominent thinkers of Algeria during the second half of the twentieth century. He has been able to analyze deeply the problems of civilization and provide the conditions for building civilization through many of his works that exceeded the twenty-three books: Islam and democracy ..., and most of its work is under the title of "The problems of civilization", and aims to

¹ جامعة الجزائر 2، البريد الإلكتروني: bidiathmane@yahoo.com

lay the foundations for a cultural theory compatible with all cultures, valid for all times, and is limited to four elements, foremost of which is the ethical principle that exceeds the level of relations between individuals to the level of relations between peoples and countries All thinking about a problem Man is thinking about the problem of civilization based civilization when Man Malik bin Nabi and his fate depends on his or her culture.

Key words: human dimension, Malik bin Nabi, human, culture, civilization

مقدمة: لقد عاش مالك بن نبي* في فترة شهدت الحريين الأولى والثانية ويعتبر عصره عصر يقظة وصحوة دينية جاءت من الشرق الاسلامي على يد جمال الدين الافغاني ومحمد عبده، وقد كان واحداً من ابرز مفكري القرن العشرين استطاع أن يحلل بعمق مشكلات الحضارة، ويدرس شروطها من خلال العديد من أعماله، ما دفع بعديد الدارسين الى الاقرار بعبقريته فـ "بشير ضيف الله" يضعه ضمن الكوكبة الرائدة للفكر العالمي، وليس العربي، أو الاسلامي فحسب بشهادة معاصريه ودارسيه اليوم دون خلفيه...¹، ويقول: إنه من المفكرين القلائل الذين عرفتهم البشرية، فهو مفكر عالمي بأتم معنى الكلمة، أوجد فضاءات حضارية، وإجابات لأسئلة الراهن الحضارية، التي تشترك فيها الإنسانية جمعاء؛ لأن الأصل في الحضارة هو التفكير الجماعي، والحضارة طموح مشروع لكل البشرية، وإن اختلفت الروافد والمرجعيات إلا أن الغاية واحدة والمطلب واحد وفي ذلك مشهد آخر غير المشاهد ذات الفكرة المحدودة، التي ميّزت المسار الفكري العربي، والإصلاحي خصوصاً وهنا مكمن الفرق"² فمالك بن نبي تجاوز المشاهد ذات الفكرة المحدودة الضيقة التي طبعت المسار الفكري الاصلاحي العربي عموماً، وهذا ما جعله متفرداً ومتميزاً عن معاصريه.

فكر مالك بن نبي: إنّ الدّارس لأعمال مالك بن نبيّ على وفرتها وتنوعها يجده قد وضع أسسا لنظرية ثقافية تهدف لأن تكون صالحة عند تعميمها على اية ثقافة من الثقافات سواء كما كانت أم كما هي الآن أم كما تريد أن تكون فمالك بن نبيّ حين يطرح مشكلة الثقافة ويحدد مفهومها اللغوي والتاريخي والاجتماعي لا تهمه هذه الدّراسة بقدر ما يهمه بناء الثقافة التي انهارت جوانبها نتيجة لظروف تاريخية معروفة، ومن ثم الاستفادة التطبيقية من ذلك البناء على مستوى الحاضر. لذلك نراه ينقب عن اسس أيّ ثقافة من الثقافات، وينتهي به المطاف إلى ان يحصر عناصر الثقافة في أربعة عناصر وفي مقدمتها المبدأ الأخلاقي والواقع أن أهميّة المبدأ الأخلاقي في الثقافة تتجاوز مستوى العلاقات بين الافراد إلى مستوى الدّول³.

ويقول مالك بن نبيّ أنّه بوسع القارئ ان يطالع محاولتنا التي أخلصناها لتركيب الثقافة ان يجد في هذا العرض بعض الافكار العامة عن امكان استحداث تركيب اكثر رحابة بين ثقافتين أو ثلاث، وفي كتابه فكرة الافريقية الاسيوية درس امكانية تركيب ثقافتين هما الثقافة الاسلاميّة والثقافة الهنديّة من أجل تحديد عمل ثقافي على مستوى افريقيّ اسويّ " فالتبادل الثقافي يتم في نطاق علاقة حضارية واحدة"⁴ وليست عنده عقدة في الاقتباس والاستفادة من المنتج والتراث الفكريّ الإنسانيّ العالّي القديم والحديث فقد قرأ معظم الكتب الشهيرة لأرسطو، سقراط وديكارت، وكارل ماركس، وغيرهم⁵.

وقد عرف الثقافة تعريفا توفيقيا حيث تصبح عنده الثقافة في المجتمعات العربيّة الاسلاميّة تعني ثقافة الفرد والجماعة في نفس الوقت، وعندما يعالج ظاهرة الثقافة لا يعالجها من زاوية اعتبارها قضايا تتعلق بالشعر والقصة والمسرح بل يرى فيها ظاهرة اشمل وأعم من ذلك فهي ترتبط بوجود الإنسان أو عدمه فمالك بن نبيّ يقر بالتنوع الذي يتبعه التعارف والانفتاح في اطار عالمي يحترم فيها النّاس بعضهم بعضا دون ان يتناول احد على سواه او يعمل على الغائه فلا

مكان للصدام في إطار ثقافتنا العربية الإسلامية بل الأساس فيها" ولقد كرّمنا بني آدم "الاسراء 70، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا" الحجرات 13

فمالك بن نبي ينظر الى فكرة العالمية من منظور الرسالة المحمدية التي هي اساس ارتباط المسلم بعقيدته باعتبارها حضورا في مسيرة الحياة وارتباطا بنظام الكون ومسؤولية حملها الإنسان أمانة الأداء⁶ وهذا ما يتفق مع المفهوم الانثروبولوجي للثقافة، وقد وقف يقظا بفكره مضيّفا لأفكاره أفكارا أخرى أكثر جدة وأعمق تحليلا، وأقوى قدرة على التدقيق والتواصل دون أن تكون له مرجعية فكرية تلغي كل ما هو آت من وراء البحر من تجارب ناجحة تقدّم للأمة أكثر ما تؤخر.⁷ فمالك بن نبي يغربل ما يأخذه من الفكر الغربي فما انسجم مع تراثه الاسلامي ورأى فيه قوة أخذ به وما رآه غير ذلك تركه

وكان يسعى ليؤسس مشهدا مشرقا للأفكار المنتظر بزوغها، والتي لها مرجعية اسلامية بانفتاحها، وتحررها، وعملها على نشر الوعي الحضاري بأبعاده العالمية دون خلفية، أو انحصار، فالمنبع هو الاسلام بصفته ديننا عالميا يخاطب العقل البشري، ويستثمره في نفس الوقت، ويهيء له فضاءات تشجع على التواصل⁸. فمالك بن نبي انفتح على العالم وسلاحه في ذلك انسانية الاسلام وعالميته

الإنسان في فكر مالك بن نبي: يهتم مالك بن نبي بالإنسان، ويركز تفكيره على التكوين المادي للإنسان ويشترط في الوقت نفسه التكوين الأخلاقي له حتى لا ينحرف بصناعته عن الجانب الأخلاقي، وتبقى صناعته في خدمة الإنسانية ورفاهيتها بدلا من ان تكون ذات عواقب عليه وعلى المجموعة البشرية؛ لأن الحضارة بغير جانبها الأخلاقي محكوم عليها بالانهيار، وتحدث عن مشكلة العمل الذي يسهم بشكل كبير في حل مشكلة الإنسان الصانع للحضارة؛ لأن كل شيء يتوقف على العمل، فبفضل العمل يرفع الإنسان مستواه الفكري "فالعمل وحده هو الذي يخط مصير الاشياء في الاطار الاجتماعي"⁹

ومالك بن نبي يرى أن الإنسان هو العنصر الأول في بناء الحضارة "فمشكلة التجهيز مرتبطة بقضية الإنسان والأفكار، وأن المحصول الاجتماعي لآلات مرتبط بفعالية وسلوك الفرد الذي يستخدمها، ونحن هنا ندرك... الصلة القائمة بين ارادة وقدرة مجتمع بيني ذاته على قاعدة حضارية وليس على قاعدة منتجاتها"¹⁰ وهنا يبرز الفرق بين تجربة اليابان الايجابية وتجربة العالم الاسلامي الذي أخذ بمنتجات الحضارة فقط بخلاف اليابان.

وتطرق الى اختلاف مشكلة الإنسان باختلاف المجتمعات التي ينتمي اليها وهو هنا يذكر في مجال المقارنة بين المجتمعات الاوروبية والمجتمعات الاسلامية فمثلا "في بلاد اوربا كبلجيكا نجد الرجل لا يتمتع بتوازن اقتصادي في حياته فهناك اضطراب نتج عن عدم الملاءمة بين حاجاته وتيار الانتاج المسرع، ومن هنا تنشأ مشكلة اجتماعية يعانيها شعب بلجيكا، وهي مشكلة "حركة" مضطربة لا يشعر بها شعب لا يعيش في مجال هذا التيار، (سرعة حركة الحياة) بينما البلاد الاسلامية على نقيض ذلك ازمته ليست في الحركة، بل في الركود، فهي مشكلة الإنسان المتوطن فيها الذي عزف عن الحركة وقعد عن السير في ركب التاريخ.¹¹

وقد اهتم مالك بن نبي بالإنسان وعمل على إنقاذه من البؤس والفاقة على محور طنجة جاكارتا، وانقاذه من حتمية الحرب على محور واشنطن موسكو وهما بالنسبة له الضرورتان المحددتان للمشكلة كلها مشكلة بقائه ومشكلة اتجاهه¹²، ويقصد بالاتجاه الجانب الاخلاقي الذي تبني عن طريقه المثل العليا ثم الاتجاه نحو الصناعة لخلق وسائلها في ظل هذه المثل العليا، وبذلك يتم انقاذ الإنسان كما قال من الفقر على المحور الأول وانقاذه من الحرب على المحور الثاني.

ويحاول . بهدف الكشف عن العنصر الإنساني في المجتمع الجزائري تحليل الحالة الاجتماعية له فيقول: "في بلاد مستعمرة كالجزائر ترى أنه ليس فيها

طبقات، وانما هنالك صنفان من النَّاس، الصنف الاول وهو الذي يسكن المدينة إما متعطّل لا يعمل شيئاً، وإما أنه يبيع بعض العقاقير والحاجات، وإما أنّه "شاويش" في إدارة استعماريّة، وبعض آخر نجده محامياً أو صيدلياً أو قاضياً وقليل ما هم، والصنف الثاني وهو الذي يسكن البادية مترحلاً بلا مواش فلاحاً بلا محراث ولا أرض^{3 1} اذا فبرغم الحالة التي آل اليها المجتمع الجزائريّ في المدينة أو الريف في ظل الاستعمار فإنّه بقيّ في صورة جامعة للانسان الجزائري. واهتمام مالك بن نبيّ بالإنسان يظهر في أعماله من خلال عرضه وتحليله لعوامل التطور التي يستطيع من خلالها كل متخلف أن يخرج من دائرة تخلفه ويلتحق بركب الامم المتحضرة، وهيّ في مجملها تشكل أساساً صالحاً يمكن ان يتبنّاها أيّ مجتمع، فتساعده على التغلب على مشكلة التخلف.

ويشيد بدور الإنسان في بناء الحضارة، فالحضارة تراكم وتطور وكل فرد او جماعة يبدأون من من حيث انتهى السابقون عليهم فالحضارات يمكن نقل منجزاتها والتبادل فيها بين الشعوب والامم،

ويرى أنه ينبغي ان نختار من بين الاتجاهات التي تنحوها الإنسانية فنأخذ بزمام أحدها ثم نسبق الى الطليعة، ويدعو المربين في البلاد العربيّة والاسلامية ان يعلموا الشّببية كيف تستطيع ان تكتشف طريقاً تنصدر فيه موكب الإنسانية لا ان يعلموها كيف تواكب الروس او الامريكان في طرائقهم وكيف تتبعهم؟ فلو أتيح لهذه الشّببية ان تعتنق تكامل الإنسانية بحيث تمنحها كل ذكائها وملء قلبها حتى تجعل منها رسالتها، فلسوف تحتل مقام الصدارة في الزحف نحو اتجاه جديد: نحو تقرير مصائر الإنسانية، ولعلها بذلك تمحو الشرور التي تفشت اليوم في حنايا أنفسنا، ولعلها أيضاً تمحو بعض الشوائب والمذاهب التي خامرت عقولنا.^{4 1} فمالك بن نبيّ يطمح في تكوين شبيبة قائدة للإنسانية تنصدر موكبها لا لاحقة، ويدعو المربين الى جعل الإنسانية المبدأ الاول او المنطلق الأول في تربيتهم للنشء

فقد جعل مالك بن نبي الإنسان في مشروعه الحضاري الثقافي هدفا له ودعا الى ضرورة بنائه قبل كل شيء وهذا يجعله من دعاة الإنسانية " فالإنسانية كل الإنسانية مدينة له، بحاجة إليه كلما تداعت القيم... فلقد وجد نفسه كمتقف جزائري أمام ترتيب ضروري لرسالته في المجتمع، فلا بدّ أولاً من بناء الإنسان قبل بناء الآلة، حتى لا نضع العربية قبل الحصان، فنقع في استحالة الوصول إلى الهدف الحقيقي.¹⁵ فالاستثمار في الإنسان من أهم مقومات الحضارة، وهذا ما جعله ينفذ على ما يحقق رفاية الإنسان في اطار العنصر الأخلاقي وبهذا تنفتح الحضارات على بعضها وتتعايش في سلم.

وكان شغله الشاغل تحقيق النهضة الشاملة، التي تعم الجميع، فكان متفتحا على غيره، عالمي النظرة في معالجته للحضارة كفاية إنسانية نبيلة تشترك فيها البشرية ككل وتدعو إليها... إن "مالك بن نبي" وقف أبحاثه على مشروع ضخم يبدأ من الإنسان كمحور أساسي، أو كمفتاح للحضارة، وكمنتج، وينتهي عند تحصيل نتائج، هذا التفاعل الايجابي بصفته مكوّنا أساسيا لأي مشروع حضاري منتظر.¹⁶ فالإنسان عنده هو المبدأ والمنتهى في مشروعه. فالثقافة مبدعها الإنسان والمستفيد منها الإنسان وكذا الامر بالنسبة الى الصناعة

لقد أسس "مالك بن نبي" لاتجاه فكري جديد يعتمد على التقنية العلمية منهجا وتحليلا وتصورا، بتركيزه على المحاور الأساسية للمشروع الحضاري للأمم والإنسانية جمعاء، فتطرق إلى الإنسان ككائن له قدراته وإمكاناته الكامنة وكمشروع يعتبر رأس مال الحضارة، فهو الحضارة ذاتها.¹⁷ تقدمه بتقديمها وتراجعها بتراجعها.

كما أنّه أوجد فضاءات حضارية، وإجابات لأسئلة الراهن الحضارية التي تشترك فيها الإنسانية جمعاء؛ لأنّ الأصل في الحضارة هو التفكير الجماعي غير المحدود، والهادف إلى المجاوزة، والانتقال بالفرد من عزلته إلى الطرف الآخر من

المعركة، التي تشترك فيها البشرية، إلى الشعور بضرورة التنسيق مع الآخر والتعاون معه فالحياة لنا جميعها.¹⁸ فالإنسان لا يعيش بمفرده ولا يصنع واقعا حضاريا وحده.

وكان "مالك بن نبي" يؤكد أن الحضارة طموح مشروع لكل البشرية، وإن اختلفت الروافد والمرجعيات، والإنسان هو مفتاح الحضارة ومحورها¹⁹ والانطلاقة لا تكون إلا من هذا الاتجاه، بتكوين عوالم الأشخاص...، والمبادرة والخلق لا تكون إلا في نطاق علائقي اجتماعي، مبدؤه قائم على شمولية النظرة المعززة للبعد الاجتماعي، والدأخضة للنظرة الفردانية المنعزلة²⁰. واختلاف الحضارات اختلاف غنى عندما تنبني على البعد الإنساني وتنشئها الجماعات لا الأفراد

لقد عثر "مالك بن نبي" على حقيقة ثابتة وأساسية، مؤداها ضرورة إيجاد فضاءات للتفاعل الهادف إلى التغيير، والبناء قبل التفكير في أي مرحلة أخرى فالبدائية من هنا. وتوصل إلى قناعة لا تلغي النظرات الفكرية الأخرى سواء كانت عربية إسلامية أم غربية، وكثيرا ما ضرب لنا أمثلة من هنا وهناك تبرز انفتاح فكر "مالك بن نبي" على الأفكار والحضارات الأخرى بعيدا عن التعصب والفردانية فقدم بذلك مشروعه الحضاري الضخم^{1 2} الذي لا يقصي الآخر مهما كان الاختلاف

ويرى "بشير ضيف الله" "أن مالك بن نبي" في مشروعه الحضاري لم يتشيع إلى أي من الأقطاب، وإنما تشيع إلى الرأي العالمي الفاحص الرافض للمقدمات الجاهزة، أو القابلة للانكماش"،²² ففكرة الإنسانية في عمومها التي تشغل فكر مالك بن نبي هي التي حمته من التعصب وجعلته يقول: "إن تطور الإنسانية هو ما يحدث من نمو في مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية تلك التي تطبع حياة الإنسان، وعمله على وجه البسيطة".²³ فالإنسان انسان أينما وجد والاختلاف لا يلغي إنسانيته.

والإنسان من أهمّ العناصر الحضاريّة عند "مالك بن نبي" ولهذا اهتم
"بالإنسان بصفته مشروع المشاريع الذي يقوم عليه كلّ فعل نهضويّ جاد،²⁴
فلا ينبغي في رأيه على الفرد الذي تقوم عليه الحضارة أن يكون فردانياً في تفكيره،
وفي تكوينه، وفلسفته، وإنما يجب أن يدرك تمام الإدراك أنّه ضمن نسيج اجتماعيّ
قائم على التّكامل، والتّفاعل، فالشموليّة في مفهومها الايجابي هي الرصيد الذي
يستطيع المجتمع من خلاله تأكيد وتعزيز قدراته العمليّة والعلميّة والإنتاجيّة
التي تصب في أتون التّفعيل الحضاريّ المنسجم.²⁵ وهذا ما ينطبق على فكر
مالك بن نبي

ويوجهنّا "مالك بن نبي" إلى الفكرة التي انطلق منها أساساً لتجسيد أيّ فعل
حضاري، فيقول: فلا يمكن أن نتصوّر انطلاقة ما، أو انبثاق حضارة من وسط
اجتماعيّ متهالك، ومفكك، يحمل بذور تداعيه قبل أن يولد، ويضرب لنا مثلاً
في هذا الاطار بما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم الذي وضع نصب عينيه
تحقيق التّواصل والتّراحم والتّآخي.²⁶ فالعوامل الايجابية لايّ وضع في الحياة
هي التي تنشأ عنها الحضارة دون سواها

ولكي نجسّد ذواتنا الحضاريّة على أسس قويّة لابدّ أن نعمل على تجسيد دور
الإنسان، المجاوز، المبدع، المبادر، القادر على التّواصل، والانسجام مع باقي أفراد
المجتمع في علاقة تكاملية قائمة على النّجاعة والفاعليّة.²⁷ فالفرد لا يجب ان
يكون سلبياً. فالحضارة لا تنشأ الا عن فعل جماعيّ ايجابي.

إنّ تحقيق الفعل الحضاريّ المستمر القويّ أمر ممكن ما توافرت الفضاءات
الملائمة، واستمر الإنسان متشبّعاً بقدرته على النّجاح متشبّثاً بدوره
الحضاري.²⁸ واستغلال العناصر الايجابية في الإنسان مساعد قويّ وضروريّ
على بناء الحضارة واستمرارها، فلقد عثر "مالك بن نبي" على حقيقة ثابتة
وأساسية مؤداها ضرورة ايجاد فضاءات للتّفاعل الاجتماعيّ الهادف إلى التّغيير
والبناء قبل التّفكير في أيّ مرحلة أخرى²⁹، فالتغيير عنده عنصر من العناصر

المهيئة للحضارة التي تعدّ نتاجاً طبيعياً لحركة اجتماعية... والغاية كلّ الغاية في تأصيلها والعمل على التبشير بها، والتّمكن لها ما استطاعت هذه الحركة الاجتماعية إلى ذلك سبيلاً³⁰

فقد أصبح تكامل النّوع الإنسانيّ وسلامته يهتم نفسيّة العصر الحديث إلى حد ما وفيّ هذا الاطار العام يكون الحديث عن المثقف المسلم فهو ملزم بأن ينظر الى الأشياء من زاويتها الإنسانية الأكثر رحابة حتى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته فيّ هذا الاطار العالمي³¹، وعلى الإنسان مهما كان أن يكون محباً للإنسانية "فغانديّ" لم يكن يتصرف فيّ صاروخ كونيّ أعني فيّ شيء ذي مستوى عالميّ وانما كان يملك ضميراً تراخياً حتى وسع العالم ولقد خول له هذا الضمير قدراً من العالمية أكثر مما تخوله الاقمار الصناعية لأصحابها اليوم"³² فالإنسان يحقق انسانيته ببعده الإنسانيّ.

أما عن الفلسفة التي يقوم عليها محور تكوين عالم الأشخاص، فتنتطلق من ضرورة إيجاد مناخ اجتماعيّ متلاحم ومنسجم ضمن شبكة علاقات قائمة على التّفاهم والرغبة فيّ مساعدة الآخر³³ وهذا يعنيّ ان المجتمع المسؤول عن علاقاته الاجتماعية يكون منسجماً وينتج افراداً أسوياء فاعلين ولهذا يحدّر "مالك بن نبي" من الجماعات الساكنة، فيقول: إنّ لها حياة دون غاية فهيّ تعيش فيّ مرحلة ما قبل الحضارة.³⁴

ويلح على استرجاع الدّور الحضاريّ العالميّ لحضارتنا: لأنّ مقومات العودة ليست بمنأى عن إمكانيات الأمة... والحضارة المرجوة بما تحمله من إشراقات فيّ صالح الأمة كمرحلة أولى، وما تحمله من بشائر للإنسانية جمعاء انطلاقاً من مرجعياتها الفكرية والدينية المتجذرة فيّ صميم التجربة البشرية³⁵ بشرط ان تتحمل الامة مسؤولياتها الكبرى للانتقال من وضعها الحضاريّ الحاليّ الى وضع حضاريّ أرقى تسود فيه الافكار البناءة، ف"هيبة الامة قد تكفلها لها أحيانا هذه الأفكار اذا ما تناغمت مع المرحلة التيّ تجتازها الإنسانية"³⁶

ويرى "مالك بن نبي" أن الحضارة قطب يتجه نحو تاريخ الإنسانية، وذلك بتخطيط ثقافة شاملة يحملها الغني والفقير، والجاهل والعالم، حتى يتمّ للأنفس استقرارها³⁷ ويوضح "بشير ضيف الله" فيرى: أن الحضارة النموذج عند "مالك بن نبي" هي تلك الحضارة المتأصلة في مرجعياتها وأسسها، المكتسبة لمناعة ضد التغريب، أو المسخ، المنبثقة عن محفز ديني، يتوافق والطموحات الاجتماعية والمساوي ذات الأبعاد الإنسانية في سياقها الحضاريّ النأشء والمنتظر، هي مشهد آخر مختلف، ومتألق ذو خاصية إسلامية مطبوعة ومتفتحة على حضارات أخرى في نطاق التبادل الإيجابي دون الانصهار فيها، أو محاولة تقليدها، والانسلاخ عن هويتنا ومرجعياتنا³⁸ وهذا النوع الذي ينشده مالك بن نبيّ بوساعته هذه يستوعب كل الحضارات الإنسانية على اختلافها وتنوعها مع الحفاظ على الهوية والمرجعيات

ويرى "مالك بن نبي" أن ثورة تقوم لا تكون ثورة حقيقية لمجرد ما تجتهد في نشر العدالة الاجتماعية بين طبقات المجتمع، إذا هي لم تعلمه كيف يستعيد شخصيته، وتلقنه معنى كرامته³⁹؛ أي أنها تزوده بعناصر إنسانيته كلها. لأن الإنسان المفتقد لأيّ عنصر من عناصر إنسانيته عاجز عن بناء حضارة.

ويرى أن الإنسان المسلم، هو المبشر بخلاص الإنسانية من الماديات الفضفاضة والبدائل الحضارية المتوحشة، القائمة على أساس ماديّ شرّس والمهمشة لدور الفرد، الذي يقوم عليه أيّ مشروع نتيجة للنظرة المجحفة والمحتقرة له، بعيدا عن أيّ محاولة لتكريس التوازن بين ما هو روحيّ وما هو مادي، حتى يكون التفاعل إيجابيا.⁴⁰ فالإسلام دين يحقق إنسانية الإنسان؛ لأنه يوازن بين ما هو روحيّ وما هو مادي.

ويتأسّف كثيرا على عدم الرّبط بين الاقتصاد والثقافة"، في الوقت الذي تفرض فيه علينا أحدث تجربة للإنسانية أن نعقد في المستقبل صلة وثيقة بين الوقائع الاقتصادية والثقافة"،⁴¹ ويؤكد أن الطريق الوحيد للاستقلال

الحقيقيّ يقضيّ ببتر كلّ علاقات التَّبعية مهما كان نوعها، وتقبّل سائر الصعوبات التي تواجه الإنسان عندما يعجز ويتحمّل كامل مسؤولياته^{2 4} فالتبعية الاقتصادية عنوان التبعية الثقافية وهي الأخطر وكلتا همتا تصب في مفهومه القابلية للاستعمار.

ويجتهد "مالك بن نبي" فيقدّم للإنسانية جمعاء شروط الاقلاع الاقتصاديّ فيرى أنّه من أجل دفع الآلة الاجتماعية في الحركة؛ أيّ من أجل تحقيق شروط الاقلاع، يجب أن يقوم التخطيط على مسلمة مدرجة كمبدأ عام لكل تشريع اجتماعي اقتصادي ألا وهو كل الأفواه تستحق قوتها، وكلّ السواعد يجب عليها العمل، فكل وطن متخلف يستطيع دفع عجلته على هذا الأساس الدستوريّ الذي يتكفل سائر الحقوق، ويفرض جميع الواجبات، ويحقّق بذلك الحركة الاجتماعية، التي تنقلب على كلّ نوع من الرّكود، فمن أجل تحقيق الاقلاع هذا هو الطريق^{3 4} فالتقدم الاقتصادي لا يتحقّق إلاّ بتنشيط المجتمع وإدراكه لدوره في إقامة التوازن بين الانتاج والاستهلاك في ظلّ الاحساس بمسؤولية كلّ فرد.

وفيّ موضوعه "نشترى أم نصنع" يقول: ولسنا نفرض هنا بذكر هذين المثالين "الاتحاد السوفياتي" و"الصين" اختيارا ايدولوجيا معيّنا، فالاقتصاد له قوانينه الذاتيّة - كما ذكرنا ونكرّر. وعلى ضوء ذلك لا يمكن القول بأنّ ثمة ظاهرة يابانية من ناحية، وظاهرة صينية من ناحية أخرى؛ وإنّما هنالك ظاهرة اقتصادية واحدة تحقّقت طبقا لشروط ذاتيّة فيّ بلدين تختلف ايدولوجيتهما اختلافا مطلقا.^{4 4}

وإرادة الفرد تنبع دائما من الإطار العام للمجتمع، الذي هو جزء منه، وكلّما كان المجتمع متماسكا وللافكار فيه دور وظيفي، انتظمت إرادة الفرد في أطرافها وتنافست الجهود في مسيرتها المتناغمة، وهكذا فإنّ المجتمع وقدرته تضيفان صفة الموضوعيّة على وظيفة الحضارة^{5 4} فالفرد لا دور له الا في الجماعة.

والإنسان حينما ينظم شبكة علاقاته الاجتماعية بوحى الفكرة في انبثاقها فإنه يتحرك في مسيرته عبر الأشخاص والأشياء المحيطة به، فيتخذ العالم الثقافي إطاره في إنجاز هذه المسيرة، ويأخذ طابعه تبعاً للعلاقة بين العناصر الثلاثة المتحركة، الأشياء والأشخاص والأفكار^{4 6} وهذه العناصر الثلاثة تشكل المجتمع بكل تعقيداته فلو اعتزل الإنسان الجماعة انتابه شعور بالفراغ الكوني لكن طريقته في ملء هذا الفراغ هي التي تحدّد طراز ثقافته وحضارته.^{4 7}

ونحن في بناء الفرد كما يقول "مالك بن نبي" ينبغي أن نلاحظ أمراً لعله من تحصيل الحاصل، فإن الإنسان لا يتغير بوصفه كائناً حياً في حدود التاريخ وإنما يتغير بوصفه كائناً اجتماعياً تغيره الظروف، فإن التاريخ يعجز عن أن يغير شعرة واحدة في الإنسان، ولكنّه يستطيع أن يزيد أو ينقص من ميزاته الاجتماعية وفعاليتيه من ناحية المنطق العملي... وينبغي أن ينظر إلى المشاكل الاجتماعية من زاوية الفعالية، وليس معنى هذا أننا نفضل في الإنسان جوانبه الأخرى بدعوى أنه قبل كل شيء آلة إنتاج وجهاز إنتاج، فإن معنى كلمة فعالية تجنح إلى التضييق من معنى إنسانية الإنسان إلى حد ما، ويجعله آلة على حين أنه مكرم عند المسلمين فالقرآن الكريم يعليّ من شأن الإنسان في قوله تعالى: "ولقد كرّمنا بني آدم..." الإسراء الآية 70^{4 8} والإسلام يمنح الإنسان قيمة تفوق كلّ قيمة سياسية أو اجتماعية، وهذا التكريم يكون أكثر من الحقوق أو الضمانات، الشرط الأساسي للتعبير اللازم في نفس الفرد طبقاً للشعور الديمقراطي، سواء بالنسبة للأنام بالنسبة للآخرين... فنظرة النموذج الإسلامي إلى الإنسان هي نظرة إلى التكريم، الذي وضعه الله فيه...، والتقويم الإسلامي يضيف على الإنسان شيئاً من القداسة، ترفع قيمته فوق كلّ قيمة تعطى لها النماذج المدنية.^{4 9}

ويشترط مالك بن نبي تحديد رسالة المسلم في العالم بفهامه ان رسالته لا تنتهي عند اقامة الشعائر الدينية والاكتفاء بتطهير النفس وتركيتها؛ لأن ذلك يتعارض مع مفهوم النصوص الاسلامية الصريحة والمنهج الاسلامي العملي مثل قوله تعالى محمداً دور الامة المسلمة" وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" البقرة 143 وقوله تعالى في سورة ال عمران "ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون" فالاسلام منهج حياة جاء ليحكم وينظم ويوجه الحياة البشرية عن طريق المسلمين الذين تتعدى مهمتهم انقاذ انفسهم بل انقاذ الإنسانية جمعاء فالاسلام يجب عليه ان ينتصر للقيم الإنسانية النبيلة ويثبتها في الارض فهو لا يعيش لنفسه فقط بل يرسل إشعاعه للإنسانية ما امكنه ذلك

فإشعاع الروح الديمقراطية الذي بثه الاسلام، ينتهي أيضاً في العالم الاسلامي عندما يفقد أساسه في نفسية الفرد؛ أي عندما يفقد الفرد شعوره بقيمته وقيمة الآخرين، ويجب أن نلاحظ أن الحضارة الاسلامية انتهت منذ الحين الذي فقدت في أساسها قيمة الإنسان.⁵⁰ فالاسلام أرسل رحمة للناس جميعاً والإنسانية مسؤولية كل مسلم فلقد قال عليه الصلاة والسلام "...وكا يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة"⁵¹

ويحرص دائماً "مالك بن نبي" على الاهتمام بالإنسان، ويرى أن أي محاولة للتغيير لا تنجح إلا بقدر ما تضع في ضمير المسلم تقويماً جديداً للإنسان؛ أي بقدر ما تضع في ضميره قيمته، وقيمة الآخرين، حتى لا يقع في هاوية العبودية أو هاوية الاستعباد،⁵² ولكي يقيم المسلم التوازن بين طرفي هذه المعادلة عليه أن يعي نفسه ويعي الآخر ويحدد العلاقة بينه وبين الآخر ويضيف أن كل تفكير في

مشكلة الإنسان بالنسبة إلى حظه في الحياة هو في أساسه تفكير في مشكلة الحضارة^{3 5} والحضارة لا تقام الا بالقدرة على هذا الوعي بالإنسانية.

فالإنسان عنده يمثل معادلتين: معادلة تمثل جوهره إنسانا صنعه من أقتن كل شيء، ومعادلة ثانية تمثله كائنا اجتماعيا يصنع المجتمع، ومن الواضح أن هذه المعادلة الأخيرة هي التي تحدد فعالية الإنسان، إنسان في جميع أطوار التاريخ لا يتغير فيه شيء، بل تتغير فعاليته من طور إلى طور، وهذا يعني أن شخصيته ليست بالبسيطة، وإنما هي مركبة تشتمل على عنصر ثابت يحدد كيانه إنسانا وعلى عنصر متغير يحدد قيمته كائنا اجتماعيا، وهذا يجعلنا نصوغ مشكلته صياغة جديدة، ونتساءل ما هي الظروف التي تجعل المجتمع يخلق في الإنسان القيمة التي تبعث فيه الفعالية؟^{4 5} هذه الفعالية اذا تغيرت تغير الإنسان.

لقد جاء الدين الاسلامي، ليحرك وعي هذا الإنسان بمخاطبة العقل المتدبر الذي يربط النتائج بالمقدمات... وهو المشهد الذي وقف عنده "مالك بن نبي" طويلا على اعتبار أن مشكلة المشكلات هي الإنسان، والإنطلاقة لا تكون إلا من هذا المحور، الذي يفرض تحريره من كل القيود، وتهيئة الفضاء المناسب المحفز لكل قدراته، والمجسد لخبراته، كنتاج لما يحمله من أفكار وابتكارات وتجارب تصب كلها في أتون المشروع الشامل الذي يتجاوب معه هذا الإنسان^{5 5} فالاسلام خاطب العقل قبل العاطفة واقنع الإنسان بمسؤوليته في الحفاظ على الإنسانية. وإذا كان منهج الرسالة يقتضي التغيير، والتغيير يقتضي تغيير ما في النفوس أولا ... عندها يجب على المسلم أن يحقق بمفرده شروطا ثلاثة هي:

1. أن يعرف نفسه

2. أن يعرف الآخرين وأن لا يتعالى عليهم

3. أن يعرف الآخرين بنفسه ولكن بالصورة المحببة^{6 5}

ومن غير هذه الشروط الثلاثة المتفاعلة تتعذر الحياة وبناء الحضارة.

وقد حرص "مالك بن نبي" على أن لا يجهل المسلم نفسه، ويعرف الآخرين فقال: "يجب على المسلم أن يعرف نفسه من دون مغالطة، وأن يعرف نفوس الآخرين من دون كبرياء وتعال، وبكل أخوة وصدق وإخلاص، أن يحبهم لوجه الله حتى يصل إليهم عن طريق وعلى جسر هذه المحبة.⁵⁷ فالاسلام يدعو المسلم الى الانفتاح على المجتمع وعلى العالم للتعريف بالانا ومعرفة الاخر.

ويؤكد أن النزعة الاجتماعية ذات الابعاد المبنية على القيم والمثل العليا خليفة يتفرد بها المجتمع الاسلامي المتكامل... والعبرة بالسعي إلى التواصل مع الآخر والعمل على تحسيسه بوجوده، وأهميته، وضرورة أن يصل كل طرف للآخر ويكمل له، فالأهداف المعبر عنها واحدة، والرّهانات تكتسب بتوحيد القوى والجهود.⁵⁸

ولا يتحقق ذلك الا بتربية اجتماعية تحدّد مسئولية الإنسان المسلم وتعمق احساسه بالإنسانية، وتكون وسيلة فعالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى، التي تغيّر شرائط الوجود نحو الأحسن دائماً، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات، التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ.⁵⁹

إنّ الدّين عامل مهم، وفاعل في بعث أي أسلوب أو نمط بناء عند مالك بن نبي هدفه الانتشار، والاكتمال، والفاعلية المجاوزة لراهن الأشياء، باعتباره مكوناً له وظيفة تحرير الفرد، الذي لا يزال بحاجة إلى إشباع ذاته، والفرد الذي لا يزال يحاول التّخلص من هذه التبعيّة؛ لأنّ الاقلاق لا يكون إلا بسدّ هذين المنفذين اللذين يميّزان التركيبة البيولوجية للإنسان، الذي يبقى دائماً بحاجة إلى التبشير بضرورة إقلاعه.⁶⁰

لقد أثبتت الرسالة المحمدية أن مشروعها هو الإنسان المسلم الحر بعيداً عن عقدة النقص أو التمييز التي طبعت مختلف الأجناس الأخرى؛ حيث غرست في شعوره المبادرة، وروح الإبداع انطلاقاً من تساوي الأفراد أمام الله، وعدم التفرقة

بينهم إلا بمقدار تقوى كل فرد، وكان الهدف الأساسي إثرها توليد عنصر التكافل والتفاعل، ثم النهوض، فإن الاسلام بنى فلسفته على دحض تهميش الفرد وإفراغه من دوره كطرف أساسي له حقوقه وكرامته وخاصيته التي ميّزته تميزاً عادلاً^{6 1} ويمكن القول ان الاسلام حقق انسانية الإنسان بافضل الصور، و"يعدّ الاسلام الجسر الذي يصل ما بين الأجناس والثقافات فهو عامل بلورة، وعنصر جوهري إذا ما أردنا اليوم تكوين مركب حضارة أسيوية وغدا تكوين حضارة عالمية".^{6 2} فالدين عند مالك بن نبي بغير الفاعلية يعجز عن ان يحقق وظائفه وهذه الفاعلية لا تتحقق الا من خلال المجتمع الاسلامي فيما بينه وبين غيره، فلا يكمن دور المسلم في الدعوة فقط، بل دوره في الدعوة والتبليغ، ودوره في نشر الحضارة والمثل، وبمعنى آخر أن الإنسان المسلم هو ذلك المبشر بالحضارة المنشودة والداعي إليها عكس ما يعتقد الصوفيّة الذين حصروه في ملاءة العبادة^{6 3}، والفلسفة التي يقوم عليها الدين الاسلامي ذات أبعاد حضارية قبل كل شيء، فهي تؤسس لهذا الفعل داخل الإنسان ذاته، وتفعّله بما يزكي رغبته في الانبعاث، والتألق.^{6 4}

وقد كان السرّ الكامن وراء هذا التجسيد الفعلي للمسار الحضاري الصحيح في الحركة الايجابية التفاعلية، التي أوجدها الاسلام في مجموعة من الأفراد تختلف تركيباتهم البشرية من فرد إلى آخر، ولكنهم على اتفاق في ضرورة إنتاج مسار علمي منشود محدد، وصارم وفق فلسفة التكافل الاجتماعي، والرغبة في بلوغ المرام مادام الجميع متساوين في المشهد المبدئي الأساسي، فالكل يعمل والكل ينتج، والكل يساهم؛ لأنّ المعركة مشتركة^{6 5}

ويؤكد "مالك بن نبي" ما جاء به القرآن الكريم من أحكام منها ما تعلق بفلسفة البناء الحضاري،^{6 6} فهو يؤمن بالحضارة على أنّها حماية للإنسان لأنّها تضع حاجزا بينه وبين الهمجية،^{6 7} وما دام الإنسان هو العنصر الهام في هذا البناء فنعتقد أنّ المشكلة بكاملها تكمن فيه، وفي روافده وتركيبته.^{6 8}

ولذلك كان يركز كثيرا على دور الاخلاق في بناء الحضارات، وعند حديثه عن العالم الذي أصبح فيه نوع جديد من التخصص يقول: إنه لا تخصص فيه الأفراد فحسب كما كان الأمر من قبل لاشباع حاجات الحياة المادية، ولكن تتخصص الكتل البشرية لتسد كل حاجة من الحاجات، التي تتضمنها حياة الإنسان الايديولوجية، وتحقق لها في المجتمع العالمي مكانا⁶⁹

ويلح على العمل من أجل الإنسانية، بحيث يجب أن يكون في نشاطنا شيء تعترف به الإنسانية بوصفه حاجة من حاجاتها، شيء يضمن لها مركزا كريما في المجتمع العالمي⁷⁰ وهذا الوضع يحتم علينا ان نبلغ مستوى من الحضارة تعترف لنا الإنسانية به وتسعى جاهدة للوصول اليه.

وفي مقالته "رسالتنا إلى العالم" يرى أن حاجة الإنسانية لا تتمثل في الديمقراطية وحدها، التي فيما يبدو قد استأثر بها الغرب، ولا الاشتراكية وحدها التي فيما يبدو قد تخصصت بها البلاد الشيوعية، ولا السلم وحده الذي قد رفعت رايته الهند فهناك كما يقول: في نظري مجال نستطيع فيه أن نسجل بلون خاص وجودنا على الخريطة الايديولوجية، إن الإنسانية في حاجة عامة إلى صوت يناديها إلى الخير، وإلى الكف عن جميع الشرور، وأنها بحاجة أكثر إلحاحا من سواها؛ لأن الإنسان تواق إلى الخير بفطرته، وإنما تحرمه منه معوقات مختلفة تكونها الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أحيانا غير أنه حينما تؤثر هذه المعوقات في سلوكه فتجعله يكذب أو يسرق أو يظلم⁷¹ فالإنسان يتأثر بمحيطه سلبا او ايجابا ويدعو "مالك بن نبي" في أكثر من مجال الإنسان إلى العمل الصبور المنهجي الدؤوب المتواضع، الذي يقبل بانجازات صغيرة هي لبنات الحضارة المنشودة، ولا يتبع مبدأ كل شيء أو لا شيء، وانطلاقا من هذا العمل، ومن قيام كل فرد في المجتمع بواجبه نحصل على حقوقنا الكبرى في العالم⁷² غير ان هذا المطلب لم يتحقق؛ لان الإنسان لم يقم بواجباته اتجاه ما يعترضه من صعوبات ولهذا لم يحصل على حقوقه الكبرى.

نستنتج:

أنّ القارئ العادي لفكر مالك يعده مجرد باحث اجتماعي، أو باحث في فلسفة التاريخ الاسلامي أو مصلحا غير أن الكثير من نظرياته الاجتماعية والتاريخية صالحة لأن تقال في ثقافة أخرى مهما كان انتماؤها ، وهنا يكمن الفرق بين الوجهة التي اتخذها "مالك بن نبي" كمفكر منفتح على الأفكار الأخرى، وبين الفئة الأخرى التي حددت أبعادها قبل أن تجد البديل فلم ينطلق من أفكار ضيقة كما يفعل بعض المصلحين وانما انفتح بفكره على الإنسان في الحضارات الأخرى.

وقد عده بعضهم فعلا نقطة تحوّل . بعدما اعتبره الكثير ردّة . حرّك من جديد دواليب اختراق الآخر، ومعرفة مرجعياته، وخلفياته وحتى محاولات التشيؤ فيه، ونمطياته. لاغناء فكره والانطلاق من قاعدة عامة لفكره هدفها خدمة الإنسان وهذا الاتجاه في الفكر عنده سماه بعضهم المعيار البنّابي نسبة الى بن نبي الذي جعل البعد الإنساني الشامل هدفا من أهداف الحضارة الواعية ذات الروافد المعرفية والدينية ؛ لأنّ التأثير والتأثر عنده عنصر وارد ومحفز أيضا إذا ما تمّ أخذه بعين الاعتبار غير انه رغم ما قدمه من اجتهادات في فكر انساني لم يجد ارضا خصبة ينمو فيها، ولذلك لم يحظ بما حظي به غيره لا في المشرق العربي ولا في الجزائر وطنه.

وهو القائل: "إنّ الإنسانية قد دخلت عهدا جديدا منذ الحرب العالمية الثانية وأصبح لزاما على كل شعب أن يقدم ما يملك من إمكانيات حتى يعلم حظه بين الشعوب.⁷³ فمالك بن نبي حريص ان يرقى الإنسان في سلم الحضارة إلى أعلى درجة ليشد الشعوب اليه ويستقطبها.

الهوامش:

* مالك بن نبي مفكر جزائري من مواليد مدينة قسنطينة عام 1905م، نشأ في أسرة ميسورة، من أم خياطة، وأب موظف، تعلّم في الكتاب حتى السنة الرابعة من عمره، ثم عند بلوغ السنة التاسعة انتسب إلى إحدى المدارس الفرنسيّة، وبعدما أتم دراسته الإعداديّة انتقل إلى مدينة تبسة؛ لإنهاء المرحلة الثانويّة، وبعدها ثمّ حصوله على منحة دراسيّة إلى قسنطينة، وبها درس اللغة الفرنسيّة والعربيّة معا إلى غاية 1922، وفي عام 1925 انتقل إلى فرنسا بحثا عن العمل، ولكن لم يتسن له ذلك فعاد إلى الجزائر؛ ليحصل على منصب كاتب محكمة آفلو، لكنّه لظروف خاصّة يستقيل من المنصب، ويعود إلى باريس عام 1929 ليكمل دراسته، فالتحق بمعهد الدّراسات الشّرقية، ثم مدرسة اللاسلكي فرع هندسة الكهرباء، وفي عام 1931 جمعت له المقادير بزواجه الفرنسيّة التي أصبح اسمها خديجة واشتغل بأمور الفكر من سنة 1956 إلى غاية 1963، حيث عُيّن مديرا للتعليم العالي إلى غاية 1967، تويّ عام 1973 م خلفا تراثا ضخما منه: تأملات، مشكلة الثقافة، مذكرات شاهد القرن، ميلاد مجتمع... الخ وأكثر أعماله كتبت باللغة الفرنسيّة ثم ترجمت إلى اللغة العربيّة. للاستزادة ينظر مالك بن نبيّ مذكرات شاهد على القرن، دار الفكر، دمشق، ط2، 1984

¹ - ينظر بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، منشورات المجلس الأعلى للغة

العربيّة، الجزائر 2005، ص101

² - ينظر المرجع نفسه، ص12

³ - مالك بن نبيّ، شروط النّهضة، تر عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط2 1969، ص169

⁴ - مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر عمر مسقاوي، دار الفكر، دمشق 1979 ص99

⁵ - للاستزادة ينظر مالك بن نبيّ مذكرات شاهد القرن تر مروان فنواويّ دار الفكر 1969

⁶ - مسقاوي (عمر كامل)، العالميّة ورسالة الحضارة والثقافة في فكر مالك بن نبيّ ما بين 1955-1963، دار الفكر، 2005، ص174

⁷ - المرجع نفسه، ص14

⁸ - بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص111

⁹ - المرجع نفسه، ص107

¹⁰ - مالك بن نبيّ، افاق جزائريّة، ترج طيب شريف، مكتبة النّهضة الجزائريّة (د. ت.)، ص68

¹¹ - مالك بن نبي، شروط النّهضة، مرجع سابق، ص78

12. ينظر مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، تر عمر مسقاوي، دار الفكر دمشق 1979، ص 105
13. مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 76
14. ينظر، مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 116
15. المرجع نفسه، 27
16. ينظر المرجع نفسه، ص 114
17. المرجع نفسه، ص 101
18. المرجع نفسه، ص 12
19. المرجع نفسه، ص 15
20. المرجع نفسه، ص 15
21. ينظر المرجع نفسه، ص 16
22. بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص 46
23. ينظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر عبد الصابور شاهين، دار الفكر 1979، ص 56
24. بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص 16
25. ينظر المرجع نفسه، ص 80
26. المرجع نفسه، ص 78
27. المرجع نفسه، ص 54
28. المرجع نفسه، ص 71
29. المرجع نفسه، ص 16
30. المرجع نفسه، ص 72
31. مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، ص 114
32. مالك بن نبي، فكرة الافريقيّة الاسيويّة (في ضوء مؤتمر باندونغ)، تر عبد الصبور شاهين، دار العروبة (د.ت)، ص 115
33. المرجع نفسه، ص 78
34. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 16
35. ينظر بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص 96
36. مالك بن نبي، فكرة الافريقيّة الاسيويّة، مرجع سابق، ص 115
37. ينظر مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 159

38. ينظر بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص 97
39. مالك بن نبي بين الرشاد والتهيه، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق 1986، ص 22
40. المرجع نفسه، ص 106
41. مالك بن نبي بين الرشاد والتهيه، مرجع سابق، ص 139
42. المرجع نفسه، ص 140
43. المرجع نفسه، ص 154
44. المرجع نفسه، ص 170
45. المرجع نفسه، ص 9
46. المرجع نفسه، ص 10
47. المرجع نفسه، ص 17
48. مالك بن نبي، تأملات، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، ط 5، 1991 ص 26. 27
49. المرجع نفسه، ص 77
50. المرجع نفسه، ص 94
51. محمود الالوسي (شهاب الدين)، فتح الباري، دار احياء التراث، (د ت ج 2)، ص 16
52. المرجع نفسه، ص 94
53. المرجع نفسه، ص 118
54. ينظر المرجع نفسه، ص 135
55. ينظر بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص 103
56. مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته، دار الفكر، دمشق، 1978، ص 59
57. المرجع نفسه، ص 38
58. ينظر بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص 105
59. مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص 93
60. بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص 50
61. المرجع نفسه، ص 54
62. مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، دار الفكر، 1979، ص 22
63. اسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا، دار النفائس، 1986 ص 104
64. بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص 60

- ⁶⁵. المرجع نفسه، ص52
- ⁶⁶. بشير ضيف الله، فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي، مرجع سابق ص64
- ⁶⁷. ينظر المرجع نفسه، ص89
- ⁶⁸. المرجع نفسه، ص71
- ⁶⁹. مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص214
- ⁷⁰. المرجع نفسه، ص215
- ⁷¹. المرجع نفسه، ص215
- ⁷². ينظر محمد شاويش، مالك بن نبي وشروط النهضة، التبيين العدد19 الجاحظية، ص109
- ⁷³. مالك بن نبي، تأملات، مرجع سابق، ص205

الصريح والمستلزم عند الأحناف مقاربة تداولية

أ. جدي الطيب¹

إشراف أ.د: محمد السعيد بن سعد

تاريخ الاستلام : 2019-01-29 تاريخ القبول: 2019-04-03

الملخص: يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الرّس التّداولي الحديث في مؤلفات الأصوليين من خلال تتبع تقسيمهم لدلالة الألفاظ، وخصصنا منهم الأحناف، لأنّ منهجهم يخالف منهج الجمهور من حيث التّقسيم.

الكلمات المفتاحية: الصّريح ؛ المستلزم ؛ الأحناف ؛ تداولية.

Abstract: The aim of the present paper is to uncover the modern deliberative lesson in the writings of El Fiqh scholars by tracking their division of the meaning of words. We have chosen to deal with writings of EL Ahnaf because their approach differs from the approach of the public in terms of division.

إنّ المتصفح لمؤلفات الأصوليين يجد أنّهم قسموا دلالة الألفاظ على الأحكام إلى عدة أقسام، ليقفوا على مقاصدها ويستنبطوا منها الأحكام الشرعية فانقسموا إلى فريقين ولكل منهما تقسيم خاص، وهما الأحناف والجمهور وسنخصص دراستنا هذه لعرض ما توصل إليه الأحناف.

¹ جامعة غرداية، الجزائر، البريد الإلكتروني: Taiebdjedi2017@yahoo.com

قسم أصوليو الحنفية دلالة الألفاظ إلى أربعة أقسام هي: دلالة العبارة، ودلالة الإشارة، ودلالة النص، ودلالة الاقتضاء. ووجه الضبط في هذه الطرق الأربع: أن دلالة النصوص على الأحكام، إما أن تكون ثابتة بنفس اللفظ أولاً، واللاللة التي تثبت باللفظ نفسه: إما أن تكون مقصودة، فهي عبارة النص، وإن كانت غير مقصودة فهي إشارة النص.

واللاللة التي لا تثبت باللفظ نفسه: إما أن تكون مفهومة من اللفظ لغة: وهي دلالة النص، أو تكون مفهومة منه شرعاً وهي: دلالة الاقتضاء¹.

هذا التقسيم مقبول نوعاً ما، لكن المدقق فيه يجد أنه متداخل الأقسام، ليس كلياً وإنما بين القسم والآخر هناك خيط رفيع لا يمكن ملاحظته إلا بكثير من التأمل وكان محل خلاف وسط الأصوليين لأن هناك من يرى أن الثابت بنفس اللفظ سواء كان مقصوداً أم غير مقصود هو عبارة النص وهم الجمهور. وهناك من يرى أن عبارة النص تتضمن المقصود فقط².

وفي هذا المقام يمكن التطرق إلى هذه الأقسام بشيء من التفصيل والتّمثيل:

1_ **عبارة النص:** هي دلالة اللفظ على مقصود متناول بظاهر الكلام الذي سيق له دونما حاجة لتأمل أو تأويل. فقد عرفها البخاري (ت 730هـ) بأنها: «العمل بظاهر ما سيق الكلام له»³. أي استنباط الأحكام بظاهر النظم، لأن الكلام مطابق لمعناه الموضوع له في اللغة.

وقال السرخسي (ت 490هـ) في نفس الصدد: «فأما الثابت بالعبارة فهو ما كان السياق لأجله، ويعلم قبل التأمل أن ظاهر النص متناول له»⁴.

وقال عبد الوهاب خلاف عنها: «صيغته المكوّنة من مفرداته وجمله»⁵. والمراد بما يفهم من عبارة النص؛ المعنى الذي يتبادر فهمه في صيغته، ويكون المقصود من سياقه، فمتى كان المعنى ظاهراً فهم في صيغة النص، والكلام مسوق لأجله وهو المعنى الحريفي.

فدلالة العبارة هي المعنى المنظور إليه على أنه المعنى المقصود الأساس الذي يريد المتكلم إبلاغه بكلامه «ولكي نكون أكثر حرفية هو المسوق له الكلام»⁶.
إنّ دلالة عبارة النص لا تخرج عن المعنى المطابق، وهو فهم كمال المسمى حيث إذا أطلق اللفظ دل دلالة حقيقية لا دلالة إضافية، وهذه اللالة الحقيقية يحكمها الوضع اللغوي. فعبارة النص هي ما سيق الكلام لأجله سواء أكان السوق له أصالة أم تبعاً، وكان مقصوداً للمتكلم، ودل بنفسه على معناه. ومن الأمثلة التي سيقّت لعبارة النص نذكر:

__ قوله تعالى: (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) (البقرة/ جزء من الآية 275).

دلت هذه الآية على حكمين:

أ__ حل البيع وحرمة الربا.

ب__ نفي المماثلة بين البيع والربا.

فالحكم الأول مقصود تبعاً للحكم الثاني المقصود أصالة، لأن الآية سيقّت للرد على الذين سواوا بين البيع والربا في قوله تعالى على لسانهم: (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) (البقرة/ جزء من الآية 275)⁷.

وقال تعالى: (وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾) (النساء/3). تضمنت هذه الآية أربعة أحكام هي:

- 1- إباحة النكاح.
- 2- إباحة التعدد.
- 3- تقييد عدد الزوجات بأربع.
- 4- وجوب الاكتفاء بواحدة عند خوف الجور.

فالأحكام الثلاثة الأولى مقصودة تبعاً، أما الحكم الأخير فمقصود أصالة. هذا وأكثر نصوص التشريع في القرآن والسنة تدل على الأحكام بطريق عبارة النص⁸ لأن أغلبها يكون مفيداً « للحكم قطعاً إذا تجردت عن العوارض الخارجية عن النص، فإن كانت من قبيل العام الذي دخله التخصيص كانت اللالة ظنيّة لا قطعيّة »⁹.

تعتبر دلالة العبارة من خلال مفهومها العام من قبيل اللالة اللفظيّة وبالتحديد اللالة اللفظيّة الوضعيّة، أو دلالة المطابقة، و« تعني دلالة اللفظ على معناه الموضع له في اللغة »¹⁰، بحيث « متى أطلق أو تخيل فهم منه معناه للعلم بوضعه »¹¹.

لقد أكد سيرل من جهته على مسألة المطابقة، وجعلها خاصة فقط بالأفعال الكلاميّة المباشرة المنطوقة؛ حيث تشتمل هذه الأخيرة على مطابقة تامة بين الصيغة اللسانية ومعناها¹²

2_ إشارة النص: هي دلالة الكلام على معنى غير مقصود أصالة ولا تبعاً ولكنه « لازم للمعنى الذي سيق الكلام لإفادته »¹³. فالتأب بالإشارة « ما لم يكن السياق لأجله لكنه يعلم بالتأمل في معنى اللفظ من غير زيادة فيه ولا نقصان »¹⁴.

إشارة النص هي « دلالتّه على ما لم يقصد له اللفظ أصلاً، وهذا المعنى يتفاوت الناس في فهمه لأنه يحتاج إلى تأمل، وقد تكون ظاهرة إن كفاها قليل من التأمل وتكون غامضة إن احتاجت إلى دقة تأمل »¹⁵. وهي: « ما ثبت بنظمه لغة، لكنه غير موجود ولا سيق له النص »¹⁶.

فالمعنى المستفاد من دلالة الإشارة هو معنى لزومي يأتي متأخراً عن المعنى المطابق إذا يفهم المعنى الأصلي أولاً ثم اللازم تاليه وردفه. وحسب تعريف سابق فإن إشارة النص قسمان:

أ_ إشارة ظاهرة: وهي التي فيها غموض يزول بأدنى تأمل.

ب_ إشارة غامضة: وهي التي تحتاج إلى زيادة فكر وتأمل.

وعليه يكون هذا التقسيم بحسب العمليّة التأويليّة ودرجة تفاوتها، فيكون التدرج من المقصود الظاهر إلى الغامض؛ أي من الظاهر قليل التأمل إلى الغامض الأكثر تأملاً لبلوغه.

ولكي يعد المعنى من قبيل إشارة النص حدد الدكتور محمد يونس علي أربع خصائص وإن كانت غير كافية حسبه وهي:

1- ينبغي أن يكون مفترضا، وليس مسوقا له.

2- ينبغي أن يكون من نظم الكلام لغة.

3- ينبغي أن يكون محتاجا إلى تأمل.

4- ينبغي ألا يكون متبادرا.¹⁷

ولنضرب في هذا المقام بعض الأمثلة عن مفهوم إشارة النص:

_ قال تعالى: (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) (البقرة/ 233).

فبالإشارة يفهم أن النسب يكون للأب مختصا له لا للأم لأن اللام للاختصاص¹⁸.

_ ومن أمثلتها أيضا قوله تعالى: (وَفَصَّلُهُ فِي عَامَيْنِ) (لقمان/ جزء من الآية

14) في هذا النص إشارة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، «وكان ابن عباس أول من

فهم ذلك»¹⁹. وهذا المثال يدخل كما ذكرنا في قسم الإشارة الغامضة، التي لا تدرك إلا بعد التأمل.

_ قال تعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ) (البقرة/ جزء من

الآية 186).

فهي مسوقة لحل الوقوع في ليالي رمضان، وأشارت إلى «جواز الإصباح جنباً لأنها تدل على الجواز في آخر لحظة من الليل، وذلك يستلزم أن يطلع الفجر عليه جنباً لأنه لا وقت يمكن أن يغتسل فيه ثم هو مكلف أن يصوم من أول النَّهار فيجتمع له وصفا الجنائية والصَّوم، وهذا يستلزم عدم تنافيهما»²⁰.

ومن ذلك نخلص إلى أن دلالة الإشارة هي «عبارة عن استلزام القول لمعنى تابع للمعنى العباري من غير توسط دليل ولا توقف فائدة القول عليه»²¹، فهي التَّزامية «وإن كان اللزوم في بعض الأحيان خفياً. فيكون بذلك إذا صح التَّلازم بين معنى العبارة وإشارتها أنه يصح الاحتجاج بها، وإذا لم يصح التَّلازم لم تكن معتبرة بحال لأن العبارة قد تحمل عدداً من الإشارات»²².

وإذا كان الاقتضاء عند جرایس هو المعنى اللزومي لأفعال الكلام غير المباشرة فإن إشارة النَّص تمثل له مقابلاً عند الأصوليين ولكنه عند جرایس مقصود بينما إشارة النَّص غير مقصودة وهذا لا يعد اختلافاً بينهما بل هو تجاوز للمفهوم الموافق نتيجة الاجتهاد الأصولي وهو ما لم يطرقه التَّداوليون.

3_ دلالة النَّص: «هي دلالة اللفظ على ثبوت حكم المنطوق به للمسكوت عنه لاشتراكهما في معنى يدرك كل عارف باللغة أنه مناط الحكم من غير حاجة إلى نظر واجتهاد»²³.

وتعني دلالة النَّص: «فهم غير المنطوق من المنطوق بسياق الكلام ومقصوده وقيل هي الجمع بين المنصوص وغير المنصوص بالمعنى اللغوي»²⁴.

وهي: «دلالتُه على ثبوت حكم ما ذكرنا سكت عنه لفهم المناط بمجرد فهم اللغة، وذلك ما يسمى باصطلاح آخر بالقياس الجلي، وسواء أن يكون ما سكت عنه أولى بالحكم مما ذكر أم مساوياً له»²⁵.

فدلالة النَّص هي: «ما ثبت بمعنى النَّص لغة لا استنباطاً بالرأي»²⁶.

ودلالة النصّ يسميها طه عبد الرحمن بدلالة اللّالة ويعرفها بقوله: « دلالة اللّالة هي استلزام القول بمعنى تابع للمعنى العباري مع توسط دليل مشترك تكفي في إدراكه معرفة قواعد التّخاطب ومن غير توقف فائدة القول على هذا المعنى »²⁷. فهو يقصد من خلال مصطلح قواعد التّخاطب معرفة اللغة عند الأصوليين.

إن معنى "دلالة النص" هو إلحاق المسكوت عنه بالثّابت بالنّظم أو المنطوق عن طريق فهمه لغة، ومعرفة المقصود من غير اجتهاد ولا استنباط.

تنقسم دلالة النصّ إلى نوعين هما: القطعيّة والظنيّة، فالقطعيّة تكون في كون المعنى المقصود قطعاً كما في تحريم التّأفيف، أما الظنيّة فهي عندما يدخل الاحتمال في المقصود وهو أم غيره كما في إيجاب الكفارة على المفطر بالأكل والشرب²⁸.

ومن أمثلة اللّالة القطعيّة قوله تعالى: (فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٍّ) (الإسراء/جزء من الآية 23). الال على تحريم التّأفيف فمعلوم قطعاً أنه تحريم الإيذاء عموماً وهذا المعنى غير محتمل لمعنى آخر.

أما اللّالة الظنيّة فمثالها: إذ جاء رجل فقال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ. قَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ قَالَ: لَا. فَقَالَ: فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مَسْكِيناً؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ. قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ؟ فَقَالَ: أَنَا. قَالَ: خُذْ هَذَا فَتَصَدَّقْ بِهِ)²⁹. وعليه تكون علة الكفارة محتملة لأن تكون الجماع أو غيره، وتبقى دلالة ظنيّة.

ومن أمثلة دلالة النَّص نذكر:

_ قوله تعالى: (فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿١٠﴾)

(الإسراء/ جزء من الآية 23).

فبصريح العبارة دلت الآية على تحريم التَّأْفَف، كما دلت عن طريق دلالة النَّص على تحريم الضرب والشتم والحبس ومنع الطعام، لأن هذه المعاملات تعني الأذى، وهي غير مذكورة، والتَّأْفَف أذى وهو مذكور والمسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به وعليه يلحق حكمه للمسكوت عنه³⁰.

_ وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ

نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾) (النساء/10).

حيث تدل الآية بعبارتها على النهي عن أكل أموال اليتامى ظلماً، وتدل بدلالة النَّص على النهي عن إتلاف أموال اليتامى بأي شكل من أشكال الإتلاف وأكل هذا المال ظلماً يساوي إتلافه، لأن كليهما يؤدي إلى ضياع المال على اليتيم.

_ وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ

إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾) (آل عمران/75).

فقد دلت الآية بدلالة النَّص على أنه ليس جميع أهل الكتاب على صعيد واحد في الأمانة والخيانة، فمنهم من يؤدي ومنهم من يخون.

إن ما صنفه الأصوليون تحت مسمى دلالة النَّص (دلالة الإيماء والتنبية)

نجد له مقابلاً في الرِّس السَّاني الحديث تحديداً عند جرایس ويصطلح عليه (المفهوم الوضعي)³¹ ويقصد ما دل عليه المنطوق بصيغته أو ظاهر لفظه، ولا يرتبط بمراجعها الخارجي.

4 دلالة الاقتضاء: هي: « دلالة اللفظ على مسكوت عنه يتوقف صدق الكلام عليه »³² وهي: « عبارة عن زيادة على المنصوص عليه يشترط تقديمه ليصير المنظوم مفيداً أو موجبا للحكم وبدونه لا يمكن إعمال المنظوم »³³. كما يعرفها البخاري (730هـ) بأنها: « ما ثبت زيادة على النص لتصحيحه شرعا، وقيل هو: ما أضر في الكلام ضرورة صدق المتكلم ونحوه وقيل هو: الذي لا يدل عليه اللفظ ولا يكون منطوقا، لكن يكون من ضرورة اللفظ »³⁴.

فدلالة الاقتضاء: « هي استلزام القول لمعنى تابع للمعنى العباري من غير توسط دليل ومع توقف فائدة القول عليه »³⁵.

فعملية الاستلزام هي عملية عقلية تقوم على مبدأ التأويل على أساس ما قيل مع توقف الفائدة التي يقصدها على الصدق الواقعي والصحة الشرعية والعقلية. وبذلك يكون معنى الاقتضاء هو الاستلزام الحواري في الرّس التّداولي الحديث.

إن معنى دلالة الاقتضاء هو «المحتوى اللّالي المحذوف من الكلام، ولكن تقديره ضروري لكي يكون الكلام مفيداً »³⁶.

نستنتج أن عدم تقدير المحذوف الذي يتوقف عليه صدق المتكلم أو الصحة العقلية والشرعية، يؤدي إلى الخروج عن مبدأ الصدق الذي يعتبر أصلا من أصول التّخاطب³⁷. وعليه نجد الأصوليين قد ركزوا على تقديره لبلوغ المقاصد واستنباط الأحكام على أساسه. فدلالة الاقتضاء هي: « ما كان المدلول فيه مضمرا، إما لضرورة صدق المتكلم، وإما لصحة وقوع اللفظ به »³⁸.

ومن خلال التعاريف السّالفة الذكر نلمح أن المقتضى ثلاثة أنواع هي:

- 1- ما أضر ضرورة صدق المتكلم، كقوله ﷺ: (رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ)³⁹.

فإن الحديث دل بلفظه على رفع الخطأ والنسيان مع تحققهما وهذا ممتنع، فقد وقع الخطأ وانتهى فأنى له أن يرفع وكذلك النسيان، وهذا الكلام يقتضي تقديرًا مضمراً لصدقه، ألا وهو الإثم فيكون معناه: رفع إثم الخطأ والنسيان والإكراه. وهو مدلول الكلام بدلالة الاقتضاء⁴⁰.

2- ما أضمر لصحة الكلام عقلاً: وذلك كقوله تعالى: (وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾) (يوسف/82). فإنه لا بد من إضمار أهل القرية لصحة الملفوظ به عقلاً.

3- ما أضمر لصحة الكلام شرعاً: وذلك كقول القائل: (اعتق عبدك عني على ألف) فإن العتق موهون بالملك، وعليه يقتضي الكلام انتقال الملك ثم الإعتاق فهذا التقدير توقف العتق الشرعي عليه.⁴¹

وكذلك في الأمر بتحرير رقبة في قوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٥٣﴾) (المجادلة/03). « فهذا الأمر مقتض للملك، لأن تحرير الحر لا يتصور، وكذلك تحرير ملك الغير عن نفسه. فملك الرقبة ثابت بالنص اقتضاء. فصار التقدير (فتحرير رقبة مملوكة)»⁴².

يندرج مفهوم الاقتضاء عند التداوليين ضمن ما اصطلح عليه جرایس بالمعنى غير الطبيعي أو اللالة غير الطبيعية التي تحتاج إلى عملية التأويل لضبط مقصدية المتكلم ولا بد من مراعاة الآليات التداولية لتحقيق المقضى أو المعنى الخفي (إذ أن دراية قصد اللالة غير الطبيعية هو شرط لا بد منه لتحقيق القصد)⁴³، كما هو الحال بالنسبة لمعرفة المحذوف عند الأصوليين كالأهل والاثم والملك في الأمثلة السابقة.

وختاما نقول إن الأصوليين قسّموا دلالة الألفاظ إلى قسمين:

- 1- الّال بنفسه (بنظمه): وهو قسمان: ما كان المعنى فيه مقصودا من الثّابت بالنّظم أصالة أو تبعا. وكان مسوقا له الكلام. وهو "عبارة النّص وما لم يكن المعنى مقصودا من النّظم، ولا مسوقا له. وهو "إشارة النّص".
- 2- الّال بغيره: وهو قسمان أيضا: ما كان المعنى فيه مفهوما من النّظم لغة. وهو "دلالة النّص". وما كان المعنى فيه مفهوما من الكلام شرعا. وهو "اقتضاء النّص".

وفي معيار هذا التّقسيم ذاته نلمح بعض الآليات التّداوليّة، التي اشترك فيها الأصوليون والتّداوليون كالسّياق، والقصدية، وأطراف العمليّة التّخاطبيّة. ولم نتطرق إليها. إلا أن نقاط الاختلاف والتّشابه بينهما بدت جليّة من خلال ما سبق.

خاتمة:

- قسم الأحناف دلالة الألفاظ على الأحكام إلى أربعة أقسام وهي: دلالة العبارة دلالة الإشارة، ودلالة النّص، ودلالة الاقتضاء، بينما في الرّس التّداولي هناك أفعال كلاميّة مباشرة وغير مباشرة. لكنها عند الأصوليين أكثر دقة نتيجة الاستقرار التّام للخطاب الشرعي والإمام به من كل الجوانب.
- ركز التّداوليون على مسألة المطابقة بين الصّيغة اللسانية وما تدلّ عليه بينما تجاوز الأصوليون ذلك فالصيغة الواحدة تطابق معناها فذاك معنى أولي والمقصود معنى آخر حسب ما سبق الكلام له وذلك معنى آخر.
- بعد تقسيم دلالة الألفاظ توصل الأصوليون إلى ما يعرف بالاستلزام الحواري في الرّس التّداولي وهو إشارة النّص.
- تعدّ دلالة الإيماء والتّنبية من قبيل ما يسميه جرایس المفهوم الوضعي الذي يدل على المنطوق بصيغته أو ظاهر لفظه ولا يرتبط بمرجعه الخارجي.

• الاقتضاء في الرّس التّداولي يندرج ضمن المعنى غير الطبيعي عند جرایس الذي يحتاج إلى التّأويل لضبط مقصدية المتكلم بمراعاة الآليات التّداولية لبلوغ المقتضى.

• اعتمد الأصوليون (الأحناف) على السّياق ومقصدية الشارع كآلية من آليات التّداولية، في تقسيم اللّالة وهذا يتمظهر في قولهم (سيق له الكلام) و(مقصودا أصالة أو تبعا)، فعلمنا بذلك أن الأصولي لم يعزل هذه الأفعال الكلامية عن سياقاتها وذلك هو المحور الرّئيس في التّداولية.

الهوامش:

1. ينظر: (مصطفى سعيد الخن، 1982)، أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، ص 127، 128.
2. ينظر: (محمد محمد يونس علي، 2006) علم التّخاطب الإسلامي، دار المدار الإسلامي بيروت لبنان، ط1، ص 207.
3. (الإمام علاء الدين بن أحمد البخاري، دت)، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج1، ص68.
4. (أبو بكر بن أحمد السرخسي، 1993)، أصول السرخسي، تحقيق أبو الوفا الأفغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج1، ص236.
5. (عبد الوهاب خلاف، 1957)، علم أصول الفقه و خلاصة تاريخ التشريع، مكتبة العروة الإسلامية شباب الأزهر، مصر ص144.
6. محمد محمد يونس علي، .، مرجع سابق، ص206.
7. ينظر: مصطفى سعيد الخن، مرجع سابق، ص129.
8. ينظر: (وهبة الزحيلي، 1986)، أصول الفقه الإسلامي، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1 ج1، ص350.
9. المرجع نفسه، ص ن.
10. هادي نهر، مرجع سابق، ص242.
11. (الشريف الجرجاني، 1985)، (التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ص110.
12. (الجلالي دلاش)، مدخل إلى اللسانيات التّداولية لطلبة معاهد اللغة العربية وآدابها ص26
13. البخاري، مصدر سابق، ج1، ص68.
14. السرخسي، مصدر سابق، ج1، ص236.
15. (محمد الخضري، 1969)، أصول الفقه، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط6 ص120.
16. الشريف الجرجاني، مصدر سابق، ص16.
17. محمد محمد يونس علي، مرجع سابق، ص213.
18. ينظر، محمد الخضري، مرجع سابق، ص120.
19. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص351.
20. محمد الخضري، مرجع سابق، ص120.
21. (طه عبد الرحمن، 1998)، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي الآر البيضاء، المغرب، ط1، ص120.

22. محمد الخضير، مرجع سابق، ص121.
23. (محمد أديب صالح، 1993)، تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان المجلد 1، ط4، ص516.
24. البخاري، مصدر سابق، ج1، ص73.
25. محمد الخضير، مرجع سابق، ص121.
26. (جلال الدين عمر الخبازي، 2001)، المغني في أصول الفقه، تحقيق: محمد مظهر بقا دار إحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط2، ص154.
27. طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص125.
28. ينظر: البخاري، مصدر سابق، ج1، ص73.
29. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان ص466.
30. ينظر: وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص353.
31. (محمد محمد يونس علي، 2004)، مقدمة في علمي اللّالة والتّخاطب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1 ص47.
32. محمد الخضري، مرجع سابق، ص121.
33. السرخسي، مصدر سابق، ج1، ص236.
34. البخاري، مصدر سابق، ج1، ص75.
35. طه عبد الرحمن، مرجع سابق، ص108.
36. محمد محمد يونس علي، مرجع سابق، ص217.
37. ينظر: (محمد محمد يونس علي، 2004)، مقدمة في علمي اللّالة والتّخاطب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، ص58.
38. (الإمام علي بن محمد الأمدي، 2003)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، دار الصّميعة، الرياض، السعودية، ط1، ج3، ص81، 82.
39. أخرجه الشوكاني في نيل الأوطار، باب النّهي عن الكلام في الصّلاة، ج2 ص367.
40. ينظر: وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص356.
41. ينظر: الأمدي، مصدر سابق، ص82.
42. محمد أديب صالح، مرجع سابق، ج1، ص550.
43. عادل فاخوري، الاقتضاء في التّداول اللساني، ص145.

جهود الجغرافيين العرب في صناعة الأطالس اللسانية

عقيلة أرزقي¹

تاريخ الاستلام: 03-12-2018 تاريخ القبول: 08-01-2019

الملخص: أدى الانتشار الجغرافي الواسع للجماعات البشرية إلى ظهور تنوع لساني ملحوظ، رغم أن هذا اللسان ينتمي في حقيقته إلى أصل لغوي واحد وأمام هذا التعدد اللساني سواء أكان لغوياً أم لهجياً، بات من الضروري وضع حدود لسانية جغرافية تساعد على جمع المناطق التي تشترك في الظواهر اللغوية نفسها بيانا لتأثيرها على غيرها وتأثرها بها وتسهيلاً لدراساتها؛ وهو ما قام به علماء علم اللغة الاجتماعي؛ حيث أطلقوا على هذا النوع من الدراسة بـ: (اللسانيات الجغرافية)، وكان الهدف منه هو معرفة التغيرات الحاصلة في اللغة أو اللهجة وربطها ببيئتها الجغرافية؛ وقد ابتكرت عدة طرق لدراساتها، لعل أهمها وضع الأطالس اللغوية.

ولأهمية هذا الموضوع، جاءت هذه الأوراق البحثية الموسومة بـ: (جهود الجغرافيين العرب في صناعة الأطالس اللسانية) تهدف إلى إبراز الجهود التي قام بها الجغرافيون العرب قديماً لرسم ملامح الأطالس اللسانية، عن طريق تحديد مواقع تنوع اللغات واللهجات وتعايشها في منطقة جغرافية واحدة، بيانا لتأثير بعضها على بعض.

وتأسيساً على ما تقدم، انطلقت ورقتنا البحثية من التساؤل التالي: ما المقصود بالأطالس اللسانية؟ وما الجهود التي قام بها الجغرافيون العرب لوضع تلك الأطالس اللسانية؟ وهل كانت فكرة وضع الأطالس اللسانية فكرة بحث

جامعة البليدة - 2- ، علي لونيسي، العفرون ، البريد الإلكتروني: univer.blida@gmail.com

لسانيّ مقصود مبنيّ على أسس لغويّة بمنطلقات جغرافيّة أم جاءت عفويّة بفعل التّحديدات الجغرافيّة للمناطق؟، وما أهميّة هذه الأطالس اللسانية في دراسة اللّغات واللهجات؟

وللإجابة عن الإشكاليّة المطروحة سنّتبع المنهج التّاريخي لتتبّع نشأة الأطالس عند العرب والغرب كما سنّتبع المنهج الوصفيّ لتحليل تلك الظاهرة وإبراز أهميّتها ودورها في مجال دراسة اللّغات وعلاقتها ببعضها البعض وعلاقتها باللهجات.

المصطلحات: جهود، الجغرافيون، العرب، صناعة، الأطالس اللسانية.

Summary: The wide geographical spread of human groups led to the emergence of a noticeable linguistic diversity, although this tongue belongs in fact to a single linguistic origin. In the face of this multilingualism, whether linguistically or linguistically, it is necessary to establish geographical linguistic boundaries that help to collect regions that share linguistic phenomena. The same was done by social linguists; they called this type of study: (geographical linguistics), the purpose of which is to know the changes in the language or dialect and connect it to its environment. A number of methods have been devised to study them, most notably the development of linguistic atlases.

The importance of this subject is based on the efforts of Arab geographers in the linguistic atlases industry to highlight the efforts made by ancient Arab geographers to draw the features of the linguistic atlases by identifying the locations of the diversity of languages and dialects in one geographical area, Each other.

Based on the above, our research paper started from the following question: What is meant by Atalas linguistics ?, What are the efforts of the Arab geographers to put these linguistic atlases ?, Was the idea of the development of the linguistic atlas a linguistic research idea based on linguistic bases with geographical or spontaneous Due to geographical limitations of the regions? And what is the importance of these linguistic atlases in the study of languages and dialects?

We will follow the descriptive approach to analyze this phenomenon and highlight its importance and role in the field of study of languages and their relationship to each other, and its relationship dialects.

Keywords: efforts, geographers, Arabs, industry, linguistic atlases.

مقدمة: أدى الانتشار الجغرافي الواسع للجماعات البشرية إلى ظهور تنوع لسانی ملحوظ، رغم أن هذا اللسان ينتمي في حقيقته إلى أصل لغوي واحد وأمام هذا التعدد اللساني سواء أكان لغوياً أم لهجياً، بات من الضروري وضع حدود لسانیة جغرافية تساعد على جمع المناطق التي تشترك في الظواهر اللغوية نفسها بيانا لتأثيرها على غيرها وتأثرها بها وتسهيلاً لدراساتها؛ وهو ما قام به علماء علم اللغة الاجتماعي؛ حيث أطلقوا على هذا النوع من الدراسة بـ: (اللسانيات الجغرافية)، وكان الهدف منه هو معرفة التغيرات الحاصلة في اللغة أو اللهجة وربطها ببيئتها الجغرافية؛ وقد ابتكرت عدة طرق لدراساتها، لعل أهمها وضع الأطالس اللغوية أو ما يعرف بـ: الأطالس اللسانية.

ولأهمية هذا الموضوع، جاءت هذه الأوراق البحثية الموسومة بـ: (جهود الجغرافيين العرب في صناعة الأطالس اللسانية) تهدف إلى إبراز الجهود التي قام بها الجغرافيون العرب قديماً لرسم ملامح الأطالس اللسانية، عن طريق

تحديد مواقع تنوع اللغات واللهجات وتعايشها في منطقة جغرافية واحدة، بيانا لتأثير بعضها على بعض.

وتأسيسا على ما تقدم، انطلقنا من خلال ورقتنا البحثية من التساؤل التالي: ما المقصود بالأطالس اللسانية؟ وما الجهود التي قام بها الجغرافيون العرب لوضع تلك الأطالس اللسانية؟ وهل كانت فكرة وضع الأطالس اللسانية فكرة بحث لساني مقصود مبني على أسس لغوية بمنطلقات جغرافية أم جاءت عفوية بفعل التحديدات الجغرافية للمناطق؟ وما أهمية هذه الأطالس اللسانية في دراسة اللغات واللهجات؟

وللإجابة عن الإشكالية المطروحة سنتبع المنهج التاريخي لتتبع نشأة الأطالس عند العرب والغرب، كما سنتبع المنهج الوصفي لتحليل تلك الظاهرة وإبراز أهميتها ودورها في مجال دراسة اللغات وعلاقتها ببعضها البعض وعلاقاتها باللهجات.

إن الحديث عن الأطالس اللسانية يقودنا حتما إلى الحديث عن مجاله اللساني، وأقصد به اللسانيات الجغرافية، ذلك الفرع من علم اللغة الحديث الذي يهتم بدراسة التنوع في استعمال اللغة عند أشخاص أو جماعات من أصول لغوية مختلفة¹، كما يهتم بدراسة الفروق اللغوية الخاصة بلغة ما، ويحدد اختلافات اللغات أو اللهجات في خرائط لغوية² من خلال معرفة حدود الظواهر اللغوية عن طريق وضع مصوّر لغوي بين المناطق اللغوية أو ما يعرف بـ: الأطالس اللغوي.

ومن بين التعريفات التي عرفت بها اللسانيات الجغرافية أنّها "دراسة إقليم جغرافي معين دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية في وحدة لغوية واحدة"³. فالتنوع الجغرافي يعدّ من المسائل التي اهتم بها علم اللغة أثناء دراسته، "فلا غنى في دراسة ذلك كله وسواه، عن الاستعانة بمعلومات من التاريخ والجغرافيا"⁴.

والى مثل ذلك أشار الباحث الإيطالي ماريو باي إلى علم اللغة الجغرافي مبيناً أن وظيفته تكمن في وصف طريقة توزيع اللغات في مناطق مختلفة، ويهتم بدراسة طرق تفاعلها ببعضها البعض، كما يظهر من خلاله أثر العامل اللغوي في تطور المجتمعات فكرياً وثقافياً⁵.

وعليه فإن اللسانيات الجغرافية تعنى بدراسة اللغة في إطارها اللساني الجغرافي عن طريق وضع أطالس لسانية جغرافية.

أما عن مصطلح الأطالس اللسانية فنجد مصطلحا مركبا من مصطلحين، الأطالس واللسانية؛ حيث ارتبط مفهوم الأطالس بالمجال الجغرافي وهو " مجموعة خرائط منظمة، مصممة لتمثل مساحة ما وتقدم موضوعا أو عدة مواضيع"⁶، في حين ارتبط مفهوم اللسانية بالمجال اللغوي، وتعني الدراسة العلمية والموضوعية للسان البشري، أو كما يعرفها علماء اللغة هي ذلك " العلم الذي يدرس اللغة دراسة علمية ووصفية"⁷.

فمفهوم الأطالس اللسانية إذن يحيل إلى " توزيع اللغات أو الفصائل اللغوية على منطقة أو أكثر من الكرة الأرضية"⁸، وذلك بوضع خرائط تبين الحدود اللغوية لكل منطقة منها، ومنها الأطالس اللهجية، والتي يركز مفهومها على " توزيع الظواهر اللهجية للغة معينة لمنطقة معينة"⁹.

وتجدر الإشارة إلى أن الاهتمام بدراسة اللهجات تولد عنه علم قائم بذاته اصطلح عليه بعلم اللهجات أو بعلم جغرافية اللهجات، وكان الباحثون الأوروبيون والأمريكيون من الأوائل المهتمين به منذ القرن التاسع عشر ميلادي¹⁰.

وما تجدر الإشارة إليه أنه من الصعب وضع الأطالس اللهجية، فهي تتطلب مسحاً جغرافياً ميدانياً كبيراً، ووقتا طويلا، ذلك أن اللهجة لا تثبت على حال واحدة، فظواهرها كثيرة الحركة والتغير تخضع لقانون التأثير والتأثر وتحكم بها عوامل جغرافية واجتماعية ونفسية، بينما نجد أن وضع الأطالس

اللسانية أقل صعوبة وتعقيدا، فهو يحتاج منها واضحا المعالم، فالحدود الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية حدود واضحة ثابتة.

وعليه؛ فإن الأطالس اللسانية تعدّ بحثا لغويا مبنيا على منطلقات جغرافية يعتمد على مراقبة اللغة المحكية بهدف جمع واستقصاء صور التنوع اللغوي في شكل عينات لسانية متداولة ليتم تصنيفها في خرائط لسانية خاصة.

وقد ظهر هذا الضرب من الدراسات عند الغربيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي نتيجة عجزهم عن وضع قوانين التغير الصوتي لصيغ منضبطة تمثلت عندهم باللسان الفصيح، لذا عمدوا إلى استقصاء صور التنوع اللهجي المتمثل باللهجات المحلية عن طريق المقارنة لإثبات أطراد القوانين الصوتية¹.

وقد حازت ألمانيا السبق في ذلك؛ حيث اعتمدت التجربة الألمانية التي قادها جورج ونكر على جمع جمل وصلت إلى الأربعين جملة ممثلة أهم ما يتداوله الناس في شكل استبيان، تم إرسال نسخ منها في كل نواحي ألمانيا بإعانة من الحكومة للمقارنة بين اللهجة وبين اللغة النموذجية بمعنى الفصيحة، وقد خصص لكل كلمة خريطة خاصة مع إظهار صيغتها ومرادفها على خرائط تفصيلية وكذا تحديد المناطق المختلفة، وانطلاقا من هذه الأخيرة تحدّد الخرائط العامة مبيّنة الحدود اللغوية النهائية².

بعدها ظهرت تجربة أخرى فرنسية الأصل قادها جليرون؛ حيث اعتمد فيها على اختيار الأقاليم اللغوية انطلاقا من الخريطة ليتم استقراء أصحابها مشافهة وتدوين ذلك، وبعد هذا العمل الميداني يتم دراسة ما جمع بهدف معرفة الخصائص اللهجية في مجال الأصوات والصيغ لتُسجّل النتائج على خرائط خاصة³.

وانطلاقا من التجريبتين يظهر أنّ تجربة وينكر تتسم بالشمولية والعموم ذلك أنّها تهتمّ بذكر روايات اللفظ الواحد، بينما نجد تجربة جليرون تتسم بالدقة

ذلك أنها تشترط في الرواة أن يكونوا على قدر بالغ من التمكن اللغوي الذي يسمح لهم بتدوين اللغة بطريقة صحيحة، ولعل هذا ما أدى إلى انتشار تجربة ونكر وجليوون في وضع الأطالس لتتوسع تلك الفكرة فتصل إلى بلدان أوروبية وأمريكية كإيطاليا، وسويسرا، والسويد، والنرويج، وإنجلترا.

وتعدّ تجربة المستشرق الألماني براجشتراسر سنة 1914م أول تجربة في البلاد العربية في العصر الحديث؛ حيث قام بوضع أطلس لغوي لسوريا وفلسطين تمثل في اثني وأربعين خريطة تفصيلية وواحدة إجمالية، مع شرح لغوي في كتاب مستقل، وهذا بحثاً عن اختلاف اللهجات الدارجة بها، فمكث في سوريا ثم انتقل إلى حلب في الشمال، ثم اتجه إلى فلسطين ولبنان مستعيناً في ذلك بالمحاولة الألمانية¹⁴.

وقد مكّنه ذلك من الوقوف على التغيرات الحاصلة في المستوى الفونولوجي حيث لاحظ أن طريقة نطق أهل الوبر تختلف عن أهل المدر، كما سجل أيضاً ملاحظات قيمة تشير إلى الاختلافات في الصيغ بين الحضرين في الشمال والحضرين في الجنوب، وبين بدو الغرب وبدو الشرق¹⁵.

وتجدر الإشارة إلى أن محاولة هذا المستشرق لم تكن تهدف إلى كشف أسباب هذا التنوع، بل كانت تهتمّ بتسجيل الواقع اللغوي المحكي وصلته ببعضه البعض بطرق مختلفة وبمنطلقات جغرافية وبمنهج وصفي يتحرى الدقة إلى حدّ كبير.

أمّا عند العرب القدماء فكان الأمر مختلفاً، ففكرة الأطالس اللسانية فكرة قديمة كانت متجسّدة في عمل منهجي غير مقصود لذاته وإنّما كان الهدف هو جمع اللغة الفصيحة عن طريق استقراء أهلها حفاظاً على القرآن الكريم من اللحن والزيف، وهو ما جعلهم يحدّدون جغرافياً رقعة الفصاحة في بعض القبائل التي يُشهد لها بالفصاحة تاركين بعضها الآخر التي لا يُشهد لها بذلك.

وفي حقيقة الأمر لا يوجد بين أيدينا نصوص قديمة تُحدّد الرقعة الجغرافية للفصاحة تحديدا مضبوطا يكشف من خلاله عدد القبائل التي أخذت عنها اللغة الفصيحة سوى النص الذي نقله إلينا السيوطي (ت791هـ) عن الفارابي الذي يقول فيه: "والذين عنهم نُقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين أكثر ما أخذ ومعظمه، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جذام، فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية، ولا تغلب ولا نمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، ولا بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ولا أزد عمان لمخالطتهم الهند والفرس، ولا من أهل اليمن أصلا لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وسكان طائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأنهم الذين نقلوا اللغة صادفوا حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطهم غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب وصيرها علما وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة فقط من بين أمصار العرب" 16.

وإذا قارنا بين هذا النص، والنص الأصلي للفارابي (ت339هـ) نجده يفتقر للتفصيل الذي ذكره السيوطي، وأنت ترى ذلك من خلال قول الفارابي، حيث قال فيه: "وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء، فإن فيهم سكان البراري وفيهم سكان الأمصار. وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين، وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة

من أرض العراق، فتعلّموا لغتهم والفصيح منها ومن سكّان البراري منهم دون الحضر، ثمّ من سكّان البراري من كان أوسط بلادهم ومن أشدّهم توحشاً وجفاء وأبعدهم إذعانا وانقيادا وهم: قيس وتميم وأسد وطيء ثمّ هذيل. فإنّ هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب، والباقون فلم يؤخذ منهم شيء لأنّهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيّين وأهل الشّام وأهل مصر" ¹⁷.

فالتأمّل في هذا القول، يجد الفارابي قد لمّح فقط لتلك القبائل التي لم يؤخذ عنها دون التعمّق في إبرازها عكس ما فعل بالقبائل التي لم يؤخذ عنها، في حين نجد السيوطي قد فصلّ وشرح وتوسّع في قوله؛ ومن هذا يتّضح أنّ مضمونهما يكاد يكون واحداً، ونضيف قائلين أنّ هذا المعيار في الأخذ كان محدّداً بعدم الاختلاط بالأعاجم يستند إلى موقع جغرافيّ وقد تبين لنا أنّ اللّغويّين من أصحاب التّحري كأبي عمرو بن العلاء (ت154هـ) والخليل (ت175هـ) وسيبويه (ت180هـ) والأصمعي (ت216هـ) قد جعلوه معياراً ثابتاً لأخذ اللّغة الفصيحة، وفي ذلك يقول المرحوم الحاج صالح (ت2017هـ): " فالفصاحة هي في الأصل الملكة اللّغويّة الخاصّة بالّذين يفهمون وينطقون باللّغة التي نزل بها القرآن، وهم كمرجع زمنيّ ومكانيّ - نقطة الصّفّر - أولئك اللّذين عاشوا في عهد النّبي صلّى الله عليه وسلّم فكلّ من كان يوصف بالفصاحة بلغته فمرجع فصاحته في الزّمان والمكان" ¹⁸، وفي موضع آخر قال فيه: " فالوضوح النّاتج عن الشّيوخ واتّساع رقعة الاستعمال جغرافياً هو جانب هامّ يستلزمه مفهوم الفصاحة اللّغويّة، كما تصوّرها العلماء الأوّلون أمثال سيبويه وشيوخه" ¹⁹.

ومعنى ذلك أن مقياس الفصاحة عندهم متعلق بأمرين، فأما الأول فهو متعلق بمدى مطابقة كلام العرب في قواعده للغة القرآن الكريم، وأما الثاني فهو متعلق بالمعيار المكاني والزمني.

والى مثل ذلك ذهب ابن خلدون في مُقَدِّمَتِهِ في وصفه لبعض البيئات اللغوية مثل مُضَرٍّ مِنْ قُرَيْشٍ وَكِنَانَةٍ وَثَقِيفٍ وَبَنِي أَسَدٍ وَهَذِيلٍ وَمَنْ جَاوَرَهُمْ مِنْ حُرَاةٍ إِذْ إِنَّ سَكَانَ هَذِهِ الْقَبَائِلِ حَسَبٌ وَصْفُهُ كَانُوا أَهْلَ شَطَفٍ وَمَوَاطِنَ غَيْرَ ذَاتِ زَرْعٍ وَلَا ضَرْعٍ²⁰.

انطلاقاً من ذلك يتبين أن المنطقة البدوية التي تمثل الرقعة الجغرافية تعدّ علامة مهمّة على الفصاحة لابتعادها عن أي تأثير أو تأثر أجنبيّ يُفسد لغتها الفصيحة، لذلك بقي الأخذ منها حتى القرن الرابع هجريّ حين لم يبق فيها لسان فصيح يُعتدّ بفصاحته، كما أن المطلّع لهذه المسألة يتأكّد من حرص علماء العرب على وضع معايير لمعرفة الفصيح من غيره.

ومما لا شكّ فيه أن هذا العمل يندرج ضمن المفهوم الاصطلاحيّ للأطالس اللسانيّ الجامع بين اللغة والجغرافيا، وهو يؤكّد أيضاً أنّه كان عند العرب بذور علم اللغة الجغرافيّ الذي يدرس العلاقة بين الظاهرة اللغوية ومجال انتشارها، وإن لم تكن على نحو علمي واضح المعالم.

ولم تكن التجربة العربية الوحيدة في هذا المجال البحثي، فالناظر في تاريخ العرب يجد أن هناك عدّة تجارب نستطيع أن ندرجها في هذا المجال علماً أنّها لم تكن فكرة بحث لسانيّ مقصود مبنيّ على أسس لغوية بمنطلقات جغرافية بل كانت عضوية بفعل التّحديدات الجغرافية للمناطق، وهو ما قام به عدد من الرحالة والجغرافيين الذين أدركوا الصّلة الوثيقة بين اللغة والجغرافيا.

فبعد استقرارٍ طويلٍ تبين أن كتبهم قد احتوت الكثير من الملاحظات اللغوية خاصّة تلك التي تحتاج إلى تحديد جغرافيّ، ويمكن الاستشهاد بتلك التّجارب التي نقلت إلينا عدّة مسائل لغوية خاصّة تلك التي تهتمّ بالجانب الصوتي

والجانب المعجمي، فالمقدسي (ت380هـ) مثلاً عالج الكثير من المسائل الصوتية في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، والشاهد على ذلك قوله: "أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم، وفيه رخاوة، وأهل طوس ونسا أحسن لساناً، وفي كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ويجهرون فيه، ولسان بست أحسن، ولسان هراة وحش، تراهم يتكلفون ويتحاملون، ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح... إلخ" ²¹.

كما اهتم أيضاً في الكتاب نفسه ²² بالجانب المعجمي؛ حيث نجده يرد بعض الألفاظ التي يطلقها أهل الأقاليم على الأشياء، ومثال ذلك: تسمية أهل مكة ما نزل عن المسجد الحرام المسفلة، وما ارتفع عنه المعلاة تسمية أهل مكة المكرمة حجر إسماعيل الحطيم، تسمية أهل العراق كل ما وراء الفورات شاما، وتسمية أهل الأندلس الرستاق إقليمًا، تسمية أهل جرجان العالم معلماً.

كما ذكر في كتابه أيضاً ما تختلف فيه الأقاليم من التسميات، فيقول: "وأما الأشياء التي يختلف فيها أهل الإقليم فهي مثل: لحام، جرار قصاب كرسف عطب قطن، قطان حلاج...، طباخ بقال تاجر، ميزاب مرزاب مزراب... قدرة برمة، مؤفدة أثافي... ²³، وكأنه كان يشير إلى ظاهرة الترادف.

كما تعرض ابن بطوطة (ت777هـ) ²⁴ للموضوع نفسه عندما تحدث أن اختلاف الشعوب في تسمية الأشياء، ومما ذكره من تسميات العرب: تسمية المغاربة أم الحبين ب: حنيشة الجنة، تسمية المصريين الفندق بالخان، تسمية أهل مكة القفّة بالمكتل، تسمية أهل السودان الذئب ب: وجين.

وقد ذكر الحموي (ت626هـ) في كتابه معجم البلدان بعض التغيرات الصوتية لأهل المغرب منها استبدالهم صوت اللام بصوت النون، فيقولون: "تنمسان بدلا من تلمسان" ²⁵، كما ذكره الإدريسي (ت560هـ) أيضاً في نزهة

المشتاق²⁶، أمّا العبدري (ت688هـ) فقد نسب إبدال القاف همزة إلى أهل القاهرة، فقال: "اللكنة فيهم فاشية وجهورهم يجعل القاف والكاف همزة"²⁷.

ونجد الجغرافي الحسن بن أحمد الهمداني (ت336هـ) في كتابه صفة جزيرة العرب يتعرّض للغة أهل الجزيرة بيانا لفصاحتها من عدمها فيقول: "لغات أهل هذه الجزيرة: أهل السّحر والأشجار ليسوا فصحاء مهرة غُثم يشاركون الأعاجم، حضر موت ليسوا بفصحاء، وربما كان فيهم الفصيح، وأفصحكم كندة وهمدان وبعض الصّدف... صنعاء في أهلها بقايا من العربية المحضة ونبت من كلام حيمر، ومدينة صنعاء مختلفة اللغات واللهجات، لكل بقعة منهم لغة ومن يصاقب شعوب يخالف الجميع... وأمّا العروض ففيها الفصاحة ما خلا قراها، وكذلك الحجاز، فنجد السفلى إلى الشام وإلى ديار مضر وديار ربيعة فيها الفصاحة إلّا في قراها. فهذه لغات الجزيرة على الجملة دون تبغيض والتّفنين"²⁸.

فيتبيّن بالأدلة القاطعة تبلور المفهوم الاصطلاحي سواء للسانيات الجغرافية أم للأطالس اللسانية عند الجغرافيين العرب، ولعلّ ذلك شكّل البذور الأولى التي زرعت في عقل الباحثين فكرة وضع أطالس لسانية بمنطلقات جغرافية، ويمكننا أن نستشهد ببعض التجارب النّاجحة في هذا الحقل المعرفي، ومنها تجربة خليل محمود عساكر الذي وضع أطلسا لسانيا لمصر قدّم من خلاله مختلف لهجات مدينة فيوم المصريّة²⁹.

وقد وضع إبراهيم محمّد الخطاب خطة لوضع أطلس لساني عن اللهجات العربيّة المعاصرة في بحثه الموسوم بـ: "الأسس المنهجية والنّظرية لأطلس لسان المجتمع العربي"³⁰، كما أنّ الباحث أحمد عبد الله عبد ربه ياغي قد دّل رسالته الموسومة بـ: "الملاحظات اللّغويّة للجغرافيين العرب دراسة في ضوء علم

اللغة " بخرائط جغرافية تبين التبادلات الصوتية التي ذكرها الجغرافيون مبينا أن تلك التبادلات لها امتداد للقبائل العربية القديمة ^{3 1} .

اهتمام الباحثين بالأطالس اللسانية سواء أكان اهتماما مقصودا أم لم يكن مقصودا يظهر بجلاء ما لهذه الأطالس من أهمية بالغة في الدرس اللساني ويمكننا الوقوف على بعض ما ذكره الأستاذ رمضان عبد التّواب في كتابه ^{3 2} :

- دراسة اللهجات دراسة علمية للوقوف على خصائصها اللغوية ولمعرفة التغيرات التي طرأت عليها؛

- إثراء الدراسات اللغوية في الفصحى، إذ يتيح المسح الجغرافي من كتابة تاريخ اللغة في عصور مختلفة، كما يتيح لها معرفة أقرب اللهجات إليها وأبعدها عنها؛

- يكشف لنا المسح الجغرافي علاقة اللهجات العربية القديمة بلهجات الوطن العربي؛

- وسيلة من وسائل المقارنة لا بين الفصحى واللهجات، ولكن بينها وبين اللغات السامية أيضا.

هذا، وقد أوضح العالم السويسري شتيجر أهمية الأطالس في دراسة اللغة العربية؛ حيث قال: " وبالنسبة للغة العربية، نقول: إن القيام بعمل أطلس لغوي لها، سيحدث ثورة في كل الدراسات الخاصة بفقه اللغات السامية؛ لأنه سيكمل من غير شك، الدراسات التي تعتمد على النصوص القديمة، بكشفه عن التطورات المتعلقة باللهجات، وباللغات الشعبية العصرية، وسيكون لهذا الأطلس الفضل في إطلاعنا على تاريخ الأصوات، والتغيرات التي أصابت اللغة العربية في الأماكن اللغوية التي غزتها، وعن مدى انتشارها وتأثيرها بالمراكز الثقافية وتنوع مفرداتها، إلى غير ذلك من المكتشفات، التي لا يمكن أن تتم إلا إذا اجتمعت هذه المواد. إنه سيكون عملا ثقافيا من الطراز الأول، وسيكون تحقيقه عنوان مجد وافخار في تاريخ الثقافة العالمية" ^{3 3} .

هذا فضلا على أنّها مادّة مهمّة يمكن الاعتماد عليها لدراسة المجتمعات وتحوّلاتها، كما تفيد أيضا علماء النّفس والتاريخ، ولعلّ هذا ما أشار إليه الباحث السويسريّ يود عندما قال: " من المستحيل أن يكتب تاريخ صحيح للشّعْب الفرنسيّ أو الإيطاليّ أو الاسبانيّ، إلّا إذا عرفت اللّغات المحليّة لتلك البلاد، ودرست دراسة عميقة، تلك حقيقة خطيرة، أصبحت مقرّرة معروفة"^{3 4}.

خاتمة:

- وتأسيسا على ما تقدم، يمكننا في آخر هذه الدراسة اللسانية الجغرافية تسجيل أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج، وأبرزها:
- تعدد الأطالس اللسانية التي استعيرت من علم الجغرافيا طريقة حديثة لتسجيل الظواهر اللغوية على خرائط جغرافية تحديدا لمناطقها، وتسهيلا لدراستها؛
 - فكرة الأطالس بدأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ميلادي وكان رائدها الألماني جورج ونكر ثم الفرنسي جليوون لتنتشر تلك التجربة في كامل أوروبا وأمريكا وبعض المناطق الشرقية؛
 - تعدد تجربة المستشرق الألماني براجشتراسر عام 1914م أهم تجربة عربية لوضع الأطالس اللسانية؛
 - يحتفظ التاريخ بجهود العرب القدامى في وضع الأطالس اللسانية وذلك من أجل تحديد رقعة الفصاحة، فقد مثل ذلك الإرهاصات الأولى لهذا العلم علما أنها لم تكن فكرة مقصودة في ذاتها؛
 - تميزت جهود الجغرافيين القدامى بازدواجية علمية جمعت بين علم الجغرافيا وعلم اللغة؛
 - إن جهود الجغرافيين يعد تجربة ناجحة لوضع الأطالس اللسانية التي بموجبها تتحدد صلة اللغات واللهجات ببعضها؛
 - لم يخدم الجغرافيون بما وصلوا إليه علم الجغرافيا وعلم اللغة فحسب وإنما خدم أيضا علم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس؛
 - اعتمد علماء العربية من خلال عملهم التطبيقي الأسس البحثية العلمية نفسها التي اعتمدها الغربيون، وذلك من خلال اعتمادهم على مبدأ

استقراء كلام الفصحاء ثمّ جمعه مع تحديد جغرافيٍّ للقبائل هذه الأخيرة التي تُمثّل اللغة التّمودجيّة؛

- اتّخذ علماء العربيّة العزلة الجغرافيّة مبدأً للأخذ عن القبائل وهو يتناسب مع الأسس المنهجية التي وضعها الباحثون الغربيّون في صناعة الأطالس اللّسانيّة؛

- يكمن الاختلاف في وضع الأطالس بين العرب والغرب في أنّ علماء العربيّة قد باشرُوا في العمل الميدانيّ لينظّروا بعده لا ليقارنوا، في حين نجد أنّ الباحثين الغربيّين قد اتّجهوا نحو المسح الجغرافيّ لاستقصاء صور التّنوع اللّهجيّ لإثبات أطّراد القواعد اللّغويّة وتحديد الصّرفيّة منها لمقارنتها مع اللغة الفصيحة لا للتّنظير؛

- لا تختلف الخرائط الجغرافيّة عن الخرائط اللّسانيّة من حيث طريقة وضعها، وإنّما يكمن الاختلاف في المضمون؛ ذلك أنّ الثّانية تختصّ بتسجيل الظواهر اللّغويّة؛

- إنّ عمل الأطالس اللّسانيّة ليس بالأمر السّهّل؛ ذلك أنّه يتطلّب وقتاً وجهداً ومساندة حكوميّة ناهيك عن التّغييرات التي تتعرّض لها اللغة المحكيّة.

- للأطالس اللّسانيّة أهميّة لا يمكن حصرها، أبرزها:

❖ وسيلة من وسائل دراسة اللّغات واللّهجات؛

❖ يمكن من خلالها معرفة التّغييرات التي تصيب اللّغات واللّهجات خاصّة في

مجال الصّوت والمعجم؛

❖ تبرز الأطالس اللّسانيّة قرباً أو بعداً الصّلة الجامعة بين اللّغات واللّهجات

وبين اللّهجات فيما بينها، ممّا يساعد على دراسة اللّهجة؛

❖ تساعد الأطالس اللّسانيّة على وضع مخطّط لغويّ يساعد في ترقية اللغة

العربيّة، باعتبار أنّه نشاط اجتماعيّ لغويّ موجه يتحكم في ظروف استخدام

اللغات في المجتمع؛

❖ يعدّ وضع الأطالس عملاً ثقافياً يضاف إلى تاريخ ثقافة المجتمعات. إنّ الدّراسة الجغرافيّة هي من أحدث وسائل البحث في علم اللّغة فهي مجال خصّب للدّراسات اللّغويّة خاصّة عند الغرب، أمّا عن العرب فلا يزال هذا المضمار البحثي في مهده يحتاج اهتماماً كبيراً، وصبراً طويلاً، ومساندة من الجامعات العربيّة، لذا نأمل أن تهتمّ كل الجامعات العربيّة بمثل هذه الدّراسات التي تمثّل علوماً لسانیّة مطلوبة في هذا الحقل المعرفي، فالأطلس اللّغويّ عمل لسانی لا يخدم فقط الجانب اللّغويّ ويعمل على دراسته لمعرفة أسرارهِ، وإنّما يخدم الواجهة النّقافيّة لكلّ المجتمعات.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي أبو عبد الله، دار إحياء التراث العربي 1987م.
- أسس علم اللغة، ماريو باي، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب القاهرة، مصر 1987م.
- الأسس المنهجية والنظرية لأطلس لسان المجتمع العربي، الخطابي إبراهيم محمد مجلة اللسان العربي، 44، ع، 1997م.
- الأطلس اللغوي، عساكر خليل محمود، مجلة المجمع اللغة العربية القاهرة، مصر 1953م.
- الأطلس اللغوي في التراث العربي دراسة في كتاب سيبويه، د/ خالد نعيم، دار السياب لندن، ط1، 2010م.
- الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي جلال الدين، تح: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 1998م.
- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1997م.
- السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، الحاج صالح عبد الرحمن، موفم للنشر، ط1، 2017م.
- صفة جزيرة العرب، الهمداني الحسن بن أحمد، تح: أحمد بن علي الأكوع الحوالي مكتبة الإرشاد، صنعاء، اليمن، ط2، 2008م.
- ظهور الإسلام، أحمد أمين، مؤسسة الهداوي للتعليم والثقافة جمهورية مصر العربية 2012م.
- علم اللغة الاجتماعي، هدسون، تر: محمود عياد، عالم الكتب القاهرة مصر، ط2 1990م.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السّعران، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، (د.ت).
- كتاب الحروف، الفارابي أبو نصر محمد، تح: محسن مهدي، دار الشرق، ط2، (د.ت).

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (المعروف باسم مقدمة ابن خلدون) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد دار العلم، بيروت، لبنان، ط6 1986م.
- اللهجات العربية نشأة وتطوراً، عبد الغفار حامد هلال، مطبعة الجبلأوي، لبنان، ط2 1990م.
- مجلة حوليات دار العلوم، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، مصر ع5 1976م.
- مدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التّواب مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1997م.
- مقدمة في لدراسة علم اللغة، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، مصر ط1، 2002م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله، دار صادر بيروت، لبنان، (د.ت).
- المعجم المصطلحات الألسنية -فرنسيّ انجليزي عربيّ- ، د/ مبارك مبارك، دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، 1995م.
- معجم المصطلحات الجغرافية، بيار جورج، تر: محمد الطقيلي وهيثم اللمع، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، (د.ط)، (د.ت).
- المعجم الموحد للمصطلحات اللسانية - انجليزي فرنسيّ عربيّ- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التعريب، الدار البيضاء، المغرب، 2002م.
- الملاحظات اللغوية للجغرافيين العرب دراسة في ضوء علم اللغة ياغي أحمد بن عبد ربه، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: حلمي خليل قسم اللغة العربية واللغات الشرقية كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر 1991م.

الإحالات:

- ¹ - المعجم الموحّد للمصطلحات اللّسانيّة - انجليزي فرنسيّ عربيّ - ، المنظّمة العربيّة للتّربيّة والثقافة والعلوم، مكتب تنسيق التّعريب، الدّار البيضاء، المغرب 2002م، (ص:62).
- ² - المعجم الموحّد للمصطلحات الألسنيّة -فرنسيّ انجليزي عربيّ - ، د/ مبارك مبارك، دار الفكر اللبنانيّ، بيروت، لبنان، 1995م، (ص:120).
- ³ - الملاحظات اللّغويّة للجغرافيّين العرب دراسة في ضوء علم اللّغة، ياغي أحمد بن عبد ربه، رسالة لنيل شهادة الدّكتوراه، إشراف: حلمي خليل قسم اللّغة العربيّة واللّغات الشّرقية، كليّة الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر، 1991م، (ص:7).
- ⁴ - علم اللّغة مقدّمة للقارئ العربيّ، محمود السّعرا، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت لبنان، (د.ت)، (ص:71).
- ⁵ - ينظر: أسس علم اللّغة، ماريو باي، تر: أحمد مختار عمر، عالم الكتب القاهرة، مصر، 1987م (ص:37).
- ⁶ - معجم المصطلحات الجغرافيّة، بيار جورج، تر: محمّد الطّقيلي وهيثم اللمع المؤسّسة الجامعيّة للدراسة والنّشر والتّوزيع، (د.ط)، (د.ت)، (ص:61).
- ⁷ - مقدّمة في لدراسة علم اللّغة، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندرية مصر، ط1، 2002م (ص:09).
- ⁸ - مجلّة حوليّات دار العلوم، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة، مصر، ع5، 1976م (ص:107).
- ⁹ - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
- ¹⁰ - علم اللّغة الاجتماعيّ، هديسون، تر: محمود عياد، عالم الكتب، القاهرة، مصر ط2، 1990م (ص:66 - 70).
- ¹¹ - ينظر: الأطلس اللّغويّ في التّراث العربيّ دراسة في كتاب سيبويه، د/ خالد نعيم، دار السّياب لندن، ط1، 2010م، (ص:11).
- ¹² - ينظر: مدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغويّ، رمضان عبد التّوّاب، مكتبة الخانجي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط3، 1997م، (ص:153 - 155).
- ¹³ - ينظر: اللّهجات العربيّة نشأة وتطوّرا، عبد الغفّار حامد هلال، مطبعة الجبلاوي لبنان، ط2، 1990م، (ص:403).
- ¹⁴ - ينظر: مدخل إلى علم اللّغة، رمضان عبد التّوّاب، (ص:159).

- 15 - ينظر: المرجع نفسه، (ص: 162- 163).
- 16 - وكذا ينظر: الاقتراح في علم أصول النحو، السيوطي جلال الدين، تح: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1 1998م، (ص: 33- 34).
- 17 - كتاب الحروف، الفارابي أبو نصر محمد، تح: محسن مهدي، دار الشرق، ط2 (د.ت)، (ص: 147).
- 18 - السماع اللغويّ العلميّ عند العرب ومفهوم الفصاحة، الحاج صالح عبد الرحمن موفقم للنشر، ط1، 2017م، (ص: 66).
- 19 - المصدر نفسه، (ص: 63).
- 20 - ينظر: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (المعروف باسم مقدّمة ابن خلدون)، ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، دار العلم بيروت، لبنان، ط6، 1986م، (ص: 129- 130) و(ص: 555).
- 21 - ظهور الإسلام، أحمد أمين، مؤسّسة الهداوي للتعليم والثقافة، جمهوريّة مصر العربيّة، 2012م (214/1- 215).
- 22 - ينظر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي أبو عبد الله، دار إحياء التراث العربيّ 1987م، (ص: 75 و134 و193 و283).
- 23 - ينظر: المصدر نفسه، (ص: 30- 39).
- 24 - ينظر: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله، مطبوعات أكاديميّة، المملكة المغاربيّة، 1997م (79/3) و(232/1)، و(387/1) و(273/4).
- 25 - ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي شهاب الدين أبو عبد الله، دار صادر بيروت، لبنان، (د.ت) (33/2).
- 26 - الملاحظات اللغويّة للجغرافيين العرب دراسة في ضوء علم اللغة، ياغي أحمد بن عبد ربه (ص: 131- 132).
- 27 - ينظر: المرجع نفسه، (ص: 122).
- 28 - صفة جزيرة العرب، الهمداني الحسن بن أحمد، تح: أحمد بن عليّ الأكوع الحوالي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، اليمن، ط2، 2008م، (ص: 248- 249).
- 29 - الأطلس اللغويّ، عساكر خليل محمود، مجلّة مجمع اللغة العربيّة، القاهرة مصر، 1953م المجلد7، (ص: 379- 384).

³⁰ - الأسس المنهجية والنّظرية لأطلس لسان المجتمع العربيّ، الخطابي إبراهيم محمّد، مجلة اللّسان العربيّ، 44ع، 1997م، (ص:119).

³¹ - ينظر: الملاحظات اللّغويّة للجغرافيّين العرب دراسة في ضوء علم اللّغة، ياغي أحمد بن عبد ربه (ص:474 - 490).

³² - ينظر: مدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغويّ، رمضان عبد التّواب (ص:149).

³³ - الأطلس اللّغويّ، عساكر خليل محمود، (ص:379).

³⁴ - المرجع نفسه، (ص:380).

مقدمة ابن خلدون، دار العلم، بيروت، لبنان، ط6، 1406 - 1986.

مفهوم "اللغة الوسيطة" في التراث اللغوي العربي مقاربة الجاحظ أنموذجاً

The Concept of "Interlanguage" in the Arab Linguistic Heritage, Al-Jāhidh Approach as a Model

د. مبارك بلالي*

تاريخ الإرسال: 12- 11- 2018 تاريخ القبول: 14- 03- 2019

الملخص: تهدف هذه السطور إلى مناقشة مفهوم "اللغة الوسيطة" وأثرها في التعلم اللغوي، من خلال تناول استراتيجيتي: التداخل والإفراط في التعميم بوصفهما استراتيجيتين أساسيتين في تفسير طبيعة الأخطاء ونوعية الصعوبات التي تواجه متعلم اللغة الثانية.. عرضنا لذلك انطلاقاً من النماذج والأمثلة التي ضمتها ملحوظات الجاحظ (255هـ) حول مستويات التعبير اللغوي لدى طبقة الأعاجم، ولدى من نشأ بينهم من أهل العربية.

الكلمات المفتاحية: اللغة؛ اللغة الوسيطة؛ استراتيجيات التعلم؛ الجاحظ؛ التراث العربي.

Abstract: The aim of these lines is to discuss the concept of "Intermediate Language" and its impact on language learning by tackling two strategies: interference and over-generalization. These latter are basic in interpreting the nature of errors and the quality of difficulties faced by the second language learner. Our presentation is based on the models and examples included in the observations of Al-Jāhidh (255 Hijri) on the levels of linguistic expression among the

* كلية الآداب، جامعة أدرار، الجزائر، البريد الإلكتروني: mebarekblali@yahoo.com

Ajamis (non-Arabs), and among the Arabs who grew up among them.

Keywords: Language ; Interlanguage ; Learning Strategies ; Al-Jāhidh ; Arab Heritage.

المقدّمة: لقد أوحى النّحو الكلي -في المقاربة التّوليدية- لجمهور الباحثين في شأن تعلم اللغات، بأن هناك علاقة مهمّة بين اللغة الأولى أو اللغة الأمّ للمتعلم واللغة الثّانية المستهدفة في عملية التّعلم، وسواء أكانت اللغة الأولى هي نظام لغوي أساسي أي لغة أدبيّة أم كانت لهجة من اللهجات.

فقد تكون هناك علاقة إيجابيّة بين المستويين بحيث تتفق قيم الوسائط بين نحوي اللغتين فيقوم المتعلم بنقل قدرته في لغته الأولى إلى اللغة الثّانية أو اللغة الهدف، كما قد تكون العلاقة سلبية بحيث تتباين قيم الوسائط بين نحوي اللغتين، وفي هذه الحال يقع التّدخل مضرّاً نوعاً من الانحرافات في نطق وتعلم اللغة الثّانية، بسبب استيحاء الأساس اللغوي للغة الأمّ لدى متعلم اللغة الثّانية. ومن هنا بدأ -لدى اللسانيين- تصور أن هناك "لغة وسيطة" أو "لغة وسطى" بين اللغة الأمّ للمتعلم واللغة الثّانية الهدف في عملية التّعلم، وأن متعلم اللغة الثّانية يكوّن لنفسه نسقاً لسانياً بسيطاً ومستقلاً بقواعد خاصة يقترب بها من اللغة الثّانية. وفي التّراث العربي نجد ما يمكن أن يفيد بوجود "لغة وسيطة" ممثلة في تلك التّنوعات اللغويّة المختلفة، وبخاصة ما ذكره الجاحظ من وجود كلام "المولدين البلديين" أو العبارات المسوخة في "العربيّة الهجين" Pidgin Arabic، أو ما اصطلح عليه الجاحظ بـ "اللكنة" في نطق غير العربي للعربيّة.

تهدف هذه السّطور إلى مناقشة مفهوم "اللغة الوسيطة" وأثرها في التّعلم اللغوي، من خلال تناول إستراتيجيتي: "التّدخل" و"الإفراط في التّعميم"

بوصفهما إستراتيجيتين أساسيتين في تفسير طبيعة الأخطاء ونوعية الصعوبات التي تواجه متعلم اللغة الثانية.. عرضنا لذلك انطلاقاً من النماذج والأمثلة التي تضمنتها ملحوظات اللغوي العربي الألمعي الجاحظ (25هـ) حول مستويات التعبير اللغوي لدى طبقة الأعاجم، ولدى من نشأ بينهم من أهل العربية.

اشتملت خطة البحث على مبحثين:

تناول المبحث الأول منهما: "اللغة الوسيطة" واستراتيجيات التلقي اللغوي. وقد تناولنا فيه مفهوم اللغة الوسيطة، وكذا استراتيجية التداخل في "اللغة الوسيطة"، إضافة إلى استراتيجية الإفراط في التعميم في "اللغة الوسيطة".

وأما المبحث الثاني: فقد تناول المستويات اللغوية للغة الوسيطة؛ وهي: المستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوى التركيبي. وأنهينا البحث بخاتمة ضمناها أهم النتائج المحصلة.

1 المبحث الأول: اللغة الوسيطة واستراتيجيات التعلم اللغوي.

1.2. مفهوم اللغة الوسيطة (Interlanguage): "اللغة الوسيطة" هي تلك اللغة التي يستعملها متعلمو اللغة الثانية من الذين لم يبلغوا بعد مرحلة الإتقان التام لتلك اللغة، ولم يمتلكوا كفاءة المتكلمين الأصليين بتلك اللغة وتتمحور طبيعة "اللغة الوسيطة" حول مجموعة من التنوعات اللغوية في المستويات التركيبية والصرفية والصوتية، نتجت عن التأثير المباشر للأساس اللغوي لدى المتعلم في أثناء تلقيه واستعماله للغة الثانية. وقد اعترف اللسانيون حديثاً بتأثير اللغة الأولى للمتعلم على اللغة الهدف أو اللغة الثانية، بل ودعوا إلى ضرورة توظيف ذلك التأثير في تعلم اللغة الثانية تقول "فولكا ريفرز" V.Rivers: « ومهما حاولنا إبعاد تأثير اللغة الأم، عن تعلم اللغة الثانية فإننا لا نفلح. وإذا قبلنا بما لا بد منه، فإننا نستطيع استخدام عناصر اللغة القومية التي يمكنها مساعدتنا في تعلم اللغة الأجنبية. ومن هذه العناصر: القابلية على

تقليد الأصوات، وإدراك وظائف المفردات، وطريقة تكوين التراكيب أو البنيات المتماثلة في كلتا اللغتين، والمفاهيم الموجودة التي تشبه المفاهيم الجديدة، ومهارة القراءة، وهكذا يمكن تقليل الوقت اللازم لتعلم اللغة الجديدة إلى حدٍّ ما...¹.

والحق أن كلام "فولكا ريفرز" هو اعتراف واضح بأن هناك "لغة وسطى" لا بد منها - على حدّ تعبيرها - في تعلّم اللغة الثّانية بالرّغم من دعوة بعض اللسانين إلى توظيف المنهج المباشر² في تعلّم اللغة الثّانية، هذه الدعوة التي ظهرت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين، على أساس بنيوي.

2.2. استراتيجيّة التّداخل في "اللغة الوسيطة" (Interference): تخضع "اللغة الوسيطة" لعدد من الاستراتيجيّات التي تساعد على فهم تلك التّباينات والاختلافات بين أداء واستعمال اللغة الثّانية (الهدف)، وبين ما يكونه المتعلم من نسق لغوي وسيط يعدّ تطوراً باتجاه تعلّم اللغة الثّانية.

فمن استراتيجيّات التّلقّي اللغوي تبرز لنا "استراتيجيّة التّداخل" والتي تفسر لنا مدى التّأثير الذي تمارسه قواعد اللغة الأمّ على المتعلم³؛ فاختلاف قواعد اللغة الأمّ عن قواعد اللغة الهدف يجعل المتعلم يقع في أخطاء سلبية أثناء محاولته تعلّم اللغة الثّانية، كما أن هذه الأخطاء لا تمس المستويين التّركيبي والصّرفي كثيراً، إنما تمس أساساً المستويين الصّوتي والمعجمي.

وقد فطن الجاحظ إلى هذا التّأثير الذي تمارسه اللغة الأمّ أو الأساس اللغوي للمتعلّم فقال متحدثاً عن تأثير الأساس اللغوي للشعوب غير العربيّة أثناء تعلّمها واستعمالها للعربيّة: «وقد يتكلم المغلّاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربيّة المعروفة ويكون لفظه متخيراً فاخراً، ومعناه شريفاً كريماً، ويعلم من ذلك السّامع لكلامه ومخارج حروف أنّه نبطي. وكذلك إذا تكلم الخراساني على هذه الصّفة، فإنك تعلم مع إعرابه وتخيّر ألفاظه في مخرج كلامه، أنّه

خراساني وكذلك إن كان من كتاب الأهواز. ومع هذا إن نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم، لا يغادر من ذلك شيئاً. وكذلك تكون حكايته للخراساني والأهوازي والزنجي والسندي والأجناس وغير ذلك. نعم حتى تجده كأنه أطبع منهم»⁴.

ثم نجد الجاحظ يعبر صراحة عن "استراتيجية التداخل" في كلام متعلمي العربية من الأعاجم ويسمى ذلك "لكنة" فيقول: «يقال في لسانه لكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول»⁵.

إن هذا النص يبين بوضوح إدراك الجاحظ لفكرة العادات اللغوية⁶ Speech Habits، وأن اللغة ما هي إلا نظام معقد من العادات اللغوية.

كما ضرب الجاحظ أمثلة كثيرة عن "استراتيجية التداخل" هذه، التي تظهر أثر العادات اللغوية لشعوب البلاد المفتوحة على نطقهم للعربية فقال: «ألا ترى أن السندي إذا جلب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايًا ولو أقام في عليا تميم، وفي سفلى قيس، وبين عجز هوازن خمسين عاماً، وكذلك النبطي القح، خلاف المغلاق الذي نشأ في بلاد النبط؛ لأن النبطي القح يجعل الزاي سيناً فإذا أراد أن يقول مُشْمَعِلٌ، قال: مشمئل»⁷.

ويظهر من هذه الأمثلة وغيرها مما ذكره الجاحظ أن هذه اللكنات الأعجمية كانت تمثل مستوى لغوياً⁸ واضحاً أو لغة وسيطة مكتملة الجوانب ضمن مستويات العربية في العصر العباسي، يستوي في ذلك الخاصة أو المثقفون والعامة من الناس أيضاً.

3.2. استراتيجية الإفراط في التعميم في "اللغة الوسيطة" (Over-généralisation): من استراتيجيات التلقي اللغوي استراتيجية "الإفراط في التعميم" وتعني لجوء المتعلم إلى إجراء أنواع من القياس (Analogie) وذلك

بمقارنة ما يمتلكه من قواعد اللغة الثانية⁹، فيعمل على القياس عليه وتوسيعه ومن ثم قد يقع في أخطاء التطبيق الناقص للقواعد أو استخدامها في غير محلها.

والذي أراه أن هذه الاستراتيجية (استراتيجية الإفراط في التعميم) أو (القياس) لها ارتباط مهم بـ "القدرة المعرفية"¹⁰ (Cognitive) عند المتعلم فليس كل المتعلمين سواء في عملية تلقي اللغة؛ فهناك قدرات خاصة بكل متعلم لأن ما يجري في أعماقه من عمليات ذهنية لا يمكن الكشف عنها ومعرفة فيتفاوت المتعلمون - بذلك - في إتقان اللغة الهدف وتطبيق قواعدها، تبعاً لاستراتيجية معينة يتبعها كل متعلم.

فمن الواضح أن غلام الجاحظ - ويقال له "نضيس" - كان يفتقر إلى "القدرة المعرفية" في العربية، ممثلة في طرق تركيب الجملة العربية؛ فقد قال له الجاحظ يوماً:

- بعثتك إلى السوق في حوائج فاشترت ما لم أمرك به وتركت كل ما أمرتك به فقال الغلام:

- يا مولاي، أنا ناقة وليس في ركبتي دماغ¹¹ !¹²

وظاهر من هذا الجواب أن غلام الجاحظ لا يدرك شيئاً من قواعد تركيب الجملة الفصيحة، فجملته هذه غير مفهومة، ويبدو أن الجاحظ نفسه لم يفهمها، بدليل أنه لم يفسر لنا ماذا يريد الغلام أن يقول.

إن هذه "القدرة المعرفية" التي افتقدها غلام الجاحظ هي ما أعجزه عن صياغة الحدث الكلامي بشكل مفهوم ووفقاً لقواعد العربية، لأن اللغات - كما يقول الجاحظ - : «إنما تشتدّ وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التي وُضعت فيها...»¹³.

ومن أمثلة الجهل بالقواعد والذي يكشف عن فراغ في "القدرة اللغوية" للمتعلم، ما ذكره الجاحظ أيضاً وعده نوعاً آخر من "اللكنة" حيث قال: «وباب آخر من اللكنة؛ قيل لنبطي: لم ابتعت هذه الأتان؟ قال: «أركبها وتلد لي» فجاء بالمعنى بعينه، ولم يبدل الحروف بغيرها، ولا زاد فيها ولا نقص، ولكنه فتح المكسور حين قال: وتلد لي، ولم يقل: تلد لي».¹⁴

وتفسير هذا أن الرجل النبطي إنما قاس "تلد" بفتح اللام على ما يعرفه من فتحها في الماضي "ولدت" أو في الاسم "الولد"، أو قياساً على فتح العين في الفعل الأول "أركب" الوارد في سياق كلامه.

وهذا النوع من الاستراتيجية (استراتيجية القياس) يحصل فيه الالتباس لدى المتعلم بنسخ قاعدة على أخرى، بالرغم من الاختلاف بينهما، وهي هنا حركة العين بين الفعل في الماضي وفي المضارع.

وقول الجاحظ "هذا باب آخر من اللكنة" يدل على وعيه بأن "اللكنة" لا تكون بتأثير الأساس اللغوي¹⁵ أو العادات اللغوية للمتعلم فحسب - كما رأينا في استراتيجية التداخل - وإنما قد تكون أيضاً بعدم التمكن من القواعد التركيبية للجمل أو عدم معرفة حركات البنية الصرفية كما قي "تلد" وغيرها من ألوان النقص في "القدرة المعرفية" في اللغة.

ولكن مع ذلك فإن من المتعلمين من يستطيع إتقان اللغة الثانية ويتمكن من امتلاك القدرة اللغوية المطلوبة في تعلمها كحال موسى بن سيار الأسواري وكان قصاصاً، وقد أخبر عنه الجاحظ فقال: «... وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتعقد العرب عن يمينه، والفرس عن يساره، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرهما للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية، فلا يُدرى بأي لسان هو أبين»¹⁶.

(2) **المبحث الثاني: مستويات "اللغة الوسيطة"**: إن هناك مجموعة من المستويات المختلفة في تصنيف الخطأ والانحراف في "اللغة الوسيطة" هي مستويات: الصّوت، والصّرف، والتّركيب، والمعجم، والدلالة، والإملاء والتّداول ونحن في هذا المقام سنتناول ثلاثة مستويات نراها كافية ومستوعبة لخصائص "اللغة الوسيطة" كما تناولها الجاحظ، وهي: المستوى الصّوتي، والمستوى الصّرفي، والمستوى التّركيبي.

1.3. **المستوى الصّوتي**: سجل الجاحظ مجموعة من الملاحظات الصّوتيّة التي ظهرت على السّنة بعض العرب، وعلى السّنة كثير من غير العرب بحيث كان هؤلاء يسقطون بعض الأصوات أو يُحولونها إلى أصوات أخرى، وقد عبّر الجاحظ عن هذا التّحول -من الصّوت الأصلي إلى صوت آخر عند الأعجمي- بمصطلح "اللكنة".

ويضرب لنا الجاحظ بعض الأمثلة على استبدال بعض الأصوات لدى الأعاجم من المتعلمين للعربيّة فيقول: «كان رجل بالبصرة له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها قال: يا ضمياء، بالضاد. فقال ابن المقفّع: قل: يا ظمياء فناداها يا ضمياء، فلما غير عليه ابن المقفّع مرتين أو ثلاثاً قال له: هي جاريّتي أو جاريّتك؟»¹⁷.

ومن أمثلة ذلك أيضاً عند الجاحظ ما ذكره من أن أمّ ولد لجريّر بن الخطمي، قالت لبعض ولدها: «وقع الجرّدان في عجان أمّكم» فأبدلت الذال من الجرّدان دالاً¹⁸ وضمت الجيم، وجعلت العجين عجائناً.

وقال بعض الشعراء في أمّ ولد له، يذكر لُكنتها:

أَوَّلُ ما اسمع منها في السّحر تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

والسّوءة السّوءاء في ذكر القمر

لأنها كانت إذا أرادت أن تقول القمر، قالت: الكمر.

وممن كان يبدل القاف كافاً -أيضاً- أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة وكان كما يقول الجاحظ «حسن الألفاظ جيد المعاني، ولكنه كان إذا أراد أن يقول: «قلت لك» قال: «كلت لك» فشارك في تحويل القاف كافاً عبید الله بن زياد»¹⁹.

والملاحظ - في مثالي أبي مسلم وعبید الله بن زياد- أن صوت القاف صوت من أصوات الإطباق لا تعرفه الفارسية²⁰، ولذلك كانت صعبة النطق على فارسي يتلقى العربية²¹، كما أن عبید الله بن زياد رجل نشأ في الأساورة وهم قوم من العجم نزلوا بالبصرة قديماً، فاستعصى عليه النطق بالقاف لأن هذا الصوت لم يعتد عليه في لغته.

ومن الشعراء الذين تسربت إليهم اللكنة في أصوات كلامهم زياد بن سلمى المعروف بزياد الأعجم فقد كان يجعل السّين شيناً والطاء تاء فيقول: «فتى زاده الشلتان» حين ينشد البيت الشعري الذي يقول فيه:

فتى زاده السلطان في الودّ رفعة إذا غير السلطان كلّ خليل²²

فأما جعله السّين شيناً، فيفهم منه أنّه لم يكن يميّز بينهما تمييزاً واضحاً وربما يعود ذلك إلى أنّ هذا التّمييز لم يكن خصيصة من خصائص أساسه اللغوي؛ فمعلوم أن بعض اللغات السّامية مثل العبريّة والآرامية²³ لم تكن تميز بين "السّين" و"الشّين" إلا في الكتابة²⁴.

وأما جعل زياد الأعجم الطّاء تاء، فهذا يعني أنّه لم يستطع نطق الطّاء المطبقة وأبدلها بصوت غير مطبق، كما فعل أبو مسلم الخراساني في المثال السابق.

ومن أمثلة هذا الباب -أيضاً- ما ذكره الجاحظ من أن أحد العمال وكانت لُكنته نبطيّة فكان يجعل "الحاء" "هاء" ويروي أنّه أملى على كاتب له فقال اكتب: الهاصل ألف كُرّ، فكتبها الكاتب بالهاء كاللفظ بها، فأعاد عليه الكلام فأعاد الكاتب، فلما فطن لاجتماعهما على الجهل قال: أنت لا تهسن أن

تكتب وأنا لا أهن أن أملي، فاكتب: الجاصل ألف كُر؛ فكتبها بالجميم المعجمة.²⁵

ويرى "تشيم رابين" أن نطق الحاء هاء «تعبير معتاد»²⁶ لدى النبطيين²⁷ وتبعهم في ذلك بعض قبائل العرب التي عاشت معهم، كسعد بن زيد مناة ولخم وقبائل جنوب اليمن.

2.3. المستوى الصّريفي: سجل لنا الجاحظ بعض العبارات التي استخدمها بعض المتعلمين للعربية من البلاد المفتوحة، وقد جاءت هذه العبارات ممسوخة مشوهة تعكس جهل هؤلاء المتعلمين لبعض قواعد العربية، في الجوانب الصرفية والنحوية وغيرها.

فمن أمثلة الجانب الصّريفي ما ورد في قصة تاجر الدواب الخراساني الذي كان يبيع الدواب للجيش الإسلامي، فقال له الحجاج: أتبيع الدواب المعيبة إلى جند السلطان؟ فقال التاجر: «شريكنا في هوازها، وشريكنا في مداينها وكما تجي تكون» فقال الحجاج ما تقول، ويلك! فقال بعض من قد اعتاد على سماع الخطأ وكلام العلوج بالعربية حتى صار يفهم مثل ذلك: يقول: شركاؤنا بالأهواز وبالمداين، يبعثون إلينا بهذه الدواب، فنحن نبيعها على وجوهها²⁸.

فكلمة "شريكنا" - في الجملة التي قالها التاجر - هي تحريف لكلمة "شركاؤنا" العربية، وهذا يعني أن المتحدث لم يعرف صيغة الجمع الصحيحة في العربية وهي (شركاء)، وهي صيغة جمع التّكسير، كما أنه لم يجمع الكلمة على نحو عربي، بل أضاف علامة الجمع في الفارسية (آن)، وبذلك نشأت هذه الصيغة الهجين²⁹.

كما نلاحظ أيضاً في الجملة التي قالها التاجر استخدامه النسبة إلى الأهواز، أو أنه استخدم الهاء للتعريف ووضعها في نهاية الكلمة، لأنه نطق

"هوازا" بدلاً من "الأهواز" وكرر ذلك مرة أخرى، فنطق "مداينها" بدلاً من "المداين". واستخدام الهاء للتعريف موجود في بعض اللغات السامية، غير أنه يقع عادة في أول الكلمة لا في آخرها، أو لعله أراد أن يقول: من بلادها فتصبح الهاء مضافاً إليه ³⁰.

أما جملة «وكما تجي تكون»، التي جاءت مختصرة اختصاراً شديداً على نحو لم يعرفه النسق اللغوي في العربية، فيبدو أنها مصوغة على طريقة اللغات الهندية الأوروبية من حيث وقوع الفعل المساعد auxiliary verb في نهاية الجملة كما يقال في الإنجليزية as it is والتي تكتب عادة وفقاً للنطق as it's ³¹. ومن أمثلة المستوى الصري أيضاً ما ذكره الجاحظ من أن أم ولد لجريز بن الخطفي قالت يوماً لبعض ولدها: «وقع الجردان في عجان أمكم».. فجعلت العجين عجاناً ³².

فقد نطقت المرأة صيغة "عجين" التي على وزن: "فعليل"، نطقها "عجان" على وزن "فعال"، فحولتها إلى أقرب الصيغ في الفارسية وأشبهها ³³. أو لعل السبب في ذلك أن المرأة أخطأت في نطق الياء فحولتها ألفاً لجهلها بقاعدة بناء الكلمة أو أنها فعلت ذلك قياساً على ألف الجردان، فمائلتها بها.

3.3. المستوى التركيبي: ساق الجاحظ أمثلة متعددة عن الخلل في الجانب التركيبي في نطق بعض غير العرب، أو في نطق بعض العرب ممن عاش بين الأعاجم؛ فمن ذلك مثلاً ما أورده الجاحظ في قصة غلامه "نضيس" حين قال لبعض أصدقائه: «الناس ويلك أنت حياء كلهم أقل! يريد: أنت أقل الناس حياءً» ³⁴.

فالإخلال بترتيب عناصر الجملة، فضلاً عن اختفاء علامات الإعراب جعل من كلام الغلام كلاماً بعيداً عن طرق تركيب الجملة العربية في الفصحى.

ومن ذلك أيضاً إجابة غلام الجاحظ حين سأله يوماً: هذا الصبي، في أي شيء أسلموه؟ فقال: في أصحاب سند نعال، يريد أصحاب النعال السندية.³⁵ نلاحظ في هذا المثال التعبير المركب (سند نعال) بدلاً من التعبير العربي "النعال السندية" أو "نعال السند"، والعربية لا تعرف هذه التعبيرات المركبة وإنما تعبر عن هذا المعنى بالموصوف والصفة، أو بالمضاف والمضاف إليه.³⁶ ومن أمثلة ذلك - أيضاً - ما ذكره الجاحظ من خبر الوليد بن عبيد الملك بن مروان - وكان لحناً - فقد قال يوماً لأبيه حين قتل أحد الخوارج وكان يدعى أبو فديك: «يا أمير المؤمنين اقتل أبي فديك» وقال يوماً: «يا غلام ردّ الفرسان الصادّان عن الميدان».

قال الجاحظ: كان الوليد ومحمد ابنا عبد الملك لحانين.³⁷ فقد جانب الوليد الصواب في نطق علامات الإعراب على الوجه الصحيح. ومن أمثلة الخطأ في المستوى التركيبي ما ذكره الجاحظ من أن «عبيد الله بن زياد كانت فيه لُكنة؛ لأنه نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة... وكان قال مرة: افتحوا سيوفكم، يريد: سلّوا سيوفكم...»³⁸.

فهذه الجملة مختلة التركيب، وهي تشبه ما وصفه سيبويه من الكلام بأنه "المستقيم القبيح" حين قال: «وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيداً رأيت، وكى زيد يأتيك، وأشبه هذا»³⁹، وإن كان حديث سيبويه هنا هو حول جانب التركيب النحوي دون الجانب الدلالي. وأما الجانب الذي يشير إليه الجاحظ - في مثاله السابق - فهو جانب ما اصطُح عليه في الدراسات الحديثة بالعلاقات الدلالية⁴⁰ بين الكلمات داخل التركيب، فلو فهم أحدهم جملة عبيد الله بن زياد فهماً حرفياً كما نطق بها لكان عليه أن يشق جراب سيفه مثلاً لكي يفتحه كما قال.

فكلمة "افتحوا" لا تتوافق دلالياً - في التركيب العربي - مع كلمة "سيوفكم". لأنه ليس هناك علاقة تركيبية دلالية ممكنة في الاستعمال العربي

بين "افتحوا" و"سيوفكم"، والاستبدال الصّريّ الجدولي الذي أجراه عبد الله بن زياد بين "سلوا" و"افتحوا" بحيث أحل الثّانيّة محل الأولى في سياق الجملة المذكورة.. هذا الاستبدال أفضى إلى الكشف عن علاقة غير ممكنة تركيبياً ودلائياً في نسق العربيّة بين "افتحوا" و"سيوفكم"، على مستوى المحور الرّكني الأفقي.

ويمكننا توضيح ذلك أكثر بما أورده بعض اللسانين المعاصرين^{1 4} مما يكون من علاقة تركيبية ممتنعة أو صحيحة بين الأفعال الإنجليزيّة الآتيّة في سياقها اللغوي الذي وردت فيه.

والأفعال هي: Likes, Lives, Sees, Looks at

يمكن إيضاح ذلك بوضعها في سياق واحد مثل:

The man sees the dog الرّجل يرى الكلب

The man looks at the dog الرّجل ينظر إلى الكلب

The man Likes the dog الرّجل يحب الكلب

The man lives the dog الرّجل يعيش الكلب

إن التّواليف الثلاثة الأولى ممكنة، وأما الرّابعة فغير ممكنة.

الخاتمة: بعد أن تناولنا مفهوم "اللغة الوسيطة" بوصفها نسقاً لغوياً يستعمله متعلمو اللغة الثّانيّة بغرض الاقتراب من نظام اللغة الهدف، وبعد بياننا لاستراتيجيّات "اللغة الوسيطة" عند المتعلم، وبعد تعرفنا إلى طبيعة تلك المشكلات التّداخليّة والمعرفيّة التي تعترض طريق التّلقّي اللغوي، مع إجراء المقاربة على ما أورده الجاحظ من ملحوظات حول تعلم اللغة العربيّة على السّنة غير العرب من البلاد المفتوحة.. بعد ذلك كله يمكننا أن نخلص إلى جملة نتائج محددة:

- 1- تعدّ اللغة الوسيطة مستوى لغوياً تطورياً مستقلاً في عملية التعلّم، من خلال ما تتميز به من قواعد خاصة، تتبدى فيها صور التداخل والنقل بين اللغة الأم واللغة الهدف، ويظهر فيها مستوى القدرات المعرفية اللغوية عند المتعلم .
- 2- لقد تجلّت إستراتيجيتا: "التداخل" و"الإفراط في التعميم" بشكل واضح فيما تناوله الجاحظ من ملحوظات لغوية.. ذكرها وهو يصف لنا مستوى "اللغة الوسيطة" عند طائفة من الأعاجم المتعلمين للعربية، بل وحتى على السّنة بعض العرب ممن نشأ بين الأعاجم.
- 3- لغة الوسيطة في عملية التعلّم مستويات عدة هي: المستوى الصوتي والمستوى الصّرفي، والمستوى التركيبي، وكلها مستويات كشف التحليل فيها عن خضوع "اللكنات الأعجمية" للتأثير المباشر، الذي تمارسه اللغة الأم على لغة هذه الطبقة العريضة من أهل البلاد المفتوحة، كما كشف التحليل أيضاً عن أنماط من الجهل بالقواعد و القياس على الرّصيد من اللغة الثّانية، مع ما يؤدي إليه ذلك من الإفراط في التعميم بصوره المتعددة .

قائمة بمراجع البحث:

1.5. المراجع العربية.

- 1- إبراهيم (د. رجب عبد الجواد)، الاقتراض المعجمي من الفارسية إلى العربية في ضوء الدرس اللغوي الحديث، مكتبة دار القاهرة، القاهرة، ط1 2002م.
- 2- أحمد (د. عطية سليمان)، الجاحظ والدراسات اللغوية، مكتبة زهراء الشرق القاهرة د.ط، دت.
- 3- إفتيش (ميلكا)، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح ووفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 2000م.
- 4- برجشتراسر (جوتهلغ)، التطور النحوي للغة العربية، إخراج: د. رمضان عبد التّواب مكتبة الخانجي، القاهرة/ دار الرفاعي، الرياض، د.ط 1402هـ - 1982م.
- 5- بارتشت (برجيتة)، مناهج علم اللغة من هرمان بول حتى ناعوم تشومسكي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، 1425هـ / 2004م.
- 6- بعلبكي (د. رمزي منير)، فقه العربية المقارن - دراسات في أصول العربية وصرفها ونحوها على ضوء اللغات السامية، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1999م.
- 7- بنان (د. مصطفى)، تحليل الأخطاء - مقارنة لسانية تطبيقية لتعلم اللغة العربية دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 1436هـ - 2015م.
- 8- باي (ماريو)، أسس علم اللغة، ترجمة: الدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب القاهرة ط8، 1419هـ - 1998م.
- 9- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، - البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، د.ط، دت.
- الحيوان، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط2، القاهرة، 1385هـ - 1965م.
- 10- حجازي (د. محمود فهمي)، علم اللغة العربية - مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، وكالة المطبوعات الجامعية، الكويت، د.ط، دت.

- 11- خليل (د. حلمي)، دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية د.ط، 2010م.
- العربية والغموض - دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ط1، 1988م.
- 12- دي سوسير (فردينان)، محاضرات في الالسنية العامة، ترجمة: يوسف غازي ومجيد الناصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، د.ط، 1986م.
- 13- رابين (تشيم)، اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية، ترجمة: الدكتور عبد الكريم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان، ط1، 2002م.
- 14- الراجحي (د. عبده)، علم اللغة التطبيقية وتعليم العربية، دار النهضة العربية بيروت ط2، 1425هـ - 2004م.
- 15- الزعبي (د. آمنة صالح)، في علم الأصوات المقارن، التغير التاريخي للأصوات في اللغة العربية، واللغات السامية، دار الكتاب الثقافي، إربد (الأردن)، د.ط، 1426هـ - 2005م.
- 16- سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر)، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون دار الجبل، بيروت، ط1، د.ت.
- 17- عبد العزيز (د. محمد حسن)، مدخل إلى علم اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط 1420هـ - 2000م.
- 18- فندريس (جوزيف)، اللغة، تعريب: عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، د.ن د.ط د.ت.
- 19- فوك (يوهان)، العربية - دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة وتعليق: الدكتور رمضان عبد التّواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، 1400هـ - 1980م.
- 20- الكرمل (الأب أنستاس ماري)، نشوء اللغة العربية ونموها وكتّالها، مكتبة الثقافة الدينية، د.ط، د.ت.
- 21- مبارك (د. مبارك)، معجم المصطلحات الالسنية، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1 1995م.

22- المسدي (د. عبد السلام)، التفكير اللساني في الحضارة العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط3، 2009م.

23- مالبج (برتيل)، مدخل إلى اللسانيات، ترجمة: السيد عبد الظاهر، مراجعة وتقديم: صبري التهامي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010م.
المراجع بالأجنبية:

- Rivers (wilga.M) The Psychologist and the Foreign Language Teacher, The University of Chicago Press, Chicago, 1964.

الهوامش:

- ¹ - Rivers, wilga M. The Psychologist and the Foreign Language Teatcher, p(126).
- ² - يراد بـ "المنهج المباشر" في تعلّم اللغة الثّانية، المنهج الذي يستهدف تعلم اللغة الثّانية مباشرة دون اعتبار للغة الوسطى أو دون تحويلات باللغة الأمّ، وقد اعتمد المنهج المباشر على مصدرين: مصدر لغوي وآخر نفسي؛ البنيويّة التي انبثقت عن نظريّة دي سوسير، ومدرسة براغ وعلم اللسانيات الأمريكي. ينظر: برتيل مالبرج، مدخل إلى اللسانيات، ص 316. وينظر: محمد حسن عبد العزيز، مدخل إلى علم اللغة، ص 119.
- ³ - ينظر: مبارك مبارك، معجم المصطلحات اللّسانية، ص 150. وينظر: المصطفى بنان، تحليل الأخطاء -مقاربة لسانية تطبيقية لتعلم اللغة العربيّة، ص 33 و34.
- ⁴ - الجاحظ، البيان والتبيين، 69/1.
- ⁵ - الجاحظ، البيان والتبيين، 39/1 و40.
- ⁶ - مصطلح "العادات اللغويّة" يُعنى به أن «الشعب الذي يتخذ لغة جديدة يطبق عليها أحياناً عوائد النطق في اللغة التي تركها»، فندرس، اللغة، ص 82. وينظر: ماريو باي، أسس علم اللغة، ص 139. وأيضاً: محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربيّة -مدخل تاريخي مقارن في ضوء التّراث واللغات السّامية، ص 248 وما بعدها.
- ⁷ - الجاحظ، البيان والتبيين، 70/1.
- ⁸ - يرى "يوهان فوك" أن هذا المستوى اللغوي نشأ في العربيّة لتسهيل التّفاهم بين أهل البلاد المفتوحة وبين العرب، وبخاصة أولئك الذين يقومون على خدمتهم. ينظر: يوهان فوك، العربيّة، ص 243. وينظر: عطية سليمان أحمد، الجاحظ والدراسات اللغويّة، ص 72 و73.
- ⁹ - ينظر: المصطفى بنان، تحليل الأخطاء، ص 34.
- ¹⁰ - "القدرة المعرفيّة" هي أحد المعايير التي وضعها العلماء لتفسير الأخطاء التي يقع فيها متعلمو اللغة الثّانية. ينظر: عبده الرّاجحي، علم اللغة التّطبيقي وتعليم العربيّة، ص 58.
- ¹¹ - لعله يقصد: أنا مثل النّاقة ليس في رأسي عقل أفهم به ما قلته لي من كلام.
- ¹² - الجاحظ، البيان والتبيين، 26/4.
- ¹³ - الجاحظ، الحيوان، 289/7.
- ¹⁴ - الجاحظ، البيان والتبيين، 74/1.

- 15 - تأثير الأساس اللغوي في تعلم اللغة الثانية قانون عبّر عنه الجاحظ بقوله: «واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتهما». الجاحظ، البيان والتبيين 368/1.
- 16 - الجاحظ، البيان والتبيين، 368/1.
- 17 - الجاحظ، البيان والتبيين، 211/2.
- 18 - من الواضح أن هذه المرأة كانت قد نشأت في بيئة لغوية لا تميز بين الدال والذال، فالذال والذال في الآرامية مثلاً صورتان صوتيتان لوحدة صوتية واحدة. ينظر: محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص 249 و250. وينظر: آمنة صالح الزعبي، في علم الأصوات المقارن، ص 108 وما بعدها.
- 19 - الجاحظ، البيان والتبيين، 73/1.
- 20 - والدليل على هذا أن كلمة "القماش" أصلها في الفارسية "كماش" ولما دخلت العربية حدث لها تغير صوتي بقلب الكاف قافاً، ولو كانت القاف في الفارسية موجودة أصلاً لما احتجنا إلى هذا القلب. ينظر: رجب عبد الجواد إبراهيم، الاقتراض المعجمي من الفارسية إلى العربية، ص 94.
- 21 - ينظر: محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص 249. وينظر براجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، ص 20.
- 22 - الجاحظ، البيان والتبيين، 71/1.
- 23 - تُعدُّ اللغة الآرامية اللغة التي كان يتعامل بها النبط -وهم شعب عربي شمالي- مع غير العرب من أجل التفاهم والتبادل. ينظر: محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص 181 و182.
- 24 - رمزي، منير بعلبكي، فقه العربية المقارن، ص 191.
- 25 - الجاحظ، البيان والتبيين، 71/1.
- 26 - ينظر: تشيم رابين، اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية، ص 247.
- 27 - قال الأب أنستاس ماري الكرملّي: «.. النبطية هي المندائية أي أنها اللغة الآرامية ببعض مزايا وخصائص، وبخلوها من أحرف الحلق الضخمة كالحاء والخاء والعين». نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاها، ص 67.
- 28 - الجاحظ، البيان والتبيين، 161/1 و162.
- 29 - ينظر: محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص 247.
- 30 - حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص 192.
- 31 - حلمي خليل، العربية والغموض -دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى ص 188.

- ³² - ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، 1/73.
- ³³ - ينظر: حلمي خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، ص 200.
- ³⁴ - الجاحظ، البيان والتبيين، 4/26.
- ³⁵ - الجاحظ، البيان والتبيين، 4/27.
- ³⁶ - محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، ص 248.
- ³⁷ - الجاحظ، البيان والتبيين، 2/204 و 205.
- ³⁸ - الجاحظ، البيان والتبيين، 2/210.
- ³⁹ - سيبويه، الكتاب، 1/26 في باب "الاستقامة من الكلام والإحالة".
- ⁴⁰ - تخضع الوحدات اللغوية في نسق لغوي ما إلى "علاقات استبدال" تتم على مستوى الذهن و"علاقات تتابع" تتم بين الوحدات اللغوية في سلسلة الكلام. ينظر: دي سوسير، محاضرات في الالسانية العامة، ص 149. وينظر: برجيتيه بارتشت مناهج علم اللغة، ص 100. وينظر: ميلكا إفتيش اتجاهات البحث اللساني، ص 333 و 334. وينظر: عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية ص 276.
- ⁴¹ - ينظر: ميلكا إفتيش، اتجاهات البحث اللساني، ص 333.

المحور الثاني

دراسات لغوية معاصرة



الأبعاد التأويلية لحجاج السخرية في الخطابات الشعرية

قراءة حجاجية لقصيدة "أقزام طوال" لأحمد مطر

The interpretive dimensions of the argumentation of
irony in poetic discourse

A reading of the poem "Dwarfs throughout" by Ahmed Matar

أ. محمد الصالح بن حمده¹

أ. د. عاشور سرقمة²

تاريخ الاستلام: 27-25-2019 تاريخ القبول: 12-09-2019

الملخص: حجاج السخرية أحد صور الحجاج، وهو يملك كل المقومات التي تجعل منه حجاجاً ناجحاً ومؤثراً يؤدي إلى إقناع المتلقي بالرأي الذي يحمله الخطاب، ذلك لأن السخرية عادةً ما تميل لها النفس البشرية وتحببها، لما لها من قدرة في لفت الانتباه وجذب المتلقين للخطاب .

وقصيدة "أقزام طوال" للشاعر أحمد مطر نموذج حي حول توظيف الحجاج بالسخرية في الخطاب الشعري .

الكلمات المفتاحية: حجاج ؛ سخرية ؛ خطاب ؛ شعر ؛ تأويل .

ABSTRACT: The ironic argumentation is a type of the argumentative discourse that has all the elements making it a successful and influential argumentation because the irony attracts, in general, the human psyche and it has the ability to convince the receiver of the opinion carried out by the speech.

¹ جامعة غرداية، الجزائر، البريد الإلكتروني: @gmail.com_salahbenhamda

² جامعة غرداية، الجزائر، البريد الإلكتروني: sergmaachour@yahoo

The poem "Tall dwarves " of the poet Ahmed Matar, is an appropriate model of the ironic argumentation in the poetic discourse.

Keywords: argumentation – ironically – Speech – poetic – paradoxically – Interpretation.

المقدمة: يعتبر الحجاج ظاهرة لغوية انفعالية وتفاعلية، أفرزها المجتمع بغرض التبليغ والإقناع والتأثير في الطرف الآخر، والخطاب الحجاجي هو خطاب موجه غايته القصوى إقناع المتلقي بما يحمله من أفكار وما يعرضه من مواقف ليحدث بذلك أثرا واضحا في المتلقي من حيث أفكاره ومواقفه وتحقيق هذا التغير والتبدل في أفكار ومواقف المتلقي يُعدّ علامة نجاح الخطاب الإقناعي وهو النتيجة المتوقعة لخطاب ناجح وحجاج ناجع، وبما أن الحجاج من الوسائل اللغوية التي تساعد على فهم مقصدية الكلام ومراده فقد حمل أشكالا وصورا مختلفة يصنعها سياق الحال الذي يربط بين عناصر الدورة التواصلية .

يهتم الحجاج بجوانب كثيرة في الخطاب، حيث لا غنى للحجاج عن البلاغة والأساليب المجازية ولا سبيل للاقتناع في كثير من الأحيان دون رصد مختلف الوسائل التي يعتمد عليها في إثارة المتلقي والتأثير فيه ومن ثم إقناعه وتعدّ السخرية من بين المقومات التي يستند عليها الحجاج .

إنّ حجاج السخرية من بين أشكال الحجاج ومجالاته وهو فن إبداعي يمثل مظهرا من مظاهر الحياة، حيث يعتبر لونا قديما قدم الإنسان على وجه الأرض وتعتبر السخرية من الوسائل الإقناعية التي تحمل طابع المفارقة والذي يعتبر طابعا حجاجيا يسهم في كشف الأبعاد التأويلية للخطاب بصفة عامة والشعري منه بصفة خاصة وتعبّر السخرية عموما عن تعدد الأصوات في الخطاب الحجاجي، ولا بدّ للدارس لهذا الخطاب أن يتفطن لذلك وأن يحدد تلك الأصوات ليكشف ما تخفيه من حجاج .

والخطاب الشعري كغيره من الخطابات محمّل بالآليات الحجاجية التي يوظفها الشاعر بغية التبليغ والإقناع والتأثير في المتلقي، ومن ثمّ الإسهام في كشف أبعاده التأويلية للوصول إلى المعنى العميق المراد والاقتناع به، ومن هنا نطرح الإشكال الجوهرى التالي: كيف يتجلّى حجاج السخرية في الخطاب الشعري؟، وما هي أبعاده التأويلية في هذا الخطاب؟ .

وقد اخترنا نموذجاً تطبيقياً نسعى من خلاله للإجابة على الإشكالية المطروحة متمثلاً في قصيدة " أقزام طوال " للشاعر أحمد مطر، والذي يعتبر من الشعراء العرب الذين تميّزوا في استعمال حجاج السخرية كنوع من الهجاء اللاذع للوضع العربى السائد والظلم والطغيان والاستبداد الذي يمارسه الحكام العرب على شعوبهم وهذه القصيدة تجسّد بوضوح حجاج السخرية، حيث أنها مشحونة بالخطابات الساخرة التي تعطيها قوة حجاجية متمثلة أكثر في المفارقة والتّهمكّ للذين وظفهما الشاعر في خطابه الساخر.

2 - مفاهيم أساسية:

2-1 - مفهوم الحجاج: عرف الحجاج اهتماماً واسعاً في العصر الحديث سواء باعتباره مبحثاً لسانياً بحثاً أم باعتباره مبحثاً منطقياً وفلسفياً وتداولياً والجدير بالذكر أن وراء هذا الاهتمام إعادة بعث لقضايا البرهان والجدل والمحااجة في المنطق الحديث ثم البلاغة الحديثة التي نشأت على أنقاض البلاغة القديمة، ممّا يفتح الباب واسعاً لتأويل الخطاب بشتى أنواعه وأشكاله، ممّا جعل التأويل ملازماً للحجاج ونتيجة حتمية له.

ولو عدنا إلى المفهوم اللغوي للحجاج نجد شبه إجماع في المعاجم العربية لمفهومه اللغوي، حيث جاء في لسان العرب لابن منظور " يقال حاججته، أحاجه حجاجاً حتى حججته: أي غلبته بالحجج التي أدليت بها والحجة: الدليل البرهان وقيل الحجة: ما دافع به الخصم، وقال الأزهري: الحجة الوجه الذي

يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل حاجج، أي جدل، وفي الحديث: (فحج آدم موسى): أي غلبه بالحجة " ¹ (ابن منظور، 1997)، فالحجة مرادف للدليل والحجاج هو القول البرهان والدليل عند التخاصم، والمقصود منه " إلزام الخصم وإسكاته " ² (محمد علي التّهاوني دت) .

أما في الجانب الاصطلاحي فيعتبر الحجاج تقديم الحجج والأدلة المؤدّية إلى نتيجة معينة، والخطاب الحجاجي هو " خطاب موجّه، وكل خطاب يهدف إلى الإقناع يكون له بالضرورة بعد حجاجي " ³ (الحواس مسعودي، 1997) ويربط "برلمان" الحجاج بالإقناع حيث يعتبره " جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه، أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع " ⁴ (سامية النريدي، 2001)، أمّا من وجهة نظر فلسفية فقد اعتبر أرسطو الحجاج " سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة، أو الطريقة التي تطرح بها الأدلة " ⁵ (مراد وهبة، 1979)

وقد رأى أبو الوليد الباجي أن الحجاج " يعدّ علما من أرفع العلوم قدرا وأعظمها شأنا، لأنه السبيل إلى معرفة الاستدلال وتمييز الحق من المحال ولولا تصحيح الوضع في الجدل لما قامت حجة ولا اتّضحت محجة ولا علم الصحيح من السقيم ولا المعوج من المستقيم " ⁶ (أبو الوليد الباجي، 2000) وقد ذكر برلمان أن الحجاج يتميز بخمسة ملامح رئيسية، وهي ⁷ (محمد سالم محمد الأمين، 2008) :

- 1 - أن يتوجه إلى مستمع .
- 2 - أن يُعبّر عنه بلغة طبيعية .
- 3 - مسلماته وبديهياته لا تعدّو كونها احتمالية .
- 4 - ألاّ يفترق تقدّمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة .
- 5 - نتائج غير ملزمة (احتمالية غير حتمية) .

2 - 2 - مفهوم السخرية: إن ظهور السخرية جاء مع ظهور الوعي الإنساني فنجدها تتجلى بتعابير بسيطة من خلال النقش على الحجر قديماً " فقد كشفت الدراسات والأبحاث الأثرية على وجود رسومات كاريكاتيرية خلفها الإنسان القديم على جدران الأهرامات المصرية كما جاءت في المعابد القديمة ... " 8 (امينة النهمي 2011)

في الجانب اللغوي " سخر: يسخر سخرًا وسخره وسُخرًا وسُخرية: هزئ به وفي الحديث (أَسْخَر مَنِي): أي تستهزئ بي " 9 (ابن منظور 1997) فالسخرية لغة هي الاستهزاء والتدليل والتحقير .

أما في الجانب الاصطلاحي فهي " شكل خطابي متفرع عن التقويمي وجنس من أجناسه الصغرى يتميز ببنية خطابية خاصة " 10 (امينة النهمي 2011)، وتقوم السخرية " على العقل والظن، وتقوم على الثقافة وسعة العلم وتهدف إلى أغراض بعيدة تتصل بالمجتمع وما فيه من المبادئ الفاسدة أو الهيئات المسيطرة أو الطبقات المنحرفة أو الشخصيات البارزة " 11 (ياسين أحمد فاعور، دت)، فهي مجال واسع يستند له الخطاب .

وهناك صلة كبيرة بين السخرية والحجاج في الخطاب، وهو ما يهمنّا في موضوعنا هذا، حيث تعتبر السخرية " تناقض قيم حجاجية، فما يسمح بقيام جملة ما ساخره عنده كونها حجة على فرضية ما " 12 (سامية النريدي، 2011) ومن هنا فإن كل خطاب ساخر يستدعي بالضرورة وجود حجاج بين طياته كما أن السخرية تعتبر " صورة من الصور المجازية تسمح بقول ما هو مختلف عما نراه في حين يعدها آخرون شكلاً من أشكال استرجاع صدى أفكار أو ملفوظات يريد المتكلم أن يشير إلى تهافتها " 13 (سامية النريدي، 2011) .

2-3 - الحجاج بالسخرية: تضطلع السخرية بوظيفة أصلية في الخطاب تتمثل في دورها الحجاجي، حيث يسعى الساخر من خلالها إلى إقناع المتلقي

بعكس ما يقول ذلك أن السّاحر يتعامل مع حجاج غير مباشر يهدف من خلاله إلى إثبات الحجة بشكل عكسي غير مباشر وهذا ما يفتح أفق المتلقي ويجعله يسعى للوصول إلى المعنى العميق المراد الذي قصده المرسل، وبالسّخرية نريد أن نسمع عكس ما نريد أن نقول، والمرسل للخطاب الحجاجي لا يسعى من خلاله إلى إثارة المتعة لدى المتلقي وإبهامه والتّحايل عليه فقط، بل يسعى إلى إقناع متلقيه في السّخرية وذلك بمشاركته في آرائه باعتماد حجج مشكلة من الإمتاع والإقناع .

إن نجاح العملية الحجاجية مرهون بمدى ذكاء المرسل وكفاءته في حسن توظيفه لآليات الحجاج وأدواته، ثم إن توظيف السّخرية يعدّ دليلاً قاطعاً على وجود الحجاج، ومن هنا فإن خطابات السّخرية " تحمل رسالة من مخاطب مدّعي لطرح فكرته أو رؤيته الخاصة ويحاول إيصالها للمتلقي قصد التأثير فيه وتغيير وجهة نظره وفي حالة اعتراض المتلقي يكون المدّعي مستعداً لإفهامه لكن عوض التّدليل بالحجاج القويم يلجأ إلى أسلوب السّخرية " 14 (رشيد الراضي 2010)، فهو من خلال هذا اللّجوء إنما يقوّي حجته ويضفي عليها صبغة الإقناع والتأثير .

فالغاية من استخدام السّخرية كوسيلة حجاجية هو التأثير في المتلقي وحمله على الإقبال على القضايا التي يعالجها السّاحر، وبالتالي فإن السّخرية مقوّم حجاجي لأنها تردّ مختصرة ومحدودة، وهذا ما يسمح للذاكرة باستيعابها واحتوائها، وهذا الأمر مهم في تناقلها وفي تأثيرها، ومن جهة أخرى فإن السّاحر " يحترف لعبة الخداع وفن الالتفاف على المحذور الذي يهدف إلى تمرير الممنوع بأسلوب السّخرية المغلق باعتماد المفارقة التي تنهض على الازدواج والتّنافر في حيزها " 15 (شوقي سعيد، 2001)، فأسلوب السّخرية عادة ما يركز على المفارقة اللفظية .

كما أن السّخرية تتضمن بعض الحجج غير المباشرة، وهي حجج مترابطة فيما بينها ووثيقة الصلة ببعضها البعض، ومن أهمها التّهم، الذي يعتبر سلاحا قويا ووسيلة فعالة لاستمالة المتلقي ليُقبل ويقتنع، فهو أسلوب مشوّق للمتلقى من جهة ويجعله يبحث عن المعنى الحقيقي العميق من جهة أخرى وللوصول إلى ذلك وجب توظيف التّأويل.

ومن أمثلة حجاج السّخرية في الخطاب الشعري نذكر ما قاله الشّاعر "حسان بن ثابت" في هجاءه لبني عبد المदान بطول أجسامهم وبدانتهم إذ شبّههم بالبغال مقابل صغر عقولهم وعدم رجاحتهم حيث شبّه أحلامهم (عقولهم) بعقول العصافير كتعبير مجازي ساخر، حيث يقول: ¹⁶ (عبد الرّحمان البرقوقي، 1983).

لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

وقد سخر الشّاعر "أبو نواس" من الباكين على الأطلال، حيث يقول ¹⁷ (أبو نواس، دت):

الاياباكي الأطلال غيرها البلى بكيت بعين لا يجف لها غرب
أتنعت دارا قد عفت وتغيرت فإني لما سالت من نعتها حرب
وظاهرة السّخرية موجودة بكثرة في الخطاب الشعري متمثلة غالبا في الهجاء حيث كان "شعر الهجاء من أوضح صور السّخرية بالخصم وكان قاسيا عنيفا مريرا ليتناسب مع ضراوة الحياة في الصحراء التي لا تعرف الرّحمة وظلت السّخرية مقصورة على شعراء الهجاء الذين سخروا للدفاع عن قبيلتهم وأنفسهم" ¹⁸ (نبيل راغب، 1996)، وهذا ما جعلنا نعتبر السّخرية فرعاً من فروع غرض الهجاء.

3 - قراءة تحليلية لحجاج السّخرية في قصيدة "أقزام طوال": اشتهر

الشّاعر أحمد مطر بهجائه الساخر اللاذع للحكام العرب، فجّل خطاباته الشعريّة

تحمل نبرة السخرية التي يحاول من خلالها جذب اهتمام المتلقي وإقناعه عن طريق الحجاج التي تحمل المفارقة، والقصيدة التي بين أيدينا " أقزام طوال " هي عينة من قصائد الشاعر التي تحمل بين طياتها خطابا ساخرا للوضع العربي السائد يسخر من خلالها الشاعر بتهكم صارخ وهو ينتقد بذلك وما الت إليه الأوضاع في الوطن العربي.

3 - 1 - أحمد مطر الشاعر الساخر: تختلف السخرية عند أحمد مطر اختلافا كبيرا عن ما نجده عند غيره من الشعراء، فلم يكن أحمد مطر يسخر من شخص لأنه قصير أو طويل أو بدين أو نحيف وغير ذلك من أنواع السخرية والهجاء التي ألفناها عند الشعراء العرب، بل إنه " شاعر يحمل قضية شعب بل قضية أمة صودرت حرياتنا وحُرمت من حقها، فهو يتحدث عن قضية إنسان سلطت عليه أنواع وأشكال من العذاب والجور والظلم والقهر والحرمان، وهو في شعره الساخر إنما يعبر عن ألم يعتصر قلبه لما كان يعانيه شعبه في حقبة زمنية معينة " 9 1 (حافظ كوزي عبد العالي، دت) .

ولد الشاعر أحمد مطر " سنة 1950 م في قرية (التنومة) إحدى نواحي شط العرب في البصرة المصرية، وقد تميّزت طفولته وصباه بالفقر والحرمان والتعثر في الدراسة واللجوء إلى عالم الكتب والثقافة هرباً من هذا الواقع المرير " 20 (الغريهاني، 2009)، وهناك بدأ رحلته على دروب القوافي وكان في الرابعة عشر من عمره " فكتب أشعاره الأولى عن مشاعر الحب وهجر الحبيبة وصدودها وليالي السهاد الطويلة، وبعد أن تجاوز العقد الثاني من عمره بدأت تتكشف شخصيته عن روح الشاعر المتمرد وبدأت أشعاره تنتشر في زوايا الوطن العربي " 21 (احمد غنيم كمال، 1998) .

ومن بين الأسباب الكبيرة في شهرة قصائد ومقطوعات الشاعر أحمد مطر صحيفة " القبس " الكويتية، حيث أنه وبعد نفيه إلى الكويت عمل محرراً ثقافياً

بها، فكانت فرصة له ليطل من خلالها على القراء بمقطوعات شعرية مكثفة تشبه الطلقات الشعرية المتلاحقة، وفي هذا الصدد يقول الشاعر في شهادة له عن جريدة القبس: " إن صلتي بالقبس هي صلة الرحم وعلاقتي بها مسألة يفرضها الولاء، فهي التي احتوتني عندما فتحت عيني وهي التي حملتني على صدرها شجاعة مريم فيما كان الرهط كله يهتف من حولها خائفا: لقد جئت شيئا فريا، إنك تستطيع أن تغير قميصك وتستطيع أن تغير بيتك بل وتستطيع أن تغير وطنك، لكنك لن تستطيع أن تغير أمتك " 22 (الخيرماني، 2009).

وقد تم نفي الشاعر أحمد مطر رفقة صديقه الرسام الفلسطيني " ناجي العلي " إلى العاصمة البريطانية لندن سنة 1986 م، وبقي الشاعر على مبدئه حتى بعد وفاة صديقه، وإلى وقتنا الراهن مازال أحمد مطر ينتج أشعارا تعبر عن ألم الفراق والاغتراب والسخرية من الحكام وهجائهم، ومن أمثلة السخرية عنده قوله في قصيدة عنوانها (التقرير) 23 (أحمد مطر، 2011):

كلب والينا المعظم

عضني اليوم ومات

فدعاني حارس الأمن لأعدم

بعدها أثبت تقرير الوفاة

أن كلب السيد الوالي ...

تسمم

ويستند أحمد مطر إلى أسلوب القصص كثيرا في خطابات السخرة بغية تفخيم درامية الأحداث وتصعيد مأساوية المشهد وتفعيل أثر المفارقة التي تحتفي بها الشخص الرمزية داخل الخطاب الشعري الذي تتوالى فيه الأحداث وتتراى عبره المشكلة من مستهل القصة في لمحة ساخرة تخطف بأسلوبها التهكمي

السّاحر لبّ القارئ المتلقي للخطاب ليتابع بشغف تسلسل الأحداث وتتابعها في حالة من الانصياع والافتناع .

3-2 - دلالة العنوان وأبعاده التأويلية: ومن خلال عنوان القصيدة (أقزام طول) تتجلى لنا المفارقة الواضحة في هذا العنوان، فقد جمع بين المتضادين وجعلهما متلازمين كصفة واحدة للمسخور منهم، فكيف لرجال أن يجمعوا بين القصر والطول ؟، ومن هنا ينجذب المتلقي نحو القصيدة من أجل محاولة فك شفرات العنوان وإزالة الدهشة التي يحملها، بيد أن ذلك لا يتأتى إلا بالبحث في الآليات الحجاجية التي يحملها الخطاب، فيدرك المتلقي حينها أنه أمام خطاب ساخر يدور حول المفارقة الحجاجية، ومن هنا تكون السخرية قد نجحت في استمالة المتلقي وإقناعه بالفكرة التي تحملها عكسيا .

وقد وظف الشّاعر خطاب السّخرية في هذا العنوان في ملمحين خطابيين الأول نحوي وهو الحذف، حيث أن المبتدأ هنا محذوف وتقديره (هؤلاء) والثاني دلالي معجمي على اعتبار أن الخبر نكرة موصوفة القصد منها السّخرية لأن النكرة دليل على التّجاهل والرّفّض، ومقصديّة الخطاب من وراء هذا العنوان توجيه رسالة مضمرة من خلال دلالة القزم كونه حالة ثابتة غير قابلة للتحوّل في حدود النسق الإيديولوجي، غير أن المفارقة والسّخرية جعلت التّغير ممكنا والمؤكد أن الشّاعر لا يعني القزم الحقيقي وإنما المجازي الذي يعبر عن القصور والتّحقير، والتّصوير هنا يجمع بين الاستعارة والكناية في نفس الوقت وهي آليّة الحجاج التي وظفها الشّاعر في هذا العنوان والتي تجمع بين النقيضين.

والصورة البديعية الواردة في العنوان تمثلت في الطّباق بين (أقزام - طوال) دون أي فاصل بينهما وهذه الصورة تبعث في ذهن المتلقي العديد من التّساؤلات والاستفسارات محاولةً منه للوصول إلى المعنى العميق المراد خلف هذه الصورة والواضح أن الصورة جاءت بصيغة الجمع لتبيّن لنا أن المقصود جماعة وليس

فردا والمعروف أن الطَّباق يهدف في غالب الأحيان إلى توضيح المعنى وتقريبه إلى الأذهان على اعتبار أنه بالأضداد تتضح الأمور، ولكن في هذه الصورة التي بين أيدينا عكس ذلك تماما حيث أن المعنى بقي غامضا بعيدا عن الذهن يصعب إدراكه والوصول إليه، ومن ثم تكون السَّخريّة قد فرضت نفسها ووضعت المتلقي بين أحضانها للتأثير فيه وإقناعه بما يريده المرسل السَّخر .

واعتمد الشَّاعر هنا الحجاج بالتَّضاد والتَّنَاقض في المفارقة اللفظيّة الذي يقوم على الجمع بين المتضادات والمتناقضات من أفعال وأسماء ليجسد الشَّاعر انفعاله مع ما يراه من مظاهر التَّنَاقض والتَّلَاعب والقلب في واقع الأمة العربيّة حين يصبح الظالم قاضيا والجبان مدافعا والجاهل عالما والجلاد ضحيّة، وهو ما عبّر عنه هنا من خلال " أقزام طوال "، وهو ما ينتجه التَّأويل، على اعتبار أن التَّأويل " إخراج اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر يحتمله وليس هو الظاهر فيه " 24 (محمد سالم ابو عاصي، 2010) .

وعنوان القصيدة غالبا ما يفتح الآفاق عند المتلقي لفهم النص الشعري ويعطي تمهيدا عن محتوى القصيدة " فهو الذي يحدد هويّة القصيدة - وإن صحت المشابهة - فهو بمثابة الرّأس للجسد والأساس الذي يبنى عليه " 25 (محمد مفتاح، 1987)، وهذا ما لمسناه في قصيدة " أقزام طوال " التي كان لها من عنوانها نصيب كبير كما أن الشَّاعر أفلح إلى حد كبير في اختيار العنوان لما له من مقوّمات حجاجيّة مؤثرة في المتلقي عن طريق الصورة البلاغيّة التي يحملها .

3-3- صور حجاجيّة من مضمون القصيدة: افتتح الشَّاعر القصيدة بمقطع حشد فيه مجموعة من الحجج السَّخرة بغية لفت انتباه المتلقين والتأثير فيهم، حيث يقول:

أيها الناس قفوا نضحك على هذا المأل

رأسنا ضاع ولم نحزن
ولكنّا غرقنا في الجدال
عند فقدان النعال

فأسلوب النداء الذي اعتمده الشاعر في مطلع القصيدة الغرض منه لفت الانتباه إلى ما بعده واستمالة المتلقين للخطاب، وهذا الأسلوب يحمل طاقة حجاجية هامة وذلك لما فيه من إثارة واضحة يستقطب بها المتلقين ويستجلب أسماعهم، وهو لا يكتفي بالإثارة الكامنة في المطلع بل ينتقي من الألفاظ ما يسبغ به على فحوى خطابه صدقا وخبرة يرفعانه إلى درجة الواعظ الخبير بالحياة، وينفيان عنه كل تشكيك وخداع . ثم أنه لم يحدد متلقن بعينه بل أن مقصوده من الخطاب شمولي وذلك نستسيغه من لفظة " الناس " التي تجمع كل الأطياف والأجناس والأعمار والدراجات، وكأن الشاعر يريد أن يرسل رسالة مفادها أن الجميع معنيون بخطابه ومشاركون فيه وبالتالي يجب إقناعهم والتأثير فيهم .

ثم يتجلى الأسلوب الإنشائي المتمثل في الأمر " قفوا " ليكون استباقا للمقصود من الخطاب ومسندا له، حيث تتجلى السخرية في لفظ " نضحك " فبالرغم من أن الأمر جلل إلا أن الشاعر يدعو المتلقين للضحك استنادا للمثل العربي القائل " شر البلية ما يضحك "، فإذا كثُر الهم والغم والاستياء وضاق الحال وحن وقت الحسرة والندم والبكاء جاء الضحك ليعبر عن المقصود العكسي للحال . ولكن ما الذي يدعونا الشاعر للضحك عليه أما ؟، هنا يبدأ التساؤل من طرف المتلقين .

ولكن هذا التساؤل سرعان ما يزول وينجلي عندما تتضح لنا المفارقة بين: " رأسنا ضاع ولم نحزن " وبين: " غرقنا في الخيال عند فقدان النعال " ويا لها من مفارقة كبيرة بين التغاضي عن أمر جلل عبر عنه الشاعر بقطع الرؤوس في كناية عن الظلم والاستبداد والتذليل الذي يلاقيه الناس من طرف الحكام

والذي قد يصل إلى قطع الرؤوس، وبين الجدال الكبير والصراع القوي الذي ينتج عن ضياع وفقدان النعال، وما قيمة النعال إذا ما قارناها بقطع الرأس ؟ وتعتبر المفارقة هنا كسر مفاجئ لنمط تفكيري ذو صبغة بنائية جادة حيث يتعمد الشاعر الخوض في الممنوع المحظور وفق لغة جريئة واضحة اعتمدها ليحاجج بها ويؤثر على المتلقي ومن ثم يقنعه برأيه ليشاركه إياه .

من خلال هذه المفارقة تتجلى السخرية التي وظفها الشاعر كآلية حجاجية كبيرة لكي يسخر من هؤلاء القوم الذين اهتموا بما لا يستحق الاهتمام مقابل تغاضيبهم عن الأمر الجلل الذي قد يؤدي بحياتهم ويتجسد البعد البلاغي في عمق السخرية، أي في بنيتها الداخلية العميقة وهو بُعد لا يسهل إدراكه ببساطة، لأن البلاغة تتشابك في الأبعاد الإقناعية، والسخرية التي وظفها الشاعر هنا تحمل صورة بلاغية يريد من خلالها أن يقنع متلقيه بالقيم الإيجابية عن طريق طرح أوجه المفارقة بشقيها الإيجابي والسلبي، وهذا ما اعتمده الشاعر أحمد مطر ليكون خطابه حجاجيا مقنعا للمتلقي فالمقام هنا هو الهجاء والشاعر يحشد الحجج ويجمع البراهين المساعدة له بغية إيصال فكرته وتأثير غيره بها ومن ثم تحقيق الإقناع والقبول .

والمفارقة التي يستند إليها الحجاج بالسخرية " تجعل الأشياء تهرب منها بمجرد أن يقترب نحوها، ثم هي أخيرا تظل حائمة حول إشكاليات اجتماعية وفكرية على مستوى المحدود واللامحدود دون أن نقف منها موقف المحلل الذي يتعمد إبراز الحقائق " 26 (نبيلة إبراهيم، دت) .

وهذا المقطع يؤكد أن السّاخر وموضع السّخرية قد يكونان في موضع واحد إذ يسخر الشاعر من ذاته العاجزة الواهمة ولذا كانت سخريته مريرة من خلال ضمير الجمع المتكلم (نحزن - غرقنا - رؤسنا)، ونجد الشاعر في هذا المقطع قد وظف النداء والتعميم والأمر والسخرية بصيغة الجمع، كالتالي:

- النداء: أيها .

- التعميم: الناس .

- الأمر: قفوا .

- السخرية: نضحك.

- الجمع: رأسنا، نحزن، غرقنا.

- الرابط الحجاجي: لكنّا.

والجدير بالذكر أن الروابط الحجاجية تسهم بشكل كبير في الحفاظ على انسجام النص واستمراريته، كما تسهم في تدرج الفهم ونموه وتسلسله وهذا كله من أجل خدمة الغاية الحجاجية التي تم إنتاج الخطاب من أجلها ومن الروابط الحجاجية في هذا المقطع الافتتاحي نجد " لكنّا "، حيث جاءت في هذا المقطع لتقلب النتيجة المتوقعة، وذلك في قوله: " ولكنّا غرقنا في الجدال عند فقدان النعال "، حيث يوحي الملفوظ الأول أن القوم لم يهتموا بالأمر الجلل والخطب العظيم ولم يحزنوا لوقوعه " رؤسنا ضاع فلم نحزن " بالمقابل غرقوا في الجدال وانشغلوا بالأمر البسيط الهين والذي مثله الشاعر بفقدان النعال كتعبير مجازي . فالرابط الحجاجي " لكنّا " ربط هنا بين وحدتين لسانيتين أ و ب وقام بوظيفة حجاجية لهاتين الوحدتين اللسانيتين :

- الوحدة اللسانية أ: رأسنا ضاع فلم نحزن .

- الرابط الحجاجي: لكنّا .

- الوحدة اللسانية ب: غرقنا في الخيال عند فقدان النعال .

ولو استبدلنا في السطر الأول من القصيدة لفظة " نضحك " بلفظة " نبكي " فيصبح كالتالي: "أيها الناس فقفوا نبكي على هذا المآل"، في هذه الحالة لا يتغير المعنى كثيرا، بل ربما يكون هو الأصح والمعنى الحقيقي الذي أراده الشاعر، على اعتبار أن المقصود هو الحسرة والبكاء على المآل الذي وصل له القوم، ولكن في هذه الحالة لن يكون الحجاج قويا ومقنعا للمتلقي ولكن باستعمال لفظة "

نضحك " التي فرضتها القوة الحجاجية لتحقيق المفارقة لتكون السخرية في أعلى صورها .

ويواصل الشاعر تهكمه وسخريته من القوم الذين انشغلوا بتوافه الأمور وأعطوها اهتماما كبيرا، وهو دليل واضح على خضوعهم واستكانتهم وقبولهم بالوضع السائد خشية من بطش الحكام، والسخرية في هذا السياق مريرة مشبعة بالقتامة والإحساس الفضيع بالعجز، فالقول في ظاهره حجة على الإصلاح والنظام، ولكنه في مقام ساخر يصبح حجة على الذل والخوف والهوان حيث يقول:

لا تلوموا نصف شبر

عن صراط الصف مال

فعلى آثاره يلهث .. أقزام طوال

كلهم في ساعة الشدة .. آباء رغال

ثم إن الشاعر ختم هذا المقطع بصورة في غاية السخرية، وذلك عندما شبه الحكام العرب بآباء رغال، وهو المثل العربي المعروف والذي يرمز للخيانة، وهذا المثل نسبة لأبي رغال الأعرابي الوحيد الذي قيل أن يكون دليلا لجيش أبرهة الحبشي في طريقة إلى هدم الكعبة، وقد هلك أبو رغال في الطريق ودُفن في موضع يسمى " المغمس "، وصارت العرب ترمم قبره وتلعنه والشاعر استعمل هذا المثل للحجاج على أن آباء رغال اليوم كثر ساروا على طريق الخيانة والغدر .

في موضع آخر من القصيدة تتجلى لنا مستويات الخطاب الحجاجي الساخر من خلال توظيف الشاعر لآلية الحجاج والإقناع المتمثلة في التساؤل التهكمي والذي يسعى الشاعر من خلاله إلى السخرية بطريقة غير مباشرة حينما يقول:

أيها الناس

لماذا نُهدر الأنفاس في قيل وقال ؟

نحن في أوطاننا أسرى على أية حال

يستوي الكبش لدينا والغزال

ويلخص هذا الاستفهام المغزى الخطابى الساخر للشاعر الذى يتهم بطلاقة على القوم متسائلا عن جدوى الكلام والحديث والقيمة التي يحملها في ظل عدم قدرته على تغيير الواقع المرير المعيش، وهذا ما نستشفه من قوله "نحن في أوطاننا أسرى على أية حال"، حيث يدرك متلقي الخطاب فحوى الرسالة التي أراد الشاعر إيصالها والتي يفرضها الحجاج، حيث أن القوم لا يملكون القدرة على الحركة والتغيير مهما أهدروا الأنفاس في قيل وقال وكثرة لغو وحديث .

ثم ختم الشاعر المقطع بصورة في قمة التهمك والسخرية من خلال قوله "يستوي الكبش لدينا والغزال"، وهي عبارة عن صورة بلاغية تشبيهية تحمل بين طياتها تهكما على القوم يريد الشاعر من خلاله تقريب المعنى لدى المتلقي وتوضيحه في ذهنه، حيث أن القوم متساوون في المذلة والهوان، ولا يوجد أحد أفضل من الآخر فمهما علت الرتب وارتفعت المؤهلات والقيمة الاجتماعية داخل المنظومة الاجتماعية للقوم إلا أنهم لا يستطيعون التعبير عن آرائهم بشجاعة ولا يجروؤن على التفكير في التغيير، وقد رمز للضحية بالكبش وللجمال بالغزال.

ومن المؤكد أن مثل هذه العبارات الواردة في هذا المقطع لا يمكن قراءتها قراءة ساذجة سطحية تركز للمعنى القريب، إذ أنها تحمل معنى عميقا يتجلى من خلال لغة الدم والهجاء التي وظفها الشاعر والتي يهجو من خلالها الرعية العربية بطريقة غير مباشرة بعد رضوخها وتقبلها لثقافة القهر والظلم والحرمان المسلط عليها .

ثم يعبر الشاعر في مقطع آخر عن ردود الفعل عند القوم في أسلوب خطابي ساخر يستنكر من خلاله صمت الرعية وخضوعهم مقابل جبروت الحكام ويتجلى لنا هنا موقفان، أولهما موقف يجسد حالة الغضب والرّفْض وهو موقف أولي ولكنه ليس موقفا حقيقيا حيث استخدمه الشاعر للسخرية وثانيهما

يجسد حالة القبول والخضوع لدى القوم وهو موقف حقيقي ونتيجة نهائية حيث يقول:

كلهم سوف يقولون له: بُعدا

ولكن بعد أن يبرد الانفعال

سيقولون: تعال

وكفى الله السلاطين القتال

ومن الملاحظ أن صورة التناص بارزة في هذا المقطع من خلال استدعاء الخطاب القرآني، وقد ورد في هيئة استعارة أحدثت تمفصلا ضمنيا سعى من خلاله إلى لفت انتباه المتلقي لمعالم التمايز والتغاير بين بنيّة الخطاب الشعري والخطاب القرآني المعظم والمنزّه، وذلك في قوله: " وكفى الله السلاطين القتال "، حيث نجده يتناص مع قوله تعالى: " وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال " 27 (سورة الأحزاب الآية 25)، حيث استبدل لفظ " المؤمنين " بلفظ " السلاطين " ليرمي بالمعنى بعيدا ويغيره تماما ونلاحظ هنا اختلافا كلياً في السياق الخارجي للنصين وقيمتهم الدلالية حيث أن الشاعر وظف هذا المعنى ليوحي للمتلقي مدى خوف القوم من " للسلاطين " اتقاءً لشرهم وبطشهم وجبروتهم، وقد جاء التناص هنا في اللفظ دون المعنى .

في ختام القصيدة يرتفع مستوى حجاج السخرية عند الشاعر، وهذا ما نجده في ختام أغلبية قصائد الشاعر ومقطوعاته الشعرية، حيث أن المقطع الأخير عادة ما يحمل نتيجة نهائية للفكرة العامة التي تحملها القصيدة، وبالتالي يسعى الشاعر للاهتمام بقفل القصيدة، وفي هذه القصيدة يقودنا الشاعر للتسليم بالحقيقة المرة حيث يقول:

إنني لا أعلم الغيب

ولكن صدقوني

ذلك الطربوش .. من ذاك العقال

والملاحظ هنا أن الشاعر اعتمد خطاب التعميم واستعمل الرمز في لفظتي "الطربوش" و"العقال" ففي الأولى يرمز إلى الباشوية والطبقة الراقية ويقصد بها هنا حكام بعض البلدان العربية غير الخليجية، بينما في الثانية يرمز إلى حكام دول الخليج العربي، فهو يصور لنا بأسلوب ساخر أن الحكام العرب متشابهون تماما في ظلم الرعية وتذليلها وفي الولاء للغرب والخضوع لهم ففي قوله: ذلك الطربوش ... من ذاك العقال، فكأنه هنا جعل السبق في الظلم والاستبداد لأصحاب العقالات ثم تعلم منهم أصحاب الطرابيش .

احتوت قصيدة "أقزام طوال" على عدد كبير من المفارقات الدلالية التي تحمل قيمة حجاجية كبيرة تجسد حجاج السخرية في صورة مميزة، بدءاً بالعنوان الذي أسهم في تحديد هوية القصيدة، ثم تتابع المقاطع الشعرية تواليًا لخدمة الفكرة العامة للموضوع وإثبات الرأي الذي يحمله الخطاب.

من خلال تحليلنا لقصيدة "أقزام طوال" للشاعر أحمد مطر ننتبه إلى أن الشاعر لم ينظم قصيدته للمتعة والضحك فقط، وإنما يريد من خلالها إثبات التزامه الأدبي والأخلاقي اتجاه أمته وشعبه، ويسعى إلى إيصال رسالة تهدف إلى رفض الواقع العربي المزري وما فيه من ظلم واستبداد من طرف الحكام من جهة وهجاء الرعية الخاضعة والخاملة من جهة أخرى .

الخاتمة: خلاصة للقول، وبعد خوضنا في هذا الموضوع يمكننا أن نستنتج أن حجاج السخرية أحد أهم مجالات الحجاج وصوره، وذلك من خلال توظيف المفارقة اللفظية التي تسهم في جذب المتلقي ولفت انتباهه بغية التأثير فيه بأسلوب ساخر متهكم وفي هذا النموذج التطبيقي اتضحت لنا قوة حجاج السخرية وقدرته الكبيرة في التأثير والإقناع، ومن بين النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الورقة البحثية نذكر:

- تكمن أهمية حجاج السخرية في البعد البلاغي الذي تحمله البنية العميقة وهو بعد لا يمكن الوصول إليه وإدراكه بسهولة إلا بعد فك شفرات المفارقة التي يحملها وإعادة تأويلها تأويلا يتناسب مع وضع السخرية ومقصودها العميق .
 - الخطاب الساخر يملك قدرة كبيرة تسهم في التأثير على المتلقي ولفت انتباهه لهذا الخطاب، وهي ميزة مهمة في الوصول إلى إقناع المتلقي بالرأي الذي يحمله الخطاب؛
 - من خلال قصيدة " أقزام طوال " وظف الشاعر أحمد مطر أسلوب السخرية واستطاع أن يمزج السخرية بالواقع الذي يعيشه بالآلامه وأحزانه؛
 - أفلح الشاعر في استعمال أسلوب حجاج السخرية، على اعتبار أنه فتح أبعاد التأويل على مصراعيها ليغوص فيها متلقي الخطاب باحثا بذلك عن المقصود المخفي للخطاب؛
 - إن حجاج السخرية غالبا ما يحتمل قراءتين، القراءة الأولى تجعلها حجة للنتيجة المذكورة، وقراءة ثانية تجعلها تحتمل نتيجة مناقضة تماما للأولى .
- وفي الأخير ورغم جهدي المبذول في هذا البحث إلا أنني أدرك أنه لا يزال ناقصا، ولكن أحسب نفسي أنني قدمت ولو لمحة وجيزة عنه، وكما قيل قديما:
- " لئن تضيء شمعة خير لك من أن تلعن الظلام " .

6 - المراجع والمصادر:

❖ القرآن الكريم .

- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، دار صادر بيروت، لبنان مادة حجج، مج 2، ط1، 1997 م .
- محمد علي التهاوني، موسوعة كشاف إصلاحات الفنون، تح: عليد جروح لبنان ط1، 622/1 .
- الحواس مسعودي، البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل أنموذجا مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع 12، 1997 م .
- سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث أريد الأردن، 2011 م .
- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، مصر، ط3، 1979 م .
- المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد الباجي، تح: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 2000 م .
- محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، لبنان، ط1، 2008 .
- أمينة الدهري، الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، مكتبة المدارس الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2011 م .
- ياسين أحمد فاعور، السخرية في أدب إميل حبيبي، دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع، سوسة، تونس، دط، دت .
- برندوني، عناصر البرغماتية اللسانية، منشورات مينيوي، 1982 م، ص 182 . نقلا عن: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، سامية الدريدي عالم الكتب الحديث، أريد الأردن، 2011 م .
- ، رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2010 م .

- بناء المفارقة في الدراما الشعرية، شوقي سعيد، بتراك للنشر والتوزيع، القاهرة مصر ط1، 2001 م .
- عبد الرحمان البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت، دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت، لبنان، ط3، 1983 م
- أبو نواس، ديوان الشاعر أبي نواس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان،
- نبيل راغب، موسوعة الإبداع الأدبي، الشركة المصرية والعالمية للنشر، القاهرة مصر ط1، 1996 م .
- الخير هاني، أحمد مطر شاعر المنفى واللحظة الحارقة، دار فليتس، الجزائر ط1 2009 م
- أحمد غنيم كمال، الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، مكتبة مدبولي، القاهرة مصر، ط1، 1998 م .
- أحمد مطر، المجموعة الشعرية، دار العروبة، بيروت، لبنان، ط1، 2011 م.
- محمد سالم أبو عاصي، مقالتان في التأويل، دار الفرابي، دمشق، سوريا ط1 2010 م .
- محمد مفتاح، ديناميّة النص، تنظّر وإنجاز، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، دط، 1987 م .

الهوامش:

- ¹ - لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد السلام محمد هارون، دار صادر بيروت لبنان، مادة حجج مج 2، ط1، 1997 م، ص 570 .
- ² - موسوعة كشاف إصلاحات الفنون، محمد علي الشهاوني، تح: عليم جروح لبنان ط1 622/1 .
- ³ - البنية الحجاجية في القرآن الكريم، سورة النمل أنموذجا، الحواس مسعودي مجلة اللغة والأدب جامعة الجزائر، ع 12، 1997 م، ص 330 .
- ⁴ - الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث أريد، الأردن 2011 م، ص 21
- ⁵ - المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار الثقافة الجديدة، مصر، ط3، 1979 م ص 393 .
- ⁶ - المنهاج في ترتيب الحجاج، أبو الوليد الباجي، تح: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، ط3، 2000 م، ص 8 .
- ⁷ - الحجاج في البلاغة المعاصرة، محمد سالم محمد الأمين، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت لبنان، ط1، 2008 م، ص 108 .
- ⁸ - الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، أمينة الدهري، مكتبة المدارس الدار البيضاء المغرب، ط1، 2011 م، ص 34 .
- ⁹ - لسان العرب لابن منظور، مرجع سابق، مادة سخر، مج 3، ص 113 .
- ¹⁰ - الحجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة، أمينة الدهري، مرجع سابق، ص 35 .
- ¹¹ - السخرية في أدب إميل حبيبي، ياسين أحمد فاعور، دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع سوسة، تونس، دط، دت، ص 66 .
- ¹² - عناصر البرغماتية اللسانية، برندوني، منشورات مينوي، 1982 م، ص 182 نقلا عن: الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، أريد، الأردن 2011 م، ص 165 .
- ¹³ - الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، مرجع سابق ص 164 .

- 14 - الحجاج والمخالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، رشيد الرّاضي دار الكتاب الجديد بيروت، لبنان، ط1، 2010 م، ص 30.
- 15 - بناء المفارقة في الدراما الشعريّة، شوقي سعيد، بتراك للنشر والتّوزيع، القاهرة مصر، ط1 2001 م، ص 79 .
- 16 - شرح ديوان حسان بن ثابت، عبد الرّحمان البرقوقي، دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت لبنان، ط3، 1983 م، ص 270 .
- 17 - ديوان الشّاعر أبي نواس، أبو نواس، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان
- 18 - موسوعة الإبداع الأدبي، نبيل راغب، الشركة المصريّة والعالميّة للنشر القاهرة مصر، ط1 1996 م، ص 190 .
- 19 - السّخريّة الهادفة في شعر أحمد مطر، حافظ كوزي عبد العالي، مجلة اللغة والآداب جامعة الكوفة، ص 155 .
- 20 - أحمد مطر شاعر المنفى واللحظة الحارقة، الخير هاني، دار فليّتس، الجزائر ط1 2009 م، ص 07 .
- 21 - أحمد غنيم كمال، الإبداع الفني في شعر أحمد مطر، مكتبة مدبولي، القاهرة مصر، ط1 1998 م، ص 42 .
- 22 - أحمد مطر شاعر المنفى واللحظة الحارقة، الخير هاني، مرجع سابق، ص 08 .
- 23 - المجموعة الشعريّة، أحمد مطر، دار العروبة، بيروت، لبنان، ط1، 2011 م، ص 53 .
- 24 - مقالَتان في التّأويل، محمد سالم أبو عاصي، دار الضرابي، دمشق، سوريا، ط1 2010 م، ص 18 .
- 25 - ديناميّة النص، تنظّر وإنجاز، محمد مفتاح، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب دط، 1987 م، ص 72 .
- 26 - المفارقة، نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، مج: 07، ع 03 .
- 27 - سورة الأحزاب الآية (25) .

الأخطاء اللغوية الشائعة: تغيير لغوي أم لحن؟

Common Mistakes in Language: Linguistics Variation or Error?

د. ياسين بوراس*

تاريخ الارسال: 13- 10- 2018 تاريخ القبول 20- 10- 2019

ملخص: يتناول هذا المقال ظاهرة التغير اللغوي في اللغات الطبيعية باعتبارها ظاهرة اجتماعية وينطبق عليها ما ينطبق على هذه الظواهر من ثبات أو تغير: كالعادات والتقاليد، والأطعمة، والأشربة والألبسة، وكل ما يرتبط بحياة الإنسان مع غيره من أفراد المجتمع، في محاولة لإثبات هذه الحقيقة بالنسبة للغة العربية، في مختلف مستوياتها اللغوية بما فيها الصوتي، والصرفي والتركيبي، والدلالي مؤكدين على حقيقة ما توصلت إليه اللسانيات في مطلع القرن العشرين، وهي أن ما نعتبره لحنًا شائعًا في مختلف العصور، يُعدُّ بمثابة تغيير لغوي وليس لحنًا، باعتبار أن اللغة ظاهرة اجتماعية، وتخضع لنفس الظواهر التي تخضع إليها الظواهر الاجتماعية الأخرى، ليكون المنهج العلمي الصحيح في التعامل مع هذه الظاهرة اللغوية، هو محاولة التّقييد لما استجدّ على اللغة من قواعد مع كل عصر، لا ممارسة القمع اللغوي أو الرقابة اللغوية بقاعدة (قل ولا تقل).

الكلمات المفتاحية: الأخطاء الشائعة، التغير اللغوي، اللحن، اللغة العربية اللسانيات.

* جامعة محمد البشير الإبراهيمي، برج بوعرييج. yacineyh25@gmail.com

Abstract: This article discusses the phenomenon of linguistic variation in natural languages as the other social phenomena such as customs, traditions, foods, drinks and clothing. The point is to illustrate that, contrary to what has always been thought, linguistic variation at the different levels of Arabic language, including phonetic, morphological, syntactic, and semantic, is not a mistake. This is underpinned by the assumption that language is a social phenomenon; therefore, the correct scientific method of dealing with this linguistic phenomenon is to try to put the new rules in accordance with language variation in each era, not the practice of linguistic repression or linguistic censorship.

Key words: common mistakes, linguistic variation, error, Arabic language, Linguistics.

مقدمة: تُؤكّد ثنائيّة (الثّبات والتّغيّر) التي أقرّتها اللّسانيات خاصيّة من خصائص اللّغة، عدم إمكانيّة صمود اللّغة المعياري، أمام مختلف التّغيّرات التي يُمكن أن تعترضها خلال مراحل تاريخها؛ وهذا باعتبار أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعيّة ينطبق عليها ما ينطبق على هذه الظّواهر من ثبات أو تغيّر، أو تأثير أو تأثّر: كالعادات والتّقاليد، والأفراح، والمناسبات، والأطعمة، والألبسة، وغيرها من الظّواهر الاجتماعيّة التي تتغيّر بتغيّر الأزمنة، وإنّ كان هذا التّغيّر يحدث تدريجيّاً لا طفرة؛ ما يجعل أفراد هذا المجتمع لا يشعرون به، أو ينتقلون إليه عضويّاً من دون قصد.

وتعرف اللّغة العربيّة المعاصرة ممارسات لغويّة مختلفة، تخرج في كثير من الأحيان عن اللّغة المعياري، وُصِفَتْ في عرف النّحاة أو اللّغويّين بالأخطاء اللّغويّة الشّائعة أو اللّحن، وإذا ما نظرنا في طبيعة هذه الأخطاء وجدناها لا تعكس سوى

تلك الخاصية في اللغة، وهي التغير، ما يفرض على اللسانيين إيجاد مبررات علمية لمختلف هذه الممارسات اللغوية، بدل ممارسة الرقابة اللغوية بقاعدة (قل ولا تقل) أمام ظاهرة تعدد طبيعيات بالنسبة للغات الطبيعية، وهو ما يستهدفه هذا المقال من خلال تبريره لمختلف الممارسات اللغوية التي تعرفها اللغة العربية المعاصرة، من خلال تحديده مفهوم اللحن بين القدماء والمحدثين، وكذا مفهوم التغير اللغوي في اللغات الطبيعية، وبيان الخصائص الاجتماعية للغة بما فيها الثبات والتغير والتأثير والتأثر، وأسباب التغير اللغوي للغات الطبيعية، ثم عرض بعض مظاهر هذا التغير في اللغة العربية المعاصرة:

أولاً - مفهوم اللحن بين القدماء والمحدثين: لا يختلف اثنان في أن اللحن في اللغة هو الخروج عن قواعدها التي تعد ثابتة في نظر اللغويين، غير أن المعايير المعتمدة في إثبات هذه الظاهرة بالنسبة للغة، تختلف بين القدماء والمحدثين حيث وضع اللغويون قديماً للحن معايير يمكن حصرها من خلال تتبع مختلف الكتب التي ألفت في اللحن، والتي تشمل ممّا وصل إلينا كتاب (ما تلحن فيه العامة) لأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي (189هـ) و(إصلاح المنطق) لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت (244هـ) و(أدب الكاتب) لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة (276هـ) و(الفصيح) لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب (291هـ).¹ والتي عُرِف من خلالها اللحن على أنه "خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصّحة في بنية الكلمة أو تركيبها وإعرابها، بفعل الاستعمال الذي يشيع أولاً بين العامة من الناس، ويتسرّب بعد ذلك إلى لغة خاصّة"² ليشمل بذلك مفهوم اللحن في كتب القدماء من خلال هذا التعريف، الخروج عن قواعد العربية الفصيحة في بنية الكلمة، أو تركيبها مع غيرها، وكذا إعرابها. غير أن هذا المفهوم نجده تغيّر ببعدها عن زمن الفصاحة؛ حيث أضحي لا يفهم من اللحن سوى الخطأ في الإعراب على مستوى الجمل، أمام مختلف التغيرات التي طرأت على العربية المعاصرة في قواعدها، سواء ما تعلّق منها ببنية الكلمة فيها أم

تركيبها مع غيرها؛ فهذا مجمع اللغة العربية بالقاهرة، يقرّ بفصاحة العديد من الألفاظ أو التراكيب المخالفة لقواعد اللغة العربية القديمة³ وفقا لقناعته التامة بمبدأ التغيّر اللغويّ للغة العربية المعاصرة.

وإذا ما استثنينا الخروج عن قواعد بناء الكلمة أو تركيبها مع غيرها في اللغة العربية المعاصرة وفقا لما أقرّه مجمع اللغة العربية بالقاهرة من ألفاظ أو تراكيب مخالفة لقواعد العربية القديمة، فإنّ مفهوم اللحن يقتصر بدوره على الإعراب؛ باعتباره خاصيّة من خصائص العربية من جهة، ولارتباطه بالمعاني التي يمكن أن تؤدّيها الكلمات على مستوى الجمل من جهة ثانية؛ بحيث يمكن أن يؤدّي تغيّر الإعراب في الكلمة إلى تغيّر في معنى الجملة كاملة، كما في جمل من نحو (ما أحسن العلم) التي يبقى فيها المعنى مرتبطا بالإعراب بين كونها استفهاميّة أو تعجبيّة أو منفيّة؛ ليأخذ بذلك مفهوم اللحن في اللغة العربية المعاصرة، الخروج عن قواعد العربية في الإعراب، أمّا ما دون ذلك؛ فيمكن عدّه تغيّرا لغويّا إيجابيا لا سلبيا، يتماشى وحاجيات الناطق بالعربية في الاستعمال اليوميّ لهذه اللغة.

ثانيا- مفهوم التغيّر اللغويّ: يمكن التمييز في علم الاجتماع اللغويّ أو اللسانيات الاجتماعيّة بين مصطلحين مختلفين يعبران عن ظاهرتين مختلفتين من الظواهر الخاصّة باللغات الطّبيعيّة، هما التغيّر اللغويّ والتحوّل اللغويّ، يُقصدُ بالأوّل وهو موضوع هذا البحث، تلك اللغة التي عرفت بشكل عضويّ ودائم خروجا عن اللغة الميعار، ما يجعلها تُصنّف في نظر اللغويين والنّحاة ضمن الأخطاء اللغويّة الشائعة أو اللحن؛ "لأنّ الثبوت المطلق للغة أمر لا وجود له البتّة؛ ذلك لأنّ أقسام الكلام التي تتكوّن منها اللغة خاضعة لعامل التغيّر. ويوافق كلّ مرحلة من الزّمان تطوّر مناسب لها قد يقلّ وقد يعظم. وقد يختلف سرعة وشدّة، دون أن ينال ذلك من المبدأ نفسه أو ينقضه. فإنّ اللغة سيل يجري بدون انقطاع. أمّا كون ذلك الجريان لطيفا ناعما أو دافقا عارما؛ فأمر ثانويّ

ليس له كبير أهمية".⁴ ويُقصدُ بالثاني تلك التغيرات التي عرفتُها اللغة خلال مراحل تاريخها؛ لتتحول بذلك إلى لسان ثانٍ أو عدة ألسنة تعرف في ما بعد باللّهجات. "فصحيح إنّ ذلك التطور غير المنقطع كثيرا ما يحجبه عنا ما يوليه الناس من اهتمام للغة الأدبية؛ لأنها تتراكم على اللغة العامية أي على اللغة الطبيعية، وتكون خاضعة من حيث وجودها، لظروف وملابس أخرى. ثمّ تظلّ اللغة الأدبية بعد أن تكون، على قدر كبير من الثبوت، والاستقرار بوجه عام، ويكون من شأنها أن تنزع إلى أن تبقى هي هي لا تتغير. وفضلا عن ذلك فإنّ خضوعها للكتابة، يوفرّ لها ضمانات خاصة، تضمن بقاءها على حالها لا تتغير وإذن فليست اللغة الأدبية هي التي من شأنها أن تدلنا على مدى قابلية اللغات الطبيعية للتبدّل والتغير، تلك اللغات التي لا تخضع لأيّة سنّة أدبية".⁵ وينطبق هذا على اللغة العربية؛ فإنّ ما يُمكنُ عدّه فيها بمثابة التغير اللغوي هي تلك الأخطاء اللغوية الشائعة التي عرفتُها العربية المعاصرة، ووجدت استحسانا من المستعملين ونفورا من اللغويين. أمّا ما يمكنُ عدّه فيها بمثابة التحوّل اللغوي؛ فهي تلك اللهجات العامية التي عرفتُها اللغة العربية الفصحى في مختلف بلدان الوطن العربيّ، نتيجة لعوامل سياسية وأخرى اجتماعية ترتبط بتاريخ هذه اللغة، لتعبّر بدورها عن تحوّل طبيعيّ للعربية الفصحى مثل أيّ تحوّل يصيب لغة من اللغات خلال مراحل تاريخها.

ثالثا- الخصائص الاجتماعية للغة: يُقصدُ بالخصائص الاجتماعية للغة تلك الخصائص التي تشترك فيها مع غيرها من الظواهر الاجتماعية غير اللغوية: كالعادات والتقاليد، والأفراح والمناسبات، والأطعمة، والألبسة... إلخ وتميّزها عن الظواهر الطبيعية الثابتة أو التي يحكمها قانون ثابت، كما في الفيزياء أو الرياضيات، ومن بين هذه الخصائص خاصيتا الثبات والتغير وخاصيتا التأثير والتأثر:

1- الثّبات والتّغيير: لا نقصد بهذين المصطلحين سوى تلك الثّنائيّة التي أقرّها دي سوسير خاصيّة من خصائص اللّغة، والتي تتحوّل معها اللّغة من قانون ثابت في مرحلة معيّنة من الزّمن إلى قانون متغيّر في مرحلة أخرى؛ باعتبار أنّ الثّبوت المطلق للّغة أمرٌ لا وجود له البتّة، كما أشار إليه دي سوسير،⁶ وهذا للخاصيّة الاجتماعيّة التي تتميّز بها اللّغة، والتي بدورها تنضوي تحتها هذه الثّنائيّة؛ إذ لما كانت اللّغة ظاهرة اجتماعيّة فهي في الوقت ذاته ظاهرة فرديّة ولهذا فهي عرضة لهذا التّغيير عن طريق تأثير الفرد فيها بعامل الزّمن، تحت أيّ سبب من الأسباب أو ظرف من الظروف التي تجعل من القوانين اللّغويّة قوانين متغيّرة كما سيأتي بيانه في أسباب التّغيير. وتخالّف بذلك اللّغة في خاصيّتها الاجتماعيّة، الظواهر الطّبيعيّة التي تقتصر في طبيعتها على قانون ثابت يحكمها؛ حيث تُعدّ فيها بذلك القوانين الطّبيعيّة قوانين سرمدية بتعبير دي سوسير: كقانون الجاذبيّة، وقوانين الحركة لنيوتن، أو قانون دافعة أرخميدس في الفيزياء، وقوانين الرياضيات مع الأشكال الهندسيّة؛ حيث تمثل هذه الثّنائيّة الضديّة (الثّبات والتّغيير) حركة اللسان المستمرة، وهما خارجتان عنه ذلك لأنّهما تُفرضان عليه من الخارج عبر أزمنة متلاحقة، فالثّبوت والتّغيير ليس لصاحب اللسان فيهما أي دخل، سوى أنّه يتعامل مع حالة الثّبوت على أساس أنّها موروثّة عن جيل سابق عنه، لتمثّل بالنسبة إليه قوانين لغته التي من خلالها يتواصل مع غيره. ومن مظاهر هذا التّغيير في اللّغات الطّبيعيّة حسب ما جاء به دي سوسير، ما يلي:⁷

- انطماس الرّابط النّحويّ ومثال ذلك اللّهجة العاميّة (جاء محمد) مقارنة بالفصحى (جاءَ محمد)؛
- انطماس حدود أجزاء الكلمات المركّبة، ومثال ذلك اللّهجة العاميّة (عبدق، وثناعش) مقارنة بالفصحى (عبد القادر، اثنا عشر)؛

- الإلصاق في التراكيب أو ما يسمّى بالنّحت، ومثال ذلك اللهجة العاميّة (الحمودله) مقارنة بالفصحى (الحمد لله).

ونُشيرُ مُجْمَلُ مظاهر هذا التّغير التي عرضها دي سوسير إلى اللهجات اللّغويّة التي تتحوّل معها اللّغة المعيار إلى قواعد مستقلّة، وهو ما يُعرّف بالتّحوّل اللّغوي، الذي تُعرّف فيه هذه اللّغة تغيّراً بشكل أكبر، يُؤدّي فيها أحيانا خرق القواعد الخاصّة بهذه اللّغة، إلى التّحوّل إلى لسان ثان، باعتبار أن "اللّغات كلّها عرضة للتّغير، وهي حقيقة ثابتة بطريقة الاستقراء، ومهمّة اللّسانيات إزاء هذا التّغير البحث في تفصيل التّغير اللّغوي عند ما يكون متاحاً للبحث، وأنّ تبني نظريّة تفسيرية للتّغير اللّغوي، تُسهمُ في فهمنا لطبيعة اللّغة".⁸ وهذا لكون التّغير ظاهرة يفرضها الزّمن على اللّغة؛ حيث يستحيل أمامها إطراد القوانين اللّغويّة بشكل سرمدٍ، وهذا ما فرض على اللّسانيات في دراستها لموضوعها (اللسان) أن تعتمد منهجين منفصلين في الدّراسة اللّسانية؛ منهج وصفيّ أني تقف به على الحالة المستقرّة أو الثابتة للّغة، منهج تاريخي تعاقبيّ تقف به على مختلف التّغيّرات التي تطرأ عليها خلال مراحل تاريخها؛ لأنّ "كل حالة من الحالات المتعاقبة للّغة ما، يمكن - ويجب- أن تُوصف في حد ذاتها، دون الإشارة إلى الحالة التي تطورت منها أو التي يبدو أنّها ستتطور إليها"⁹ باعتبار أنّ كلّ حالة متغيّرة في اللسان، هي بلا شكّ ستُكوّن نظاماً مستقلاً بذاته عن السّابق وعن اللاحق، ولا يسع اللّسانيّ هنا إلا أن يقف على كلّ حالة على حدة؛ حتّى يسنّى له اكتشاف خصائص هذا النّظام وكذا مختلف التّغيرات الطّارئة عليه.

2- التّأثير والتّأثر: لا نقصد كذلك بهذين المصطلحين سوى تلك

الثّنائية التي أقرّها دي سوسير خاصيّة من خصائص اللّغة، والتي تُظهر قدرة الفرد على تأثيره في قوانين اللّغة وفي الوقت ذاته تأثره بها؛ ليتحوّل مع هذه القدرة في التّأثير والتّأثر، خرق الفرد لقواعد اللّغة قانوناً لغوياً، يثبت ردحا من الزّمن، ليتغيّر في مرحلة أخرى وهكذا دواليك؛ وهو ما ذهب إليه دي سوسير

حين اعتبر أنّ السبب الوحيد للتغيّر اللغوي هو الفرد عن طريق الكلام؛ إذ "لا يدخل في اللسان شيء من التغيّر، ما لم يُجرّب في الكلام؛ فجميع الظواهر التطورية أصلها نطاق الفرد، إذ لا بدّ من وجود متكلم أوّل يرتجلها، ثم يأتي بعده آخرون يحاكونه ويعيدون؛ حتى تفرض تلك الكلمة نفسها في الاستعمال"¹⁰ وهذا ما يعني أنّ تلك التغيرات التي تعرفها اللغة على مستوى قواعدها مع مستعمليها، ليست نابعة من اللسان ذاته أو خلقت معه؛ بل فرضت عليه فرضاً من الخارج عن طريق الممارسة المتكررة للأفراد، لتصبح بذلك مع الزمن جزءاً من اللسان.

وإنّ هذه الخاصية الاجتماعية للغة، تثبت مدى قدرة الأفراد على التحكم في قوانين اللغة سلماً وإيجاباً، تغييراً وإثباتاً، وهو ما يُمكن أن نلاحظه على مختلف التغيرات التي تعرفها اللغات على ألسنة الناطقين بها، خلال الاستعمال اليومي لها، والتي تتحوّل معها اللغة إلى قوانين غير ثابتة، أو موقف بعض الأفراد من المجتمع وهم المتخصصين في اللغة، من هذا اللحن أو الخروج على قواعد اللغة في محاولة منهم المحافظة على هذه القوانين دون جدوى؛ حيث لا يتجاوز احترام هذه القواعد هؤلاء الأفراد المتخصصين من المجتمع، أمام قلّة العدد وضعف السيطرة على بقية أفراد المجتمع بشتى الطرق: كالتعليم، والإعلام، وغيرها، مقارنة بكثرة أفراد المجتمع وقوة عامل التأثير والتأثر.

رابعاً- أسباب التغيّر اللغوي للغات الطبيعية: تختلف أسباب التغيّر اللغوي للغات الطبيعية بين الأسباب الداخلية التي ترتبط باستعمال الأفراد لهذه اللغات، والأسباب الخارجية التي ترتبط بالعلاقة القائمة بين هذه اللغات واللغات الأجنبية عنها عن طريق الترجمة أو الجوار، وفي ما يلي عرض لمجمل هذه الأسباب:

- ميل المتكلمين إلى استعمال ما هو أيسرُ على النطق، مثل انتقالهم في كسر همزة إنَّ بعد لفظ القول (قال إنَّ) إلى فتحها (قال أنَّ) لصعوبة الانتقال من فتح إلى كسر؛

- التجانس الحاصل بين بعض الألفاظ اللغوية، كما في العربية بين أسهم وساهم، وتنصت وتصدت، وبين طريقة وطريق في جمعها على طُرُق... إلخ، والذي بدوره يؤدي إلى الالتباس في قواعد تصريف كل منهما؛

- الترجمة عن اللغات الأجنبية، والتي تستدعي أحيانا مجازاة قواعد اللغة المصدر، نحو ترجمة الجملة المبنية للمجهول في الفرنسية (Le président a été reçu par son homologue vénézuélien) إلى العربية على نحو (استقبل الرئيس من طرف نظيره الفنزويلي) بذكر الفاعل الذي يمتنع ذكره في هذا النوع من الجمل في العربية؛

- الجوار بين لغتين فأكثر؛ مما يمكن من انتقال بعض الاستعمالات اللغوية من لغة إلى لغة أخرى مجاورة؛

- الإعلام الذي يشكل بدوره سببا رئيسا في إشاعة مختلف الاستعمالات اللغوية الخاطئة بين مستعملي اللغة؛ مما يسهم بشكل فعال في تثبيتها على ألسنة الناطقين بها.

خامسا - مظاهر التغير اللغوي في اللغة العربية المعاصرة: باستثناء المستوى الصوتي الذي لم يكد يعرف تغيرا ملحوظا في اللغة العربية المعاصرة، نجد المستويات الثلاثة؛ بما الصري، والتركيب والدلالي قد عرف عدة تغيرات على مستوى البنية أو القواعد الخاصة بكل مستوى، وهذا لحاجة العربية إلى التعبير عن متطلبات العصر، وفق ما تقتضيه طبيعة الحياة الاجتماعية، والسياسية والاقتصادية... إلخ للناطقين بها؛ إذ لا يخفى على أحد من الناطقين بالعربية أن العربية المعاصرة ليست هي العربية الأولى التي تكلمها أسلافنا منذ أمد بعيد فقد هُجرت ألفاظ وحلت محلها ألفاظ، وسقطت قواعد، ونمت قواعد، وكل هذا

مردّه إلى الخاصيتين السالفتي الذكر حول طبيعة اللغات البشرية، وهما الثبات والتغير، والتأثير والتأثر، اللذين عرفت من خلاهما العربية المعاصرة كذلك عدّة تغيّرات في مختلف مستوياتها اللغوية:

2- التغيّرات الصرفية: يُعدُّ المستوى الصرفي في اللغات الطبيعية أكثر عرضة للتغير عن غيره من المستويات اللغوية الأخرى، لحاجة الناطقين باللغة إلى التعبير عن مستجدات العصر عن طريق هذا المستوى بالتحديد، وعلى هذا الأساس فقد عرفت اللغة العربية المعاصرة، عدّة تغيّرات في نظامها الصرفي خالفت بها قواعد تصريف كلّ من الأسماء والأفعال في اللغة العربية القديمة بعضها أجازته مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وبعضها استنكره، والبعض الآخر عمل على تهذيبه، وفي ما يلي بعض نماذج هذا التغيّر من تصريف الأسماء والأفعال في هذه اللغة:

الكلمة	طبيعة التصريف	القاعدة المعيارية	قاعدة العربية المعاصرة
غَضِبَ	التأنيث	غَضِبِي	غَضِبَانَة
عضو	التأنيث	عضو	عضوة ¹
نية	الجمع	نِيَات	نوايا ²
واقعة	الجمع	واقعات	وقائع ³
موضوع	الجمع	مَوْضُوعَات	مَوَاضِع
طريقة	الجمع	طرائق	طُرُق
رئيس	النسبة	ثُمَّنْعُ النَّسْبَةِ إِلَى الصِّفَةِ	رئيسي ⁴
بنية	النسبة	بَنَوِي	بنيوي
استبان	المصدر	إِسْتَبَانًا / استبانة	إِسْتَبَانَا
تنصّت	الفعل الماضي	تنصّت	تصنّت (قلب مكاني) ⁵

جَدْوَل	المصدر	يمنع اشتقاقه من الاسم	جَدْوَلَة ¹⁶
رقم	المصدر	يمنع اشتقاقه من الاسم	رَقْمَة
أصغى	اسم الفاعل	مُصْنِغِيَّة	صَاغِيَّة
لغت	اسم الفاعل	لَاغِتْ	مُلَغِتْ
لحظ	اسم المفعول	ملحوظة	مُلاحَظَة
ملأ	اسم المفعول	مملوء	مليء ¹⁷
تنزّه	اسم مفعول	مُنْتَزَه	مُنْتَزَه ¹⁸
غَسَلَ	اسم الآلة	مِغْسَلَة	غَسَّالَة ¹⁹
دَفَّى	اسم الآلة	مِدْفَاة	دَفَّايَة

ويوضّح الجدول أعلاه الفرق البين بين قواعد تصريف الأسماء والأفعال في اللغة العربية القديمة التي تمثّل المعيار، واللغة العربية المعاصرة التي تمثّل التّعير في نظرنا واللحن في نظر اللغويين والنحاة؛ فإذا كان قد ثبت تصريف الأسماء في كلام العرب بتأنيثها وتثنيتهما وجمعها وتصغيرها والنسبة إليها والأفعال بتصريفها في الأزمنة الثلاثة والاشتقاق منها، فإننا نجد قواعد تصريف كل منهما في اللغة العربية المعاصرة، يختلف كلّ الاختلاف عن قواعد تصريفهما في اللغة العربية القديمة؛ فبالنسبة لتصريف الأسماء، نجد العربية المعاصرة تميل في تثنيتهما نحو توحيد قاعدة التثنية فيها بعلامة التأنيث اللفظي وهي (تاء التأنيث) سواء ما تعلّق منها بالمؤنث اللفظي بالألف نحو (غضبي) أم المؤنث المعنوي نحو (عضو) والأمر نفسه بالنسبة للجمع فيها؛ حيث تميل العربية المعاصرة نحو توحيد قاعدة الجمع في جمع الأسماء الدالة على غير العاقل بجمعها جمع التّكسير نحو (نوايا، ومَوَاضِع، ووقائع) بدل جمعها جمع مؤنث سالماً، مثلما تستلزمه قواعد اللغة العربية القديمة (نِيات، ومَوْضُوعَات، وواقعات)

وهذا لسهولة التعامل بهذا النوع من الجمع في النطق. أمّا فيما يتعلق بالنسبة باعتبارها أحد تصارييف الاسم؛ فإنّ العربيّة المعاصرة تميل كذلك إلى تعميم قاعدة النسبة إلى الأسماء بالياء على جميع الأسماء، سواء تلك التي امتنع فيها ذلك في اللّغة العربيّة القديمة؛ لدلالاتها على الصّفة نحو (رئيس، وأساس) أم التي تمّت فيها النسبة وفق قاعدة استثنائية، هي حذف الياء كما في (بنوي) من (بنية) و(كيماوي) من (كيماياء).

وأمّا فيما يتعلق بتصريف الأفعال، فقد خالفت كذلك العربيّة المعاصرة بعضاً من قواعد العربيّة القديمة في تصريفها هذا النوع من الكلم، بالقلب في الأفعال الماضية نحو استخدامهم الفعل (تصنّت) بدل (تنصّت) أو المشتقات نحو (مُنْتَرَه) بدل (مُنْتَرَه) وكذا اشتقاقهم المصدر من بعض أسماء الأعيان بدل الأفعال، نحو (رقمنة، وجدولة) واسم الفاعل من الثلاثي على وزن اسم الفاعل من غير الثلاثي نحو (مُلفِت) من (لفت) أو العكس على نحو (صاغية) من (أصغى) وكذلك اسم المفعول واسم الآلة من الثلاثي، واللّذين يتمّ فيهما اشتقاق هذين النوعين من الأسماء على صيغة اسم المبالغة نحو (مليء) في اسم المفعول من (ملاً) ونحو (غسّالة) و(دقّاية) في اسم الآلة من (غسل) و(دقّ). وكلّ هذه التّغيّرات التي عرفتّها العربيّة المعاصرة، وخالفت من خلالها قواعد العربيّة القديمة أو اللّغة المعيار في تصريف كلّ من الأسماء أو الأفعال، يمكن رده إلى السّبب الثّاني حول أسباب التّغيّر اللّغوي، وهو ميل المتكلّمين إلى ما هو أيسر على النّطق، بغضّ النّظر عن صحّته من عدمها، ليبقى الأخذ بها ضمن قاعدة مستقلة أو استثنائية أمراً ضرورياً في اللّغة العربيّة المعاصرة، كما ذهب إليه مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، في إقراره العديد من التّصارييف اللّغويّة التي خرجت على القياس إمّا ضمن قاعدة مستقلة نحو اشتقاق اسم الآلة على وزن (فعّالة) أو قاعدة شاذّة نحو جمع (نيّة) و(واقعة) على (نوايا) و(وقائع).

3- التغيرات التركيبية: يُعدُّ كذلك المستوى التركيبي في اللغة العربية المعاصرة من المستويات اللغوية التي عرفت تغيرات عدة على مستوى البنية والقواعد، خالفت بها كذلك قواعد تركيب هذا النوع من المستويات اللغوية في اللغة العربية القديمة، بعضها كذلك أجازها مجمع اللغة العربية بالقاهرة وبعضها استنكره، والبعض الآخر عمل على تهذيبه، وفي ما يلي عرض لبعض نماذج هذا التغير في هذا المستوى من اللغة العربية المعاصرة:

التركيب	طبيعة القاعدة	القاعدة المعيارية	قاعدة العربية المعاصرة
الجملة الفعلية	وجوب التّطابق في الجنس	سيأتي إليك زيدٌ وعمرٌ	سيأتيا إليك زيدٌ وعمرٌ ²⁰
الجملة المبنية للمجهول	وجوب حذف الفاعل	استُقبل الرئيس	استقبل الرئيس من طرف نظيره الفنزولي
الجملة الاسمية	عدم جواز الفصل بين المبتدأ والخبر بحروف العطف	كلّ عامٍ أنتم بخيرٍ	كلّ عامٍ وأنتم بخيرٍ ²¹
الجملة الاستفهامية	عدم جواز الفصل بين اسم الاستفهام والمستفهم عنه بضمير	ما الأسباب؟ رأيكم؟	ما هي الأسباب؟ وما هو رأيكم؟ ²²
الجملة الاستفهامية	اختصاص حرف الاستفهام (هل) بالدخول على الأفعال	هل يعجبك هذا الأمر؟ وهل يؤثمن السارق؟	هل هذا الأمر يُعجبك؟ ²³ وهل السارق يؤثمن؟
إنّ الابتدائية	وجوب كسر همزتها بعد لفظ القول بعد الظرف بعد التأكيد بعد التفسير	قال إنّ حيث إنّ إذ إنّ أي إنّ	قال أنّه حيث أنّه إذ أنّه أي أنّ

حيث الظرفية	وجوب رفع الاسم بعدها	الكتاب من حيث الثمن رخيص؟ ²⁴	الكتاب من حيث الثمن رخيص؟ ²⁴
المركب الإضافي	عدم جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه	مكان وزمان انعقاده ²⁵	مكان وزمان انعقاده ²⁵

ومما يمكن ملاحظته على مجمل التغيرات التي عرفتتها اللغة العربية المعاصرة في مستواها التركيبي عن اللغة العربية القديمة، هو جنوحها إلى التوحيد بين بنية الجمل الفعلية والجمل الاسمية في قاعدة التطابق؛ وهذا بعد أن شهدت اللغة العربية المعاصرة أمثلة من هذا التطابق في الجنس والعدد على مستوى الجمل الفعلية (سيأتيا إليك زيد وعمر) خلافا لما كانت عليه في اللغة العربية القديمة التي يمتنع فيها التطابق التام بين الفعل والفاعل باستثناء التطابق في الجنس (سيأتي إليك زيد وعمر). كما تجنح معظم الجمل الاستفهامية في اللغة العربية المعاصرة إلى الفصل بين الاستفهام والمستفهم عنه بضمير (ما هي الأسباب؟) خلافا لما كانت عليه اللغة العربية القديمة التي يمتنع فيها هذا الفصل (ما الأسباب؟). وتتجه كذلك اللغة العربية المعاصرة إلى فتح همزة (إن) في وسط الكلام مطلقاً، موحدة بذلك بينها وبين (أن) الاستئنافية، لصعوبة الانتقال فيها من فتح أو ضم إلى كسر، أو مما هو أخف إلى ما هو أثقل. كما تتجه هذه اللغة إلى الفصل بين المضاف والمضاف إليه في المركبات الإضافية، لتقل معها هذه القاعدة من الشذوذ في اللغة العربية القديمة إلى الاطراد.

3- التغيرات الدلالية: يمكن ملاحظة مختلف التغيرات التي طرأت على اللغة العربية المعاصرة في معجمها الدلالي من خلال مقارنة بين معجمها اللغوي ومعجم اللغة العربية القديمة؛ حيث تتضح الهوة بينهما من حيث عدد الألفاظ المتضمنة في هذه المعاجم، ولكن نظرة فاحصة منا إلى تغيّر دلالة بعض الألفاظ اللغوية في معجم اللغة العربية الحديثة، تجعلنا ننظر إلى هذا النوع

من التّغْيِير في عدد الألفاظ المتضمّنة في هذه المعاجم، على أساس أنّه أمرٌ طبيعيّ لارتباطه بتطوّر الحياة المعاصرة للإنسان النّاطق بهذه اللّغة، وهذا مقارنة بالتّغْيِير الذي عرفته العربيّة المعاصرة في ألفاظها على مستوى المعاني، والتي تحوّلت معها أحيانا دلالة بعض الألفاظ من معانيها الحقيقيّة إلى معاني مجازيّة أو متضادّة أحيانا؛ حيث يعبر هذا النوع من التّغْيِير في دلالة الألفاظ اللّغويّة على التّغْيِير الحقيقيّ للغة عبر الزّمن، وفي ما يلي في الجدول عرض لبعض الألفاظ اللّغويّة التي تغيّرت مدلولاتها من معانيها الحقيقيّة إلى معاني مجازيّة أو مضادة أحيانا:

الكلمة	المعنى الأصليّ	المعنى المعاصر
اللّعب	اللّهو/ عكس الجدّ	تأدية الدّور المهمّ
الإفلاس	الغنى	الفقر ²⁶
الإسهام	الحظّ	الاشتراك
الرّقق	التّلطّف	المصاحبة ²⁷
التّغطيّة	السّتر	الإحاطة بالخبر ²⁸
التّصفية	نقيض الكدّر	الإزالة ²⁹
السّدّاد	الإغلاق	قضاء الدّين ³⁰
المنافرة	الإضاءة	التّدرب ³¹
التّكليف	التّسخير	الإنفاق ³²
الإدانة	أقرضه المال	الحمل على المكاره (أدانت المحكمة) ³³

ويمكّن تفسير هذا التّغْيِير الدّلاليّ لبعض ألفاظ اللغة العربيّة المعاصرة، من خلال ربطه بمختلف الأسباب الحقيقيّة التي تقف وراء هذا التّغْيِير، والتي يرجع بعضها إلى التّرجمة عن اللّغات الأجنبية نحو تأدية الدّور المهمّ بالنّسبة للّفظة السّياسيّة (اللّعب) والإحاطة بالخبر بالنّسبة للّفظة الإعلاميّة (التّغطيّة) واللّتين تمّ ترجمتهما حرفيّاً عن العبارتين الفرنسيّتين (Joue un rôle

important) و(Couverture médiatique) على التوالي، أو التّجانس الحرّي بين بعض الكلمات، نحو (الإسهام والمُساهمة) بالنسبة لمعنى (المُشاركة) و (الرّفق والرّفيق) بالنسبة لمعنى (المُصاحبة) أو العلاقات الدّلالية بين بعض الألفاظ كالمجاز، نحو (التنقيّة) و(الإزالة) بالنسبة للفظة (التّصفية) و(التّسخير والإنفاق) بالنسبة لمصطلح (التّكليف) أو التّضاد نحو معنى (الغنى والفقر) بالنسبة للفظة (الإفلاس) وهكذا؛ مما يجعلنا نقصر أسباب التّغير الدّلالي للغة العربيّة المعاصرة في ثلاثة أسباب هي التّرجمة، والتّجانس الحرّي بين الألفاظ وكذا العلاقات الدّلالية القائمة بينها.

خاتمة: تناول هذا المقال موضوع الأخطاء اللّغويّة الشّائعة في اللغة العربيّة المعاصرة في محاولة منه الإجابة عن سؤال (هل تُعدُّ هذه الأخطاء اللّغويّة تغيّراً لغويّاً أم لحناً؟) وإثباتها المعنى الأوّل لهذه الظّاهرة، إستناداً إلى الخصائص الاجتماعيّة للغات الطّبيعيّة، وهما الثّبات والتّغير والتّأثير والتّأثر. وممّا توصّلت إليه هذه المداخلة من نتائج ما يلي:

- يفتّصر مفهوم اللّحن في اللغة العربيّة المعاصرة على الإعراب، دون غيره من المعايير المعتمّدة في وصف اللّحن في اللغة العربيّة القديمة؛ وهي الخطأ في بنية الكلمة أو تركيبها، وهذا استناداً إلى مختلف التّغيّرات التي عرفتتها اللغة العربيّة المعاصرة في بنيتها الصّرفيّة أو التّركيبية.

- تعكس مختلف التّغيّرات التي عرفتتها اللغة العربيّة المعاصرة، الخاصّيتين الاجتماعيّتين للغة وهما الثّبات والتّغير، والتّأثير والتّأثر؛ حيث يُقصد بالتّثاينة الأولى منهما تحوّل قواعد هذه اللغة من قانون ثابت إلى قانون متغيّر، ويُقصد بالتّثاينة الثّانية قدرة الفرد النّاطق بها على التّأثير في قوانين اللغة سلباً وإيجاباً وتأثره بها.

- يُعدُّ إقرار مجمع اللغة العربية بالقاهرة للعديد من الألفاظ والتراكيب اللغوية التي خرجت في قواعدها عن قواعد اللغة العربية القديمة، اعترافاً بهذه الحقيقة اللغوية حول ظاهرة التغير اللغوي في اللغات الطبيعية.
- يرتبط التغير اللغوي للغات الطبيعية بجملة من الأسباب، بعضها يعود إلى الناطقين بها كالميل إلى ما هو أيسر على النطق، والإعلام الذي بدوره يعمل على نشر مختلف الاستعمالات اللغوية بغض النظر عن صحتها، وبعضها يرتبط بعلاقة اللغة بغيرها من اللغات كالترجمة أو الجوار، وبعضها يرتبط بطبيعة اللغة، كالتجانس بين بعض ألفاظها، والعلاقات الدلالية القائمة بين مختلف معانيها: كالمجاز والتضاد.
- تستلزم مختلف التغيرات التي عرفتتها اللغة العربية خلال مراحل تاريخها، تبريراً علمياً؛ يصف هذه الظواهر ويفسرها ويقعدها لها، لا تبريراً عاطفياً يمجّد القواعد المعيارية على حساب الاستعمال، ويمارس دور الرقابة اللغوية على الناطقين بها؛
- يبقى الالتزام بقواعد اللغة العربية القديمة أمراً ضرورياً بالنسبة للمتخصصين خاصة باعتباره الأنسب للغة من جهة، ولعرفة مختلف التغيرات التي تعرفها العربية خلال مراحلها من جهة ثانية؛ إذ في غياب هذا النوع من الالتزام اتّجاه قواعد اللغة لدى المتخصصين، تبقى العربية مجرد لهجة تعرف آداءات مختلفة لقواعدها بين الناطقين بها.
- تستدعي ظاهرة التغير اللغوي ضرورة التّقييد لما استجدّ على اللغة من قواعد مع كلّ عصر بدل ممارسة القمع اللغوي أو الرقابة اللغوية بقاعدة (قل ولا تقل) وهو ما على المجامع اللغوية تبنيه كمبدأ عام أو منهج أساس في التعامل مع مختلف الألفاظ والأساليب اللغوية المستحدثة.

الهوامش

- ¹ - إشراقة نور الدين الصايغ محمد، قضية اللحن في اللغة العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري بحث ماجستير (السودان: جامعة الخرطوم، 2010)، 59 - 65.
- ² - المرجع نفسه، 09.
- ³ - عبد العظيم فتحي خليل، موقف مجمع اللغة العربية بالقاهرة من الاستعمالات المعاصرة، دط. (القاهرة: جامعة الأزهر، دت)، ما أجازه المجمع من استعمالات المعاصرين في الألفاظ المفردة، ما أجازه من استعمالات المعاصرين في التراكيب.
- ⁴ - فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تر. صالح القرمادي، ومحمد الشاوش، ومحمد عجينة، ط1. (الجمهورية العربية الليبية: الدار العربية للكتاب، 1985)، 213.
- ⁵ - المرجع نفسه، 213 - 214.
- ⁶ - المرجع نفسه، 213.
- ⁷ - المرجع نفسه، 232، 233، 266.
- ⁸ - جون ليونز، اللغة وعلم اللغة، تر. مصطفى التوني، ط1. (القاهرة: دار النهضة العربية، 1987) 87.
- ⁹ - المرجع نفسه، 85.
- ¹⁰ - فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، 253.
- ¹¹ - محمد شوقي أمين وإبراهيم النرزي، مجموعة القرارات العلمية في خمسين عاما 1934-1984، (القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1984)، 128.
- ¹² - عبد العظيم فتحي خليل، موقف مجمع اللغة العربية بالقاهرة من الاستعمالات المعاصرة، 13.
- ¹³ - المرجع نفسه، 14.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، 10.
- ¹⁵ - المرجع نفسه، 09.
- ¹⁶ - المرجع نفسه، 10.
- ¹⁷ - المرجع نفسه، 12.
- ¹⁸ - المرجع نفسه، 12.

- ¹⁹ - محمد شوقي أمين وإبراهيم التّريزيّ، مجموعة القرارات العلميّة في خمسين عاما 1934-1984، 48.
- ²⁰ - المرجع نفسه، 39.
- ²¹ - عبد العظيم فتحي خليل، موقف مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة من الاستعمالات المعاصرة، 10.
- ²² - المرجع نفسه، 19.
- ²³ - المرجع نفسه، 19.
- ²⁴ - محمد شوقي أمين وإبراهيم التّريزيّ، مجموعة القرارات العلميّة في خمسين عاما 1934-1984، 161.
- ²⁵ - المرجع نفسه، 156.
- ²⁶ - عبد العظيم فتحي خليل، موقف مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة من الاستعمالات المعاصرة، 15.
- ²⁷ - المرجع نفسه، 08.
- ²⁸ - المرجع نفس، 10.
- ²⁹ - المرجع نفسه، 10.
- ³⁰ - المرجع نفسه، 10.
- ³¹ - المرجع نفسه، 13.
- ³² - المرجع نفسه، 15.
- ³³ - المرجع نفسه، 20.

(التماسك والتناسق النصي في جهود عبد القاهر الجرجاني)

(Coherence and textual consistency in the efforts of

Abdul Qahir al-Jarjani)

أ. لوت زينب*

تاريخ الاستلام: 2019-01-08 تاريخ القبول: 2019-04-03

الملخص: يعدّ النص ظاهرة من ظواهر اللسانيات العربية قديما وحديثا حيث اشتغل (عبد القاهر الجرجاني) في تفسير العلاقات الفاعلة في تركيب الجملة ومن ثم النص، واثبات قواعد التماسك والتناسق. أهداف البحث: الوقوف على الجهود اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني وكشف نظام العلاقات اللغوية في المنطق العقلي والبلاغي والنحوي للتركيب. نتائج البحث: إبراز القيمة العلمية للتماسك والاتساق في النظرية وأثرها العلمي في كشف أسرار العلاقات اللغوية في تأليف الكلام.. الكلمات المفتاحية: النص؛ اللغة؛ التماسك؛ الاتساق؛ .

Abstract: The text is a phenomenon of the phenomena of Arab linguistics in the past and modern, and(Abdul Qahir Al-Jahraani) worked in the interpretation of the effective relations in the syntax of the sentence and then the text, and the proof of the rules of consistency and cohesion.The objectives of the research: To stand on the linguistic efforts of Abdul Qahir Al-Jarjani and to reveal the system of linguistic relations in the mental and logical

* المدرسة العليا للأساتذة مستغانم، الجزائر، البريد الإلكتروني:

loutlout211@gmail.com, ALGÉRIE

logic and grammar of the composition. Search Results: To highlight the scientific value of coherence and consistency in the theory and its scientific impact in revealing the secrets of linguistic relations in the composition of speech.

TheKeywords: Text; language; coherence; consistency.

المقدمة: يعدّ النصّ ظاهرة من ظواهر اللسانيات العربيّة قديما وحديثا التي ركز عليها العرب قديما، وعلى تحديد مصطلحاتها في تبويب البحث العلمي التّأصيلي، وانقسم الباحثون بين التّأسيس والصناعة و الشّروح التّفصيليّة وكان أعلامها يقفون على الظواهر اللغويّة، باعتبارها ظواهر تفسر علاقات فاعلة في التّركيب، تعد منطق تواصل واستخدام يبرز أهميّة بلوغ الرّوابط الموجودة في الجملة ومن ثمّ النصّ، واثبات قواعد التّناسق والتّماسك عند الجرجاني هو إحدى الوحدات المهمة فما هي الرّكائز النّظريّة عند الجرجاني؟ وهل حققت الفهم المنطقي للعلاقات بين ترابيّة الكلام في الجملة؟ كيف حدد مستويات التّناسق؟ ومن هذه التّساؤلات ندرج هذه الدراسة في أهمّ التّوافقات المعرفيّة والعقليّة عند عبد القاهر الجرجاني وقدرته على التّحكم في الرّؤية المنطقيّة للنظم

2- التّماسك والتّناسق النصي في جهود عبد القاهر الجرجاني

1.2. النصّ عند العرب القدامى: جاء النصّ في معجم (لسان العرب) لـ(ابن منظور): "نصص: النصّ: رفعك الشّيء. نص الحديث ينصه نصا: رفعه. وكل ما أظهر فقد نص. وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجالا أنص للحديث من الزهري، أي أرفع له وأسند. يقال: نص الحديث إلى فلان أي رفعه، وكذلك نصصته إليه. ونصت الطّبيّة جيدها: رفعته. ووضع على المنصة أي على غايّة الفضيحة والشّهرة والظهور. والمنصة: ما تظهر عليه العروس لتري، وقد نصها

وانتصت هي والماشطة تنص العروس فتقعدھا على المنصة، وهي تنتص عليها لترى من بين النساء. وفي حديث عبد اهل بن زمعة: أنه تزوج بنت السائب فلما نصت لتهدى إليها طلقھا، أي أقعدت على المنصة وهي بالكسر سرير العروس قيل: هي بفتح الميم الحجلة عليها من قولهم نصصت المتاع إذا جعلت بعضه على بعض. وكل شيء أظهرته فقد نصصته. والمنصة: الثياب المرفعة، والفرش الموطأة. ونص المتاع نصا: جعل بعضه على بعض. ونص الدابة ينصھا نصا: رفعھا في السري... : والنص والنصيص السري الشديد والحث ولهذا قيل : نصصت الشيء رفعته ومنه منصة .العروس وأصل النص أقصى الشيء وغايته ، ثم مسي به ضرب من السري سريع. ابن الأعرابي: النص الإسناد إلى الرئيس الأكبر والنص التوقيف والنص التعيين على شيء ما ونص الأمر شدته... ونص الرجل نصا إذا سأله عن شيء حتى يستقصي ما عنده.(2003)»¹ وتعنى التعريفات بالنص مقارنة بماهية النظام والترتيب والأسس التي تحكم التوازن والتوافق كما يستقر المقام لتنضيد مستويات هذه السيورة من الانسجام.

النص عند عبد القاهر الجرجاني منتظم بقواعد وثوابت تجمع التآلف النظامي للجملة حسب أصول التركيب في النحو ومواضع التغير التي تفيد المعنى المتوخى ولا تتجاوز المنطق في البناء المحكم المتوافق مع قواعد اللغة وسعة المعرفة بالجائز منه والمرفوض، والمتفق على وقوعه ومشاكله الأسباب الوضعية التي تعد مزايا استحسان، فالنص هو الكلم التي تتماسك أجزاؤه «إن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن كالأجزاء من الصيغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه، ولذا تقضي له بالحذف والأستاذية وسعة الدرع، وشدة المنّة، حتى تستوفي القطع وتأتي على عدة أبيات(137/2003)»² تعزز اتساع المعرفة بالقواعد النحوية الذي تربط اللفظ السابق باللاحق مع مجموعة متتاليات تضبطها البنية العميقة

المكوّنة لشبكة العلاقات التي تربط بين الشّكل والتّشكيل التركيبي ككل متكامل متجانس.

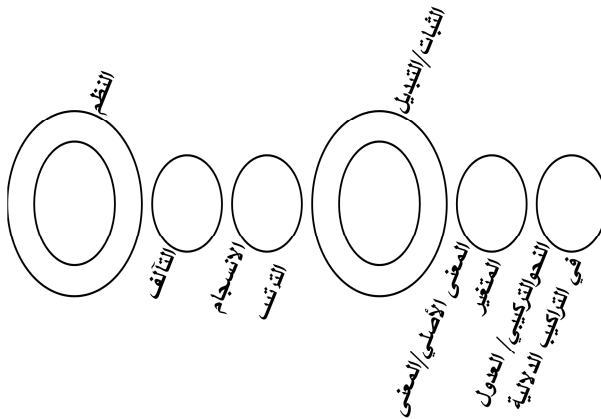


تنسجُ الكلمات النصّ، و تمسك بعضها ببعض وتتألف في نسجها ليكون الكل متناسقاً إذا توافقت أجزاء افتلافه «نسيجا من الكلمات يترابط بعضها ببعض كالخيوط التي تجمع عناصر الشّيء المتباعدة في كيان كلي متماسك» (2003/ص.133)³ ولا يتحقق البعد التّمائلي في الشّبكة العلائقيّة التي تربطها بالمفهوم الغربي الانسجام Cohérence بمعنى ترتيب الألفاظ ترتيباً منطقياً تنبني في سعة التّحكم البلاغي واللغوي لتحقيق أدبيته وشروطه التّواصلية اللسانية.

2.2. نظريّة التّماسك النصي عند عبد القاهر الجرجاني: عبد القاهر

الجرجاني " (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرّحمن بن محمد الجرجاني (400-471هـ)) لسابقه ومعاصريه إلا أنه ارتأى في نظريته جوانب اختلاف بعد افتلاف ومواكبة لتفسير منحى آخر، وهو تجاوز المفاضلة والارتكاز على عليّة التّصوير

والمحاكاة، حيث يمثل النص عملية نظم تسيرها مستويات مختلفة، وترسم وجودها بفكر صانعها، وتتصور المتخيل صنعه التركيبي، يكتنف التناسق في جلاء الانسجام ومكانتهما التعبيرية، إلى رؤية صاخبة في فهرسة العالم الضمني الذي يمتد في ذات الكاتب، وتخصيص ما يناسب لاستجابة العالم الحسي إلى العالم المرئي، الذي يتموقع في خصوصية الذاكرة، والحدس في حلقة وصل للمستلزمات الدافعة قوة، وعمق تجسيم تجليات المشهد والتنظير لأبعاده والمتمات التوافقية بين ما تحمله الصورة من خصوصيات طبيعية ومدرسة إلى الإمكانيات الواصفة، والمتضمنة إزاء عالم جديد وفردية جديدة بالارتقاء إلى العقل الفعال، الذي يعيد ترجمة الصور الحاصلة بنشاط ذهني يهتدي بالقياس واستبطان المخيلة في الأعراض التي تتم فصل منها المادة المنتقة في تشكيل النص وقد تضمن هذا السياق عند الجرجاني نظرة تركز من منطلقات أفرزت رؤيته للنظم الذي يشكله التركيب كالعقد المتألف الأجزاء.



يمثل النص امتثالا مرتقبا من وعي الآخر المنتظر، والمدرّك لترجمة الغائب المستحضر وجوده في رمزيته وسكونه الباعث للتقصي، الذي يتدرج في حل

اشتغالاته الكبرى ، مستقرا في منافذ العودة الى بؤرة الآلية التي تحدد هوية العمل الحامل مرجعية صورية والمحمول على غائيتها ، وأسرار الجمالية الأدبية من خلال حدود لغته وصناعة خطابها تحت سلطة التغيير (الحذف - التقديم - التأخير)، ليتمظهر في رسم بيوغرافيا نصية تحاول التقصي في أبعاد نشوء المدلولات المخترنة والعميقة الشاملة في ضبط نظام التوتر في السنة اللغة الشعرية وألفاظها ودلالاتها المحكمة، وفتح مغاليق النص وتوخي أسبابه «من الكلام ما ترى أنت المزية من نظمه والحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق ،وينضم بعضها في بعض حتى تكثر في العين (2003/ص133)»⁴ حيث تتكاثر الرؤية حول محاسن أدبية النص وتنظيم متطلبات أدبيته من الوضع النحوي التركيبي وبنيته العميقة المتجذر في جزئيات المعنى، والصبغ الذي يرتبط بمزايا اللفظ المتسق المنسجم ببعضه في هذه البنية.

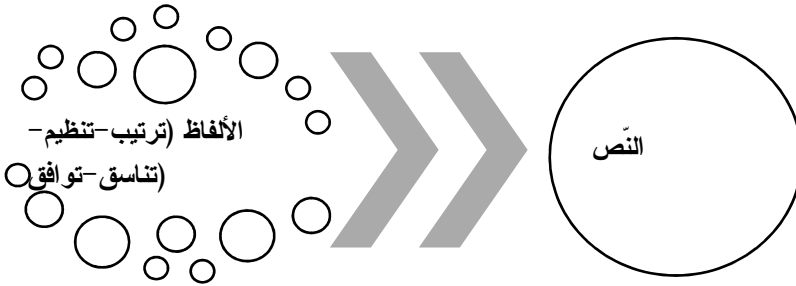
3. مستويات الاتساق النصي في نظرية عبد القاهر الجرجاني: يمكن تحديد تعريف للاتساق من خلال ما ورد في معجم (لسان العرب) لابن منظور « من أوسق ويقال "الوسق أي ضم الشيء إلى الشيء...والطريق يأتسق ويتسق أي ينظم، واتسق فالقمر: استوى ، واتسق القمر: امتلاؤه واجتماعه واستواؤه...ومنه فالاتساق هو الانتظام (1997/ص.179)»⁵ فالنظام عند الجرجاني هو تناسق الألفاظ وفق قواعد النحو وأبوابه ومنافذه وأصوله المتفق على وضعها علماء اللغة وأن الفضل للنحو في تنضيد الألفاظ وتوافقها لتكون تركيبا يتصف بالتوازن والتعاقد والتماثل بين مستويات النظم «فليس الغرض بنظم الكلام أن توالى ألفاظها وتلاقى معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل (2003/ص.102)»⁶ ومن هنا ندرك حرص (عبد القاهر الجرجاني) على ما تثيره معاني النحو في النص وأسرار البلاغة التي تفسر علاقتها العودة إلى كشف نظام العلاقات اللغوية في المنطق العقلي.

كما نجد ذلك في المفهوم الغربي مقصديّة الخطاب تؤدي لفهم العوامل المؤثرة في القول، والمواضع التي يكون فيها المتكلم « من منظور سورل Searle، فالمشكل الذي طرحه اللغة غير المباشرة هو كالتالي: كيف يمكن لمتكلم أن يقول شيئاً، ويريد أن يقول هذا الشيء، ويريد كذلك قول شيء آخر؟ وكيف يمكن لمستمع فهم اللغة غير المباشرة، بينما ما يقصده يدل على شيء آخر(دت ص.71)»⁷ عن الانعكاس الذي تتركه اللغة في ذهن المتلقي خلف جماليّة الخطاب حيث يبحث عن البناء والسيّاق المنجز في النص منذ تمثله ككائن حي ينشطر في خلية تتداول الرؤية الواقعيّة والوجوديّة وتثير إيديولوجيّة نصيّة تحاكي وتتشافف مع العالم الخارجي المؤثر في الدواخل الخطابية المتمثلة في القواعد التي أشار إليها الجرجاني بدقة وتمحص.

تتخذ الأحكام الوضعيّة للنحو تقدير مسافة اللفظ مع غيره ومستوى علاقات الحروف التي تعد رابطاً تكاملياً بين أجزاء التركيب وموضعه، فهي تفيد الحكم وبلوغ المعنى المراد ودلالته التشكيلية، ولعل كل وظيفة للخطاب تمثل موقعاً يشهد وقعه في الالتحام بين أطراف اللفظ وما ينتج توافق آلياته وقوانين البناء اللغوي.

أمّا (صلاح فضل) في توصيف النصّ السردّي الذي يربطه بين وظيفة البناء ومهارات الاتصال التي تلائم اللغة في أسلوبها والجنس الأدبي مع وحداته التي تصل للوحدة الكبرى للخطاب وهنا يؤكد على العلاقات الخفية والظاهرة ومنطق العقل في وضع تناسق وانسجام بين مقولات النصّ في اللغة وأدبيته التناصيّة والتي تفترض وسطاً للتغيرات اللفظيّة وفق المقولات والعمليات الفنيّة التي تقضي حالة استبداليّة لشروط الترابط والتماسك لتمكين البحث التحليلي والتجريبي من دراسة تلك الظواهر «وينبغي لنظرية الخطاب اللغويّة أن تقوم بوظيفتها كأساس ملائم لدراسة الوظائف والأبنية المحددة.

فعلى سبيل المثال ينبغي أن ترتبط مقولات السرد ووحداته بشكل واضح الآن الدلالة الكبرى للخطاب. وبنفس الطريقة فإن بعض العمليات الأسلوبية الأدبية تتمثل على وجه التحديد في تغيير قواعد وشروط الترابط والتماسك العامة للنص الأدبي. وبهذا المعنى فإن نظرية اللغة الخاصة بالخطاب لا تهدف إلى مجرد البحث اللغوي فيه وإنما تقوم بوضع الأسس لدراسته من منظور (عبر تخصصي) بشكل يجعل من الممكن التقدم في إدراج البحوث التحليلية التجريبية للخطاب (1992/ص 13)»⁸ قد يختلف البحث الحديث بما جاء به الجرجاني لكن وإن تعارض ووجهة النظر تبقى رؤيته منفذا لخلق نمط تجريبي لأنواع الخطاب في النص حسب غرضية وجوده وموضعه التواصلية ويمكن التمييز بين:



علاقات منطقية: قواعد البناء (نحو) لبلوغ أهداف
بلاغية (تناسب لغوي تركيبية)

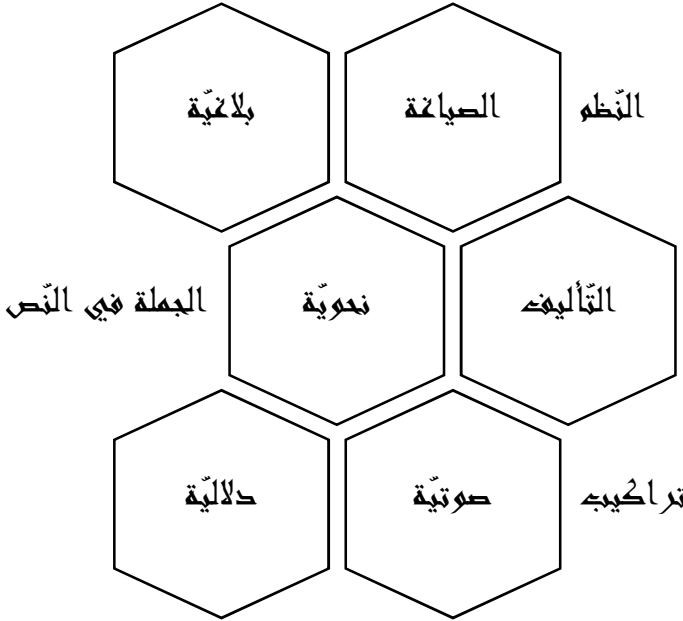
لا يوجد نص دون استخدام لأصول النحو واحكامه فهو المزية والسمة في التركيب و التوافق « فلست بواحد شيئا يرجع صوابه إن كان صواباً وخطأه إن كان إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب موضعه ووضع في حقله، أو عومل بخلاف هذه المعاملة ، فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو

وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد وتلك المزية، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ويتصل باب من أبوابه (2003/ص.357)⁹ و للنحو أبواب وفصول ومواضع تجمع بين القواعد اللفظية و طرائق عدولها وانزياحها البياني وفق المستوى الدلالي و الشكلي للتركيب النصي.

يتعلق النحو عند (عبد القاهر الجرجاني) بالفكر، ولا ينظر للمتتابع اللفظي فقط في اللغة بل توجيه للمعاني وتأسيس للدلالات اللفظية حسب أحكامه التي تضبط حسن النظم «معاني النحو لا تقف عند حدود الجملة، بل تتجاوزها إلى النصّ، أو مجموعة الجمل (2003/129)»¹⁰ وهو لا ينظر للاستعارات والمجازات والتغيرات التركيبية إلا واقعا يعكس بلاغة استخدام النحو في موضعه وسعة معرفة الناظم بالأصول و الفروع منه، واقتداره على استخدام لغة تؤسس البلاغة في الظاهر.

يتخذ (الجرجاني) النحو تفادياً لانحراف الكلمات عن أصلها ويُبعد المعنى واختلال الألفاظ «تأليف الحروف والكلمات والجمل تأليفاً خاصاً يسمح للمتكلم والسامع أن يرتقيا بفضل بديع التركيب إلى مدارك الإعجاز في الكلام، علماً بأن المعاني تملأ الكون وتعمر الفضاء، واختيار تركيب من التراكيب في النصّ كاختيار مسلك من المسالك في البرّ والبحر، وقد يؤدي بالسالك - أي المتكلم - إلى الوصول إلى الغاية التي يقصدها في برّ النجاة أو إلى الضلال والهلاك (2003/102)»¹¹ والتأليف جسد متكامل الأعضاء منسجم الأطراف بين جميع أجزاء التركيب (حروف الربط، أسماء الإشارة، الأسماء الموصولة الضمائر...) وتتخذ وظائفها في تحديد المعنى وأي اختلال يفسد تماسك اللفظ مع دلالاته في الجملة ويتأثر النص بهشاشة التراكيب إذا اختلف

مواضعها، واللسانيات الحديثة تعنى بالنظام الذي يقيم علاقات البناء في النص.



4. أهمية التماسك في المستوى الأفقي للنص الاتساق: الاتساق يعنى ترابط العوامل المنظمة لمنطق اللغة في وسائطها التعبيرية « الترابط بين التراكيب والعناصر اللغوية المختلفة لنظام اللغة (ص.03) »^{2 1} وتوحي مزية النحو الذي يُعنى بمعاني النفس الإنسانية ويختص في تجسيد غاياتها البلاغية احتواء المعنى في شكله المنطقي.

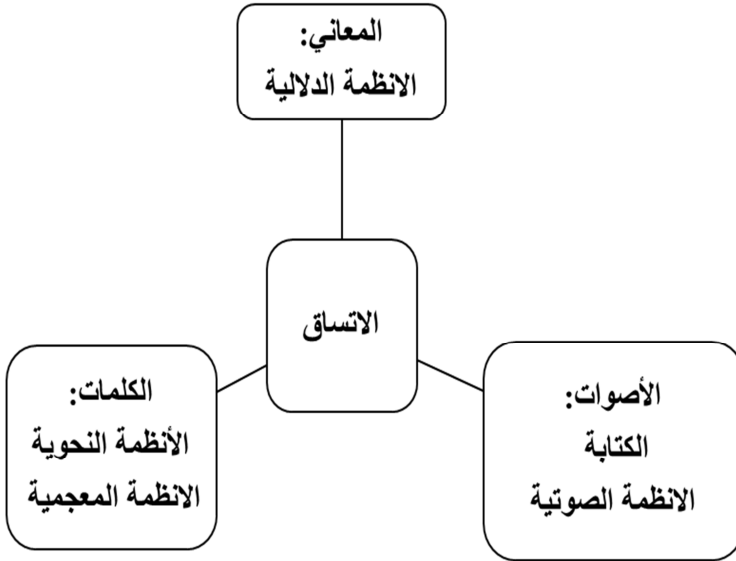
أن الاتساق هو ترابط جزئيات النص في توافق منطقي للغة بين روابطها التركيبية والحسية التي تنطوي على الإيقاع المنسجم بين الجزئيات والذي تدركه النفس، وقد خصص (عبد القاهر الجرجاني) لأركان النظم التي يستقيم بها التركيب إذا ما تمت المعرفة بقواعدها وحقيقتها وجودها :

التقديم والتأخير: التشويق- الانكار والتعجب للمتقدم- التخصيص-

التنبية

الحذف: القطع والاسقاط للضرورات وتخفيف الثقل في التراكيب مثل
القول: (لولا الله ما اهتدينا) والتقدير (لولا الله موجود ما اهتدينا)
الفروق: تعدد المعاني حسب أوصافها في الكلام، دقة اللفظ في مادته اللغوية
ومرتبته في الكلام ويظهر ذلك جليا في المعاجم اللغوية.
الفصل والوصل: (الوصل عطف الشيء على الشيء بالواو والفصل ترك
عطفه بالواو) ولكل موضعه.

تعد نظرية النظم إحالة للوظائف التي تصف النص في ترتيبه وتوافقه وحسن
تأتي المعاني من خلال الدلالات المعجمية والنحوية والبلاغية والايقاعية وجعل
للقواعد النحوية المزية في فهم التركيب « إن مما هو أصل أن يدق النظر
ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحدد أجزاء الكلم، ويدخل
بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن
تضعها في النفس وضعا واحداً وأن يكون حالها فيها حال الباني يضع بيمينه
هاهنا، في حال ما يضع بيساره هناك، وفي حال ما يبصر مكانا ثالثا ورابعا يضعها
بعد الأولين إلى أن يقول : واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته إن لم يحتج
واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل
من عمد إلى لال فخرطها في سلك لا ينبغي أكثر من أن يمنعها
التفرق (2003/ص202)»^{1 3} وكيفية بلوغ النص ذلك الترابط العميق في
بناء النص وتوافق أجزائه يعكس سعة المعرفة لقواعد اللغة ومنطق النحو الذي
نشأت المعاني في فهم النفس وبلوغ تفسير حاجتها للتدبر ومعرفة انتظام
العناصر وأسرار تأليفها.



تعنى لسانيات النَّص بالتَّرتيب و التَّكامل وشدة الاتساق والانسجام الذي تحققه أجزاء الكيان النَّصي حسب قواعد النَّحو التَّركيبي، والقوانين التي تحيل لتأويل المعنى نسبة للفظ الحامل لدلالته ومرجعيته وتكوينه في الجملة ومع أن تحديد «فان ديك Vin Dijk يتجاوز علم النَّص دراسة التَّراكيب اللسانية للنصوص الأدبية واعتبارها شبكة من العلاقات اللغوية لي طرح نفسه كنشاط متعدد الاختصاصات (2007/ص.28)»⁴¹ لا يمكن للدرس اللساني دراسة النَّص دون الرَّجوع للوضع النَّحوي الذي تأسس عليه منطق توظيف الألفاظ لتفسير البنية العميقة المتحكمة في تلاحم النَّص وإدراك قوانينه في ممارسة التَّرابط الكلي للأجزاء عبر متتاليات متشابكة تُسيرها خصائص البنية اللغوية في وسطها التَّركيبي وفهم نظام حيك وسبك الكلام ونظمه حسب نظرية اللغوي (عبد القاهر الجرجاني) وتبلورت مفاهيمها في الدراسات اللسانية الغربية، وتعد مفهوماً متطوراً لفهم النَّص.



الخاتمة: البحث عن تركيب الجملة عند الجرجاني يفتح لنا أفق فهم النص واستدراج مكوناته التي تعنى بمفاهيم منطقية تعود للقواعد النحوية التي تتسع لبلاغة القول وفق ما تسمح به الظواهر اللغوية التي تحافظ على سلامة التركيب وبلوغه فعل يمارس القواعد الموضوعية في الاستعمال الوضعي للغة كما ذكرها (أوستين Joel Scott Osteen) «التنفيذ العملي لقواعد القدرة وآلياتها. إنه التحقيق الفعلي للقواعد الضمنية التي يملكها الفرد المتكلم عن لغته (2010/ص. 43)»⁵¹ وهذه الآليات تمارس القدرة على تنظيم الكلام المحقق عبر المضمون المنجز بالقواعد التي تتحكم ضمناً في الوظيفة اللغوية.

الهوامش:

- ¹ ابن منظور: لسان العرب، الجزء الرابع عشر، حرف النون، مادة نصص، دار صادر، بيروت، لبنان طبعة 2003م
- ² - عبد القاهر الجرجاني، «دلائل الإعجاز»، دلائل الإعجاز في علم المعاني، قدمه وشرح د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2003 م، ص. 137.
- ³ - الأزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون به الملفوظ نصا، تونس، المركز الثقافي العربي 1991، ص 12،
- ⁴ - عبد القاهر الجرجاني، «دلائل الإعجاز في علم المعاني»، قدمه وشرح د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، 2003 م، ص. 133.
- ⁵ - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 10، ط 6، 1997، ص. 179.
- ⁶ - عبد القاهر الجرجاني، «دلائل الإعجاز في علم المعاني»، ص. 102.
- ⁷ - فرانسواز أرمي نكو Recanati François، «المقاربة التداولية»، ترجمة سعاد علوش، مركز الإنماء القومي، ص. 71.
- ⁸ - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، العدد: 164، أغسطس 1992 م، ص. 13.
- ⁹ - عبد القاهر الجرجاني، «دلائل الإعجاز في علم المعاني»، ص. 357.
- ¹⁰ - عبد القاهر الجرجاني، «دلائل الإعجاز في علم المعاني»، ص. 129.
- ¹¹ - عبد القاهر الجرجاني، «دلائل الإعجاز في علم المعاني»، ص. 102.
- ¹² - بشير إبرير، إستراتيجية الإنسجام في قراءة النص الأدبي، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة عنابة، ص. 03.
- ¹³ - عبد القاهر الجرجاني، «دلائل الإعجاز في علم المعاني»، ص. 202.
- ¹⁴ - حسين خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية ناشرون منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2007 م، ص. 28.
- ¹⁵ - مصطفى غلفان بمشاركة محمد الملاح وحافظ إسماعيلي علوي اللسانيات التوليفية - من النموذج ما قبل المعيار إلى البرنامج الأدني: مفاهيم وأمثلة، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط 1، 2010، ص. 43.

قاموس اللسانيات لعبد السلام المسدي رؤية تحليلية استقرائية.

Dictionary of linguistics by Abdel Salam El Masdy.

أ.عبد الرحيم البار *

تاريخ الاستلام: 06-11-2018 تاريخ القبول: 09-05-2019

الملخص: يحمل عبد السلام المسدي رؤية خاصة في قراءة اللسانيات الحديثة والمعاصرة فجّل اهتماماته انصبت على الجانب اللساني، حيث أدرك أن المصطلح هو أساس التطور في بناء النظريات اللغوية وحل الإشكالات التي تعترضها؛ وهو ما رآه ينقص العمل اللساني العربي في العصر الحديث فكان عمله المسمى 'قاموس اللسانيات' الصادر عام 1989م بادرة نوعية أولى في معالجة قضايا المصطلح اللساني وعوارضه المنهجية والمعرفية؛ مبيّنا أهمية هذا المبحث اللغوي في دعم اللسانيات العربية الحديثة وإرساء تقدّمها.

- الكلمات المفتاحية: المسدي؛ قاموس؛ اللسانيات؛ تحليلية، استقرائية.

Abstract: Abdul Salam Masdy holds a special reading of modern and contemporary linguistics vision; radishes interests focused on the lingual side, realized that the term is the basis of formation and evolution in the construction of linguistic theories and solving linguistic dilemmas; it is what he saw objected to the Arab tongue in the modern era, was his

* جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، البريد الإلكتروني:

Abderrahimelbar.dz@gmail.com

work named 'Dictionary of Linguistics' issued in 1989, the first sign of quality in addressing the term linguistic issues of methodology and cognitive symptoms; noting the importance of this linguistic topic in support of modern Arabic linguistics and lay the offer.

–**Keywords:** Masdi; Dictionary; linguistics; Analytical analysis.

1. **تُوطئةٌ وتُقديمٌ:** كتاب قاموس اللسانيات للأستاذ عبد السلام المسدي هو معجم لغويّ متخصص في علم المصطلح اللساني، وكانت هي الطبعة الأولى للكتاب وجاءت طباعته ونشره من طرف الدار العربية للكتاب عام 1989م، وهو بالعنوان الآتي: قاموس اللسانيات: عربي - فرنسي. فرنسي - عربي مع مقدّمة في علم المصطلح. اعتبر معجماً لسانيّاً هاماً خاصة أنّ خروجه للساحة اللغويّة كان في فترة تفتقر فيها اللغة العربيّة إلى التعريف بهذا العلم باعتباره وليد الفترة الجديدة والعرب في هذه المرحلة لم يفرزوا أدوات منهجيّة مقنّنة لتلقي إرهاصات الحضارة اللغويّة العربيّة في ظلّ التحديات المعرفيّة والمنهجيّة القائمة. واختار صاحبه المنهج الوصفي في بسط المصطلحات وتدقيق المعلومات فجعل لكل مصطلح لسانيّ في اللغة الفرنسيّة مقابله في اللغة العربيّة، ولكل مصطلح لساني عربي مقابله باللغة الفرنسيّة. وقد عرّج بقدر مهمّ على ماهية علم المصطلح وتناول خصائصه ومكانته في اللغات، وذهب يبيّن إسهام العرب في هذا المجال في إشارة على تأكيد وحثّه على الانتباه لهذا القسم الفعّال داخل دائرة اللسانيات الحديثة.

2. **مبحثه في العلوم ومصطلحاتها:** يجزم المسدي في كتابه قاموس اللسانيات أنّ كلّ العلوم تمتاز بالضبط المصطلحي الخاص؛ الذي تنبني عليه القواعد المعرفية لكلّ علم من العلوم، ويوضح في مدخل الكتاب "مفاتيح العلوم مصطلحاتها ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى. فهي مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عمّا سواه"⁽¹⁾. ونحلّ قوله وفق ما يلي:

- هذه العبارة ذات مدلول واضح؛ فلا علم بدون مصطلح ولا يمكن أن نسمي العلم علما إن كان يفتقد لمقدرات مصطلحية؛ فالمصطلح وظيفته تضمين معنى المعرفة المحددة ضمن المادة المعجمية المنتقاة.
- يرى أن العلم غايته إعداد النسق المعرفي، وإنتاج المعلومة التي لا تحصل إلا عبر التّقييد المصطلحي وفق خاصية العلم ومعارفه المرتبطة به.
- واعتبر المصطلحات التي تقوم عليها العلوم هي بمثابة الألغاز الفكرية التي بمجرد فكّها يؤدّي القصد وتحصل الفائدة المرجوة في ذهن المتلقي والباحث كونها مخصّصة تحتوي على مقاصد المعرفة.
- فائدة المصطلح تصل إلى إلحاق السّمة الانفراديّة بكل علم من العلوم وهذا يمنحه الصّفة المصطلحية الذاتية بحيث لا تحيد هذه المصطلحات عن معناها المقيّد بتلك المعارف المشكّلة للنّسق المعرفي لكل علم من العلوم.
- وقد شرح ذلك: "السّجل الاصطلاحي هو الكشف المفهومي الذي يقيم للعلم سوره الجامع وحصنه المانع"⁽²⁾. وحاصل القول أن العلوم على اختلاف انتماءاتها المعرفية والنّسقيّة لها سجل مفرداتي متخصّص يضمن لها الوضوح والتميز عن باقي المعارف ضمن حيز التنافس والتسابق العلمي السريع.
- ويلج عبد السّلام المسديّ على العلاقة القائمة بين المصطلح والمعرفة باعتبارها علاقة إنجازية وجودية تفاعلية: "ومن كل ما سلف يتجلّى أن الوزن المعرفي في كلّ علم رهين مصطلحاته لذلك نسميها أدواته الفعّالة لأنّها تولّده عضويا وتنشئ صرحه ثمّ تصبح خلاياه الجينيّة التي تكفل التكاثر والنّماء"⁽³⁾.
- يؤكّد بأنّ لكلّ علم من العلوم معجمه الاصطلاحي الخاصّ. والعلاقة بين المعرفة والمفردة علاقة وظيفيّة يؤدي المصطلح المحدّد فيها استعمالا وظيفيا خاصا.
- تنطلق الإنجازات المعرفية لكلّ علم وفق قواعده المصطلحية. وبالتالي يكون التنظير الفكري متوافقا مع الاستعمال الاصطلاحي له.

3. مبحثه في أعراض القضية الاصطلاحية: يقول المسدي معلقا على

إشكالات علم المصطلح: "إن التسليم بقيمة الجهاز المصطلحي بالنسبة إلى كل معرفة علمية تنشأ القبض على الظواهر سواء أكان ذلك بالوصف التشخيصي أم بالإحكام الاستنباطي ليفضي إلى الاقتناع بأن مصطلحات العلوم هي الصورة الكاشفة لأبنيتها المجردة مثلما أمحنا منذ البدء" (4).

- المسدي يرى خطر التصادم الحتمي الذي تفرضه البوادر المعرفية العلمية في باب التجاذب المعجمي والمفرداتي؛ الذي تفرزه نهضات الأبحاث الاستكشافية العلمية في حيز الضبط المصطلحي الجديد. وفيه:

- أن توافق الجانب المعرفي مع الجانب المفرداتي ليس بالشيء الميسر ضف إلى ذلك أن توافق المعلومة مع ما تحمله من دلالة مصطلحية ليس بالضرورة أن يحافظ على الصورة المشكّلة المعبرة عن الفكرة الممنوحة وما نستخلصه من عنوانه 'أعراض القضية الاصطلاحية' هو كالاتي:

- غموض المصطلح في تحديد المعرفة، أي تعدّد الدلالة المعنوية لكل مفردة تستعمل في هذا المجال.

- تتغير المعارف ضمن حلقة التطور والتحوّل؛ وهذا من خصائص العلوم وعليه فالقدرة المصطلحية لكل معرفة من المعارف المختلفة تكون غير ثابتة ومنفصلة وتتحكّم فيها عوامل التغير الحاصل.

- قد تتداخل العلوم والمعارف ضمن حيز التنافس المعرفي المسارع وهذا يوحي بوجود تشابه للمصطلحات المستعملة داخل أي مجال معرفي.

4. مبحثه في اللسانيات وعلم المصطلح: يرى المسدي أن اللغات وعبر فترات

تاريخية كانت في عملية البحث عن المادة المعجمية ضمن عملية التنقيب في حقول الألفاظ؛ فالمصطلح ودلالته المعرفية لم تكن وليدة العصور المتأخرة ولا

حكرا على الجهود اللسانية الحديثة فهي ضاربة في عمق اللغات عبر التاريخ على نحو البحوث التأصيلية (Etymologiques):

- بين المسدي كيفية التزام اللغات في البحث داخل ميدان المصطلح دالا على وجود ظروف معينة تجبر اللغة بغض النظر عن ظروف استعمالها على الاهتمام بدراسة المصطلحات والمفردات المعجمية المختلفة؛ حاصرا ذلك في الواقع المتغير الذي تفرضه دلالات الحاضر وتجدد المعارف، والاستكشاف المعلوماتي الجديد الذي يعطي صورة مبهمة فيذهل المنتبه في حقل المعارف.

- هذا يلزم اللغة إيجاد الطابع المدلولي الذي ينفي الغموض ويلغي الاشتباه ويثري المعرفة المدلولية الجديدة مع القيمة الاصطلاحية الملائمة.

- يرى أن لاستبطان دور مهم لكونه طريقة منهجية تعتمد الرجوع إلى الذات والقيام بالفحص الدقيق والمعاينة الحسية الآنية للمادة المستهدفة.

وفي المجال نفسه يضيف المسدي توضيحا متعلقا بنظرة الفكر اللساني الحديث إلى قضايا المصطلح من جوانبه المختلفة: "واحتكاما إلى كل هذه الاعتبارات كان خليقا باللسانيات أن تتبني ضمن محاور اهتمامها قضية المصطلح، وقد كانت عنايتها بالموضوع مبنوثة بين أفنان متعددة منها البحوث التأصيلية؛ التي تعنى بالأصول الاشتقاقية وتاريخ تفرعها، ومنها البحوث المختصة بالرصد اللفظي في فرعين من علم اللسان القاموسية والمعجمية"⁽⁵⁾. والمستخلص من كلامه هذا هو:

- إلزامية تبني أبحاث اللسانيات واللغويات الحديثة للقضية المصطلحية على جميع مناحيها المختلفة محتجا بالعبء الذي كانت تحمله البحوث اللغوية القديمة ضاربا في ذلك مثالا استشهاديا في عبارة 'البحوث التأصيلية' التي حسب رأيه لم تهمل الجانب الدلالي في الألفاظ؛ بل إنها غاصت في البحث عن إيجاد حلول مفرداتية تتناسب مع معطيات المعارف اللغوية آنذاك.

- دراسة الأصول الاشتقاقية للمفردات ودراسة تاريخ التفرع الدلالي المعجمي للألفاظ وتخصيص مباحث في مجال علم المصطلح وفق ما يتطلبه البحث اللغوي المعاصر على نحو علم القاموسية والمعجم.

أراد المسدي أن يعطي مفاهيم لبعض عوارض الكلام فيما يتعلق بالمصطلحية وعلم المصطلح ضمن مباحث المعجمية والقاموسية قائلا: "ونعني بالمصطلحية... علم يعني بحصر كشوف الاصطلاحات بحسب كل فرع معرفي فهو لذلك علم تصنيفي تقريري يعتمد الوصف والإحصاء مع سعي إلى التحليل التاريخي، أما علم المصطلح فهو تنظيري في الأساس تطبيقي في الاستثمار لا يمكن الذهاب فيه إلا بحسب تصور مبدئي لجملة من القضايا الدلالية والتكوينية في الظاهرة اللغوية؛ فعلم المصطلح ينتسب سلاليا إلى علوم التأثيل... ولكنه فرع جنيني عن علم الدلالة وتوأم لاحق للمصطلحية بحيث يقوم منها مقام المنظر الأصولي الضابط لقواعد النشأة والسيروية"⁽⁶⁾. ومنه:

- المسدي يسعى للتفريق بين علم المصطلحية وعلم المصطلح لتجنب التشابه الذي قد يحصل بينها وبين علم المصطلح واعتمد هنا على الدور الوظيفي الذي يقوم عليه كل منهما:

- علم المصطلحية يقوم بضبط نتائج الأبحاث الاصطلاحية وحصرها ضمن نطاقها المعرفي ضمن مجال البحث المستهدف لدراسة معجمية معينة.

- تقوم المصطلحية بتصنيف النتائج التي يتوصل إليها البحث المعجمي ثم بعد ذلك الانتقال إلى إقرارها بحسب الفرضيات التي انطلق منها البحث.

- تنطلق من منهج الوصف والإحصاء والتحليل التاريخي فالوصف: "تقرير ما هو واقع أو تفسيره تفسيراً لا يخرج به عن نطاق اللغة فهو إما تقرير أو تحليلي"⁽⁷⁾؛ بمعنى أن تكون المادة المدروسة ملموسة في إطارها الزماني والمكاني وفق حدود اللغة المتعارف عليها في الدراسة الإجرائية. أما الإحصاء فكثير من العلماء من يربطه بالمنهج الوصفي لأنه يقدم نتائج مفسرة ضمن نطاقها

المخصص؛ فيكون هنا للإحصاء وظيفة رياضية هدفها إحصاء النتائج والتدقيق فيها؛ ويقوم وفق الإجراءات الآتية:

1- القياس (Measurement): قراءة منهجية تعتمد على التشبيه بين وجود شيئين على الأقل يكون أحدهما معيارا للآخر أي أصلا وآخر فرعاً⁽⁸⁾.

2- الملاحظة (Observation): هي الدقة العينية في جمع التغيرات.

3- المقابلة (Interview): هي مقارنة علمية بين المفترض والمعطيات ويمكن اعتبار المقابلة منهجاً لأنها في غالب الأحيان تدرس "لغتين فأكثر لإبراز أوجه الشبه والاختلاف بينهما"⁽⁹⁾.

4- الاستبانة (Questionnaire): هدفها الحصر والدقة والكشف.

أما التحليل التاريخي فيقصد به البعد الدلالي الأولي أو التأصيل المعجمي وهنا يقف عند اعتماد خطوات المنهج التاريخي الذي يرمي إلى عرض: "التغيرات اللغوية فمن الصعب كثيراً الفصل بين النوعين في مجال التطبيق العملي وذلك لأن كل المصطلحات التي استعملت تحت العنوان الوصفي قابلة من الناحية العملية للاستعمال كذلك مع الفرع التاريخي"⁽¹⁰⁾.

- ويقدم هنا تعريفاً وظيفياً لعلم المصطلح وفيه نتناول:

1- علم تنظيري في الأساس: أي يقوم على مفاهيم نظرية خاصة تميزه عن باقي العلوم المعجمية الأخرى.

2- تطبيقي في الاستثمار: يهدف إلى تطبيق مفاهيمه النظرية للحصول على النتائج المرجوة من البحث.

- لعلم المصطلح خصائص دقيقة لا يمكن تحقيقها إلا بالوصول إلى التصور الفعلي لجملة من القواعد الدلالية التي قد تعود في أصلها إلى الأعماق التأصيلية القديمة مع ضرورة الانتباه بحسب رأيه إلى وجود علاقة جلية بين علم المصطلح من جهة وعلم الدلالة من جهة أخرى.

- علم المصطلح: هذا العلم "هو الأساس المنظر للمصطلحية ومؤسس قوانينها"^(1 1) والذي منه ينطلق للتأسيس في علم المصطلحية.
- يرى بأن علم المصطلح فرع من أصل أي من علم الدلالة باعتباره الأسبق إلى الظهور والنشأة كما أنه يثبت وجدود علاقة تداخل وتلاقٍ بين علم المصطلح وعلم المصطلحية؛ فقد اعتبر أن علم المصطلح يعتبر القاعدة الأساسية التي تحفظ قواعد التكوين الاصطلاحي وتضمن له الصيرورة الفعالة. وخلاصة ما ورد في عنوان كتابه -اللسانيات وعلم المصطلح- كالآتي:
- وجود رابط وظيفي بين علم المصطلح وعلم المصطلحية ورابط تاريخي بينهما وبين علوم الدلالة والتأثيل.

4. مبحثه في الاصطلاح والحركة الذاتية: ركّز المسدي على ذكر مسألة مهمة في علوم الاصطلاح من حيث تاريخ التأسيس الحضاري للعرف الاصطلاحي وبين أثر الروافد التأسيسية في ميدان العلوم المعرفية؛ ولعله التمس ذلك في قراءته للواقع الاصطلاحي العربي وربطه بمدلولات الماضي الحضاري للتراث القديم كما فعلت باقي اللغات.

يقول المسدي ضمن ما أسلفناه: "إذا عالجت قضية المصطلح من منطلق لساني نقدي رأينا أن كل مجموعة بشرية ترابطت لغوياً فتحوّلت إلى مجموعة ثقافية حضارية؛ فإنها تواجه على الدوام مدلولات جديدة عليها، إما بحكم استحداث الأشياء أو بحكم اكتشافها. ويدهي أن المدلولات سابقة لدوالها في الزمن، لذلك كانت الألفاظ وليدة للمعاني في أصل نشأتها فإذا استقرت في الاستعمال وتواترت أصبحت المعاني وليدة للألفاظ بحكم التقدير والاعتبار"^(1 2).

- يرى أن المصطلح وليد الحياة الثقافية الاجتماعية، وهو نتاج النسيج المشترك النابع من التكتل السّاني الموحد للجماعات البشرية. فبذلك تقوم اللغة ويشيع المدلول الاصطلاحي بين الفئات البشرية وفيه:

1- التكتل الاجتماعي اللّغوي: فالوحدة المدلوليّة للمصطلحات الاستعماليّة ضرورة قصوى في تقويّة الاتحاد البشري بين المجموعة اللغوية الواحدة.

2- التكتل الثقافي الحضاري: هو الانتماء بحيث تكون للمصطلحات اللّغوية القيمة الانتمائية لمدلولاتها المعرفية وفق النهج الحضاري لكل لغة من اللغات حفاظا على موروثها الدلالي والمعرفي الخاص.

وذلك منطلق التكامل الحضاري للوحدة البشرية ضمن حيزها الثقافي إلا أنّه بين خطورة التغير الدلالي نتيجة للانتقال المعرفي الحاصل وعوامله:

1- استحداث الأشياء: هو إعادة صياغة المعلومات أو المعطيات المعرفيّة المستعملة في قالب وصفي تقريرى جديد على شاكلة ما تمليه الضرورة العلمية أو الحتميّة المعرفيّة، وهذا يفضي واقعا اصطلاحيا متغيرا؛ بحيث يرى المسدّي ضرورة أخذه بعين الاعتبار في الدّراسات الاصطلاحية.

2- بحكم اكتشافها: أضاف المسدّي سببا آخر في تغير مدلول المصطلح فهنا يؤكد على أن ما تقدّمه العلوم الأخرى من اكتشافات وإنجازات يجبر المجال الاصطلاحي على مواكبة هذا التطور الحاصل؛ لأنّ المعلومة المكتشفة والمنجزة في جميع المجالات المعرفية تلقي على عاتق علم المصطلح فك لغز المعرفة واستخلاص ما يناسبها من المفردات المعجميّة الاصطلاحية.

ونبقى ضمن هذا مجال الاصطلاح والحركة الذاتية حيث يقول المسدّي: "ويطرد تناول القضية الاصطلاحية في الدّراسات العربيّة اطرادا تعالج في سياق التاريخ لحركات الترجمة، وفي سياق الحديث عن وضع المصطلح العلمي والفني

فضلا عما صنعتها المجامع العلمية المتعددة في الوطن العربي لا تنشأ في منطلقها إلا لسدّ ذرائع المصطلحات، وقد طفحت هذه الأبحاث جميعها - من لدن الأفراد ومن لدن المؤسسات - باستقراءات هي من الدقة والشمول بحيث تكاد أن تسدّ رمق الحاجة المتجددة. فهذا على مدار المعالجة التطبيقية وهي أعظم خطرا وأعجل نفعاً⁽¹³⁾. والمقصود من كلامه:

- أن تشخيص الواقع الاصطلاحي العربي يتطلب حلّ معضلات عدّة مبتدءا بتاريخ حركات الترجمة بحيث يؤمن أن التاريخ لحركات الترجمة حلّ قيم في معالجة القضية الاصطلاحية العربية ونوضح ذلك:

- الترجمة الاصطلاحية: لغة هي اللفظ المعرب أمّا اصطلاحاً تعني:
أ- التفسير والتأويل: "شرح كلمة وتحديد معناها"⁽¹⁴⁾.

ب- التفسير المباشر: وهو نقل جمل أو عبارات من لغة ما بعبارات من لغة أخرى بعبارة أخرى "إبدال لفظة بلفظة تقوم مقامها بخلاف التفسير"⁽¹⁵⁾.

ويمكن هنا الخلوص إلى مفهوم مبسط لعنى الترجمة بأنها: "وضع التسمية المناسبة للمصطلح الأجنبي إذا كان يتناسب مع النظام المفهومي والاسمي العربيين ولا يتعارض مع القيم الاجتماعية والنفسية والثقافية والحضارية العربية"⁽¹⁶⁾. ونصطلح على التاريخ للترجمة بتحديد المنابع المنهجية القديمة التي اتفق عليها علماء اللغة العربية في نقل المصطلحات وترجمتها أي الاطلاع على "حصيلة ما توصل إليه العلماء القدامى في مجالات علمية متنوعة، وذلك من خلال ابتكار عدد وافر من المصطلحات المترجمة من لغات كالإيونانية والفارسية والهندية، ثمّ تجريدتها في مرحلة تالية في رسائل وكتيّبات هي بمثابة القوائم الاصطلاحية في عصرنا"⁽¹⁷⁾.

ومن فوائد الترجمة العلمية وفق ما يراه المسدي:

1- تحرير المعنى اللغوي القديم للكلمة العربية وتضمينها المعنى الجديد.

- 2- اشتقاق كلمات عربية أو معربة للدلالة على المعنى الجديد.
- 3- ترجمة كلمات أعجمية، وتعريب كلمات أعجمية وعدّها صحيحة⁽¹⁸⁾.
- وفي هذا المجال أيضا دعا إلى مراعاة الضوابط الآتية:
 - 1- " ضرورة وجود مناسبة...أو مشابهة بين مدلول المصطلح اللغوي ومدلوله الاصطلاحي ولا يشترط في المصطلح أن يستوعب كلّ معناه العلمي.
 - 2- تجنّب تعدّد الدلالات للمصطلح الواحد في الحقل الواحد، وتفضيل اللفظ المختص على اللفظ المشترك.
 - 3- إحياء التراث العربي خاصة ما استعمل منه...من مصطلحات علمية عربية صالحة للاستعمال الحديث، وما ورد فيه من ألفاظ معربة⁽¹⁹⁾.
- يرى أنّ علم المصطلح تعترضه عواقب كثيرة، ورسم شكل الاعتراض في صورة واضحة تتمثّل في الآلة المنهجية التي ينبنى عليها علم المصطلح انطلاقا من قواعده الإجرائية، وهذا ما سنأتي على ذكره:
- 1- التصرّو الضيق في حقّ التّراث اللّغوي العربي بحمل القدرات الاصطلاحية الحديثة على قاعدة الموروث بصفة إلزامية.
- 2- الضرورة المعرفية الاصطلاحية الحديثة تقتضي دراسة التراث من وجهة تقتضي فكّ التمازج الحاصل بين القضية اللّغوية والحضارة اللّغوية.
- يرى أنّ التقيّد بالتصوّرات المعرفية والمنهجية الموروثة من الخازنة العلمية القديمة بات يتعارض مع روافد الحضارة اللّسانية المتطوّرة، وهذا لا يفي بالمطلوب في باب العصرية الاصطلاحية المعاصرة وهذا ما يقصد به المسدّي في عبارته 'حقائق المعرفة اللّسانية المتطوّرة'.

ومن خلال رؤى المسدي نستلهم الأطر والشروط التي يجب التقيد بها في 'الإنجاز المصطلحي' بحيث يحافظ هذا على حيز 'البناء المعجمي والاصطلاحي' ضمن حيز الانتماء اللغوي الخاص به؛ أي:

- 1- "البحث عن مصطلح عربي قديم ملائم للمفهوم الجديد.
 - 2- البحث عن لفظ قديم قريب من المعنى الحديث، فيبدل معناه قليلاً.
 - 3- اللفظ الأجنبي يجب أن يصاغ صياغة عربية ليصير معرباً.
 - 4- البحث عن لفظ جديد المعنى بالاعتماد على الاشتقاق" (20).
- ويشترط في هذا كله أن يتسم المصطلح العربي بالخصائص الآتية:
- 1- الاطراد: كثرة استعمال المصطلح وشيوعه.
 - 2- يسر التداول: سهولة اللفظ وخفته وبساطته.
 - 3- الملائمة: أي أن يناسب اللفظ العربي المفهوم وألا يتداخل مع غيره.
 - 4- التحفيز: أن يدفع المستعمل إلى اختياره دون غيره" (21).
5. مبحثه في مراتب التجريد الاصطلاحي: في هذا الباب يتفضل المسدي بذكر محدّدات المصطلح اللساني وفق ما تتطلبه الحالة المعرفية ضمن حيز التقدم الاصطلاحي اللساني في عالم اللغويات الحديثة؛ فبهذه المقدّرات يتكوّن الطابع التجريدي العلمي للمصطلحات العربية:
- يقول المسدي: "وأول ما نقف عليه من ظواهر التوازي انقسام الوسائل الأربع إلى زوجين مضاعفين يتصاحبان من حيث التخصيص والعموم فالاشتقاق والنحت ظاهرتان نوعيتان، أولهما خصّت بها الأسرة السامية وبها عنوان قدرتها الانفجارية والثانية لصيقة باللغات الهندية الأوروبية وعليها قوام سمتها التضاممية. أمّا الدّخيل والمجاز فظاهرتان مطلقتان لا ينفك عنهما لسان من الألسنة" (22)، ونقوم بتحليل ووصف قوله:

- شخص المسدي الوسائل التي تعتمد عليها اللغات في صناعة مفرداتها وحدد لكل وسيلة موطنها الأصلي، وهذه الوسائل هي:

- الاشتقاق: قاعدة صرفية تستند إليها اللغات السامية في تنمية نظامها الدلالي فاللغة العربية من أكثر اللغات استنادا إلى الاشتقاق، فهو الوسيلة الناجعة في الدراسات المعجمية، ولهذا تعتمد عليه المجمعات اللغوية العربية في التنمية اللغوية العصرية، فهو طريقة تستعمل "لإغناء الرصيد اللغوي ومنه يُنطلق لوضع سلسلة من المفردات الجديدة التي تواكب الاختراعات الحديثة"^(2 3). وعمل الاشتقاق يسميه المختصون 'التوليد الدلالي'؛ فقد واستعمله 'السلف لإثراء اللغة العربية من داخلها فبحثوا في العوامل التوليدية التي تختص بها العربية وقسموها حسب أهميتها مجازة لكلام العرب"^(2 4). وفيه:

- اشتقاق المصادر القياسية على وزن 'فعلان' للدلالة على التقلب والاضطراب ووزن 'فعالة' للحرفة ووزن 'فعال' للمحترف.

- اشتقاق المصادر الصناعية: كاشتقاق أسماء الآلات التي تأتي على وزن 'مفعلة - مفعّل - مفعال'.

إلا أن اللغويين يضعون شروطا واضحة تهدف إلى الحفاظ على الطابع الدلالي العربي، ونذكرها كالآتي:

- 1- أن يكون هناك أصل لفظي تأخذ منه الكلمة المشتقة.
 - 2- التناسب الحرفي بين الكلمة المشتقة والكلمة الأصل.
 - 3- يلزم وجود توافق معنوي بين اللفظة المشتقة واللفظة الأصل.
- ويقسم علماء اللغة الاشتقاق إلى نوعين أساسيين:
- أ- اشتقاق أصغر: هذا القسم تلجأ إليه المجامع اللغوية العربية "للتعبير عما يستحدث من معان لمساعدة اللغة العربية على مسايرة التطور

الاجتماعي" (25). ومثاله تقليب أوزان الكلمة حتى يعاد منها إلى صيغة تكون هي الأصل في الصيغ مثل كلمة 'ضرب' أصل دال على مطلق الضرب فقط أما ضارب ومضروب ويضرب وإضراب، فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً، وكلها مشتركة في (ض + ر + ب) وهي هيئة الأصل في تركيبها.

ب- اشتقاق أكبر: عند ابن جني هو أن تأخذ "أصلاً من الأصول الثلاثة فتعقد عليه وعلى تقاليبيه الستة معنى واحداً، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه... كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد" (26). ومثاله: كلمة 'كلم' وتقاليبيها الستة الأصل فيها الصورة الآتية: (ك + ل + م) ثم: (ك + م + ل) و(م + ك + ل) و(م + ل + ك) و(ل + ك + م) و(ل + م + ك) فابن الجني يرى بأن هذه الكلمات كلها ذات أصلي معنوي واحد دلالاته 'القدرة والقوة'. فالاشتقاق ظاهرة لغوية مهمة تلتزم اللسان العربي منذ القدم، ولها أصل منهجي اعتمده النحاة القدامى في بسط المصطلحات آنذاك. والمسدي يراه مفيداً في فكّ المعضلة الاصطلاحية العربية المعاصرة فعلى الرغم من عراقته إلا أنه يضلّ مسلكاً مناسباً في الفترة الحديثة.

- النحت: هو قاعدة تستعمل في أبنية اللغات الهندوأوروبية، والواضح أنها تتناسب مع خصائص أنظمتها واشتهر النحت كوسيلة قديمة يلجأ إليها اللغويون في تزويد المعاجم بالكفاءات الدلالية التي تؤهل اللغات للاستعمال الدلالي المناسب لما تفرضه معطيات الحضارات المتقلبة، ولهذا "فهو الوسيلة المثلى التي طوّرت اللغات الهندوأوروبية" (27). والنحت هو: أخذ كلمة من كلمتين أو جملتين متعاقبتين يكونان متباينتين في المعنى والشكل:

- 1- النحت من كلمتين: مثل كلمة 'جعفل' من (جعلت، فداك).
- 2- النحت من ثلاث كلمات: كلمة حيعل مشتقة من (حيّ على الصلاة).
- 3- النحت من أربع كلمات: نحو: 'بسملة' من (بسم الله الرحمن الرحيم).

لكن اللغويين المحدثين رأوا أن النحت أقل فائدة نظرا لعدم توافقه مع الدلالات اللغوية العربية، ولذا فإنه يعد عنصرا واردا على اللغة العربية، والأصل فيه أنه موروث حضاري غربي. وهنا من رأى فيه الكفاءة على نحو الأستاذ ساطع الحصري فمن كلامه عن وسيلة النحت: "قلما رأينا الإقدام على الاستفادة من النحت بصورة فعلية، ونحن نعتقد أن الضرورة ماسة لذلك. إننا نعبّر عن كثير من المعاني العلمية بتركييب متنوعة، فإن كانت هذه التركييب قصيرة وسهلة فيمكننا أن نستمر في استعمالها على حالها، أمّا إذا كانت طويلة صعبة فمن مصلحة العلم واللغة أن ننحتها لأجل تسهيل استعمالها وانتشارها" (28).

- الدّخيل: ويسمى بالمعرب والمقترض والأعجمي، وفي تعريفه هو كل لفظ غير عربي يستعمل بأصوات غير عربية ويحمل صورة دلالية مصطنعة ويتمّ تمييزه وفق الضوابط الصّرفيّة والصّوتيّة الآتية:

1- التّحليل الصوتي: "إذا اجتمع في الكلمة أصوات لا تجمع بينهما العربية دلّ ذلك على أنها دخيلة، وذلك كاجتماع الجيم والقاف... 'منجنيق'" (29).

2- التّحليل الصرفي: فإذا كان وزن الكلمة من غير الأوزان العربية دلّ على أنها دخيلة مثلا: منفعل - منجنيق... إلخ.

3- قاعدة الاشتقاق: إذا لم يكن للكلمة أصل اشتقاقي في اللغة العربية تنسب إليه شكلا ومضمونا فهي ذات أصول دخيلة.

4- قاعدة المقارنة: "إذا تنازعت العربية وغيرها في كلمة، ولم تسعفنا الطريقة السابقة إلى تعيين أصلها لجأنا إلى مقارنة العربية بأخواتها السّاميات فإن وجدت الكلمة.. دلّت على عربيّتها، وإلاّ فهي دخيلة" (30).

المسديّ اهتم بقضايا الدّخيل واعتبره ظاهرة لغويّة قديمة وحديثة لا يمكن تجاهلها على أي حال فهي ملازمة الألسن وقد تجعل منه الضرورة مقاسا اصطلاحيا ملائما يستطيع من خلاله إيجاد مخارج استثنائية للمصطلح.

- المجاز: لغة من أجاز "الشيء يجوّزه إذا تعدّاه" (31)، أمّا اصطلاحاً فهو "الكلمة المستعملة في معنى معناها بالتحقيق، استعمالاً في ذلك بالنسبة على نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع" (32). وعرفه الجرجاني بأنّه "كلّ كلمة أريد بها غير ما وضعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأوّل، فهي مجاز وإن شئت قلت: كلّ كلمة جرت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن ستأنف فيها وضعاً لملاحظة بينما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها في مجاز" (33) والمجاز يصفه المحدثون بأنّه: "محرك الطاقة التعبيريّة" (34)؛ وقد تبوّأ المجاز منزلة رفيعة في البيان العربي. ونمثّل للمجاز في كلمة الفأرة ذات الدلالة الواضحة التي تعني 'حيوان' ذو شكل معين؛ ولكن على صورة المجاز حرّف معنى هذه الكلمة وصارت تطلق على محرك الواصلة بجهاز الكومبيوتر والتي يصطلح عليها باللغة الأجنبيّة: 'Souris'.

- 1- مجاز توكيدي: ثبات صورة معنوية محدّدة نحو: خالد أسد؛ فأسد هنا تعبير مجازي فائدته إثبات خصال لشخص 'خالد' وتوضيحها.
 - 2- مجاز تشبيهي: كتشبيه محرك جهاز الكومبيوتر 'الاسوري' بالفأرة.
 - 3- مجاز توسّعي: الهدف منه الخروج على المعنى الدلالي (المعجمي) المحصور في لفظة واحدة واستعماله في صورة تعبيرية أوسع.
- ونبقى في باب مراتب التجريد الاصطلاحي حيث المسديّ: "تلك إذن من موقع التنظير اللساني والتأسيس المعرفي مراتب التجريد الاصطلاحي ولعلّ الاستقراء الموسع يبيح تركيز القواعد المبدئية لصوغ النظرية الكلية في هذا المضمار" (35). فالتجريد عند المسديّ مرحلة لا بد منها في الأبنية الاصطلاحية العربية ويكون ما أسلفناه هو الصورة المبدئية للولوج إلى قواعد الاصطلاح والصناعة المعجمية وهو ما يمثّل التجريد في نظره. ثمّ يأتي الاستقراء لتحليل

نتائج القواعد التي يجري عليها العمل الاصطلاحي من أجل الإحصاء والتقييم وكلّ هذا يؤهل الإنتاج الاصطلاحي العربي إلى المستوى المعرفي المطلوب تمشياً مع الواقع اللساني المسارع في التطور.

مبحثه في مصطلح العلم وعلم مصطلحه: المسدي يسير سيرا مرتباً في فكّ معضلة المصطلح فبعد صياغته للمبادئ الأولى عبر التمهيد، ثمّ انتقاله إلى مسألة التجريد الاصطلاحي يأتي هنا ليعرّج على معاني مهمة وأساسية تتعلق بمصطلح العلم وعلم المصطلح وسنوضح ذلك.

يقول المسدي: "لم تختلف السبل بين الاصطلاحات العربية اختلافها في هذا العلم القديم الجديد الأصيل الدّخيل المتولّد الغازي نعني اللسانيّات والسبب في ذلك أنّ هذا العلم قد حمل على كاهله كلّ أسباب التشتت الاصطلاحي بين العرب ثمّ أضاف إليها عللاً ودوافع تراكمت باقتضاء نوعيّة المعرفة اللغويّة عامّة، وبمستملات الدّقة اللسانيّة خاصّة"⁽³⁶⁾. وفيه:

- محتوى عبارة المسديّ تأكيده على الدور العصري لعلم اللسانيّات باعتباره علماً يملك القدرة التحليليّة والمنهجية في دراسة كافة العلوم اللغويّة. فاللسانيّات بحثت بقوة في مجال المصطلح؛ لأنّه الرّكيزة الثّانية في حوصلة الاستعمال اللغوي بعد ركيزة المعرفة. فالمسديّ يهدف إلى استبيان معضلة الاختلاف في استقراء اللسانيّات كمفهوم وإجراء وخصائص، فهذا لاشكّ أنّه يمنح الدّارس العربي القدرة على استثمار قدرة اللسانيّات في حقل المصطلحات العربية. ومردّ هذا إلى العوامل الآتية:

أ- انتشار مفاهيم متعدّدة لعلم اللسانيّات ومردّ ذلك اختلاف القراءات والتحليلات النظريّة لهذا العلم، وكذلك اختلاف طرق وأساليب نقل هذه المعارف التي تنتقل صورها بأشكال عدّة من موطن إلى آخر.

ب- وهناك أيضا عامل الخصوصية العلمية من حيث النوعية المعرفية اللغوية العامة التي تتسم بها روافد اللغة العربية، وعامل المستملات المتعلقة بصورة الدقة واللزوم وغيرها فيما توصف بها اللسانيات الغربية.

في باب المصطلح وعلم المصطلح يرى المسدي أنّ العرب يبذلون جهودا قصوى لإحقاق الحلول الملائمة في تغطية حصيلة التقدم اللساني العالمي خاصة فيما يتعلق بموضوع المصطلحات؛ لأنّ العربية تعترضها إشكالات المصطلح العلمي وهذا يستلزم تكثيف الجهود لتطوير هذه المحطة الانطلاقية في عالم المعارف اللغوية وسنوضح ذلك في العنوان القادم.

مبحثه في الجهود العربية في المصطلح اللساني: يقول المسدي: "لقد واجه العرب مشكلة المصطلحات اللسانية منذ تصدّوا لهذا العلم الحديث بالتلقّي والتمثّل ومحاولة الإنشاء والوضع، ولقد كان شأن جيل اللسانيين الأوائل مع علمهم كشأن كلّ من اختصّوا بحقول المعارف الأخرى مع ما اختصّوا به مغالبة المتصورات ومرادة المفاهيم بمختلف السبل الاصطلاحية، فكان الاحتيال على المدلولات في جلّ الأحيان سابقا للحيرة الاصطلاحية من حيث هي تصورات معرفية وتقنيات لغوية يتّصل جميعها بصياغة الدّوال العلمية"⁽³⁷⁾. يقف المسدي في هذا الباب على مسألة مهمة تؤرّق الواقع الاصطلاحي اللساني العربي الحديث، فهو في هذا الباب يرى أنّ رواد الحداثة من أهل العربية كانت لهم جهود ملموسة تهدف إلى الظفر بمكاسب المصطلح الحديث ممّا طرحه مزايا اللسانيات في الفترة الحديثة. وقد بيّن مجموعة من الطرق التي وسمت بها الجهود العربية في تكوين المصطلح اللساني ومنها:

1- التلقّي: الانفتاح على علوم اللسانيات الغربية واستقبال روافدها من المعارف العلمية والتقنيات المنهجية وتمثّل هذا في ظهور التيارات اللسانية المتأثرة بالفكر اللغوي الأوروبي في كافة مجالاته.

2- التمثّل: وهو البحث في صور الاشتراك الذي يمكن استنتاجه من خلال استحضار مكونات التراث وربطها فيما يقابلها من عوائد اللسانيّات.

3- الإنشاء والوضع: وهو البغية الأساس في هذا المجال؛ فبعد المرور بالتلقي يأتي التمثّل وهذا كلّه يجيء دور التّطبيق والحصول على النتيجة المرجوة في امتلاك الكم الهائل من المصطلحات اللّسانية.

ونلاحظ من كلام المسديّ أنّ اللّغويين العرب تمكّنوا نوعاً ما من معالجة الإشكال الذي كان يعترض اللّغة العربيّة في ميدان التأسيس الاصطلاحي، وجاء هذا النجاح كالآتي:

1- مغالبة المتصورّات: يقصد به المسديّ سعي اللّغويين العرب لفكّ أيّ غموض مصطلحي يعترض اللّغة العربيّة عبر الشرح والبسط والبحث عن المقابل له من علوم العرب اللّغويّة.

2- مراودة المفاهيم: وهي جعل كلّ المعطيات المستخلصة من المعارف الغربيّة النظرية تتلاءم ومعاني اللّغة العربيّة من الناحية الدلالية.

3- الاحتيال على المدلولات: أي إحداث رؤية تفسيرية خاصة نستطيع من خلالها فهم التّصورّات الفكرية للسانيّات الغربيّة واللّغويات الحديثة. والمسديّ في حديثه عن جهود العرب في بناء المصطلح اللّساني قد ذكر تجارب تأليفية عرفت اللّسانيّات العربيّة الحديثة، وهي:

- جهود عبد الحميد الدّخلاوي ومحمّد القصّاص: ذكر المسديّ أنّ هذين العالمين قاما بنشر عمل مترجم للّغوي (جوف فندرياس) بعنوان 'اللّغة' عام 1950م ووصف المسديّ هذه المحاولة وفق الآتي:

1- اتسامها بالنزعة الفكرية الفلسفية.

2- تعتمد طريقة الكشف اللّساني.

وأخذ المسدي على هذا العمل أنه: يمثل "مدخلا لغوياً إلى التاريخ"⁽³⁸⁾ ويرى بأن هذه المحاولة لم تبلغ الصورة الواضحة في استبيان المغزى اللساني وقال: "فإن المصطلحات اللسانية لم تبلغ معه إشكالها الفني إلا نادراً مما سهل به عمل المترجمين في صياغة المفاهيم الكلية"⁽³⁹⁾.

- جهود عبد الحليم النجار: أصدر الأستاذ النجار عمله سنة 1951م المتمثل في ترجمته لكتاب (فوك يوهان) بعنوان 'العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب'، ووصفه المسدي بما يلي:

1- "لم يندرج... في مسلك البحث اللساني الخالص ولا البحث اللساني المطبق.. على اللغة العربية"⁽⁴⁰⁾.

2- اجتهد فيه على الترجمة الاصطلاحية لتحقيق المفاهيم اللسانية لاجتياز الغموض النابع من مضامينه.

- جهود عبد الرحمن أيوب: أصدر عملاً مترجماً لـ: (جسبرسن) بعنوان 'اللغة بين الفرد والمجتمع' عام 1954م، ومما لاحظته المسدي على هذا العمل:

1- التصرّف في معاني متن الكتاب المترجم؛ وهذا يكسبه وجهاً تفسيريًا قد لا يتناسب مع المراد الأصلي.

2- اجتهد في "صوغ المصطلحات المناسبة وإن قلت الحقول الدقيقة التي تطرق إليها نص التأليف"⁽⁴¹⁾.

- جهود أحمد عزت: ألف عملاً مترجماً لكتاب (جون بياجيه) بعنوان 'اللغة والفكر عند الطفل'. ويرى المسدي في هذا الكتاب:

1- بُعد العلاقة بين المؤلف وعلم اللسانيات حيث يبعده عن النظرية اللغوية الدقيقة التي تتسم بها علم اللسانيات.

2- اهتمام المؤلف بإرساء النظرية النفسية التي كان في طور تكوينها.

- جهود تمام حسّان: قدّم الأستاذ تمام حسّان عملاً مترجماً لكتاب (موريس ميكاييل لويس)، بعنوان 'اللغة في المجتمع، والذي صدر سنة 1959م وبما أنّ تمام حسّان من رواد الجيل اللساني الحديث على حدّ وصف المسديّ فقد تميّز عمله باعتماد منهجية صاغ فيها المصطلحات اللسانية وفق مبدأ الدوال الفنيّة وتبنّى التحليل المعرفي المناسب، وهذا بحسب رأي المسديّ.

وقد كان عمل 'كمال محمد بشر' على منوال الأستاذ تمام حسّان ويظهر ذلك في عمله المترجم لكتاب (ستيفن أولمان) بعنوان 'دور الكلمة في اللغة.

- جهود صالح القرمادي: ترجم كتاب بعنوان 'دروس في علم أصوات العربية للغوي (كانتينو)، وصدر هذا العمل سنة 1966م، وصفه المسديّ:

- 1- أنّها "خطوة متميّزة في بلورة المصطلح.. ولاسيّما في... الصوتيّات" (2 4).
- 2- بذل صاحبه جهوداً مهمّة في ترجمة هذا المؤلّف تمثّلت في صياغة الدوال الفنيّة إلى مراتب تجريديّة؛ رغبة منه في توحيد المفاهيم والتصورات.
- 3- المصطلحات التي استعملها "متطابقة من حيث التحليل والتجريد" (3 4).

- جهود أحمد مختار عمر: في عام 1976م، تجلّت دراسته في الجانب الصوتي، فاعتبر ذلك نقلة نوعيّة ضمن معارف اللسانيّات العربيّة وعلى وجه الخصوص في حقل الصوتيّات، وهذا ما عبّر عنه المسديّ في وصفه: "فكانت خطوة إضافية في حسم كثير من مصطلحات علم الأصوات ولاسيّما بصدوره عن المفاهيم الأجنبية سعياً إلى صوغ بدائل عربيّة لها" (4 4) وتميّز عمله بـ:

- 1- أعدّ كشفاً اصطلاحياً ضمّ 'خمسمائة وواحد وستين' صورة لسانية تمثّل الجانب الصوتي وفق النموذج اللغوي الانجليزي.
- 2- اعتمد في صياغة الصوّر الصوتيّة على خاصيّة ثبت المصطلح الانجليزي وإلحاق ما يقابله من المصطلح العربي.

- جهود الطيب بكّوش: تمثّل عمله في ترجمته لكتاب (جورج مونان) بعنوان 'مفاتيح الألسنية' الذي صدر سنة 1981م. وقد وصفه المسدي بـ:

1- "ترجمته متعاطلة الأسلوب بحيث لا يتسنى للقارئ فهم التركيب" (4 5).

2- ضمّ 'تسعمائة وثلاث وخمسين' مادة اصطلاحية بوضع المصطلح بالفرنسية ومقابلته بالعربية.

مبحثه في القاموس المختص ونماذجه: نستهل هذا العنوان بتعريف المسدي للقاموس المختص ومجاله بقوله: "يرتكز القاموس المختصّ أو ما يسمّى بالقاموس الفنّي على محاولة إحصاء المنظومة الاصطلاحية التي يقوم عليها علم من العلوم ومصطلحات العلم أيّا كان" (4 6)، نفهم من هذا المقطع النّصّي بأنّ القاموس المختص هو جملة المفردات المنطوية في كنف سياقيّ معرفيّ خاص بعلم من العلوم دون آخر والمراد من عبارة القاموس الفنّي هو الجانب الشكليّ للمفردات التي تستعمل في حقل من الحقول المعرفيّة الخاصة. فالقاموس المختص هو الذي يتناول موضوعه "مصطلحات العلوم كالطبّ والصّيادلة والزراعة" (4 7)، وغيرها من المجالات الأخرى. فالمسدي بعد استجماعه لمقوّمات البناء النّظري حول قضايا المصطلح نجده في هذا الباب يعرّج على الإنجاز القاموسي ويحدّد مجالاته الخاصة والعامة ومن نماذجه:

- (القاموس الموسوعي في علوم اللّغة): صدر هذا المؤلّف سنة 1972م من إنجاز 'ديكرو' و'تودورف' كان هذا العمل الأوّل من نوعه، واعتمد صاحبا على منهج شمولي ووصفه المسدي بما يلي:

1- بُني على تصوّر منهجي تمازجت فيه الاختصاصات في صياغته.

2- اختصّ باحتواء مفردات الخطاب الأدبي.

- (قاموس في اللسانيات): يمثل مجموعة أعمال أشرف عليها 'جون دي بوا' صدر سنة 1973م، وفيه:

1- امتاز بالتوسّع في الأبواب الكبرى وبالاقتضاب في المفاهيم الفردية.

2- ربطت مصطلحات اللسانيات فيه بمعاني مصطلحات فقه اللغة.

- (قاموس اللسانيات): صدر الكتاب سنة 1974م لـ 'جورج مونان' وفيه:

1- مادته التعريفية مقتضبة إلى حدّ كبير نظرا لما يحتويه من كمّ هائل.

2- تميّز "باستيعابه مصطلحات العلوم القديمة النحوية... والبلاغية" (48).

3- اختصّ بدراسة مصطلحات اللسانيات التطبيقية.

- (معجم ألفاظ اللسانيات): لصاحبه 'فالزيون' صدر عام 1976م ومن

مواصفاته نذكر:

1- قدّم فيه كشوفا تعريفية "لا تكفي لإرشاد غير المختص" (49) إلى

تحقيق الفهم الكافي للمعنى.

2- في هذا العمل يذكر المصطلح الفرنسي ويأتي برديفه الإنجليزي.

خلاصة: المسديّ لديه طرح جادّ جسّد من خلاله رؤيته في صياغة نظرية

المصطلح اللساني العربي الحديث، فقام بمنهجه على تفحص التراث اللغوي

العربي والإطلاع على مستجدّات اللسانيات الغربية. ورأى أنّ تطوّر علوم اللسان

العربي الحديث يتطلب منهجية فعّالة قوامها استثمار المكاسب اللغوية الحديثة

وإحياء المعارف اللسانية العربية القديمة. وهذا هو النمط المناسب في تنمية

معارفنا اللغوية الحديثة والمعاصرة وفق رؤية المسديّ.

الْإِحَالَاتُ وَالتَّهْمِيشُ:

- ¹ - عبد السّلام المسديّ، قاموس اللّسانيّات، الدّار العربيّة للكتاب، 1989م، ص11.
- ² - المرجع نفسه، ص11.
- ³ - المرجع نفسه، ص11.
- ⁴ - المرجع نفسه، ص12.
- ⁵ - المرجع نفسه، ص21.
- ⁶ - المرجع نفسه، ص22.
- ⁷ - ينظر رمضان عبد التّوّاب، المدخل إلى علم اللّغة ومناهج البحث اللّغوي، دار الرّفاعي الرّياض 1982م، ص182.
- ⁸ - محمّد خان، أصول النّحو العربي، منشورات مخبر اللّسانيّات واللّغة العربيّة، دار علي بن زيد بسكرة، الجزائر، 2012م، ص66.
- ⁹ - ماريوباي، أسس علم اللّغة، ترجمة أحمد مختار عمر، منشورات جامعة طرابلس المفتوحة، كليّة التّربيّة، 1973م، ص137.
- ¹⁰ - ينظر، محمّد خليفة الأسود، التّهميد في علم اللّغة، جامعة طرابلس، دار الكتاب الوطنيّة ط1 1991م، ص36.
- ¹¹ - لعبيدي بوعبد الله، مدخل إلى المصطلح والمصطلحيّة، دار الأمل للطباعة والنّشر والتّوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2012م، ص81.
- ¹² - عبد السّلام المسديّ، قاموس اللّسانيّات، ص25.
- ¹³ - المرجع نفسه، ص25.
- ¹⁴ - ينظر، إبراهيم فاضل السامرائي، فقه اللّغة المقارن، دار الملايين بيروت، لبنان، ط2 1987م ص192/193.
- ¹⁵ - ينظر، أبو البقاء الكوفيّ، الكلّيّات، معجم المصطلحات، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ط2 1993م ج2، ص105.
- ¹⁶ - لعبيدي عبد الله، مدخل إلى المصطلح والمصطلحيّة، ص116.
- ¹⁷ - المرجع نفسه، ص116.
- ¹⁸ - المجمع العلمي العربي، مجلّة المجمع السوري، دمشق، مجلّد38، ص8.

- 19 - صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللغة العربية، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة، د- ت، ص21.
- 20 - عبد المجيد سالي، مصطلحات اللسانيات بين الوضع والاستعمال، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2007م، ص71.
- 21 - المرجع نفسه، ص71/72.
- 22 - عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، ص47.
- 23 - صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللغة العربية، ص14.
- 24 - صالح بلعيد، اللغة العربية آلياتها الأساسية وقضاياها الراهنة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1995م، ص68.
- 25 - ينظر إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر ط6 1978م ص63.
- 26 - ينظر، بن جتي، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، (د، م) (د، ت)، ج1 ص134.
- 27 - صالح بلعيد، اللغة العربية آلياتها الأساسية وقضاياها الراهنة، ص79.
- 28 - ساطع الحصري، في اللغة والأدب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان 1985م، ص87.
- 29 - لعبيدي بوعبد الله، مدخل إلى علم المصطلح والمصطلحية، ص119.
- 30 - ينظر، محمد الأنطاكي، دراسات في فقه اللغة، منشورات دار المشرق، حلب سورية ط2، 1969م ص356/357.
- 31 - ينظر عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي دار الجيل بيروت 1991م، ص438.
- 32 - السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ص165.
- 33 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص438.
- 34 - صالح بلعيد، محاضرات في قضايا اللغة العربية، ص14.
- 35 - عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات، ص53.
- 36 - المرجع نفسه، ص55.
- 37 - المرجع نفسه، ص73.
- 38 - المرجع نفسه، ص74.

- 39 - المرجع نفسه، ص74.
- 40 - المرجع نفسه، ص74.
- 41 - المرجع نفسه، ص75.
- 42 - المرجع نفسه، ص75.
- 43 - المرجع نفسه، ص75.
- 44 - المرجع نفسه، ص76.
- 45 - المرجع نفسه، ص86.
- 46 - المرجع نفسه، ص87.
- 47 - زكيّة السّائح دحمان، الأسمائيّة في اللّسانيّات الحديثّة بين النظريّة والتّطبيق كليّة الآداب تونس، 2014م، ص159.
- 48 - عبد السّلام المسديّ، قاموس اللّسانيّات، ص89.
- 49 - المرجع نفسه، ص91.

المحور الثالث

دراسات تحليلية



أخطاء الصحافة الجزائرية في ممارسة اللغة العربية

وفي التعامل معها التشخيص والعلاج

ALGERIAN PRESS MISTAKES IN THE PRACTICE OF ARABIC LANGUAGE AND THE DEALING WITH IT(DIAGNOSIS AND TREATMENT).

د.علي حلواجي¹

تاريخ الاستلام: 30-04-2019 تاريخ القبول: 30-06-2019

الملخص: الأصل أن تلعب الصحافة دورا هاما في الحفاظ على اللغة العربية وتطويرها وإثرائها ولكنها لأسباب وظروف معينة تسهم في وقتنا الحالي في الإخلال بها وتشويهها بما تقع فيه من أخطاء في ممارسة اللغة ذاتها أو في التعامل معها بالإنقاص من حقها ومع إثباته لهذه الحقيقة فإن المقال هو مقارنة لتشخيص هذه الأخطاء وتحديد أسبابها وآليات علاجها باستحضار النماذج والإحصاءات الشاهدة والمؤيدة.

كلمات مفتاحية: الصحافة الجزائرية؛ دور الإعلام؛ اللغة العربية؛ الحفاظ على اللغة؛ المؤسسات اللغوية؛ الأخطاء في اللغة؛ المراجع اللغوي؛ الموارد المالية.

Abstract: Originally journalism plays an important role in maintaining and enhancing the Arabic language but for certain reasons and circumstances contributes currently to the infringement and the distortion of the language having language miss practices which diminishes its rights.

¹ جامعة الشهيد حمّو لخضر - الوادي، الجزائر، البريد الإلكتروني: abousmail56@gmail.com

Although this article proves this reality, it is an approach to diagnose those errors and to determine reasons and remedial mechanisms using related models and statistics.

Keywords: Algerian press; The Role of Media; the maintaining of language; Arabic language; Language Institutions; Mistakes in Language; Financial Resources; language reference.

المقدمة: عناوين عديدة موجودة لمثل هذا الموضوع مثيرة ومزعجة من أمثال: "أنقذوا اللغة العربية من الصحفيين" أو "جناية الصحافة على اللغة العربية" أو "جرائم الإعلام في حق اللغة" .. وجودها يدل على أن الأمر ثابت وأن أقالما سابقة قد تناولته أما صيغها فهي تنذر بالخطر الكارثي الداهم.

وبعيدا عن كيفة تلك الصيغ يأتي هذا العنوان الهادئ ليعرض الموضوع بنظرة خاصة وبشكل أوسع حيث يتجاوز الحديث عن الأخطاء في اللغة العربية ذاتها ليتناول أيضا ما يرتكب في حقها من أخطاء تقصيرا وإهمالا، مجيبا في النهاية على سؤال: ما مدى الإهمال الحاصل للغة العربية في الصحافة الجزائرية؟ وبالتفصيل: ما حجم الأخطاء؟ وما نوع النقائص؟ وما مجالاتها؟ وما أسبابها؟ وما هي الجهات التي تتحمل مسؤوليتها وماذا عليها أن تفعل؟

1. الدور المنوط بالصحافة اتجاه اللغة العربية: من اللازم منطقيا لكي يتضح النقص أن يعرف الكمال المنشود في صورته التامة. وذلك من خلال تبين الدور الكامل المطلوب من الصحافة أن تؤديه اتجاه اللغة العربية.

1.2. الصحة والإبداع الجمالي: من أهم جوانب الدور الذي يجب أن تقوم به الصحافة في ترقية اللغة "الصحة والإبداع الجمالي" بمعنى أن تحافظ الصحافة على سلامة اللغة وتقدمها للناس في أحسن حللها وهي تقوم بوظيفتها الإعلامية وتتخذ اللغة أداة لهذه الوظيفة .

وتكمن أهمية هذا الدور "الفرعي" في شدة تأثير الإعلام (أو الصحافة) في المتلقين؛ فإذا قُدمت لهم مادته بلغة سليمة وجميلة فإن تأثيره الجانبي فيهم لصالح اللغة سيكون إيجابياً، فهو من جهة يحببهم في هذه اللغة الصحيحة ويمتعهم بجمالها ومن جهة أخرى كأنه يلقي لآوحيهم عبارة "هكذا يجب أن تكون لغتكم" فتعود أجهزتهم اللغوية على استعمال أصح وأجمل الألفاظ والصيغ الفصيحة. وما يقال عن التأثير الإيجابي يقال مثله عن التأثير السلبي، إذ أن رداءة لغة الصحافة تهدم اللغة في أوساط المجتمع أيما هدم !!

وكمثال للدور الإيجابي نذكر العبارات التي تجري أحياناً على السنة الأطفال الصغار فنعجب لصحتها وجمالها، ونسأل: من أين لهم هذا التعبير؟! ويزول العجب عندما نتذكر إيمانهم على مشاهدة الرسوم المتحركة وتأثرهم ببعض ما يرد في لغتها.

وفي هذا المعنى يقول أحد الباحثين: «... ضرورة الاهتمام بلغة الصحافي لما لها من دور متميز وخاص، وأثر ذلك على اللغة العربية.. على أن لها أثراً لا نهائياً في المتلقي، باعتبار وسائل الإعلام من الوزن الثقيل لما تريد أن ترفعه، ولما تريد أن تهدمه، فكما يقول بونابرت: "ثلاث صحف معادية أشد خطورة بكثير من ألف حربة"، وإن كان هذا الأمر ينطبق على المجال السياسي، إلا أن الحدث هو ذاته فالصحافة كما تستطيع البناء، تستطيع الهدم وكما تستطيع ترقية اللغة، يمكنها أن تطعن فيها، وهكذا..» (1)

ولهذا نجد الإعلامي الواعي بدوره والشاعر بواجبه اتجاه لغته حريصاً على إتقان لغته وترصيعها، ويزيده حرصاً إدراكه أن إتقان اللغة هو جزء من إتقان المهنة لأنه يمتع المتلقي ويرغبه في المادة الإعلامية، وعليه فإن التجربة أثبتت أن عدد مرتجعات بعض الصحف مرتبطة بكتابة أقلام معينة فيها، فهي تكون سبباً من

أسباب إقبال القراء عليها وكثرة اقتناء العدد الذي تكتب فيه، فإذا لم تكتب هذه الأقلام كثرت مرتجعاته .

وإذا كان لا بد من عرض نموذج للغة الصحافة المحكّمة الممتعة فإن أعلامها كثيرون ، ولكنها تختصر في نموذج مشهور لا يجهله أحد ويتمثل في لغة وأسلوب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (رحمه الله) الذي كتب صحفيا بعد الاستقلال كما كتب قبله.

كما أنّه بإمكاننا الرجوع إلى أرشيف مقالات بعض المثقفين الذين عودتنا جريدة " الشروق " التمتع بانتاجاتهم، من أمثال : محمد الهادي الحسني ، وأمين الزاوي ، أو الرجوع إلى عمود من الأعمدة الدورية في إحدى الجرائد التي يكتبها صحفي قدير من أمثال " سعد بوعقبة " لنجد اللغة السليمة التي تجمع بين الإثارة ومتانة الأسلوب ونعرف بذلك النموذج الحي لجانب الصحة والجمال في لغة الصحافة .

ولنا أن نقرأ عينة لهذه النماذج لمحمد الهادي الحسني في أرشيف جريدة الشروق وهو يعالج قضية اجتماعية سياسية حيث يقول: «..إن المألأ الذين أبطروهم الغنى وأعماهم السلطان، وأسكروهم المال الحرام كبر عليهم أن يسارع أناس إلى نجدة إخوانهم، فيوصلوا إليهم لقمة تسدّ جوعتهم ، وجرعة ماء تروي ظمأهم وقطعة قماش تستر عورتهم وتهديّ رءسهم، فضيقوا رحمة الله الواسعة ومنعوا تلك الجمعيات الخيرية عن القيام بما أسست من أجله...» (2)

2.2 الإثراء وبعث الحيوية: الجانب الثاني من جوانب دور الصحافة في تطوير

اللغة يتجاوز دور المحافظة عليها سليمة والتّغريب فيها إلى إثرائها والزيادة فيها بإضافة مفردات ودلالات وصيغ جديدة لبعث الحيوية فيها حتى تتكيف مع العصر وتتجاوب مع متطلباته ومستجداته من خلال التّرجمة والتّوليد وإحياء القديم والابتكار وغيرها من الطرق التي تدفع إليها الحاجة وتنتهي ظروفها ، ومن أهم وسائل كل ذلك :

- الاحتكاك والتعامل مع إعلام اللغات الأخرى؛
- استعمال ما أنتجته المؤسسات اللغوية وما تولد عن اجتهاداتها المعاصرة
- التنقيب في التراث العربي القديم؛
- الاجتهاد الفردي للممارسين اليوميين من ذوي القدرات الخاصة والإبداعات المتميزة .

والواقع يشهد كما أن شهادات الباحثين تؤكد « بأن وسائل الإعلام قد أغنت قاموسنا اللغوي بكثير من المصطلحات والأساليب وبعض الترجمات الهادفة خاصة التي جاءتنا عن طريق التلفاز، ومنها نفذت إليها هذه الألفاظ : الجدولة / التّوصيف / المديونية / العروبة / العولمة / الحساسة / الشّفاقيّة / البرمجة الحوسبة / الحياة / الفعاليّة / المواطنة ... ومن الأساليب الجيدة والتي أصبحت توظّف بشكل كبير : صاروخ أرض أرض / صاروخ جوّ أرض / نظام .. آيل للسقوط تدخل الرئيس بينما كان الوزير يوضّح / تصفية المشكلات / تجميد أرصدة ليبيا العرف السياسي / تداعى النظام للسقوط / البث الإذاعي المباشر / تدعم الدولة بعض سلع التّموين / تطبيع العلاقات / تحديث وسائل الإنتاج / العلاقات الأفروآسيوية / وضع الحجر الأساسي.

وبواسطة ترجماتها المقبولة أصبحنا نستعمل : خارطة الطريق / الجيل الخامس الهاتف النّقال / خدمات عالية الجودة / القرار السياسي / سياسة الذراع الطويلة .. حق الفيتو ...» (3)

فكل هذا لا يمكن الطعن فيه، مع أنّه ليس من قاموس اللغة العربية القديم ومادام لا يتعارض مع أصولها فهو نموذج للإثراء الذي يمكن أن يضيفه الإعلام لها.

3.2 .الحراسة والدّفاع: ويكتمل دور الصحافة في تطوير اللغة حين يكون أصحاب هذه المهنة النبيلة ذوي مبادئ ونخوة، يحبون لغتهم "العربية" ويتفانون في حراستها وحمايتها من الانهدام والتّهديم ويحملون راية الدّفاع عنها ضد المتربّصين

بها عن قصد أو عن جهالة ، على اعتبار أنّها لغة الدّين والوطن وما أكثر المتربّصين بالدّين والوطن !!

إن واجب حراسة اللغة العربيّة والدّفاع عنها منوط بجهات عديدة بل بجميع النّاطقين بها ، ولكن تأتي في مقدّمتهم شريحة المثقفين عامة والإعلاميين منهم على وجه الخصوص لأنّهم يتحكمون في إحدى السّلطات التي تحكم المجتمعات نظراً « لما يملكونه من وسائل خارقة للحدود ، فهم أول النّاس للمبادرة بوضع الحدود للهويّة اللغويّة التي يتهدّدها وضع لغوي خطير ، وإن وقع تحجيم هذا الأمر قد يؤدي إلى فراغ ثقافي ولغوي يوصلنا إلى حالات وهميّة لا مرجع لها ، ويفتح الباب لانفصال لغوي جديد . ويقول عبد السّلام المسديّ : إن اللغة العربيّة بما هي حامل للهويّة الثقافيّة ، وضامن لسيرورة الذات الحضاريّة لا يتهدّدها شيء مثلما يتهدّدها صمت المثقف ...!!» (4) .

و تتمثل الحراسة والدّفاع في أن يكون المعني (الإعلامي خصوصاً) متحلياً بحس لغوي مرهف وبروح التّأهب والرّصد لكل ما يمس اللغة ويُنقص من شأنها مهما كان مصدره داخلياً كان أم خارجياً فيقوم بإزاءه بالمواقف والأعمال التي تحفظها وترد عنها الضربات ، ثم هو قبل ذلك وبعده - كلما دعت الحاجة وكانت الظروف مناسبة والإمكانات متوفرة - دائم الحديث عن اللغة يرغب فيها ويبرز قدرها ويقوّي هيبتها ويدعو الجميع لإيلائها المكانة اللائقة بها وتقديّمها عن غيرها من اللغات وتوفير كل مستلزمات استعمالها السّليم ومتطلبات تطویرها .

و من أجل تحقيق كل هذا لا بد من آليات ووسائل وأساليب يقوم بها الصّحافيّ فبعد أن يحقق في نفسه الجانب الأول المذكور وهو الاستعمال السّليم للغة عليه أن يوفّي بجملّة من الالتزامات منها :

- أن يجتهد في الكلام بالفصحى وفي استكمال نقائصه فيها ما أمكن ، ويجتنب استعمال اللغة الأجنبيّة حتى يكون قدوة؛

- أن يقوم بنشاطات إعلامية (كالحصص الإذاعية والتلفزيونية والمقالات الصحافية) التي تخدم اللغة وتصحح أخطاءها وتدافع عنها وتدعو لحمايتها؛
- أن لا يسكت عن كل خطأ في اللغة أو تجاوز في حقها لاحظته ويدعو للتصحيح والعلاج بالطريقة المناسبة؛
- أن يبادر في إطار حركية المجتمع المدني بتأسيس المنظمات والقيام بالنشاطات التي تخدم اللغة، أو يشجع غيره عليها ويشارك فيها ، فذلك من شأنه أن يوفر له جواً خارجياً يساعده على القيام بدوره الكامل؛
- أن يسعى من الموقع الذي هو فيه لإصدار القرارات التي تخدم اللغة ويكون هو أول من ينفذها.

باستيفاء هذه الجوانب الثلاثة حقها المهني ؛ وهي : صحة اللغة والإبداع فيها - إثراؤها وتفعيل حيويتها - حراستها والدفاع عنها ؛ يكون الصحافي قد أدى دوره بالتّمَام والكمال في تطوير اللغة العربية ولكن الواقع المعيش تظهر فيه بوضوح نقائص عديدة في أداء هذا الدور في مختلف جوانبه.

3. مجالات وأسباب الأخطاء المرتكبة في اللغة وفي حقها:

1.3 مفهوم الأخطاء وخطورتها: دون الدّخول في عمق جدل المصطلحات حول مفهوم " الخطأ " ودلالته الذي له ما يرادفه أو يشابهه في المعنى مصطلحات عدة منها: التّحريف، المخالفة ، التّجاوز، الاختلال، العدول ، الانزياح، الانحراف الشّدوذ، خرق السّنن، الشّناعة، الانتهاك، الإطاحة..⁽⁵⁾ ولكن لابد من توضيح المقصود في البحث من "الأخطاء في اللغة وفي حقها". فمن منطلق المعنى اللغوي للخطأ، كما جاء في المعاجم «الخطأ والخطاء: ضد الصّواب...»⁽⁶⁾ فإن الخطأ المقصود هنا له نوعان: الخطأ في ممارسة اللغة والخطأ في التّعامل مع اللغة.

أما الأول فيتمثل في الأخطاء التي ترتكب في اللغة العربية ذاتها بمخالفة قواعدها وأصولها في الكلام أو في الكتابة، أثناء أداء الوظيفة الإعلامية. وهذا النوع

ينطبق عليه تعريف كريستال دافيد للخطأ اللغوي « بأنه استخدام متعلمي اللغة الهدف المادة اللغوية فيها بصورة مخالفة لقوانينها، لأن معرفتهم بهذه القوانين غير كاملة. »⁽⁷⁾

أما الثاني فهو الأخطاء في حق اللغة العربية أي التجاوزات التي تمسها والمتمثلة في المواقف والأعمال السلبية التي يقوم بها المنتسبون لقطاع الإعلام فتحط قدر اللغة وتفتح الباب لفسادها واستعمالها غير السليم وتعرقل تطويرها وتساعد على تقديم غيرها عليها.

وقد نبهت جهات عديدة وباحثون كثر للخطر المحدق بالعربية الداهم من جهة الصحافة، بسبب الأخطاء الصادرة عنها بالمفهوم السابق ذكره والتي تنذر بالانتشار في أوساط كل مستعملي اللغة العربية نتيجة لشدة تأثير وسائل الإعلام وما تملكه من سلطة النفوذ إلى مدارك المتلقين، ولهذا يشدد أحد الباحثين فيقول: « من الضروري إنقاذ العربية من الصحافيين الذين لم يراعوها حق رعايتها في مختلف المواقع ومختلف المقامات التي كان يجب عليهم أن يحسنوا تأديتها ، وقد لحق ذلك مستعملي هذه اللغة تأثرا بلغة الصحافيين ونتوجس خيفة من خطر المسخ الذي لا يأتي إلا بضعف ونشاهده يتسع باستمرار. »⁽⁸⁾ وبعد تحديد المقصود من الأخطاء الصحافية اتجاه اللغة والتنبيه لخطورتها لا بد من تحديد مجالاتها وأسبابها⁽⁹⁾ لما في تحديدها من تحديد للمسؤوليات وتدقيق لأنواع الأخطاء التي تعطل التطوير المفترض.

1.3- المجالات: المقصود بالمجالات الميادين والدوائر والجهات التي تحدث فيها هذه الأخطاء اتجاه اللغة العربية أو التي تصدر منها المواقف والقرارات المؤدية إلى ذلك. ومن هنا فهي تنقسم إلى قسمين: قسم داخلي، وقسم خارجي .

1.2.3. المجالات الداخلية: وهي المجالات التي تقع فيها الأخطاء داخل اللغة ذاتها ، بمخالفة قواعدها وأصولها في مختلف المستويات اللغوية (الصوتية والصرفية

والنحويّة والدلاليّة..وغيرها) ومن الطبيعي أن تكون الأخطاء الصوّتيّة خاصة بالمجالات الكلاميّة دون الكتابيّة.

3.2.1.1. الكتابة على صفحات الجرائد والمجلات: وهي التي تدوّن فيها

الأخطاء اللغويّة والرّداءة التعبيريّة ما بقيت الصّحيفة موجودة ، وتؤثر سلباً في أصحاب الطبقة المثقفة الذين يقرؤون بالعربيّة ، وتزيد قوة تأثيرها كلما ضعف مستوى القارئ اللغوي ، وعليه يكون تأثير الأخطاء في هذا المجال نوعياً ولكنه أقلّ انتشاراً لأنه لا يؤثر إلا في شريحة القراء ، وهو أقلّ حجماً أيضاً ، لوجود فرصة مراجعة الكتابة وتصحيحها قبل النّشر.

3.2.1.2. الكلام الإذاعي: وهو الذي يبث عن طريق الأثير ، ولذا فهو أكثر

انتشاراً لأنه يصل لكل الأصناف المستمعة ، قارئهم وأمّيتهم ، ولكن أخطاءه لا تدوّن إلا أن تأثيرها ورسوخها في الأذهان يأتي من كثرتها عدداً وتكراراً لأن المتكلّم يرتجل دون تفكير طويل ، وليس له فرصة المراجعة والتّصحيح كما هو الشّأن في الكتابة .

3.2.1.3. الكلام والكتابة في التّلفاز: وشدة تأثير الخطأ في هذا المجال أقوى

وذلك لشدة تأثير التّلفاز في النّاس ، فهو في هذا الزمان أقرب وسيلة إعلاميّة لكل أفراد المجتمع وأكثرها التّصاقاً بهم مهما كان مستواهم وأعمارهم ، ولكن تأثير الكلام فيها أقوى من الكتابة ، لأن الكتابة قليلة فيها إلا أنها غير معدومة التأثير لحاجة الجميع لقراءتها ، وخاصة كتابة الأشرطة المتحركة في أسفل الشّاشة ، وأكثرها خطورة تلك الرّسائل القصيرة التي يرسلها عامة المشاهدين ، لكثرة الأخطاء فيها .

3.2.1.4. الكتابة على الانترنت: جزء من هذا النّوع من الكتابة هو نفسه الذي

ذكرناه في الكتابة على صفحات الجرائد ، ولكن الكتابة على الانترنت تختلف بأن ما يكتب فيها يكتبه المثقفون ويكتبه العامة من النّاس ، ولكن من المؤكّد أن الحجم الذي يُقرأ أكثر هو الذي يكتبه العامة خصوصاً على صفحات شبكات الاتصال

الاجتماعي وأغلبهم لا يحسنون اللغة، وكثيراً ما نطالع تصحيحات القراء بعضهم لبعض ولكن لكثرة تدفق الأخطاء فإن "الفتق في اتساع مستمر على الرأتق"، وبهذا يرسخ هؤلاء العوام أخطاء بعضهم لبعض.

والحقيقة أن رقابة الأخطاء من هذا النوع غير ممكنة ومسؤوليتها لا تقع على عاتق جهة إعلامية معينة، إلا أنه يبقى مظهراً من مظاهر التأثير السلبي للإعلام ونقصاً من نقائص دوره في ترقية اللغة، وإذا كان من الممكن الحد من خطورة الأخطاء في هذا المجال وتحجيمها فلن يكون إلا عن طريق الدور العام الذي تؤديه المؤسسات التعليمية في التحسين العام لمستوى المتدربين.

2.2.3. المجالات الخارجية: وهي المجالات التي تصدر منها (من خارج اللغة وليس فيها) الأخطاء في حق اللغة، مما يؤدي إلى الاستهانة باللغة ونقصان شأنها وأنواع الأخطاء في هذه المجالات تختلف من مجال إلى آخر.

1.2.2.3. اهتمام المؤسسات التعليمية والتكوينية: فالمؤسسات من المدارس الابتدائية إلى المعاهد والجامعات غالباً ما تكون لها أخطاء استباقية في حق اللغة حين كان الإعلام (على اعتبار ما سيكون) يتمدرس فيها، وذلك من خلال ضعف اهتمام هذه المؤسسات بالتكوين اللغوي للعربية سواء في التشريع والهيكل أم في المناهج والبرامج والكتب أم في التآطير والتسيير.

وكمثال على ذلك فإن خطأ تدريس الطفل للغة أجنبية في المرحلة الابتدائية قبل تمام وثبات اكتساب اللغة الأم العربية يؤثر سلباً عليها ويبقى هذا التأثير ضعفاً في عربية المتعلم إلى أن يكبر ويصير إعلامياً. (10)

ومن الأخطاء أيضاً في معاهد الإعلام والاتصال ضعف التركيز على إتقان الطالب للغة العربية.

2.2.2.3. جهود المؤسسات اللغوية: أي الجامعات اللغوية أو المجلس الأعلى للغة العربية (في بلادنا) وكل مؤسسة لها نفس المهام والصلاحيات. ويفترض أن تكون

هذه المؤسسات منزهة عن إصدار الخطأ اللغوي وتصديره للإعلاميين، ولكنها تتحمل جزءاً من مسؤولية انتشاره حين تتوانى عن التّرصّد للأخطاء اللغوية في وسائل الإعلام وعن تصحيحها وإشعار المعنيين بها بجدّ وصرامة وباستمرارية فإذا ما انتشر خطأ وهي ساكتة فإن هذه المؤسسات، بحكم وظيفتها، تكون كالمسبب فيه بل تكون مسؤوليتها أخطر من مرتكبه نفسه الذي قد يكون ارتكابه للخطأ عن جهل ودون قصد.

3.2.2.3 . مواقف دوائر صناعة القرار: ودوائر صناعة القرار المتعلقة بالإعلام

لها مستويات عديدة وهي :

- إدارة المؤسسة الإعلامية بمختلف رتبها ومهامها؛
- وزارة الإعلام وما فيها من درجات السلم الإداري؛
- مؤسسات القرار السياسي على مستوى الدولة ؛
- المؤسسات التشريعية الوطنية؛
- فكل واحدة من هذه الدوائر يحتمل أن يصدر منها موقف أو قرار، يكون بمثابة خطأ في حق اللغة العربية، يضعف هيبتها ويقلل من شأنها أو يؤدي إلى فسادها ويعطل تطورها .

ومن أمثلة الأخطاء في هذا المجال :

- سكوت المسؤولين في مؤسسة إعلامية عن شغور منصب "المصحح اللغوي" وتهاونهم عن إشغاله؛
- صدور قرار سياسي أو قانون تشريعي لا يليق بمكانة العربية ويعطل استعمالها أو عدم صدور ما يضمن حمايتها؛

و هنا نذكر موقف ذلك النائب في الكونغرس الأمريكي الذي قال : « إننا نضع القوانين لمعاقبة المجرمين والذين يسرقون ويقتلون ، فلماذا لا نضع القوانين لمعاقبة الذين يُفسدون اللغة. » (11)

4.2.2.3 . شخصية الفرد الإعلامي: من الإعلاميين من هو صاحب همّة عالية يطمح باستمرار في الزيادة ويؤرقه الخطأ الذي يقع فيه ويدفعه لاستكمال نقصه وهذا الصنف هو الذي يؤدي به الإعلام دوره الكامل ولكن الذي يعيننا هنا هو الصنف المضاد المتقاعس عن أداء مهامه لا يهتمه الخطأ ولا الصواب ، فهذا الذي يفسد اللغة بكثرة الأخطاء التي تصدر منه ، سواء في اللغة ذاتها أم في مواقفه اتجاهها ، وهو لا يبالي خاصة في غياب الرقيب والمصحح بل الرادع . ومن المؤكد أنه بقدر ما يكثر عدد أفراد هذا الصنف من الإعلاميين تكثر الأخطاء المتعلقة باللغة وبقدر ما يقلون تصح اللغة ويعلو شأنها، ولعله لو كان كل إعلامي من الصنف الأول ما احتجنا أصلا لطرق هذا الموضوع ، فهو وحده يسدّ مسد كل نقص ويعوّض كل تقصير!!

5.2.2.3 . مدى الوعي لدى الجماهير: إن الجمهور الإعلامي له دوره في تشجيع الأخطاء والرداءة اللغوية أو الحد منها من حيث تعامله مع الجهة الإعلامية المكثرة من الأخطاء (مؤسسة كانت أم فرداً) فإذا جاملها وسامتها ولم ينبّهها ويصحح أخطاءها فقد شاركها الأخطاء والرداءة ، أما إذا عاقبها بالرّفص والهجران والاحتجاج فإنّه يأخذ على يدها ويقوم اعوجاجها ؛ فلو أن كل مؤسسة إعلامية (كالجريدة مثلاً) رديئة اللغة تهجر لحزمت كل مؤسسة أمرها في هذا الشأن اجتنابا لما سيلحقها هي الأخرى من الهجران ، ولكن اللغة ما زالت ليست هي "المعيار" لنقص (بل لغياب) الوعي لدى الجماهير التي يصدر منها هذا النوع من الخطأ في حق اللغة.

6.2.2.3 . مكائد المناوئين: ما أكثر المكائد التي تحاك ضد اللغة العربية!!

يقول أحد المدافعين عنها : « ولست أبالغ إذا ما قلت : إن العربية صارت ميدانا يتدرب بالهجوم عليه كل من أمسك بالقلم، غير مبقين لها حرمة ، ولا مقدرين ما حملته وتحمله من ذخيرة، وما تكتنزه من كنوز»^(1 2).

والحقيقة إن المكائد التي تأتي من المناوئين والأعداء ، في حد ذاتها لا تعدّ أخطاء ، ولكنها تكون كذلك حين تمرر بواسطة الإعلام من أهل هذه اللغة ومحبيها ولا يتفطن لها، فتضرب لغته به في غفلة منه أو جهل . فكم من أفكار ومشاريع للمستشرقين والمستغربين يروج لها بعض الإعلاميين بعنوان " عصرنة اللغة العربية وتطويرها" وهي ضرب لها ، مثل قولهم "سكن تسلم" والدعوة إلى العامية وإلغاء الإعراب وغير ذلك .

هذه حصيلة مطالعات متفرقة جمعت فيها مجالات الأخطاء المتعلقة باللغة والاستنتاج الظاهر منها هو إن مسؤولية القصور والتقصير اللذين يحصلان في دور الإعلام اتجاه اللغة إنما هي موزعة وليست ملقاة على عاتق الصحافي وحده . وهذا ما تؤكدُه أيضا الأسباب الآتية .

3.3 - الأسباب: لاشك إن كل خطأ يحدث في كل مجال من المجالات الآتية

الذكر له سبب قد أدى إلى وقوعه بشكل مباشر أو غير مباشر، وهذه الأسباب تدور في عمومها حول المحاور الآتية:

1.3.3 - ضعف التكوين اللغوي: وهو أساس لأن بسببه تحدث الأخطاء بكثرة في

مجال الكتابة والكلام، ويكون عادة نتيجة تقصير المؤسسات التعليمية أو نقائص ذاتية في شخصية الفرد الإعلامي. وهذا الضعف يؤدي إلى ضعف الحس اللغوي في الفرد بحيث تصير الأخطاء تمر عليه ولا ينتبه إليها. ويتبع هذا سوء الترجمة لضعف تكوين المترجم وقد يعتمد فيها على الترجمة الآلية أحيانا مما أشاع العديد من الأخطاء.

2.3.3 - ضعف الوازع الروحي اتجاه اللغة : والمقصود "بالوازع الروحي" الدافع

النّابع من الشّعور بمكانة اللغة العربيّة الدينيّة والقوميّة بالنّسبة للفرد والأمة حيث إنها لغة الدّين ومقوم من مقومات الشّخصيّة الوطنيّة ، فالوعي بهذه المكانة والإحساس بها يجعل الفرد والمجتمع بكل مكوناته ومؤسساته يحافظون جميعاً على اللغة ويحرصون على سلامتها والإعلاء من شأنها ، ودون هذا الوعي والإحساس يغيب كل ذلك ، وهذا ما ينعكس على كل مجالات الأخطاء .

3.3.3 - مكانة اللغة سبب ويلاتها : إن مكانة اللغة العربيّة الدينيّة والقوميّة

والوطنيّة بقدر ما هي عنصر أساسي في حياة أهلها وشخصيتهم القوميّة بقدر ما يكون ذلك سبباً لويلاتها من أعدائها، لأن تلك المكانة تجعل اللغة هدفاً في مخططات ومكائد الاستعمار القديم والحديث لكونها مقتلاً من مقاتل الكيان الذي يريدون القضاء عليه دينا كان أم أمة أم وطناً . وهذه المكائد تجد الإعلام ميداناً فسيحاً وأرضية خصبة للتنفيذ بالشكل العادي المعلن أو بالحيل والدسائس الخفية ولكن كل ذلك يجعل غفلة الإعلام المعني بحماية العربيّة مطيّة .

4.3.3 - الأسباب السياسيّة وغياب التشريعات اللازمة: فبسبب بعض السياسات

تصدر القرارات التي لا تخدم اللغة وتعرقل تطورها ، كالتّي تتعلق بالمناهج الدراسيّة مثل إدراج المصطلحات العلميّة بغير الحروف العربيّة .. وما تعطيل تنفيذ قوانين تطبيق اللغة العربيّة وتجميد توصيات المؤسسات اللغويّة إلّا بهذا السّبب . وهو السّبب ذاته الذي يحرم اللغة العربيّة من سن قوانين تحميها كما يوجد في العديد من البلدان مثل كوريا التي توجد في دستورها مادة تمنع الكلام بلغة المستعمر (اليابان) أو القوانين الفرنسيّة التي أدانت المحكمة بها مؤسسة لصناعة التبغ لأنها كتبت على سجائرها Filter بالانجليزيّة عوض Filtre بالفرنسيّة مع إن الفرق بين الكلمتين في ترتيب حروف "E" و "R" فقط. ^(1 3) فغياب مثل هذه التشريعات يجعل اللعب باللغة العربيّة في قطاع الإعلام يحط من قدرها ويعرقل تطورها .

3.3.5 - نقص الموارد المالية: نقص المال لدى المؤسسات ينعكس سلبا على جودة إنتاجها الإعلامي من كل جانب ، ومن بينها الجانب اللغوي الذي تكثر فيه الأخطاء سواء أكانت لغوية بحتة أم مطبعية وتقنية ، وذلك يرجع إلى غياب الإمكانيات المادية والبشرية التي يمكن أن يوفرها المال المفقود ، ومن بينها تشغيل المصححين اللغويين الذين بغياهم تكثر الأخطاء اللغوية في إصدارات المؤسسة الإعلامية⁽¹⁴⁾.

4. صور من واقع الأخطاء في اللغة ذاتها: لقد تبين من خلال ما سبق أن أنواع الأخطاء التي تطال اللغة العربية عن طريق الإعلام عديدة وأن مجالاتها ومصادرها مختلفة ، والحقيقة أن كل ما ذكر هو وصف نظري انطباعي في معظمه يحتاج إلى دليل مادي وتحقيق علمي وميداني . إلا أنه من الصعب بل من المستحيل هنا التحقيق في كل مسألة من المسائل المذكورة لكثرتها . ولكن يمكن أخذ مسألة واحدة من هذه المسائل للدراسة حتى تكون دليلا يثبت صحة الحكم بنقصان دور الصحافة لكثرة الأخطاء التي تقع فيها اتجاه اللغة.

وهذه المسألة هي مجال "الكتابة الصحافية" لأن إمكانيات التحقيق فيها أقرب وأسهل لكون الأخطاء فيها شائعة مدونة ونسخها متوفر.

1.4 الأخطاء الشائعة: إن هذا الموضوع "الأخطاء الصحافية" ليس جديدا ، فقد أشبع بحثا في مختلف الدراسات والملتقيات التي تدور كلها حول حقيقة مفادها : «إن أجهزة ووسائل الإعلام العربية التي يفترض أن تشارك مشاركة فعالة في تنمية اللغة العربية وفي الارتقاء بلغة الجمهور لا تقوم في وقتنا الراهن بدورها على الوجه الأكمل . فكثيرا ما يلجأ مثلا إلى استخدام اللهجات العامية المحلية في تقديم بعض البرامج الإذاعية والتلفزيونية أو يلجأ إلى استخدام ما يسمى باللغة الوسطى التي لا ترقى بلغة الجمهور لضحالتها وقلة الرصيد اللفظي المستخدم فيها ، أو لعدم الالتزام التام بتنقيتها من الشوائب وعدم التورع فيها من استعمال الألفاظ المبتذلة

والتراكيب المرتجلة والمحرفة أو الصيغ الدخيلة والعبارات المترجمة ترجمة ناقصة أو غير سليمة» (15)

وبالفعل فإن الساحة اللغوية تشهد ألفاظا وصيغا عديدة مخالفة للعرف اللغوي السائد هي من إفرزات لغة الصحافة، وقد تناولتها الدراسات اللغوية بالتمحيص فمنها ما قبل من باب المرونة والتوسيع وعدم التحجير في إطار تطوير العربية ومنها ما رفض لأنه مخالف لأصول اللغة وليس له وجه من أوجه القبول. ومن أمثلة هذه الألفاظ والصيغ ما يلي:

وصف "الرئيسية" مثل النشرة الرئيسية استعمال ألفاظ معوق ومعاق ومعوق في غير محالها . التسعينات عوض التسعينيات . إضافة الباء للفظ "دون" (بدون) . الدولية . عوض الدولية . أكفاء عوض أكفاء زيادة اللام في كلمة وحده (لوحده) . الخصوصية والخصخصة . تعديّة الفعل المتعدّي أصلا بحرف الجر . مرجع (بفتح الجيم) عوض مرجع (بكسرها) . الإجابة "بنعم" عوض "بلى" على الاستفهام المنفي... الخ (16)

« وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الأخطاء اللغوية في الصحافة الناتجة عن الترجمة الارتجالية، كاستخدام تعبير (القوتان الأعظم) في الصحافة، حيث يأتي الوصف غير مطابق للموصوف المقترن بـ(أل)، ترجمة ركيكة للمصطلح الإنجليزي المقابل (The Two super-powers)، والصورة الفصيحة لذلك التعبير أن يأتي الوصف مطابقاً للموصوف فيقال: (القوتان العظميان... ومنها أيضاً استعمال الكاف في قول القائل: "التي تُعرف كمُنطقة"؛ إذ هو مأخوذ مما يقال ويكتب في اللغات الغربية، وهي ليست كاف التشبيه في العربية، غير أنها دخلت هذه العربية المعاصرة وشاع استعمالها، وكذا قولهم: "في إطار الخطط"؛ حيث هو من التعبيرات الجديدة التي تومئ إلى أصلها في لغات أعجمية غربية؛ فهي في الفرنسية " dans le

"cadre"، وقولهم كذلك: "من خلال" ترجمةً لكلمة إنكليزية هي "Through" (17)

2.4- دراسة نماذج: إن حقيقة الأخطاء الصحافية ثابتة وموضحة في مختلف المراجع ويمكن تأكيد وجودها في واقعنا الجزائري الراهن (بعد خمسين سنة من الاستقلال) من خلال صحفنا اليومية.

ويجب التأكيد قبل ذلك على أن الكلام عن "الأخطاء" لا يعني أن لغة الصحافة كلها أخطاء وأن كل الوسائل الإعلامية وكل الصحف في نفس المستوى اللغوي وأن الإعلام لم يأت بالجديد وأن تطويره للغة معدوم وأنه لا يحق له أن يأتي بالجديد أصلاً، وأن كل جديد يأتي به خطأ بحجة أنه غير موجود في المصادر العربية القديمة..

فكل هذه المعاني بعيدة عن طرح المقال، فالحقيقة الأخرى التي لا بد أن تبرز هي إن للإعلام وجهاً مشرقاً وفضلاً لا يستهان به في تطوير اللغة والأدب، وإن التحجير على الإعلام في إثراء اللغة لم يقل به عاقل. وقد سبق لهذا المقال أن عرض بعض النماذج للإثراءات اللغوية المقبولة التي أضافتها لغة الصحافة. (18)

1.2.4- نموذج مدونة المقال: هو دراسة سابقة قام بها صاحب المقال (ولم تنشر ولم توظف في أي نشاط) ومدونتها عينة من جريدة "الجديد اليومي" (مقرها بمدينة الوادي)، تمت الدراسة على عددها رقم 399 ليوم الثلاثاء 26 فيفري 2013 الموافق لـ 15 ربيع الثاني 1434^(**). ومن نسخة هذا العدد تم اختيار نصف عدد الصفحات 12 صفحة من 24 (أي 50٪)، وما استثنى من الصفحات كانت له مبرراتها التي لا تؤثر سلباً على الدراسة وهي كالاتي: الصفحة الأولى، صفحات الإشهارات والإعلانات، الصفحات الرياضية، صفحة التسلية، صفحات الإرشادات الدينية والدراسات والتوجيهات العلمية والاجتماعية.

وبناء على الأرقام المنتجة المبينة لأعداد الأخطاء بأنواعها التي كان مجموعها الكلي 466 خطأ، وبناء على أن عدد صفحات العينة المدروسة 12 صفحة، وعلى أن معدل عدد الكلمات في الصفحة الواحدة 1700 كلمة^(9 1) أي بمجموع 20400 كلمة في الصفحات الاثنتي عشرة، تأتي البيانات المسجلة في الجدول أدناه:

الجدول رقم 1: إحصاء الأخطاء اللغوية وتصنيفها في جريدة الجديد اليومي.

مستوى الأخطاء	عددتها في كل مستوى	نسبتها من مجموع الأخطاء (466)	معدلها في الصفحة الواحدة (1700 كلمة)	معدلها في كل الصفحات (20400 كلمة)	نسبتها في العينة
الإملاء والكتابة	152	32.61%	من 12 إلى 13 خطأ في الصفحة	خطأ واحد في كل 134 كلمة	0.74%
النحو والصرف	93	19.95%	من 05 إلى 06 أخطاء/الصفحة	خطأ/219 كلمة	0.45%
التركيب	56	12.01%	من 04 إلى 05 أخطاء/الصفحة	خطأ/364 كلمة	0.27%
المعجم والدلالة	42	09.01%	من 03 إلى 04 أخطاء/الصفحة	خطأ/485 كلمة	0.20%
التقني والمهني (الشكلي)	123	26.39%	من 10 إلى 11 خطأ/الصفحة	خطأ/165 كلمة	0.60%
المجميع	466	/	حوالي 39 خطأ/الصفحة	خطأ في كل 43 أو 44 كلمة	02.28 %

المصدر: جريدة "الجديد اليومي" العدد 399 (المدونة).

إن الأرقام المسجلة في الجدول السابق "تنطق وهي جامدة" بل تصرخ بالصوت العالي وتقول:

– إن اللغة العربية مصابة في مقاتلها (النحو والإملاء)، إذ تمثل الأخطاء فيهما النسبة الأعلى والمعدل الأكبر في جملة الأنواع الأخرى التي لا يستهان بأي منها كما وكيفا!!

– ومهما يكن النوع فإن عدد الأخطاء الإجمالي وهو 466 خطأ في 20400 كلمة بمعدل خطأ في كل 43 كلمة على الأقل ونسبة 02.28%، عدد منذر بالخطر الداهم المهديد للغة العربية في عقر دارها وبين أبنائها بل بأيدي أبنائها أنفسهم إذا لم تتخذ الإجراءات اللازمة والعاجلة من قبل الجهات المعنية.

– قد يكون للجانب المادي (المالي) دوره في كثرة الأخطاء في وسيلة إعلامية دون أخرى، لكون قلة الموارد المالية تجعل المؤسسة المعنية عاجزة عن تغطية المناصب المالية اللازمة للمصححين والمدققين، ولكن تبقى على جهات أخرى مسؤولية حماية اللغة الوطنية قائمة، إما بالمساعدة المادية وإما بالإجراءات القانونية.

إن هذه الملاحظات المادية التي تسجلها الأرقام تعكس الصورة التي أراد أن يصورها أحد الكتاب عما يكتب أحيانا في بعض الجرائد حيث قال: «وتلك مقالة في صدر جريدة خيل إلى كاتبها أنه يجري والجاحظ في عنان واحد... ثم نترك على سطورها فترى الهفوات اللغوية آخذة برقاب المغالط النحوية والصرفية، وترى في بعض فقراتها المبتذلة الفاظا جزلة استعملها الكاتب كما سمعها أو قرأها ترصيعا لإنشائه، فكانت كالرقع الجديدة في الثوب الرث، أو كالقلائد الدرية في أعناق إمء من الزنج، وزادت الإنشاء سماجة لأنها أجنبية عنه ولا تناسب بينها وبينه...» (20)

2.2.4 – نماذج أخرى: وحتى لا يقال أن العينة السابقة قد ضخمت الأخطاء وسوّدت الصورة لكون مؤسستها ناشئة ولها مبرراتها المادية فإنه بإمكاننا الرجوع إلى

دراسات أخرى سابقة في هذا المجال أجريت على وسائل ومؤسسات وطنية أخرى مشهورة، للنظر في المسألة.

ومن هذه الدراسات بحث حول الأخطاء الشائعة في وسائل الإعلام الجزائري^(1 2) اتخذ مدونته عديدين من جريدة الشروق اليومي وحصتين تلفازيتين وحصتين إذاعيتين. وكانت خلاصة نتائجه كالآتي:

الجدول رقم 2: إحصاء الأخطاء اللغوية في جريدة الشروق والإذاعة والتلفزيون.

العينة الإعلامية	العدد الإجمالي للأخطاء في العينة	نسبة الأخطاء الإملائية	نسبة الأخطاء النحوية	نسبة الأخطاء الصوتية
جريدة الشروق العينة 1	95	49.47%	/	/
جريدة الشروق العينة 2	126	59.52%	/	/
الحصة التلفازية 1	279	/	41.57%	41.93%
الحصة التلفازية 2	136	/	46.32%	26.47%
الحصة الإذاعية 1	90	/	33.33%	23.33%
الحصة الإذاعية 2	113	/	44.24%	11.50%

المصدر: خلو في صليحة، الأخطاء اللغوية الشائعة في وسائل الإعلام الجزائرية.

إذا ما علمنا أن الدراسة طبقت على عدد محدد من صفحات عينة الجريدة وعلى فترة زمنية محدودة قدمت فيها الحصص التلفازية والإذاعية فإننا نستنتج أن الأعداد الإجمالية المسجلة للأخطاء تعد معتبرة وإن كانت أقل مما سجل في مدونة هذا المقال لأن صفحاتها أكثر ومع ذلك فإن هذه الأرقام تجيب على إشكالية المقال في السؤال المطروح في المقدمة: "ما مدى الإهمال الحاصل للغة العربية في الصحافة

الجزائرية؟" خاصة من خلال التقارب المسجل في علو نسبة الأخطاء الإملائية والنحوية. وإذا جمعت هذه النسب كلها فسيكون معدلها 47.20% للأخطاء الإملائية و37.08% للنحوية. إن هذه النسبة العالية في الأخطاء الإملائية والنحوية في الدراستين لتدل دلالة واضحة على أن الضعف الإملائي والنحوي في الأوساط الإعلامية ظاهرة عامة واسعة الانتشار يجب الالتفات إليها.

والخلاصة التي تستنتج من كل هذا هي: رغم الدور المفترض والواقعي المعتبر للصحافة والإعلام في خدمة العربية فإن له نقائص وسلبات لابد من معالجتها عن طريق التدقيق اللغوي والعناية الميدانية.

5. الاقتراحات والحلول: (توصيات) بعد الوصول إلى الحقيقة التي خلص إليها المقال وجب تقديم المقترحات التي تحقق العلاج وتكمل النقائص.

1.5 - ضرورة الاقتناع بالفكرة: لا يمكن أن يتحقق الإصلاح المنشود في ميدان اللغة دون القناعة الكاملة لدى الجهات المعنية بفكرة المقال وهي: "إن دور الصحافة في خدمة اللغة العربية في حاجة للتدقيق اللغوي والعناية الميدانية". لأن القناعة هي المحرك الأول لتنفيذ الإجراءات اللازمة والحلول المطلوبة.

ولكن لابد أن تكون القناعة مشحونة بالإيمان بمكانة اللغة وأهميتها كما يفهمها أهل الحكمة والرأي؛ « فقد سئل "كونفوشيوس" منذ خمسة وعشرين قرناً ماذا تفعل لو وليت الحكم؟ فأجاب: " لو أتيت لي أن أحكم، لبدأت بإصلاح اللغة".

وقد اعتبر الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) اللحن في الكلام نوعاً من أنواع الضلال، إذ قال حين سمع رجلاً يلحن في قوله: "أرشدوا أخاكم فقد ضلّ" (2 2)

2.5 - القرار السياسي: وهذه القناعة المطلوبة بالدرجة الأولى لن تأتي وحدها ما لم يكن معها قرار سياسي يدفع في اتجاه إيجادها وتحقيقها على أرض الواقع وفي ذلك يقول أحد الباحثين وهو يتكلم عن التعريب بصفة عامة وتحدياته: «المسألة إذاً مسألة مواقف وإيمان بقضية هذه اللغة، وهذا الإيمان لن تصنعه الأمانى

والخطابات السياسية ولا التعليقات الإعلامية بل لن تصنع قرارات المؤتمرات والندوات التي تحفظها الأضابير والأدراج، بل الذي يصنع ذلك الإيمان ويحقق للعربية ازدهارها... هو القرار السياسي المخلص الجاد الذي ينفذ ويتابع دون تراخ ودون تمييع» (23)

3.5- التكوين الدقيق: لا بد من أن يكون الاعتناء بتعليم وتكوين الإعلاميين في اللغة العربية اعتناء كبيرا حتى يتكثروا التكوين الدقيق اللازم لمهنتهم. وذلك على مستويين:

- المعاهد وكلليات الإعلام، وهو ما يتطلب تعديل المناهج بغرض تحقيق هذا الهدف.

- التكوين المستمر أثناء الممارسة الإعلامية من خلال عقد الندوات والدورات المتخصصة التي تدعم المهارات وتقوّم الإعوجاجات وتصحح الأخطاء وتزود بالجديد في الميدان.

4.5- المراجع اللغوي: من الضروري أن يكون في كل مؤسسة إعلامية مناصب مالية خاصة بالمراجعين اللغويين بالعدد الكافي، على أن تكون هذه المناصب رسمية ودائمة لها تشريع وظيفي خاص وبمرتبات معتبرة وقابلة للترقيات وأن يختار لها المؤهلون الأكفاء. (24)

وتقترح أحد المراجع على "المراجعين" أن ينتظموا في نقابة مهنية خاصة بهم حتى يحموا من خلالها مكانتهم ويحفظوا حقوقهم. (25)

5.5- سن القوانين: إن الحماية المطلوبة للغة الوطنية الرسمية تقتضي سن القوانين اللازمة لها سواء على المستوى العام أم على مستوى قطاع الإعلام وإداراته على أن تكون هذه القوانين شاملة ورادعة ومحفزة، في الوقت ذاته، مع توفير آليات التنفيذ والمتابعة، وذلك عملا بما هو جارٍ في مختلف البلدان التي تحترم سيادتها. (26)

6.5- دور المؤسسات اللغوية: من المعلوم إن المؤسسات اللغوية على مستويات عدة لها جهود محترمة في مجال التصحيح اللغوي ورعاية العربية، ولكن أثر هذه الجهود على أرض الواقع أقل بكثير مما بذل فيها، وعليه فإن دور المجامع اللغوية والمؤسسات المشابهة لها لا بد أن يفعل أكثر وذلك بواسطة إجراءات إضافية ونشاطات عملية موازية ومكملة للجهود التنظيرية، منها:

- إنشاء لجان فرعية توكل لها مهام تنفيذ هذه النشاطات؛
- نشر القرارات والاجتهادات على نطاق واسع ويتدفق إعلامي غزير حتى يشكل رأيا عاما يضغط على المخطئين في اللغة ويوجههم؛
- ربط المؤسسات ربطا مباشرا وعن طريق المواقع الالكترونية بالهيئات والمؤسسات الإعلامية؛
- الإشراف على تأطير دورات تكوينية للإعلاميين وخاصة في مواضيع الأخطاء والاستعمالات اللغوية الجديدة، سواء بمبادرة من المؤسسات ذاتها أم من الجهات الإعلامية؛
- الاهتمام الخاص بلغة الصحافة وإعداد معاجم لها، وذلك لشدة خطورة تأثير الإعلام في اللغة وكونه وسيلة فعالة لتحقيق نتائج جهود المؤسسات المعنية ذاتها.

7.5- اهتمام الإعلام نفسه: للإعلام نفسه دور فعال في الإصلاح اللغوي حين تتوفر الفعالية، فالمجال مفتوح للنشاط بكثافة لتعزيز اللغة من خلال الحصص الإذاعية والتلفزيونية والصفحات والأركان الصحفية وذلك على الصعيد التوعوي والإيديولوجي اتجاه اللغة وعلى صعيد التكوين والتصويب اللغويين.

وخاصة عندما نعلم أن كل مجالات الحياة: (الدين، السياسة، الاقتصاد الأسرة، المجتمع، الصحة، الترفيه، الرياضة،... الخ) كلها لها برامجها وأركانها الإعلامية المتعددة إلا اللغة فالالتفات إليها يكاد يكون معدوما.

8.5- دور المجتمع المدني: إن الجمعيات المتخصصة والهيئات ذات العلاقة بالإعلام (كالأحزاب) يمكن أن تلعب دورا فعّالا في الحفاظ على اللغة معززة وسليمة من العيوب، باستثمار مكانة اللغة في نفوس الجماهير مع العمل على رفع مستوى وعيهم إزاءها، حتى يوجد الرأي العام الذي يكون محط أنظار الإعلاميين فيسعون لطلب وده والتطلع إلى إرضائه في التعامل مع اللغة.

9.5- تنظيم المهرجانات والملتقيات العلمية: وتقوم بذلك دوريا مختلف الجهات المعنية الرسمية والأهلية والعمومية والخاصة، وتتناول قضايا اللغة المختلفة لاسيما ما يتعلق منها بالإعلام.

10.5- التواصل بين المؤسسات الإعلامية والجامعات: يجب أن يفعل تواصل المؤسسات الإعلامية مع أقسام اللغة العربية في الجامعات بهدف التعاون على خدمة اللغة والاستفادة من الاستشارات والتوجيهات اللغوية.

11.5- تشجيع الصحافة الرياضية الجزائرية: وذلك على استعمالها المتميز للعربية الفصحى، ثم من أجل اتخاذها وسيلة لترقية اللغة العربية في أوساط الجماهير الواسعة التي تتبعها، ومن باب أولى تنبيهها إلى الأخطاء التي قد تحدث في اللغة للحد من انتشارها.

12.5- الصرامة في التوظيف: يجب أن يكون التوظيف في مختلف المؤسسات الإعلامية للمناصب المتعلقة باستعمال اللغة عن طريق مسابقة وبإجراءات صارمة على أن تكون الأولوية فيها لأصحاب الكفايات اللغوية قبل الهيئة والصوت، فما الفائدة من الهيئة الحسنة والصوت الجميل دون لغة سليمة؟

13.5- الجدية في الترجمة: تفاديا للوقوع في الأخطاء اللغوية المتأتية من الترجمة وجب أن تكون الترجمة بالجدية الكافية ومن المصادر الموثوقة لاسيما الكتابية منها التي ينبغي أن تُجتنب فيها الترجمة الآلية غير الدقيقة أو من غير المختصين.

14.5- التحفيزات: إلى جانب العقوبات المحتملة جراء سن قوانين الردع الحامية للغة (المقترحة)، ينبغي اعتماد نظام التحفيز للتشجيع على الاستعمال الأسلم للغة، ويمكن أن يتم ذلك على مختلف المستويات من المؤسسة الإعلامية إلى الهيئات الوطنية، وعليه فإن أحد المراجع^(7 2) يقترح رصد جائزة وطنية سنوية لأحسن مستعمل للغة (مؤسسة أو فرد).

15.5- ضرورة المال: جاء في المقال إن قلة الموارد المالية سبب من الأسباب التي تعود على المؤسسة الإعلامية بالضعف في جوانب مختلفة ومن مظاهرها كثرة الأخطاء اللغوية نتيجة العجز عن توفير المناصب الكافية للمراجعة اللغوية وهذا يتطلب إما مساعدة المؤسسات العاجزة ماليا، أو تجميد نشاطها الإعلامي حتى توفر المال الكافي.

16.5- هيئة للرقابة اللغوية: ومن المقترحات الواردة^(8 2) أيضا تشكيل "هيئة وطنية للرقابة اللغوية" تسهر على حماية اللغة ويكون من مهامها تنفيذ الإجراءات المناسبة لها مما ذكر سابقا.

إذا تحققت كل هذه الحلول فإن اللغة ستكون مصونة وتتطور أكثر عن طريق الصحافة والإعلام ولن تؤثر فيها المؤامرات والمكايد الخارجية والّا ستكون عرضة لمختلف أنواع الأخطاء المذكورة سابقا.

خاتمة: خلاصة المقال تتمثل في فكرة "إن دور الصحافة في الحفاظ على اللغة العربية وتطويرها بقدر ما هو مهم وثابت نظريا وواقعيا فهو في حاجة للتدقيق والعناية الميدانية بجدية حتى لا ينقلب إلى ضده".

وقد تبين ذلك من خلال العرض النظري للدور المنوط بالصحافة تجاه العربية وتعريف الخطأ وتحديد مجالاته وأسبابه ثم الدراسة الميدانية التي كانت الأرقام فيها هي الدليل المادي على صحة الفكرة حيث أعطت صورة واقعية من خلال معدلات ونسب الأخطاء الحاصلة في المدونة، ومما دعم هذه الحقيقة النتائج

المشابهة في بحث آخر الأمر الذي سوغ الحكم بأن الأخطاء اللغوية لاسيما في الإملاء والنحو ظاهرة منتشرة في عموم وسائل الإعلام الجزائرية، كما تشير أقوال الباحثين إلى أن الظاهرة ليست جزائرية بحثة وإنما هي عربية عامة.

ولقد كان التركيز على الأخطاء الكتابية في اللغة من باب اتخاذ عينة محددة ليكون الاستقراء دقيقا، وحتى يمكن الوصول إلى الحكم على الكل من خلال الحكم على الجزء، أما الكل فقد جمع له المقال عشرة مجالات يمكن أن يصيب الخطأ منها اللغة سواء في اللغة ذاتها كتابة وصوتا أم في الأخطاء التي تأتي إلى اللغة من خارجها في التعامل معها بالمواقف والأعمال المسيئة لها؛ ومنها تبين أن مسؤولية ما يصيب اللغة من أخطاء لا تتحملها الجهات الإعلامية وحدها وإنما تشارك فيها كل جهة يمكن أن تفعل شيئا اتجاه اللغة في أي مجال من المجالات المذكورة.

وبعد إثبات ما سبق ذكره عرض المقال جملة من الحلول المقترحة بلغت الستة عشر اجتهد في إنتاجها مستندا في معظمها إلى مختلف المراجع التي عالجت الموضوع ذاته أو ما شابهه وهو موضوع التعريب عموما.

وبالتحديد فقد توصل المقال إلى ما يلي:

- الصحافة لها دور فعال في الحفاظ على اللغة العربية وتطويرها.
- العربية في واقع الصحافة في حاجة ماسة إلى التدقيق والتصويب بشكل مستمر وإلى العناية الخاصة في مجالات عديدة تتعلق بهذه المهنة.
- إن علو نسبة الأخطاء النحوية والإملائية في وسائلنا الإعلامية ظاهرة عامة تحتاج التفاتة جادة.
- من خلال تحديد مجالات الأخطاء وأسبابها اتضح أن مسؤولية مصائب اللغة في قطاع الإعلام موزعة على عدة جهات وليست ملقاة على الإعلاميين وحدهم.
- إن الإعلام لا يمكن أن يؤدي دوره الكامل في ترقية اللغة إلا إذا نفذت جملة من الإجراءات المصلحة للوضع، ذكر المقال منها ستة عشر في توصياته.

7- قائمة المراجع:

المعاجم:

- . إميل بديع يعقوب، قل فهذا صواب (قاموس في التصويب اللغوي)، المؤسسة الحديثة للكتاب لبنان، ط1، 2012 .
- . دياب، كوكب، معجم الأخطاء الشائعة أو قل.. ولا تقل، المؤسسة الحديثة لكتاب طرابلس . لبنان، د.ط، د.ت.
- . الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ت: أبو نواف نصر الهوريني دار الكتاب العلمية، بيروت، ط2، 2007م/1428هـ.
- . منجد اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط27، 1982م.

المؤلفات:

- . ابن نعمان، أحمد، التعريب بين المبدأ والتطبيق (في الجزائر والعالم العربي) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- . بلعيد، صالح ، منافحات في اللغة العربية، دار الأمل ، الجزائر، 2006.
- حولة، محمد، الأرفطونيا (علم اضطرابات اللغة والكلام والصوت) دار هومة الجزائر، ط4 2011.
- طالب، عبد الرحمن، العربية تواجه التحديات، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ذو القعدة 1428 هـ / ديسمبر 2006م.
- . سعدي، عثمان، التعريب في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 1992.
- البحوث والمداخلات:
- = . ابن الحاج، محمد مصطفى، (محاضرة)، اللغة العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين (محاضرات لعدد من الباحثين)، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1996 .
- = حمو، نعيمة، العدول النحوي في لغة الصحافة (جريدة الشروق اليومي نموذج) منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، تيزي وزو، 2001.
- خلوفي، صليحة، الأخطاء اللغوية الشائعة في وسائل الإعلام الجزائرية منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، تيزي وزو، 2011.

الجزائر:

. "الجديد اليومي" العدد رقم 399 السنة الثالثة، يوم الثلاثاء 26 فيفري 2013م الموافق لـ 15 ربيع الثاني 1434 هـ. (مدونة المقال).
". الشروق اليومي"، العدد 333، 21 رمضان 1422 هـ. 06 ديسمبر 2001م.

مواقع الكترونية:

— الشاعر، صالح عبد العظيم، دور الإذاعة والصحافة في النهوض باللغة وتطويرها www.alukah.net, 10/5/2012.

8- الهوامش:

- 1- بلعيد ، صالح ، منافحات في اللغة العربية، دار الأمل، الجزائر، 2006، ص99.
- 2- جريدة الشروق اليومي، العدد333، 21 رمضان1422هـ. 06 ديسمبر 2001م، ص الأخيرة.
- 3- بلعيد ، صالح ، منافحات في اللغة العربية، المرجع السابق، ص100.
- 4- المرجع السابق، ص ص 92، 93.
- 5- ينظر: حمو، نعيمة، العدول النحوي في لغة الصحافة (جريدة الشروق اليومي نموذج) منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، تيزي وزو، 2001، ص ص 22- 51.
- 6- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ت: أبي الوفا نصر الهوري، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط2، 2007م/1428هـ.
- 7- Crystal David, The Cambridge Encyclopedia of language، نقلا عن: نعيمة حمو، العدول النحوي، في لغة الصحافة (مرجع سابق)، ص31.
- 8- الشويرف، عبد اللطيف أحمد ، الضعف العام في اللغة العربية، نقلا عن: بلعيد صالح منافحات في اللغة العربية (مرجع سابق)، ص91.
- 9- هذه "المجالات والأسباب" سيكون التركيز على صنف واحد منها فقط (كنموذج) وهو "الأخطاء الكتابية" من خلال دراسة مدونة المقال في الفصل الموالي.
- 10- ينظر: حوله، محمد ، الأرطوفونيا، دار هومة، الجزائر، ط4، 2011 (أسباب تأخر اللغة)، ص41.
- 11- نقلا عن: دياب، كوكب. معجم الأخطاء الشائعة. المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ص6.
- 12- طالب، عبد الرحمن، العربية تواجه التحديات، سلسلة كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ذو القعدة 1428 هـ / ديسمبر 2006م، ص25.
- 13- ينظر: سعدي، عثمان ، التعريب في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 1992، ص24.
- 14- هذا ما صرح به أحد مسؤولي الجريدة "مدونة هذا المقال" مبررا كثرة الأخطاء اللغوية فيها بالعجز المالي عن توظيف مصححين بالقدر الكافي.
- 15- المعتوق، أحمد محمد، الحصيلة اللغوية أهميتها . وسائل تنميتها، نقلا عن: بلعيد، صالح منافحات (م.س)، ص100.
- 16- ينظر مثلا: بلعيد، صالح ، مرجع سابق ، ص ص 108- 118.
- 17- الشاعر، صالح عبد العظيم، دور الإذاعة والصحافة في النهوض باللغة وتطويرها، 10/5/2012، www.alukah.net

- 18 - ينظر هذا المقال، ص5.
- ** - هكذا مسجل في الجريدة ، بتقديم الميلادي عن الهجري ودون إشارتي "م" للميلادي و"هـ" للهجري.
- 19 - هذه المعلومة مستقاة من أفواه المشرفين على الجريدة نفسها.
- 20 - آل ناصر، أمين ، نقلا عن: كوكب دياب، معجم الأخطاء الشائعة، المؤسسة الحديثة للكتاب لبنان، ص5.
- 21 - خلوفي، صليحة، الأخطاء اللغوية الشائعة في وسائل الإعلام الجزائرية منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، تيزي وزو، 2011.
- 22 - نقلا عن: كوكب دياب، معجم الأخطاء الشائعة (سابق)، ص06 .
- 23 - ابن الحاج ، محمد مصطفى ، محاضرة في: اللغة العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين (مجموعة بحوث)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1996، ص166.
- 24 - بعض المؤسسات الإعلامية توظف في هذا المنصب خريجي الجامعات الجدد دون خبرة وفي إطار مناصب مؤقتة كالإدماج وتشغيل الشباب وبمرتبات زهيدة لا تكافئ الجهود التي يجب أن تبذل.
- 25 - الشاعر، صالح عبد العظيم، دور الإذاعة والصحافة في النهوض باللغة وتطويرها، 10/5/2012، www.alukah.net.
- 26 - سبق للمقال أن ذكر أمثلة لمواقف بعض البلدان في المسألة، ص15.
- 27 - حمو، نعيمة، العدول في لغة الصحافة (سابق)، ص191.
- 28 - خلوفي، صليحة، الأخطاء اللغوية الشائعة في وسائل الإعلام في الجزائر (سابق) ص275.

الانعكاسية Washback والتقويم

المفهوم والتأثيرات والأبعاد

Washback and assessment

Concept, impacts and dimensions

د. سعيد بكر¹

تاريخ الاستلام: 2018 / 12 / 24 تاريخ القبول: 18 - 09 - 2019

الملخص: يتزايد الاهتمام بتعليم العربية للناطقين بغيرها يوماً بعد يوم ولهذا الغرض تُؤلف البرامج وتُعدّ المؤتمرات والندوات، كما يشغل المتخصصون في هذا المجال على تنوع أساليب التقويم والقياس، فلم تعد المعاهد والجامعات أسيرة الاختبارات التقليدية التحصيلية، بل أصبح الاهتمام منصباً على نماذج جديدة في التقويم مثل: التقويم الذاتي (self-assessment) وتقدير الحاجات (needs-assessment) والسجل التقويمي، ومع هذا التنوع توسعت مساحة التقويم لتشمل مختلف جوانب تقدم الطالب، حتى الخارجية منها. وفي هذا البحث، وحتى يثبت التقويم جودته، أردت أن أعرف بركن مهم من مقوماته، وهو الانعكاسية (Washback)، المتمثلة في الأثر الإيجابي أو السلبي، الذي يتركه الاختبار في عناصر العملية التعليمية ككل، وهو من المواضيع قليلة الطرح، لذا وددت أن أبين أهمية هذا العامل في بناء اختبار معياري جيد في اللغة العربية كغيره من الاختبارات العالمية.

كلمات مفتاحية: الانعكاسية؛ الاختبار المعياري؛ التقويم؛ التأثير؛ النماذج.

¹ جامعة حسية بن بوعلي، الشلف، الجزائر، البريد الإلكتروني: saidbakir2@gmail.com.

Abstract: There is increasing interest in teaching Arabic to non-Arabic speakers, and for this purpose the programs are being developed and the conferences and symposiums are held. The specialists in this field also work on diversifying the Evaluation methods and measurement. Colleges and universities are no longer locked in classic tests of achievement, but interest is rather placed on new models of assessment as: Self-assessment, needs-assessment and calendar register. With this diversity, the assessment scope has expanded to include various aspects of the student progress, even external ones.

In the present study, I will try to demonstrate the assessment quality and highlight the importance of one its pillar known as washbacks in its positive or negative impact that the test leaves in the elements of the educational process as a whole as few topics tackled on .

In this regard, I want to show the importance the factor of washbacks in building a good standard test in Arabic as other worldwide tests.

Keywords: washback ; standard test; Evaluation; impact; models.

المقدّمة: إنّ الاهتمام باللغة العربيّة وتعليمها، والبحث في قضاياها، أضحى مطلباً حضارياً مهماً للدّفاع عنها وتطويرها، ومواجهة التّحديات التي تواجهها لذلك تشهد جلّ حقولها نشاطاً غير مسبوق خاصّة حقل تعليميّة اللغات في فرعها المتمثل في تعليم اللغة العربيّة للناطقين بغيرها، الذي يعرف منذ هذا القرن حركة متسارعة- توازي مستوى تزايد المتعلمين- على مستوى مختلف الأصعدة: التّأليف والتّرجمة، وعقد المؤتمرات، والندوات العلميّة... إلخ مستثمراً في ذلك النّظريات الحديثة في علم اللغة التّطبيقي، وتطور الوسائل التّعليميّة والمناهج وطرق التّدريس.

لقد استطاع هذا المجال في فترة وجيزة أن ينهض ويتميز، بفضل جهود المتخصصين فيه أفرادا وجماعات، ومعاهد متخصصة، حيث ظهرت في الساحة العربية وغير العربية كتبٌ وسلاسل كثيرة تستجيب للتطورات الحاصلة في مجال تعليم اللغات الأجنبية، تلبي رغبات المتعلمين وحاجاتهم (Needs) الذين تتزايد أعدادهم يوميا طمعا في معرفة سمات الحضارة العربية الإسلامية ومعرفة أسرار العربية.

وفي هذا السياق، ومع كثرة السلاسل وتعدد البرامج التعليمية الموجهة لكل فئة من المتعلمين الأجانب أصبح من اللازم إعادة النظر في عملية التقويم (Evaluation) والقياس، وتطوير إجراءاتهما لتحقيق الأهداف الموسومة، لأن النظام التربوي والتعليمي بشكل عام يركّز على هاته العملية الضرورية للمعلم والمتعلم على حد سواء، فالمتعلم يحتاجها لمعرفة مستواه الحقيقي، وضرورية للمعلم لأنها تساعد على كشف مستوى المتعلمين وترتيبهم ومعرفة الفروق بينهم وتساعد أيضا على تحقيق الأهداف المسطرة، والتحكم في الوسائل اللازمة للوصول إلى هذه الأهداف.

لذلك، ونظرا لأهمية التقويم؛ تعمل المعاهد المتخصصة في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها على تحديثه وتجاوز طرقه التقليدية وتعمل على توسيع مساحته فلا يبقى محصورا في اختبار المتعلم (طرف واحد) بل يتعداه إلى أطراف العملية التعليمية الأخرى (المعلم والمتعلم وطريقة التعليم وطريقة عرض المادة)؛ ومن هاهنا يقتضي التقويم تخطيطا مسبقا ورسمًا للأهداف، كما يقتضي تزويد المتعلمين بمعارف وخبرات تؤدي إلى تحقيق هذه الأهداف فينعكس الاختبار - في نهاية الأمر - على المتعلم والمعلم -سلبا أم إيجابا- وتحقق نسبة من الجودة في كلتا الحالتين.

إنّ تحقيق الجودة في العملية التّعليميّة، وفي الاختبارات خاصّة، يتوقف على استثمار عامل الانعكاسيّة (washback)؛ لأنّ المتعلم لا تحركه الرغبة في التّعلم بقدر ما تحركه الاختبارات (tests)، التي تقومه وتجعله متحمسا للتعلم، وذلك بحسب درجة أهميّة الاختبارات، وفي هذه الحالة يصبح الاختبار هو الذي يسوق عمليّة التّعليم والتّعلم؛ ويفرض سلطته على جميع أطراف العملية التّعليميّة.

الإشكاليّة:

■ ما درجة حضور الانعكاسيّة في اختبارات الكفاءة اللغويّة لمتعلمي العربيّة النّاطقين بغيرها؟

■ وما نسب تأثيرها (الإيجابي والسلبي)؟

■ وهل هناك عمل على تجاوز التأثير السلبي؟

انطلاقا من هذه الأسئلة، ومن أهميّة الاختبارات، أصبح الخبراء المشتغلون في هذا المجال يصوّرون على تفعيل ظاهرة الانعكاسيّة في الاختبارات بشتى أنواعها بما في ذلك الاختبارات المعياريّة؛ وذلك للوصول إلى التّوعي بدلا من الكمي في التّنتائج.

أهداف البحث:

- إبراز أهميّة الانعكاسيّة في بناء اختبار معياري جيّد في اللغة العربيّة للناطقين بغيرها.

- توجيه المعلمين والمتعلمين إلى تجاوز المواطن السّلبية في امتحانات الكفاءة.

- خلق مجال للموضوعيّة في التّقييم.

- القياس الحقيقي لمهارات المتعلم الأجنبي ووضعه في المستوى الحقيقي له بين أقرانه.

تحقيق أهداف البرامج المدرسة.

مع العلم أن المكتبة العربية تفتقر إلى مثل هذه الدراسات على عكس الدراسات الغربية الكثيرة فلم أعثر إلا على القليل منها، ومن ذلك بحث الدكتور خالد بن عبد العزيز الدامغ، من جامعة الملك سعود، في مجلة جامعة دمشق العدد الثالث والرابع 2011 استفدت منهما في هذا البحث، ولعل هذا هو الدافع الذي جعلني أبحث في هذه الظاهرة العالمية الموجودة في الاختبارات المؤثرة على نتائجها. ولا شك أن المنهج الذي سأتبناه في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي، لأنه مناسب لوصف أوجه التأثير التي يتركها الامتحان في المعلم والمتعلم والبرنامج، والأولياء..... الخ.

2. الانعكاسية (washback)، قراءة في المصطلح والمفهوم: يعد مصطلح

الانعكاسية (washback) من المصطلحات الحديثة المتداولة في اللسانيات التطبيقية وهو مصطلح يقابله باللغة العربية مصطلح "الانعكاسية"، وقد ذكره الدكتور خالد بن عبد العزيز الدامغ في دراسة أنجزها حول "الانعكاسية والاختبارات الاتصالية"، وهي تمثل -تقريباً- البحث الوحيد الذي صادفني باللغة العربية أثناء إنجازي لهذا الموضوع، ولقد استند في اختياره لهذه الترجمة إلى عدد من المتخصصين العرب حسب قوله: "بدراسة عدد من اختيارات مقترحة لترجمة مصطلح هذه الظاهرة للغة العربية، وبمناقشة عدد من المختصين العرب فيها، فقد خلصنا إلى أن أفضل مصطلح عربي يمكن إطلاقه على تلك الظاهرة المسماة washback، بما يتضمن معنى وجرساً عربياً هو الانعكاسية"¹.

وأعتقد أن هذا المصطلح الذي اقترحه الدكتور خالد، مصطلح مناسب يتناسب ومعنى الظاهرة، التي تنشأ إثر إجرائنا للاختبارات بمختلف أنواعها، "وهو مصطلح قليل الوجود في المعاجم، ومع ذلك فإن كلمة backwash يمكن أن توجد في بعض المعاجم"²، وبناء على هذا يمكننا التعامل مع مصطلحين هما:

backwash و washback، الأوّل يستعمل في الميدان التربوي العام والثاني يستعمل في التّعليم اللغوي، ويعدّ المصطلح الثاني أشهر من الأوّل في المعاجم ويقصد به:

1.2 لغة: يقصد بالانعكاسية في معجم ويبسترز للغة الانجليزية: "التّأثيرات غير المرغوب فيها، لبعض الأفعال الاجتماعيّة"، وفي معجم كولن: "التّأثيرات البعيدة غير المرحب بها لأي حدث أو واقعة".

ويشير الدّرسون Alderson إلى أنّ: "المعاني الإيحائية السّلبية لهذين التّعريفين تعتبر هامة، فإنها بطريقة غير مقصودة تمس ببعض الاستجابات السّلبية وردود الأفعال لعلاقات بين التّعليم والاختبار"³؛ ومن هنا نخلص إلى أنّ الانعكاسية في المعاجم تلخصت في التّأثيرات البعيدة غير المرغوب فيها في أي واقعة أو حدث.

وأما تعريف الانعكاسية في قاموس كامبريج: "هو التّأثير الذي يعتبر نتيجة غير مباشرة لشيء ما"؛ وفي قاموس أكسفورد: "هو الآثار غير المرغوبة من حدث ما" وحسب تعريف notebook ELT: "هو تأثير معرفة محتويات الاختبار على المسار الذي يسبق ذلك، وقد يكون التّأثير إيجابيا أو سلبيا".

وتعني الانعكاسية أيضا: "الاندياح الموجي"، وهو الأثر الموجي الصادر من سقوط أو تحرك جسم صلب في ماء (كتحرك القارب في النّهر، أو سقوط حجر في بركة)، برجوع حلقات موج دائرية تؤثر في ركود الماء من مكان سقوط الشّيء وهذا الأثر الراجع يتفاعل باضطراب في قوته مع قوة الشّيء السّاقط وحجمه، أي أنّ قوّة التّأثير الراجع تتناسب في تأثيرها مع قوة المؤثر"⁴ والقضية نفسها نسوقها على الاختبارات، فنظرا لقيادتها لعمليّة التّعليم والتّعلم وأهميتها بالنّسبة للمتعلم وأهله، فإن أثرها الراجع سيكون بحجم قوة تلك الأهميّة سلبا أو إيجابا.

2.2 اصطلاحاً: عرف مصطلح washback الانعكاسية مفاهيم كثيرة

تعددت تعدد الباحثين ووجهات نظرهم في هذا المجال، ونظراً لعالمية الظاهرة، فإنّ المفهوم تغير من دراسة إلى أخرى في البلدان الغربية وخاصة الانجليزية منها وأما بالنسبة إلى المكتبة العربية فتفتقر لمثل هذه الدراسات، التي تنتمي إلى العمل التربوي عامة والاختبارات خاصة الموجهة للناطقين بالعربية أم غير الناطقين بها حيث عرفت هذه الظاهرة مكانتها مع **الدّرسون ووال**: (Alderson and wall) سنة 1993، في مقالهما Does washback exist? وانحصر مفهومها آنذاك في "تأثير الاختبار على المعلم والمتعلم"⁵.

وهناك تعاريف أخرى لهذه الظاهرة، هي كالتالي:

- **بابام (Popham)** سنة 1987: الانعكاسية ظاهرة تسهم في بناء الاختبارات من ناحية المحتوى والشكل، وكذلك منهج الدراسة⁶.

- **شوهامي Shohamy** (1992)، وهي تعد "أول من أشارت إلى أن ظاهرة الانعكاسية هي نتيجة لسلطة قوية لاختبار خارجي، ولوقع كبير على حياة من يتلقى الاختبارات"⁷، ولقد أكد هذا المفهوم وعمل عليه بوب (Bob, broad)، في مقال له حول **إلينا شوهامي** "في مقالها الشهير" سلطة الاختبارات " the power of tests".

- **ليينغ شانغ (liying , cheng)**، عرّفت الانعكاسية بأنها: "متميزة في الوقت الذي انتشرت فيه على نطاق واسع في الاختبارات اللغوية، مما يفرض علينا إلى أن ننتبه إلى هذه الظاهرة"⁸، فهذه الظاهرة موجودة وينبغي التنبّه إلى وجودها وانتشارها وتأثيرها الممتد.

- **مورو Morrow** (1986)، وسّع من استعمال الانعكاسية لتتضمن مفهوم "تحقيق الانعكاسية" الذي يصف لنا: العلاقة بين الاختبار والتعليم والتعلم"⁹.

- **لوكسيا (luxia)** سنة 2007 عرّفها بـ: " العلاقة بين الاختبار والتّعلم وعند مونوز والفارز (Monoz , and Alverz 2010) الانعكاسية هي: " مدى تأثير الاختبار في معلمي اللغة ومتعلميها " ¹⁰.

- **والتّعريف نفسه ذهب إليه (watanabe)**، وكذلك **باشمان (Bachman)** من خلال ما جاء في مقال (Jenni belford) ، Wachback ، " the effect of essessment on Esol"، الذي وضّح بأنّ: " الانعكاسية الايجابية تحدث عندما يعكس التّقييم المستعمل المهارات والمحتوى المدرّس داخل الصف " ¹¹.

- **وبيّنت ليندا تايلر (Lynda,taylor)**، أنّ الانعكاسية والاختبارات كان ينظر لهما فقط في قاعة الدّرس. ولا تتعداهما، ولكن التأثير يمتد فيصل إلى حد مسه النظام التّربوي والمجتمع، وجعلت الانعكاسية بعدا من أبعاد التّأثير Impact وأنّ الانعكاسية ظاهرة معقدة للغاية ¹².

- وقد اعتبر خالد بن عبد العزيز الدّامغ: " بأنّ الانعكاسية تستمد سلطتها المؤثرة من أهمية الاختبارات للطلاب، وهو ما يجعل الطلاب وربما المدرسين أيضا يتعلمون ويعلمون ما تمليه عليهم طريقة الاختبار ومحتواه، ومن هنا تقود الاختبارات أسلوب عملية التّعليم والتّعلم، من حيث لا يشعر أطراف العملية التّعليمية" ¹³.

وعند **مريل سوين** تعد الانعكاسية من بين أربعة معايير المهمة التي تدخل في بناء الاختبار الاتصالي وهي:

- البدء من نقطة معينة؛

- السّعي إلى الأفضل؛

- التّركيز على المحتوى؛

- العمل على التحسين.

ففي العنصر الأخير تظهر الانعكاسية، كتغذية راجعة Feedback لأن الاختبار بمثابة أداة تعليمية ووسيلة للتغذية الراجعة، تساعد المدرس على معرفة عناصر القدرة الاتصالية، التي يحتاج إلى تحسينها " 14.

يتبين بعد عرضنا لهذه المجموعة من المفاهيم، أنّ ظاهرة الانعكاسية ظاهرة معقدة تنوعت زوايا النظر إليها، فمن الخبراء من ضيق مجالها وحصرها في المعلم والمتعلم (النموذج التقليدي) ومنهم من وسّع مساحتها، وجعلها تمتد إلى المحتويات والمناهج، وحتى المجتمع، وهذا يعكس لنا أنّها ظاهرة تشترك فيها قوى متعددة الاتجاهات -داخلية وخارجية- منبعها الاختبار، ومن خلالها يتعرف المعلمون على أخطاء المتعلمين ويشخصونها ويخضعونها للمعالجة وآخر مفهوم يمكن ذكره، وهو أنّ الانعكاسية مفهوم متطور، معقد، مسير للتطورات الحاصلة في مجال علم اللغة التطبيقي، وبالأخصّوص مجال التّقويم متمثلاً في الاختبارات.

3. الانعكاسية والتّقويم (evaluation): يقول الله تعالى : " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" 15، في هذه الآية الكريمة يتجلى لنا أنّ التّقويم كلمة شاملة وملمة وهي عملية تقوم أساساً على تقويم الشيء وجعله مستقيماً معتدلاً حيث نزيل اعوجاجه 16 ونسعى إلى تحقيقه بصورة جيدة، بعد الوقوف على ثغراته، ويعتبر ركناً أساسياً في العملية التعليمية، ومن خلاله يمكن الوصول إلى الأهداف المسطرة، و" يهتم التّقويم بالتّغيرات الأساسية الشّاملة للشخصية المتعلمة والأهداف الكبرى التي تعمل النّظم التعليمية على تحقيقها فالتّقويم لا يقتصر على التّحصيل العلمي فحسب بل يتعدى ذلك إلى التّعرف على الاتجاهات والميول والمثل العليا التي يكتسبها المتعلم أثناء العملية

التّعليميّة، وبالتالي يعتبر القياس وسيلة هامة من وسائل التّقييم باعتباره العامل الرئيس الذي يساعده على استخلاص نتائج بشكل دقيق وفعال" ¹⁷.

يتجلى من هذا القول أن التّقييم ذو مدلول واسع، يتجاوز القياس والتّحصيل العلمي إلى أبعد من ذلك وهو: "كل ما يكتسبه المتعلم من خلال مهاراته، وقدراته واستعداداته وميوله واتجاهاته وغير ذلك من جميع الجوانب المتعلقة بالعملية التّعليميّة والتّربويّة" ¹⁸.

ويعرفه بلوم بأنه: " مجموعة منظمة من الأدلة التي تبين فيما إذا جرت بفعل تغيرات على مجموعة المتعلمين مع تحديد مقدار أو درجة ذلك التّغيير على التّلميذ بمفرده" ¹⁹ فعن طريق التّقييم نعرف مستوى المتعلم بين أقرانه، ونشخ على الأخطاء ونعالجها في ضوء الأهداف المرسومة.

وإذا كان التّقييم لا يقوم على النّائج، ويتسع ليشمل الطرق والأنشطة والوسائل والمحتويات، ويبدأ مع بداية البرامج، ولا تختتم به العملية التّعليميّة فإنه بهذا المفهوم يصبح وسيلة تنشيط لأطراف العملية، ويقودها بدلا من أن يتبعها ويحتوي كلا من التّدريبات والقياس ²⁰.

ويساعد التّقييم في مجال تعليميّة العربيّة لغة ثانية، في تحقيق مجموعة من الأهداف منها: " تحديد مستوى الطلاب قبل البدء في البرامج - اختيار البرنامج المناسب لهم وتمكينهم من التّوجيه الذاتي المستمر في ضوء ما يعرفونه عن مستواهم اللغوي - قياس مدى تحصيل الطلاب في المهارات اللغويّة المختلفة ... وتطوير المنهج وتحفيز الطلاب والمعلمين على مواصلة العمل" ²¹ كما أنّه يقوم على معايير منها:

- ارتباط التّقييم بأهداف المنهج.

- شمول عمليّة التّقييم، استمراريته، إنسانيته، اقتصاديته... ²²، وهذه العناصر نفسها ذكرها ودون التّغيير أحمد نواف الرهبان وآخرون في كتاب: "

دليل تطبيقي لمعلم اللغة العربية للناطقين بغيرها (تجارب في الميدان): منشورات أكدم اسطنبول 2016.

وإذا ما أردنا النظر في علاقة الاختبارات المعيارية بالانعكاسية فيجدر بنا تعريف الاختبارات المعيارية (NRT)، وهي كما يذكر بابام وهيو سك (papham and husek)، بأنها تعتمد عند تفسيرها للدرجات المستخلصة على خصائص المجموعة التي طبقت عليها... وتهتم هذه الاختبارات بالكشف عن الفروق الفردية بين الطلاب وذلك من خلال مقارنة أداء الطالب بأداء أقرانه كجماعة معيارية بمعنى أن هذه الاختبارات تركز على وضع الطالب النسبي في علاقته بالآخرين^{2 3} ويتميز هذا الاختبار بمجموعة من الخصائص منها :

- يهدف الاختبار محكي المرجع إلى مقارنة أداء الطالب بمحك محدد مسبقا لمعرفة الأهداف التي حققها، والتي لم يحققها الطالب؛
- يهدف إلى إظهار الفروق الفردية، من خلال تحديد عدد الأسئلة التي أجاب عليها الطالب؛

- انتشار الأسئلة في الاختبار المعيارى المرجع؛
- تفسير الأداء عن طريق الدرجة للتوصل إلى موقع الطالب في صفه؛
- بناء الفقرات الذي يعتمد على تباين الدرجات ومعامل التمييز؛
- تجنب الاختبارات الصعبة جدا والسهلة جدا؛
- التقويم فيه هو معرفة أداء الطالب بين أقرانه؛
- يستخدم عندما يكون الغرض منه التصفية^{2 4}.

إذن، فشرط تحقق الانعكاسية هو مراعاة هذه الشروط والخصائص من أجل إثبات نجاعة هذا الامتحان، وجعله في مقدمة عملية التعليم والتعلم، للاستفادة من تأثيراته الإيجابية (المفيدة)؛ التي تعود بالمنفعة على المعلم والمتعلم؛ على الرغم من أن هذا النوع عرف بعض الانتقادات على قصوره في تقويم فعالية

المنظومة التعليمية وقياس المهارات المختلفة المطلوب تحقيقها لدى الطالب وقياس البرامج التربوية²⁵.

وحتى يتم تجاوز هذا القصور، يعمل خبراء الاختبارات على ضرورة التطبيق الفعلي، لمجموعة المواصفات التي يتميز بها الاختبار الجيد، وهي:

- الصدق بأنواعه (صدق المحتوى، الصدق الظاهري، صدق البناء النظري): ويعنى به: إلى أي مدى يقيس الشيء الذي وضع من أجله ولتوفير الصدق لابد من أن يكون المحتوى ذا علاقة بالشيء الذي يراد قياسه.

- الثبات: ويقصد به عدم التذبذب في الاختبار، ويرتبط بثبات التقدير وهو بمثابة المقياس.

- سهولة التطبيق: وهي الظروف المادية والإمكانات التي تساعد على تطبيق الامتحان.

- الموضوعية: أن يكون هناك تفسير واحد للأسئلة (غير قابل للتأويل).

- التمييز: مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين في وضع أسئلة الاختبار²⁶.

إن هذه المواصفات، تعد شروطا لتحقيق الانعكاسية في أي نوع من الاختبارات معيارية كانت أم تحصيلية أم غير ذلك، وغياب أي سمة من هذه السمات تؤدي إلى إخلال في النتائج، ولا يحقق الاختبار أهدافه؛ وتذهب مجهودات المختبر والمُختَبَر سدى ولا يكون الاختبار ملائما للقياس وتفسير النتائج، في حين أن القيمة العملية للاختبار - كما أشار للـ - هي أن يكون ذا قيمة تعليمية أي تستثمره في رفع قدرة الدارسين على تلقي المعلومات، أي إن التعليم والاختبار مترابطان فالاختبار العملي، هو الذي يمكن المدرسين من تحليل بياناتهم تحليلًا صحيحًا يجعله أكثر فهما لتلاميذه، ومن ثم أقدر على تحسين القدرة²⁷، أي

أنّ التّقويم يجب أن يكون أداة لبناء الاختبارات المناسبة لبرامج الطلاب، وعنصرًا من عناصر التّعليم في العملية التّعليميّة.

وفي هذا السّياق يجتهد المهتمون بالاختبارات في مجال تعليميّة اللغة العربيّة للناطقين بغيرها، لإعداد اختبار معياري نموذجي، تقاس به الكفاءة اللّغويّة لديهم على غرار الاختبار المعياري Toefl، الذي يمثّل اختبارات التّمكّن المعياريّة في اللغة الانجليزيّة لغة ثانية، والذي تستخدمه نحو ألف هيئة تعليميّة عاليّة في الولايات المتحدة الأمريكيّة، باعتباره مؤثرا على قدرة الطالب في النّهوض بالأعمال الأكاديميّة باللغة الإنجليزيّة²⁸.

وللوصول إلى هذا المستوى من التّقدم في الاختبارات، وجب مسيرة التّطورات الحاصلة في مجال التّقويم وتطويع بحوثنا على نحو يسمح لنا بتطبيق هذا التّطور على العربيّة؛ وخاصّة في ظاهرة الانعكاسيّة التي تعتبر مهمة في تحسين الأداء فحسب -ميسيك- أن الانعكاسيّة الايجابيّة تكون بالتّقسيم الحقيقي والمباشر، وفي الابتعاد عن الأمور التي لا علاقة لها ببناء وتقديم الاختبار²⁹.

ومن الضروري أن لا يبقى الاهتمام محصورا في مجال الانعكاس في حدود القاعة، بل لابد من خروجه إلى حيّز أشمل وأعم يشمل النّظام التّربوي بشكل عام والمجتمع بشكل كبير، كما ينصح بأن لا يبقى التّقويم متعلقا بالدرجات فقط، بل يتعدى ذلك إلى معرفة الاتجاهات والمهارات والقيم، ويكون شاملا، وأن نركّز على التّقويم في مختلف مراحل العملية التّعليميّة (القبلي، والبنائي والبعدي).

4. تأثيرات الانعكاسيّة: لقد توالى الاهتمام في العقد المنصرم بالاختبارات نظرا لوزنها في عمليّة التّقويم، حيث تم استغلالها كسلطة لتوجيه التّعليم والتّعلم لكن مع التّطور الحاصل في هذا المجال، تم استثمار هذه الوسيلة في بعدها الايجابي وأضحت الانعكاسيّة washback الآليّة الأولى من آليات جودة

التّعليم لذلك يتجه حرص الخبراء اليوم إلى تفعيل عامل الاختبارات والعوامل الأخرى: معلّم، متعلّم والمحتويات، والنّظم التّربويّة بشكل أعمّ، وأضحى التّخطيط مطلباً لتطبيق مواصفات الاختبار الجيّد.

ولكن الذي مازالت تعاني منه المنظومة التّربويّة العربيّة - كما يظهر في هذا البحث - أنّ البحوث الأكاديميّة في هذا المجال لا تولي أهميّة لظاهرة الانعكاسيّة في تعليم العربيّة للناطقين وغير النّاطقين بها، ولعل هذه أولى الملاحظات المسجّلة في هذا الموضوع، وأمّا الشّيء الثاني الذي ينبغي إدراكه هو أنّ تأثير الاختبار لا محالة واقع إيجابياً كان أم سلبياً، وأنّ الانعكاسيّة موجودة بالقوة ولكننا نغفل عنها أو نتجاهلها.

ومن أجل تحقيق انعكاسيّة إيجابيّة (مفيدة) مثلى، لا ينبغي أن يكون هناك فروق بين النّشاطات التي درست أثناء تعلّم اللغة والنّشاطات الممتحن فيها، أو أنّها تكون قليلة³⁰، ففي هذا الرأي لميسيك توجيه لعدم ترك الفراغات والفروق بين ما ندرسه للطالب، وما نمتحنه فيه، وليس من المنطقي الالتفات إلى خارج ما ندرس أو ما نصحّح.

لقد دعا ميسيك Messick (1996) إلى الاحتراز من هذه الظاهرة من خلال تعريفه لها حيث قال: "الانعكاسيّة توسيع لما يمكن للاختبار أن يؤثّر به على معلمي اللغات ومتعلميها، لفعل أشياء لم يكن بإمكانهم فعلها والقيام بها لتطويرهم وتحفيزهم"³¹، فالانعكاسيّة تمنح أبعاداً جديدة للتأثير بالاختبارات على المعلمين والمتعلمين، وذلك لغرض تطوير معارفهم وتحفيزهم على العمل أكثر فكثيراً ما ينظر للانعكاسيّة بأنّها دائماً تحتل أن تكون إيجابيّة أو سلبية على حد رأي ميسيك وشوهاي³².

ومن هاهنا يتبيّن لنا أنّ التّحكم في اتجاه الانعكاسيّة أمر صعب، ويتطلّب عملاً مكثّفاً لجعله في المسار المفيد (الإيجابي)، تماشياً مع تعقيدها، وقد أظهرت

الدراسات أن مجرد تغيير محتويات أو مناهج الاختبار لن يجلب بالضرورة المباشرة تغييرات مرغوبة (إيجابية) في التعليم والتعلم، ولكن عوامل مختلفة داخل سياق تعليمي خاص تشارك في هندسة انعكاسية إيجابية، ومع ذلك يبقى السؤال قائما حول، ما هي العوامل التي تشارك، وما هي الشروط الأكثر احتمالا لتولد انعكاسية إيجابية^{3 3}.

يبدو أن شانغ وسعت نظرتها أكثر، ولم تحصر الانعكاسية في أطراف عملية التعليم، وفي المقابل حثت على الإلمام بكل العوامل المتدخلة في السياق التعليمي فالسياق كلمة واسعة تضم المحتمل وغير المحتمل ودوره أثناء إنجازنا للامتحان في حين اتجه اهتمام ميسيك إلى "ربط الانعكاس الإيجابي بعامل مهم وهو "الصدق" وسمى ذلك "بالصدق الانعكاسي" فالصدق ضروري وفعال لأنه مرتبط بالانعكاسية فإذا تحقق الصدق تحققت الانعكاسية الإيجابية، والعكس صحيح"^{3 4} ونصح أيضا من أجل "الحصول على انعكاسية إيجابية في اختبارات اللغة إلى جعل الصدق علامة للانعكاسية وقاعدة من أجل تطوير المحتويات والتمارين لبناء اختبارات مناسبة"^{3 5}

وبالإضافة إلى عامل الصدق وضعت شانغ (2004) ووتنابي (2008) مجموعة من العوامل لتحقيق الانعكاسية الإيجابية، وهي كالآتي:

- أن يركز الاختبار على القدرات التي نريد تشجيعها؛
- لا بد أن يكون للاختبار نموذج واضح غير تنبئي، من حيث الطريقة والمحتوى فإن أسلوب الاختبار واتجاهه يعطيان حافزا للطلاب للتعلم في اتجاهات واضحة ومحددة؛
- الاختبار المباشر أفضل من غير المباشر في تنمية المهارات؛
- يستحسن أن يكون الاختبار معيارا أو مقياسا مرجعيا، فإذا كانت مواصفات الاختبار واضحة صريحة، فيما يقدر الطلاب على فعله ومع مستوى

النّجاح فيكون للطلاب الصورة الواضحة حول ما يحققون وينجزون وعندما يكون الاختبار غير معياري مرجعيا، فإنه يكون سهلا لدى المعلمين والطلاب على اعتبار أنّ نسبة من التّلاميذ سينجحون دون اعتبار كامل للمستوى الذي بلغوه - أن يؤسس تصميم الاختبار على الأهداف المباشرة لا على محتويات الكتاب فهذا يؤدّي ويعطي الصورة الحقيقيّة لما هو منجز؛

- التّحقّق من أن أهداف الاختبار معلومة ومفهومة لدى الطلاب والمعلمين مهما كانت جودة قوة الانعكاسية على الاختبار فإنّ تأثيره لا يكون كامل الإدراك إذا كان الطلاب والقائمون عن التّعليم لا يعلمون ولا يفهمون المراد من الاختبار وعلى هذا لا بد أن يكون الاختبار مفهوما ومعلوما لكل من يسهم في إعداد الاختبار، ولا سيما إذا كان الاختبار جديدا ³⁶.

لكن على الرغم من تمسك خبراء الاختبارات بتحقيق الانعكاس الايجابي يظل احتمال الانعكاس السّلبّي واردا لأنّ: " الامتحانات بصفة عامة، وامتحانات اللغة بصفة خاصّة، وفي كثير من الأحيان تنتقد لتأثيراتها السّلبيّة في التّعليم ويسمى ذلك "بالانعكاسيّة السّلبيّة"، التي ظلت منذ فترة طويلة تعرف على أنها مشكل محتمل" ³⁷ وقدّم الدّكتور خالد بن عبد العزيز مثالا عن ذلك عندما تقدّم أسئلة في اختبارات اللغة العربيّة، وتطلب تعددا لشروط الممنوع من الصرف لعلّة أو لعلتين أو حفظ قواعد التّصغير أو تعريفها لاسم الفاعل، تحمل تأثيرا سلبيا في أساليب التّعليم والتّعلم، لأنها ستوجّه الموقف التّعليمي للاهتمام بحفظ قوانين اللغة ³⁸، وفي هذه الحالة بيّن الدّكتور خالد عجز هذا النّوع من الأسئلة لأنّه لا يعلم الطالب توظيف ما تعلّم من اللغة، بل يعلمه حفظ القواعد فحسب ونأى بالطالب عن الكفاءة الاتصاليّة التي هي هدف التّعلّم.

وفي الاتجاه المعاكس يمكن جعل الانعكاس السّلبّي، انعكاسا إيجابيا عندما يكون الاختبار اتصالياً، فالأمر سيكون مختلفا من حيث اهتمام أطراف الموقف

التعليمي بالتطبيق، وهو ما سيعمل على جودة المنتج^{9 3}، وعليه فإننا نستطيع تحويل الانعكاس السلبي إلى انعكاس ايجابي عندما نشرك جميع أطراف التعلم ونركز على الجانب التطبيقي أي الوظيفي في اللغة.

5. احتمالات التأثير الانعكاسي: لقد أعطى النموذج التقليدي للانعكاسية

عند المدرسون ووال (1993) مجموعة من الفرضيات للتأثير الانعكاسي وهي كالآتي^{4 0}:

- الاختبار يؤثر في التعليم.
- الاختبار يؤثر في التعلم.
- الاختبار يؤثر فيما يعلمه المعلمون.
- الاختبار يؤثر في كيف يعلم المعلمون.
- الاختبار يؤثر في ماذا يتعلم المتعلمون.
- الاختبار يؤثر في كيف يتعلم المتعلمون.
- الاختبار يؤثر في معدل وتواتر التعليم.
- الاختبار يؤثر في درجة وعمق التعليم.
- الاختبار يؤثر في درجة وعمق التعلم.
- الاختبار يؤثر على المواقف، على المحتوى وعلى المنهج في التعليم والتعلم.
- الاختبارات التي تحوز على نتائج هامة يجب أن تكون انعكاسية.
- الاختبارات التي لا تحوز على نتائج هامة لا تكون انعكاسية.
- للاختبارات انعكاس سواء على المعلمين أم المتعلمين.
- انعكاسات الاختبارات يكون لها أثر على بعض المعلمين والمتعلمين دون البعض الآخر.

6. الانعكاسية: النماذج والأبعاد: عرفت الانعكاسية نماذج مختلفة من

ضمنها:

- النموذج التقليدي للدّرسون ووال (Alderson and wall 1993): يعتمد على الفرضيات واعتمد كمعيار أساسي استند إليه يوغز Hughes (1993).

- نموذج(hughes): نموذج يميّز بين المشاركين في الاختبار وعملية الاختبار والنتائج من العملية حيث استعمل نموذج الدّرسون بطريقة مبسّطة وتوصّل إلى أنّ طبيعة أي اختبار يجب أن تعمل على التأثير في المشاركين بما يحملونه من مكتسبات تظهر أثناء الاختبار (عملية الاختبار)، وهو يؤكّد على المشاركين وإدراكاتهم واستعداداتهم، وكيف تؤثر هذه العوامل بعضها في بعض^{1 4} وأضاف واي تشياو نماذج أخرى، منها:

- نموذج بايلي (1996): ويحمل هذا النموذج تأثير الطلبة بعضهم ببعض في الاختبار بطريقة غير مباشرة، ويظهر هذا التأثير من خلال السلوكيات، وقد تكون سلبية أو ايجابية، وركّز على استراتيجية التّعلم التي تكون داخل الفريق الذي يتأثر بعضه ببعض (الجودة).

- نموذج شيه (2007): يركّز على المتعلمين فيتأثرون بالعوامل النفسيّة والاجتماعيّة، والاقتصاديّة والعائلة، والأصدقاء، والإدارة... إلخ.

- نموذج قرين (2007): يركّز على كثافة الاختبار وتنوعه، ويركّز أيضا على المواقف في الاختبار^{2 4}.

لذلك فالمتنبّع لهذه النماذج، يستنتج أنّ بناءها لم يكن عشوائيا، وإنّما جاءت مستندة على عامل معيّن أو عاملين يركّز عليهما صاحب النموذج في بناء اختبار جيّد تكون انعكاساته ايجابية (مفيدة) على المعلّم والمتعلّم والأطراف المتدخّلة في العملية التّعليميّة.

7. أبعاد الانعكاسية: ذكر وتنابي (watanabe1997) مجموعة من

الأبعاد منها:

- الدقة (Specificity): .: قد تكون الانعكاسية عامة أو خاصة، فتكون عامة إذا حققت نتيجة عامة وتكون خاصة إذا حققت نتيجة خاصة؛
- الكثافة: (Intensity) تكون انعكاسية الاختبارات كثيفة أو عكس ذلك؛
- الفترة (Lengh): ويتعلق الأمر بقصر أو طول ما يتناوله الاختبار من مادة تعليمية خلال سداسي أو دورة؛
- القصدية (Intentionality): تحدث عنها ميسيك (1989)، حيث أن الاختبارات تحقق أهدافا، وهي نفسها التي سطرها المختبر، فتكون الانعكاسية قصدية أو غير قصدية (وذلك عندما لا يتحقق الهدف)؛
- القيمة (Value): تكون الانعكاسية ايجابية أو سلبية^{3 4}.

8. خاتمة:

- أختم هذا البحث المتشعب بمجموعة من النتائج والاقتراحات أهمها:
- ظاهرة الانعكاسية ظاهرة معقدة، موجودة بالقوة في الاختبارات حتى وإن تجاهلها بعض الباحثين وهي مهمة لمعرفة وتقويم المعلمين والمتعلمين في التعليم والتعلم.
 - ظاهرة الانعكاسية قليلة الطرح في البحوث المتعلقة بالتقويم في المكتبة العربية، وفي المقابل يعطيها الباحثون الأجانب اهتماما كبيرا لإدراكهم أهميتها لأنها أداة للتحفيز والتعلم.
 - ضرورة التفات صناع القرار المتخصصين في الاختبارات الاهتمام بهذه الظاهرة، بوصفها آلية من آليات التقويم وتحقيق الجودة في العملية التعليمية.

- يستحسن تجاوز النّظرة التّقليديّة للانعكاسيّة التي تقف عند حدود نتائج الاختبار والدّرجات وتحديث النّظرة لتشمل كلّ أطراف العمليّة التّعليميّة المتدخّلة في السّياق التّعليمي (معلّم - متعلّم - نظام تربوي - إدارة - محتويات - مجتمع).
- ارتباط الانعكاسيّة بالسّياق التّعليمي العام، فهي لا تتعلّق بالاختبار فقط، بل تمس سلوكيات المتعلّمين ورغباتهم وتصرفاتهم وتصرفات الأساتذة وعمليّة التّصحیح، ومعطيات الامتحان.
- ضرورة استثمار ما حققته الدّراسات الغربيّة في هذا المجال لأنّهم قطعوا شوطاً في هذا المجال؛ ولأنّ الظاهرة عامّة ولا تختص بنوع معيّن من الاختبارات.
- ضرورة انتباه القائمين على التّقويم والقياس إلى تجديد النّظرة إلى الاختبارات بوصفها أداة للتّحفيز بدلاً من اقتصار توظيفها فقط لختم البرامج التّعليميّة وعدم الاكتفاء بتغيير المحتويات والأساليب بل يجب الاهتمام بكلّ ما يتدخّل في إجراء الاختبارات.
- الانعكاسيّة نوع من أنواع التّأثير (Impact) وأداة من أدوات التّقويم.
- ضرورة التّنبية إلى ضرورة التّفاعل الحاصل بين الطلبة أثناء الامتحان واستثماره في التّعليم والتّعلّم.
- انعكاس الانعكاسيّة حاصل بالقوّة، فإن لم يكن إيجابياً فهو سلبي بالضرورة، لذا يجب تفاعلي كلّ ما يقود إلى السّلب في الامتحانات مهما كان نوعها.

9. هوامش:

¹ - خالد بن عبد العزيز الدّماغ، الانعكاسيّة والاختبارات الاتصاليّة وأثرهما في البرامج التّعليميّة مجلة جامعة دمشق، المجلد 27، العدد 3، 4، دمشق 2011، ص808.

² Alderson, J. c. 2004. 'Foreword' in I cheng, y. watanbe and A. (curits Eds). **"Washback in language testing. Research contexts and Méthodes"** ,: Lawrence Erlbaum. Associates London; 2004, P, xi

³ .Op cit, p04.

⁴ - خالد بن عبد العزيز الدّماغ، مرجع سابق، ص807.

⁵ L. cheng _and al, **washback in language testing**, p4

⁶ .op, cit

⁷ .Op, cit, p6

⁸ .L, cheng, op , cit : p : 05

⁹ .op. cit.

¹⁰ . خالد بن عبد العزيز الدّماغ، مرجع سابق، ص807.

¹¹ _www org. nz. /r/ esol/ esol online/ prof read/ jenni Bedford.

¹² _Lynda. Taylar, key concepts ELT , **washback and Impact**, elt journal, vol 52 N: 02 april 2005. Oxford university pres, p154.

¹³ - خالد بن عبد العزيز الدّماغ، مرجع سابق، ص804.

¹⁴ . دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، تر: عبده الراجحي وعلي أحمد شعبان دار النّهضة العربيّة بيروت، 1994، ط1، ص279.

¹⁵ . سورة التين: الآية: 4

¹⁶ . ابن منظور، لسان العرب، ج2، ط1، لبنان، ص496.

¹⁷ . يحيى علوان، التّقويم والقياس التّربوي ودوره في إنجاح العمليّة التّعليميّة، مجلة العلوم الإنسانيّة، العدد 11 جامعة بسكرة، الجزائر، ص13

- ¹⁸ رشدي طعيمة، وأحمد مدكور، وإيمان هريدي، المرجع في مناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 2010، ص543.
- ¹⁹ . ينظر المرجع السابق، ص ن.
- ²⁰ . ينظر : عبد الرحمن الفوزان، إضاءات لمعلمي اللغة العربية الناطقين بغيرها، العربية للجميع قونيا، تركيا 2015 ص214 .
- ²¹ - ينظر: رشدي طعيمة، المرجع في مناهج تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى ص ص 544- 545.
- ²² - المرجع نفسه، ص 544.
- ²³ - سوسن شاكر مجيد، أسس بناء الاختبارات والمقاييس النفسية والتربوية، ط1، ديونو للطباعة والنشر عمان، 2007، ص ص 162- 163
- ²⁴ - المرجع السابق، ص ص، 163 164.
- ²⁵ - المرجع السابق، ص ص، 163- 164.
- ²⁶ - ينظر: عبد العزيز العصيلي، أساسيات تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، جامعة أم القرى، ط1، 1423 هـ، ص ص 425، 436.
- ²⁷ دوجلاس براون، أسس تعلم اللغة وتعليمها، مرجع سابق، ص 267.
- ²⁸ - مرجع سابق، ص 270.
- ²⁹ Melita, djuric, "**dealing with situations of positive and negative washback**",scripta manent, vol: 4 n: 1, published by Sdtsj, 2008,p17
- ³⁰ - L. cheng,and al. **washback in language testing**. p: 07
- ³¹ Op , cit, p08
- ³² Dina, tsagari, **Review of washback in language testing: How has been done? What more needs doing?** , Lancaster university, UK 2007, p4
- ³³ Liying, cheng. **washbact, and consequences**, www. Research gate. Net/publication, (p355).

³⁴ Op,cit : p206

³⁵ Dina, tsagari, OP Cit, p: 07

³⁶ - خالد بن عبد العزيز الدّامغ، مرجع سابق، ص 811.

³⁷ -Liyng, cheng,y ,watanabe and A. curits, **washback in language testing** ,p09

³⁸ - خالد بن عبد العزيز الدّامغ، مرجع سابق، ص 804.

³⁹ - المرجع نفسه، ص نفسها.

⁴⁰ Dina, Tsagari, **Review of washback in language testing: How has been done? What more needs doing?** . P08 .

⁴¹ Wang, weili, **Investigating the Washback Effect of the New CET 4 Listening Comprehension Subtest on Language Learners** cheinse Journal N33 . N : 5 , Qrticle .october, 2010,p29.

⁴² Wei. Xiao. **Theory and Practice in Language Studies**, Vol. 4, No. 6,**the intensity and direction of cet washback on Chinese college students test-taking strategy use.**, June 2014 ACADEMY PUBLISHER Manufactured in Finland. p1172

⁴³ L, cheng, **washback in language testing**, op, cit, pp: 20-21

الجملة النظامية والجملة النصية دراسة وصفية تحليلية

sentence in syntax and sentence in text

Analytical and descriptive study

تجاني حبشي¹

تاريخ الإرسال 2019/04/27 تاريخ القبول: 12- 09- 2019

الملخص: حاولت الورقة البحثية على امتدادها أن تقدم وصفا لنوعي الجملة "الجملة النظامية" و"الجملة النصية". وبينت كيفية تعامل المعياريين والبنويين مع النوع الأول، حيث نظر المعياريون للجملة على أنها ذات علاقات محدودة بين عناصرها لا تؤدي إلى معنى يرتبط بمفهوم التخاطب، فهي عبارة عن تتابع من عناصر القول ينتهي بسكته، في حين ارتبط مفهومها عند البنيويين بالنظام الذي تنتمي إليه وليس بمعزل عنه، وعن طريق التحليل يتم الوصول إلى العناصر المكونة لهذا النظام كالكمات والجمل، ويتحدد النظام من النواحي الشكلية والتركيبية الموجودة في النص وليس في الجملة وعلى طريفي نقيض من هذا يأتي النصابيون ليعالجوا "الجملة النصية"، حيث سعوا إلى تحقيق هدف يتجاوز قواعد إنتاج الجملة إلى قواعد إنتاج النص، إذ لم يعد اهتمامهم منصبا على الأبعاد التركيبية للعناصر اللغوية في انفرادها وتركيبها بل لزم أن تتداخل معها الأبعاد الدلالية والتداولية، حتى يمكن أن تفرز نظاما من القيم والوظائف التي تشكل جوهر اللغة.

كلمات مفتاحية: الجملة النظامية، الجملة النصية.

¹ جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، البريد الإلكتروني: habchijani@gmail.com

Abstract:The paper examined the two types of sentence "systemic sentence" and "textual sentence." The method of dealing with the constructors and the constructors was discussed with the first type. The criteria for the sentence were considered to have limited relations between the elements, which did not lead to a meaning related to the concept of communication. The system is determined by the formal and structural aspects of the text rather than in the sentence. On the other hand, the Christians come to deal with the "textual sentence", where they sought to achieve a goal that goes beyond the rules of the production of the sentence to the rules of production of the text. Their attention is no longer focused on the structural dimensions of the linguistic elements in their individuality and composition. Can produce a system of values and functions that constitute the essence of language.

Keywords: systemic sentence– textual sentence

المقدّمة: لقد بقى البحث النّصي ردحا من الزمن حبيسا عند مفهوم الجملة وشكلت محاور اهتمام اللسانيين لمدة ليست بالقليلة واعتبرت موضوعا للدرس اللغوي والوحدة اللغويّة الكبرى للدراسة. يقول روبرت دي بوجراند: «اعتمدت دراسات التّراكيب اللغويّة جميعها على وجه التّقريب منذ نشأتها في العصور السّحيقة على مفهوم الجملة دون غيره»¹.

وعلى ذلك قامت النّظريات النّحويّة والاتجاهات اللسانية المختلفة والمتعاقبة التي تهتم بالجملة. لكنه ومع تطور العلوم اللسانية تبين أن هذه الدّراسات قاصرة وبدأت تبرز مسوغات التّخلي عن الجملة، ممّا دفع الكثير من اللسانيين إلى الدّعوة إلى تجاوزها كمستوى للتحليل للوصول إلى النّص، وهذا التّغيير في الدّرس اللساني أمر ناتج عن الإحساس بالوظيفة الاجتماعيّة للغة، وإلى

ضرورة وجود الأثر التّواصلي الذي يعده علماء اللسانيات جوهر العمليات الاجتماعية². ويرى فان دايك أنّ الجملة لا تتحقق هويتها إلا إذا كانت إلى جانب جمل وتراكيب أخرى لذلك فإن محاولة وصف الكلام من خلال وصف الجمل هو إجراء غير مضمون النتائج، وعليه فلا بد من أن يكون موضوع الدّراسة والوصف وحدة لغويّة أشمل هي النّص³. ويقول في موضع آخر موضحاً أن التّحليل لا يتوقف عند التّحليل التركيبي للجملة: « ففي كل الأنحاء السّابقة على نحو النّص⁴ وصف للأبنية اللغويّة، ولكنه لم يعن بالجوانب الدّلاليّة عناية كافية، مما جعل علماء النّص يرون أن البحث الشكلي للأبنية اللغويّة ما يزال مقتصرًا على وصف الجملة بينما يتضح من يوم إلى آخر جوانب كثيرة لهذه الأبنية – وبخاصة الجوانب الدّلاليّة لا يمكن أن توصف إلا في إطار نحو النّص⁵».

وعليه فلسانيات النّص تعد فرعاً جديداً من فروع اللسانيات، وحلقة من حلقات التّطور الموضوعي والمنهجي في دراسة اللغة، ومنهج لساني حديث يقترح آليات جديدة في التّعامل مع الظاهرة اللغويّة، على أن يشمل الوصف النّحوي العلاقات بين الجمل في المستويين السّطحي والعميق، وعدم الاقتصار على الوصف النّحوي لتلك العلاقات أو ما يطرأ عليها من تغييرات في المستوى السّطحي فقط .

وتأتي هذه الورقة البحثيّة لتتناول " الجملة"، التي شكلت تارة نقطة توافق بين رواد منهجين متباينين وهما المنهج المعياري والمنهج البنيوي، وتارة أخرى نقطة اختلاف بين رواد هذين المنهجين معا ورواد المنهج النّصي. وقد نظر إليها رواد الطرف الأوّل على أنها "جملة نظاميّة"، في حين نظر إليها الطرف الثّاني على أنها "جملة نصيّة أو نصانيّة". فالأوّل عبارة عن شكل الجملة المجرد الذي يولد جميع الجمل الممكنة والمقبولة في نحو لغة ما⁶. أما الثّانية فهي ذات دلالة جزئيّة ولا يمكن أن تقتصر بالتحديد الدّلالة الحقيقيّة لكل جملة داخل ما يسمى بكليّة

النّص؛ إلا بمراعاة الدّلالات السّابقة واللاحقة في ذلك التّسلسل المسمى بـ:
" التّتابعات الجمليّة" ⁷. فالجملة النّصيّة هي التي يمكنها أن تكتسب ميزات
أسلوبية وتداوليّة جديدة من خلال ما يمنحها النّص من ديناميّة التّفاعل
والحركة لم تكن لتحقيقها وهي مستقلة بنفسها.

وأحببت في هذه الورقة مشاركة غيري من الباحثين في حقل اللسانيات عامة
ولسانيات النّص خاصة جهدهم، ورجوت منها الإسهام - ولو بالجزء القليل- في
تحقيق الغايّة المنشودة، وهي إشباع نهم طلبة العلم في الجامعات وإمدادهم بما
تيسر جمعه من معلومات في هذا التّخصص، وذلك بالوقوف على جزئيّة محدّدة
وسمّت بـ: الجملة النّظاميّة والجملة النّصيّة. دراسة وصفية تحليليّة عامدا إلى
إبراز خصائص كل من " الجملة النّظاميّة" و"الجملة النّصيّة" وكل ذلك
بأسلوب مناسب يجمع مختلف الإشارات بتوثيقها وتحليلها بما تيسر ذكره ووفق
دراسة وصفية تحليليّة، نسأل الله تعالى فيها التّوفيق والسّداد. وانطلاقا مما
أومأنا إليه ارتأيت تناول العناصر الآتية:

1- التّمثّل اللساني للجملة

2- التّمثّل النّصي للنص

3- التّمثّل النّصي للجملة

4- نتائج الدّراسة

1- التّمثّل اللساني للجملة

1- 1- التّمثّل النّحوي للجملة عند النّحاة العرب: اجتهد الدّارسون منذ
أقدم العصور على اختلاف منازعهم و مناهجهم في تحديد مفهوم مصطلح
الجملة فقدموا عددا ضخما من التعريفات أربى على ثلاثمائة تعريف وهذه
الكثرة تبرز الصّعوبة البالغة في تحديد مفهوم الجملة، فهي على كثرتها غير
جامعة ولا مانعة كما يقول المنطقة، ذلك بأننا - وحسب ما ذهب إليه محمود

نحلة- نعرف معرفة حدسية حدود الجملة تقريبا، ولكننا لا نستطيع أن نعبر تعبيرا دقيقا أو نضع المعايير الضابطة لهذا الحدس.⁸

ولم يكن النّحاة العرب القدامى بمنأى عن هذه الاختلافات التي طالت مفهوم الجملة فقد أولوا لها اهتمامهم، فقد درس القدامى منذ سيبويه (ت180هـ) أنماطها وطريقة بنائها، وضوابط تشكيلها، ورسم بنيتها التركيبية والدلالية وربطوا بين مظاهر مخصوصة في نظمها وضوابط تحكمها وتسوغها، كالزيادة في بنيتها والتقديم والتأخير والحذف... ولئن جاءت هذه الدراسة موزعة على الأبواب المختلفة التي تمثل الوظائف النحوية فلأن ذلك ينسجم مع منهجهم العام.⁹ وهو منهج تحليلي غايته فهم اللغة وأبعادها المتنوعة وتحليلاتها المختلفة.

أ- **حد الجملة:** الجملة لغة كما ورد في الصّاح للجوهري (ت393هـ) قوله: « الجملة واحدة الجمل وأجمل الحساب رده إلى الجملة». ¹⁰ وجاء في لسان العرب لابن منظور (ت711هـ): « والجملة واحدة الجمل، والجملة جماعة الشّيء وأجمل الشّيء جمعه عن تفرقه وأجمل له الحساب كذلك، والجملة جماعة كل شيء بكماله من الحساب وغيره، يقال: أجملت له الحساب والكلام إذا أردتته إلى الجملة». ¹¹

أما من ناحية الاصطلاح فقد تعددت الآراء في تعريف الجملة بسبب تعدد المعايير التي استند إليها مما أدى إلى تنوع التعريفات. ¹² ومن يتتبع مصطلح الجملة في التراث النحوي يجد أن هذا المصطلح كان يختلط بمصطلح الكلام عند المتقدمين، فسيبويه لم يستخدم مصطلح الجملة على الوجه الذي تناوله به من جاء بعده، يقول محمد حماسة: « ولم أعر على كلمة الجملة في كتابه إلا مرة واحدة جاءت فيها بصيغة الجمع، ولم ترد بوصفها مصطلحا نحويا، ووردت بمعناها اللغوي». ¹³ وهو ما يظهر في قول سيبويه « وليس شيئا يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها وما يجوز في الشّعْر أكثر من أن أذكره لك هاهنا، لأن

هذا موضع الجمل»¹⁴ وقد جاءت عنده بدلالات مختلفة فهو يستخدمه بمعنى الحديث والنثر واللغة والجملة أيضا، تقول أولكر موزال (Mozal lker) إذا تتبعنا المواضع التي استخدم فيها سيبويه الكلام بمعنى الجملة فإننا لا نستطيع أن نستنبط منها تعريفا دقيقا للجملة.¹⁵ وقد انتهت الباحثة إلى أن الجملة عنده جزء من الكلام مستغن بنفسه وأن الجملة عنده تنتهي بالسكوت أو بإمكان انقطاع الكلام فهو يقول: «ألا ترى أنك لو قلت (فيها عبد الله) حسن السكوت وكان كلاما مستقيما كما حسن واستغنى في قولك: (هذا عبد الله).¹⁶ وهذا يعني حسب محمود نحلة أن (فيها عبد الله) و (هذا عبد الله) جملتان تامتان لا نحتاج فيهما إلى شيء نضيفه ويمكن أن ينقطع الكلام بعدهما.¹⁷ وعلى العكس من ذلك فإن (هذا) وحده ليس جملة، وكذلك (كان عبد الله) ليست جملة على حين أن (ضرب عبد الله) جملة فالجملة في تصوره قطعة من الكلام مستغنية بنفسها يمكن السكوت أو انقطاع الكلام بعدها.¹⁸

ويعد المبرد (ت285هـ) هو أول من استعمل مصطلح الجملة من الرّعيّل الأوّل وذلك حين تعرض للحديث عن الفاعل إذ يقول: «هذا باب الفاعل وهو الرّفْع وذلك في قولك: قام عبد الله وجلس زيد، وإنما كان الفاعل رفعا لأنه هو والفعل جملة يستحسن عليها السكوت وتجب بها الفائدة للمخاطب فالفاعل والفعل منزلة الابتداء والخبر إذا قلت: قام زيد فهو بمنزلة قولك القائم زيد.¹⁹ ويبدو من خلال التعريف أنه اشترط في الجملة، أن يحسن السكوت عليها وتؤدي الفائدة للمخاطب، وهذا ما ركز عليه تلميذه ابن السّراج الذي استخدم مصطلح الجمل المفيدة، إذ يقول: والجمال المفيدة على ضربين، إما فعل وفاعل أو مبتدأ وخبر.²⁰

ونلمح لدى النّحاة الذين جاءوا بعد القرن الرابع الهجري اتجاهين في التّعامل مع هذين المصطلحين. حيث انقسموا في التّعامل مع الجملة والكلام إلى اتجاهين أحدهما يرى أن الكلام غير الجملة، والثاني يراه إياه. ومن الذين

يتبنون الرأي الأول على سبيل الذكر لا الحصر ابن جني (ت392هـ) الذي يرى: «أن الكلام جنس للجمل التّوأم مفردا ومثناها ومجموعها، كما أن القيام جنس للقومات مفردا ومثناها ومجموعها، فنظير القومة الواحدة من القيام الجملة الواردة من الكلام».²¹ وكذلك رضي الدّين الإستراباذي (ت686هـ) الذي يرى أن هناك فرقا بين المصطلحين حيث يقول: «أن الجملة ما تضمن الإسناد الأصلي سواء كانت مقصودة لذاتها أم لا كالجملة التي هي خبر المبتدأ وسائر ما ذكر من الجمل، فيخرج المصدر وأسماء الفاعل والمفعول والصّفة المشبهة والظرف مع ما أسندت إليه، والكلام الذي تضمن الإسناد الأصلي وكان مقصودا لذاته فكل كلام جملة ولا ينعكس».²² وقد تبعه ابن هشام الذي يرى أن الكلام يمكن السّكوت عليه أما الجملة فتعني عناصر الإسناد كالفعل مع فاعله، والمبتدأ وخبره وفي ذلك حيث يقول: «الكلام هو القول المفيد بالقصد. والمراد بالمفيد هو ما دل على معنى يحسن السّكوت عليه، والجملة عبارة عن الفعل وفاعله، ك: قام زيد والمبتدأ وخبره ك: زيد قائم، وبهذا يظهر لك أنهما ليسا بمترادفين كما يتوهمه كثير من النّاس والصّواب أنها أعم منه إذ شرطه الإفادة بخلافها، ولهذا تسمّعهم يقولون «جملة الشّروط وجملة الجواب وجملة الصّلة وكل ذلك ليس مفيدا فليس بكلام».²³

أما عن الذين يتبنون التّوجه الثّاني فنذكر منهم على سبيل التّمثيل الزمخشري (ت538هـ) الذي يرى أن: «الكلام هو المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، وذلك لا يتأتى إلا في اسمين كقولك: زيد أخوك و"بشر صاحبك" أو في فعل واسم نحو قولك: "ضرب زيد"، وانطلق بكر "وتسمى جملة".²⁴ وفي هذا التعريف يظهر أنه اشترط الإسناد في الجملة وفي هذا إشارة للتركيب الذي ينعقد به الكلام، وتحصل منه الفائدة، ولا يحصل ذلك إلا في اسمين نحو: الجو جميل، لأن الاسم كما يكون مخبرا عنه، قد يكون

خبيرا من فعل واسم نحو: قام زيد، وانطلق بكر، فيكون الفعل خبرا والاسم مخبرا عنه ولا يتأتى ذلك من فعلين لأن الفعل نفسه خبرا ولا يفيد حتى تسنده إلى محدث عنه.²⁵ وسار على ذلك ابن يعيش (ت643هـ) الذي يقول: «اعلم أن الكلام عند النّحويين عبارة عن كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لعناه ويسمي الجملة نحو "زيد أخوك"، وهذا معنى قول؛ صاحب الكتاب المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى».²⁶ وذهب ابن يعيش في شرح مذهب الزمخشري في التّوحيد بين مفهومي الكلام والجملة فقال: «ومما يسأل عنه هنا الفرق بين الكلام والقول والكلم والجواب أن الكلام عبارة عن جمل مفيدة وهو جنس فكل واحدة من الجمل الفعلية والاسمية نوع له يصدق إطلاقه عليها، كما أن الكلمة جنس للمفردات».²⁷

ب- أقسام الجملة: تقسم الجملة من ناحية التّركيب النّحوي إلى أربعة أقسام 28:

1- الجملة الاسميّة: وهي التي وقع في صدرها اسم نحو: خالد شجاع هيهات العتيق، وقائم الرّجلان عند من أجاز ذلك.

2- الجملة الفعلية: وهي التي وقع في صدرها فعل نحو صام محمد، وظننته واقفا.

3- الجملة الظرفية²⁹: وهي التي وقع في صدرها ظرف أو جار ومجرور نحو أعندك خالد وفي المدرسة خالد؟، إذا قدرت خالدًا فاعلا بالظرف والجار والمجرور لا بالاستقرار المحذوف ولا مبتدأ مخبر عنه بهما، فهذا القسم نطلق عليه شبه الجملة.

4- الجملة الشرطية³⁰: وهي جملة يتحقق فيها عنصر الإسناد مثلها مثل الجملة الاسميّة والفعلية. وهي نوعان:

1- النوع الأول: وهي جملة الشرط الجازمة وتتحقق بوجود أدواتها، وهي الحرفان (إن إذما) والأسماء (من، ما، مهما متى، أنى، أينما، حيثما، أي كيفما).

2- النوع الثاني: وهو الشرط غير الجازم، حيث أن هناك أدوات يأتي بعدها فعلاّن؛ أي جملتان، الواحدة مرتبة على الأخرى بوجود أداة شرط، ولكنها لم تجزم فعلي الشرط ويأتي بأدوات هي: (كيفما، إذا، لو، لولا، لوما، إما).

وبعض النحاة اعتبر أن الجملة الشرطية هي الجملة الفعلية إذا كان صدرها حرف الشرط، واسميّة إذا كان صدرها اسم شرط، غير أن الحقيقة أن الجملة الشرطية مستقلة عن الجملة الاسميّة والفعلية، يقول الزمخشري: « والجملة على أربعة أضرب فعلية واسميّة وشرطية وظرفية وذلك نحو: زيد ذهب أخوه وعمرو أبوه منطلق وعمران تعطيه فيشكر، وخالد في الدار».³¹ يقول ابن يعيش محددا مواصفات الجملة الشرطية: « فهذه الجملة وأن كانت من أنواع الجمل الفعلية، وكان الأصل في الجملة الفعلية أن يستقل الفعل بفاعله نحو: قام زيد، إلا أنه لما دخل هنا حرف شرط ربط كل جملة من الشرط والجزاء».³² ومما يلاحظ هو أن فعل الشرط هو المسند، وأن جواب الشرط هو المسند إليه، فاقتران فعل الشرط مع جوابه يؤديان بالضرورة إلى تحقيق عملية الإسناد في النحو، ومن هنا يمكن اعتبار جملة الشرط نوعا رابعا من أنواع الجمل في اللسان العربي.

وهناك تقسيم آخر ذكره عباس حسن وهو على الشكل الآتي³³:

1- الجملة الأصلية: وهي التي تقتصر على ركني الإسناد، أي على المبتدأ مع خبره، أو ما يقوم مقام الخبر، أو تقتصر على الفعل مع فاعله أو ما ينوب عن الفعل.

2- الجملة الكبرى: وهي ما تتركب من مبتدأ خبره جملة اسميّة أو فعليّة

نحو: الزهر رائحته طيّبة، أو الزهر طابت رائحته.

3- الجملة الصّغرى: وهي الجملة الفعليّة أو الاسميّة إذا وقعت إحداها

خبراً لمبتدأ، وهي كذلك الجملة المبنية على المبتدأ كالجملة المخبر عنها.

وحقيق بنا الإشارة إلى نقطة مهمة مفادها أن للجملة العربيّة ركنين أساسيين يربط بينهما الإسناد، وهو من أهم المصطلحات النّحويّة، فقد أشار المبرد إلى قضيّة المسند إليه وجعلها شرطاً في الجملة لكي تحصل الفائدة للمخاطب ففي باب المسند والمسند إليه يقول: فالابتداء نحو قولك: "زيد" فإذا ذكرته فإنما تذكره للسامع ليتوقع ما تخبره به عنه فإذا قلت: "منطلق" أو ما أشبهه صح معنى الكلام، وكان الفائدة للسامع في الخبر.³⁴ ومعنى هذا أن المسند والمسند إليه لا يستغني أحدهما عن الآخر، فالخبر يسند إلى المبتدأ والفعل يسند إلى الفاعل أو نائب الفاعل أي أن الخبر والفعل مسند والمبتدأ والفاعل ونائب الفاعل مسند إليه.³⁵ وهو ما جعل النّحاة ينظرون إلى المسند والمسند إليه بأنهما عماد الجملة، ويطلقون عليهما مصطلح "العمد". ولاشك أن إقامة حد الجملة على الإسناد الأصلي مفيد في تحليلها ودراسة العلاقات بين عناصرها، لأنه يقيمها على أساس نحوي ثابت.

وفي ختام هذا العنصر نقول: أنه وعلى الرّغم من أهميّة مصطلح الجملة إلا أنه لم يحظ بحظ وافر من البحث والدّراسة عند النّحاة القدامى، فلم يعطوه حقه من الدّراسة. وهذا لا يعني أن الدّراسات النّحويّة القديمة خالية من أي إشارة إلى الجملة، بل إنهم درسوها لكن دراسة مجزأة، فقد انصب اهتمامهم على العناصر والمفردات التي تتألف منها الجملة كل على حدة، مما جعل ملاحظاتهم في مجال الجملة متناثرة في ثنايا مؤلفاتهم، وإن كانت لا تخلو من فائدة أحيانا فإنها لا تدل على نظرة شاملة تعنى بعناصر الجملة من حيث وحدتها

وانتظامها في تركيب خاص، وقد درج النحاة على هذا المنوال في العناية بالجملة وبغناصرها إلى أن جاء ابن هشام فعقد بابا في كتابه "مغنى اللبيب"، ألم فيه بكل ما يتعلق بها من الناحية الإعرابية، وجمع فيه كل ما قاله النحاة بشأنها إيماناً منه بأهميتها.

1- 2- التمثيل البنيوي للجملة عند اللسانيين المحدثين: تعد الجملة من أهم المكونات الأساسية للغة، بل تكاد تكون اللبنة التي قامت عليها جل الدراسات اللسانية الحديثة وترجع أهميتها إلى كونها تمثل وحدة تركيبية تتخذها كل دراسة نحوية تروم وصف اللغة منطلقاً للوصف والتّقييد وتجعل من أهم أهدافها وصف بنيتها المجردة، وما يتخرج على البنية من أنماط وما يرتبط بكل نمط من مقاصد ودلالات وضوابط تتحكم في الأبنية المكونة ووظائفها. وقد بقى البحث اللساني ردحا من الزمن حبيسا عند مفهوم الجملة حيث شكلت محور اهتمام اللسانيين لمدة ليست بالقليلة واعتبرت موضوعا للدرس اللغوي، والوحدة اللغوية الكبرى للدراسة، وهو أكده روبرت دي بوجراند بقوله: «اعتمدت دراسات التراكيب اللغوية جميعها على وجه التقريب منذ نشأتها في العصور السّحيقة على مفهوم الجملة دون غيره».³⁶ وعلى ذلك قامت النظريات النحوية والاتجاهات اللسانية المختلفة التي تهتم بالجملة.

ومن أبرز اللسانيين الذين عرفوا الجملة على سبيل الذكر دي سوسير الذي اعتبرها أحسن نموذج يمثل التركيب، إلا أنها من مشمولات الكلام لا اللغة، أفلا ينجر عن ذلك أن يكون التركيب أيضا من مشمولات الكلام.³⁷ وعرفها كذلك بأنها عبارة عن تتابع من الرموز، وأن كل رمز يسهم بشيء من معنى الكل لهذا فكل رمز داخل الجملة يرتبط بما قبله وبما بعده، وأطلق على تتابع الرموز وارتباطها في داخل الجملة مصطلح (syntagmatique).³⁸ وذهب محمود نحلة إلى أن التّضام عند دي سوسير يتألف من وحدتين أو أكثر من الوحدات اللغوية

التي يتلو بعضها بعضا وهو لا يتحقق في الكلمات فحسب بل في مجموعة الكلمات أيضا، وهي الوحدات المركبة من أي نوع كانت. "الكلمات المركبة المشتقات أجزاء الجملة كلها" وهو عنده يمكن أن يكون وحدة النّظام اللغوي.³⁹

بينما عرفها أندريه مارتيني بأنها: «أصغر قول لا بد أن يشمل على عنصرين يشير أحدهما إلى مضمون أو حدث ويشد الانتباه إليه ونسميه المسند ويشير الآخر إلى مشارك إيجابي أو سلبي ونسميه المسند إليه ويكون تقويم دوره أيضا على هذا الأساس».⁴⁰ فهو بذلك اعتبر المسند وحدة مركزيّة، وهو مركز النّظيم التركيبي للجملة المستقلة، ويشكل بذلك قمة الهرم الذي تبدو باقي عناصر الملفوظ كتوسعات ثانويّة وذلك دون المسند إليه ليس في التركيب الإسنادي فحسب بل في تركيب الجملة كلها.

بينما ذهب هاريس إلى أنها: «كل امتداد من حديث شخص واحد يقع بين سكتتين من قبل ذلك الشّخص».⁴¹ والسّكوت المعتبر هو سكوت المتكلم لا السّامع. أما ليونارد بلومفيلد فقد راعى فكرة الاستقلال أثناء تعريفه للجملة وأهمّل بالمقابل فكرة التّمام لأنها مرتبطة بالمعنى، فانعكس ذلك على مفهوم الجملة عنده فهي في نظره عبارة عن: «شكل لغوي مستقل، لا يدخل عن طريق أي تركيب نحوي في شكل لغوي أكبر منه».⁴² وهذا ما يفسر بأن فكرة استقلال التركيب هي الأساس⁴³ حتى يكون قابلا للتحليل إلى المكونات النّحويّة المباشرة والمكونات النّهائيّة.

أما رواد المدرسة التّوليديّة التّحويليّة فقد انطلقوا في تعريفهم للجملة من تصورهم لمفهوم قواعد اللغة، فهي عندهم جهاز أو وسيلة لتوليد جميع الجمل الصّحيحة وعليه فالجملة عندهم هي مجموعة من العبارات تخلقها ميكانيكيّة القواعد في النّموذج التّوليدي.⁴⁴ وهي كل ما تنتجه القواعد التّحويليّة ذاتها بقوانينها الباطنيّة والمفرداتيّة والتّحويليّة والمورفيميّة

الصوتية، وقد ميزوا بين نوعين من الجملة، الجملة النواة والجملة المشتقة ووصفوا الجملة الأولى بأنها هي الجملة البسيطة والتامة، والصريحة والإيجابية، والمبنية للمعلوم والمرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالبنية البسيطة للفكرة، وأن الجملة الثانية محولة تنقصها خاصية من خاصية الجملة النواة.⁴⁵ واقترحوا مستويين لدراسة جمل اللغة مستوى أول تمثله البنية السطحية وهي التي نتوصل إليها عبر تتابع الكلمات التي ينطق بها، ومستوى ثان البنية العميقة وهي التي تعكس المنطق الداخلي للجملة وأن البنية السطحية والعميقة مختلفتان، فكل لغة تشتمل على سلسلة من الفونيمات تولد جملاً لا نهاية لها.⁴⁶

2- التمثيل النصي للنص

أ- النص في المعجم : مما لا شكّ فيه أن مفهوم النصّ أضحى منذ عقود قليلة من أكثر المفاهيم تداولاً في الساحة اللغوية والنقدية والثقافية، وقد تعددت تعريفاته بل وتداخلت إلى حد التناقض أحياناً والإبهام أحياناً أخرى . وقد حاول محمد الهادي الطرابلسي التقريب بين أصل كلمة النصّ في اللغة العربية وفي بعض اللغات الأخرى كالفرنسية (texte) والإنجليزية (Text) وذهب إلى أن النّسيج يتوفر في المصطلح الأعجمي المقابل لمصطلح نص (texte)، على أن هذا المعنى ليس غريباً عن تصور العرب للنص، فقد تبين لنا أن الكلام عند العرب يكون نصاً إذا كان نسيجاً، فالنّص والنّسيج في بعض الأحيان يلتقيان، النصّ جعل المتاع بعضه على بعض والنّسيج ضم الشيء إلى الشيء، فالأول تركيب والثاني ضم، والتركيب والضم واحد.⁴⁷

ب- المفهوم الاصطلاحي للنص: إن المفهوم الاصطلاحي لكلمة نص مفهوم حديث في الفكر العربي المعاصر، وهو ليس وليد هذا الفكر، وإنما هو كغيره من مفاهيم كثيرة في شتى العلوم الحديثة وافد من الحضارة الغربية.⁴⁸ وقد

تنوعت التعريفات التي تشرح مفهوم النصّ في التّراث اللساني بحيث لا يمكن حصرها وكل تعريف يعكس وجهة نظر صاحبه والمنطلقات المعرفيّة التي ينطلق منها.

ج- مفهوم النصّ في الدّراسات الغربيّة: ومن تلكم التعريفات ما ذكره هاليدي ورقية حسن حيث عرفا النصّ تارة بأنه: «متتاليّة من الجمل شريطة أن تكون بين هذه الجمل علاقات، أو على الأصح بين عناصر هذه الجمل علاقات تتم هذه العلاقات بين عنصر وآخر واردة في جملة سابقة أو جملة لاحقة، أو بين متتاليّة برمتها سابقة أو لاحقة».⁴⁹ وتارة أخرى بقولهما: «إن كلمة نص (text) تستخدم في علم اللغويات لتشير إلى أي فقرة مكتوبة أو منطوقة مهما كان طولها شريطة أن تكون وحدة متكاملة».⁵⁰ وشرح سعيد قطين هذا التعريف بقوله: «وبذلك فهو ليس وحدة نحويّة مثل الجملة مثلاً أو شبه الجملة، كما أن معيار الكم ليس ضرورياً، إذ قد يكون كلمة أو جملة أو عملاً أدبياً. ويتعبّر أعمق وأوضح النصّ وحدة دلاليّة وهذه الوحدة ليست وحدة شكل بل وحدة معنى».⁵¹ وعليه فالنّص لا يعتبر متواليّة جمليّة شكلية وإنما تتجلى علاقته في الجملة في أنه لا يظهر إلا بها. بينما عرفه كلاوس برينكر بأنه: «تتابع محدود من علامات لغويّة متماسكة في ذاتها وتشير بوصفها كلا إلى وظيفة تواصلية مدركة».⁵² وعقب سعيد بحيري على هذا التعريف بالقول أن النصّ يمثل أكبر وحدة لغويّة ولا يمكن أن تدخل تحت وحدة لغويّة أكبر منها وهو بذلك يخالف تحديد بلومفيلد للجملة بأنها أكبر وحدة في التّحليل والوصف.⁵³ في حين اعتبره هاريس بأنه: «تتابع من جمل كثيرة ذات نهاية».⁵⁴ وليس بعيداً عن هذا يأتي تعريف بتوي إذ يراه: «وحدة لغويّة متكونة من أكثر من جملة».⁵⁵ بينما ذهب فاينرش إلى أنه: «تكوين حتمي يحدد بعضه بعضاً لفهم الكل».⁵⁶ واعتبره فان

دايك بأنه: « بنية سطحية توجهها وتحفزها بنية عميقة ».⁵⁷ بينما ربط دي بوجراند مفهوم النص بالتبليغ وبالمعايير النصية، وعرفه بأنه: حدث اتصالي تتحقق نصيته كاملة باجتماع المعايير السبعة لها وهي: السبك (Cohesion) ، والالتحام (Coherence) ، والقصدية (Intentionality) والمقبولية (Acceptability) ورعاية الموقف (Situationality) ، والتناص (Informativity) والإعلامية (Intertextuality)⁵⁸ وبذلك يكون أكثر تحديدا لمفهوم النص إذ ربطه بالأسس التي يعتمد عليها، وجعلها أدوات أساسية في التفريق بين النص والالانص.

ومما يلاحظ هو أن هذه التعاريف تتمحور حول المستوى المعجمي واللساني للنص.⁵⁹ بينما هناك تعاريف أخرى متنوعة تربط النص بالجانب الأدبي، وقد طغى عليها في بداية الاهتمام بالنص والتنظير له الطابع البنيوي، وذلك بسبب أن البنيوية تعد أول نظرية انطلقت منها جل المحاولات الأولى لدراسة النص دراسة منهجية.⁶⁰ نذكر منها من باب التمثيل لا الحصر تعريف رولان بارت الذي اعتبر النص هدفا « فالأدب ليس إلا لغة، أي نظام من العلامات، وليس جوهره في الرسالة التي يحملها وإنما هو في نظامه بالذات ».⁶¹ بينما يرى تودوروف أن النص يمكن أن يكون جملة كما يمكن أن يكون كتابا بأكمله وعليه يحدد النص أساس استقلاليتة وانغلاقيته، فهو يؤلف نظاما خاصا به لا يجوز تسويته مع النظام الذي يتم على أساسه تركيب الجمل.⁶² ومما يستنتج هو أن هذين التعريفين يؤكدان انغلاق النص واكتفائه بذاته، وذلك مرجعه إلى أن هذين الناقلين ينتميان إلى الاتجاه النقدي الشكلي، الذي لا يولي أي اهتمام إلى كل من سياق النص وكاتبه، معتبرين الصياغة الأدبية صياغة لذاتها، وهذا ما يجعله كيانا مستقلا يمكن دراسته، والتعامل معه دون الرجوع إلى أي اعتبارات أخرى يمكن أن تكون سببا في إبعاد الدراسة عن طابعها الأدبي، ولعل هذا ما دفع بجولييا

كريستيفا إلى السّعى إلى إخراج النّص من الإطار الشّكلاني المغلق إلى فسحة المجتمع والتّاريخ مؤكدة على رسالته وعلى علاقته بالنّصوص الأخرى، فهي ترى أن النّص « ترحال للنصوص وتداخل نصي ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملحوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى». ⁶³ وتعتبر بذلك النّص خطابا يخترق حاليا وجه العلم والأيدولوجيا والسياسة ويتطلع لمواجهتها وفتحها وإعادة صهرها. ⁶⁴

3- التّمثيل النّصي للجملة: قبل البدء في المعالجة في هذا العنصر؛ نشير إلى نقطة مهمة مفادها أن اللغويين انقسموا في النّظر إلى الجملة إلى صنفين وذلك تبعا لاختلاف المنهج والمنطلقات الاستمولوجيّة التي ينطلق منها كل باحث صنف أول نظر إلى الجملة باعتبارها جملة نظاميّة (system sentence) وصنف ثان نظر إليها في كونها "جملة نصيّة أو نصائيّة" (textual sentence) وقد تكلم جون لاينز عنهما، حيث اعتبر الأولى عبارة عن شكل الجملة المجرد الذي يولد جميع الجمل الممكنة والمقبولة في نحو لغة ما. ⁶⁵ وهي لا تقع مطلقا كنتاج للسلوك اللغوي المعتاد، كما أنه من الممكن استعمال الأشكال الممثلة للجمال النّظاميّة في مناقشة وصفيّة لبنية اللغة ووظائفها، وتلك الأشكال الممثلة هي التي تذكر عادة في الوصف النّحوي للغات، وفق التّراكيب الإسناديّة المعروفة. وهذا النّوع هو الذي اتكأ عليه المعياريون والبنويون على حد سواء في دراستهم للغة وهو يدخل ضمن لسانيات الجملة. أما الجملة النّصيّة فهي تعتبر من أبرز المنعطفات في تأسيس لسانيات النّص، وهي تنظر إلى الجملة من منظور مختلف عما تنظر إليه لسانيات الجملة. وستسعى هذه الورقة فيما تبقى من صفحات إلى تناول هذه الجزئيّة.

أ- مفهوم الجملة النّصيّة: الجملة النّصيّة هي جملة تتسم بالتّواصل مع جملة أخرى داخل النّص، أو هي المنجزة فعلا في مقام، ولها مدلولها داخل السّياق

نتيجة ملابسات لا يمكن حصرها ويترتب عن هذه الملابسات الفهم والإفهام وهذا النوع من الجمل لا يفهم إلا بإدماجه في نظام الجمل، فيعطي دلالة من خلال الاتساق والانسجام، وقد أشار تون أ، فان دايك إلى بعض خصائص الجملة النصية وذلك من قوله: « فالجملة في النص ذات دلالة جزئية، ولا يمكن أن تتقرر بالتحديد الدلالة الحقيقية لكل جملة داخل ما يسمى بـ «النص»؛ إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في ذلك التسلسل المسمى بـ: "التتابعات الجمليّة" ».⁶⁶ وهذا معناه: أن الجملة في النص لا تفهم في ذاتها فحسب وإنما تسهم الجمل الأخرى في فهمها وهذا يبين أن الجملة ليست وحدها التركيب الذي يحدد المعنى، وإنما يحدد المعنى من خلال النص الكلي الذي تتضافر أجزاؤه وتتأزر.⁶⁷ وهو ما يتوافق إلى حد كبير مع مفهوم الجملة عند محمد مفتاح حيث يقول: « إن الجملة المستقلة بذاتها استاتيكية الدلالة أما الجملة في النص فهي الجملة الموجهة التي يمنحها النص ديناميّة التفاعل والحركة ».⁶⁸ وهذه الديناميّة لا تتحقق إلا داخل النص وبمراعاة المقام، يقول الأزهر الزناد موضحا بعض ملامح الجملة النصية: « وهي الجملة المنجزة فعلا في المقام وفي المقام هذا تتوفر ملابسات لا يمكن حصرها ويقوم عليها الفهم والإفهام يحدد على أثرها المعنى المرجو من إنشائها ».⁶⁹ إذن فالجملة النصية هي التي يمكنها أن تكتسب ميزات أسلوبية وتداولية جديدة من خلال ما يمنحها النص من ديناميّة التفاعل والحركة لم تكن لتحققها وهي مستقلة بنفسها.

ب- **أصناف الجملة النصية:** يشير محمود نحلة إلى أن معايير تصنيف الجملة تعددت وتنوعت قديما وحديثا حتى وصلت إلى ثمانية معايير منها: الأساس والفرع والبساطة والتركيب والاستقلال وعدم الاستقلال، والإسناد وعدم الإسناد،⁷⁰ وسيعتمد في تصنيف الجملة النصية على المعاييرين الأولين فقط

وهما: الأساس والفرع والبساطة والتركيب. وعليه يكون التّقسيم على الشّكل الآتي:

1- جملة أساسيّة: وهي الجملة النّصيّة التي لا تضمها جملة أكبر منها سوى النّص وتنقسم إلى:

أ- جملة بسيطة (Simple Sentence) : وهي الجملة النّصيّة الإسناديّة المكونة من مركب إسنادي واحد، التي لا تضم في نسيجها جملة فرعيّة ومن الممكن أن تطول هذه الجملة وتمتد بعناصر إفراديّة. وقد عرفها أحمد المتوكل بقوله: « بأنها الجمل التي تتحمل حملا واحدا». ⁷¹ واعتبرها محمد إبراهيم عبادة بأنها: « الجملة المكونة من مركب إسنادي واحد ويؤدي فكرة مستقلة سواء أبدأت باسم أم بفعل». ⁷² بينما عرفها الباحث رابع أبو معزة بقوله: « تعد أصغر أشكال الجملة وتتألف في حدها الأدنى من كلمتين بينهما عمليّة إسناديّة واحدة، وتعد أبسط الصّور الذهنيّة التّامة التي يسوغ السّكوت عليها، ولا تكون داخلية في تركيب أوسع وأعقد تربطها به علائق نحويّة». ⁷³ ويرى أنها تتحدد ببساطة الجملة بالنّظر إلى عناصرها اللغويّة، فإذا لم توجد عمليّة إسناديّة ثانيّة في أحد عنصريها (المسند والمسند إليه) أو في بعض عناصرها المتممة عدت الجملة بسيطة. ⁷⁴ وتنقسم في نظره إلى جملة اسميّة بسيطة تتكون من المبتدأ أو ما في حكمه والخبر، وجملة فعليّة بسيطة تتكون من الفعل والفاعل، وقد تكون جملة بسيطة موسعة إذا وجدت متممات المعنى. ⁷⁵

ب- جملة مركبة (Compound Sentence) : وهي الجملة النّصيّة التي يعتمد في تكوينها على مركبين إسناديين. وقد عرفها أحمد المتوكل بقوله: « وهي الجمل التي تتكون من أكثر من جمل». ⁷⁶ كما عرفها رابع أبو معزة بقوله: « هي ما تعددت فيها عمليات الإسناد وجاء أحد عناصرها النّحويّة وحدة إسناديّة لدواع إخباريّة، وتتكون من مجموعتين لغويتين جزئيتين أو أكثر وترتبط

بينهما علاقة تكامل وترتيب وتلازم مزدوج على مستوى البناء والمعنى ضمن المجموعة اللغوية الكبرى». ⁷⁷ وتنقسم الجملة مركبة إلى:

أ- **جملة مركبة تركيب تداخل:** وهي الجملة النصية المكونة من مركبين إسناديين بينهما تداخل تركيبى. ⁷⁸ وقد تطول هذه الجملة وتمتد بعناصر فردية وغير فردية.

ب- **جملة مركبة تركيب ترتب:** وهي الجملة النصية المكونة من مركبين إسناديين تربط بينهما أداة ما لإنشاء علاقة تركيبية معينة. ⁷⁹ وقد تطول هذه الجملة وتمتد بعناصر فردية وغير فردية.

2- **جملة فرعية:** وهي الجملة التي تدخل في نسيج جملة أكبر هي الجملة الأساسية، وهذه الجملة يمكن أن تطول وتمتد في عمق الجملة الأكبر.

ج- **حدود الجملة النصية:** يذهب محمد حماسة إلى أن الحد الأدنى لطول الجملة في اللغة العربية عند النّحاة يكاد ينتهي عند عنصرين وهما عنصري الإسناد. ⁸⁰ اللذان يعتبران عماد الجملة إذ بهما تحصل الفائدة للمخاطب. ومعنى هذا أن الجملة في أصلها تعد قصيرة إذا اكتفى بعنصريها المؤسسين فحسب...، وقد كان على النّحاة أن يحددوا أدنى قدر تنعقد به الجملة كلاما مفيدا، ولم يكن عليهم أن يحددوا الجملة الطويلة؛ لأن الجملة الطويلة لا تنتهي بحد معين يجب التوقف عنده ولكنهم حددوا العناصر غير المؤسسة التي يتم بها إطالة الجملة وتشابك بنائها، بحيث تصبح جملة مركبة لا بسيطة. ⁸¹ وقد تطول الجملة الأساسية في النص، وتمتد من خلال عناصر لغوية فردية وعناصر لغوية غير فردية تترابط مع الجملة النّواة عن طريق قرائن لفظية ومعنوية وهذا الطول لا ينتهي عند حد معين لأنه مرتبط بمقتضى الموقف.

خاتمة: وفي الختام نقول؛ أن هذه الورقة البحثية حاولت على امتدادها أن تقدم وصفا لنوعي الجملة "الجملة النظامية" و"الجملة النصية". وبينت كيف

أن النّحاة العرب القدماى استطاعوا أن يقدموا- عن الجملة النّظاميّة بخاصة- تصورا متكاملا متناسقا لبنية الجملة العربيّة معتمدا الأصول والضوابط التي صرح بها النّحاة واعتمدوها في تحليلاتهم والتي من أهمها علاقة الإسناد. في حين اتجه البنيويون توجها مخالفا في تعاملهم مع هذا النّوع من الجمل. رغم أنهم يتقاطعون مع المعياريين ضمن إطار عام هو "لسانيات الجملة". فالمعاريون نظروا إلى الجملة على أنها ذات علاقات محدودة بين عناصرها لا تؤدي إلى معنى يرتبط بمفهوم التّخاطب، فهي عبارة عن فكرة تامة أو تتابع من عناصر القول ينتهي بسكتة أو نمط تركيبى ذو مكونات شكلية خاصة⁸². أما البنيويون فقد تغير مفهومها عندهم، وأصبح يرتبط بالنّظام الذي تنتمي إليه وليس بمعزل عنه، وعن طريق التّحليل يتم الوصول إلى العناصر المكونة لهذا النّظام كالكمات والجمل ويتحدّد النّظام من النّواحي الشّكلية والتركيبيّة الموجودة في النّص وليس في الجملة، فهي مجال لسانيات الكلام وليس لسانيات اللغة، فهي تعبر عن القواعد المفترضة في اللغة وتسمح بصياغة أنماط أخرى من الجمل⁸³.

وعلى طرفي نقيض من هذا التّصور يأتي النّصانيون بمنهجهم ليعالجوا "الجملة النّصيّة"، حيث سعوا إلى تحقيق هدف يتجاوز قواعد إنتاج الجملة إلى قواعد إنتاج النّص، إذ لم يعد اهتمامهم منصبا على الأبعاد التركيبيّة للعناصر اللغويّة في انفرادها وتركيبها، بل لزم أن تتداخل معها الأبعاد الدّلاليّة والتّداوليّة حتى يمكن أن تفرز نظاما من القيم والوظائف التي تشكل جوهر اللغة، إذ ليس من المجدي الاهتمام بالوصف الظاهري للمفردات وأبنية تتضمن في أعماقها دلالات متراكمة نشأت عن استخدامها وتوظيفها في سياقات ومقامات متعددة. والحقيقة أن النّظر إلى النّص على أنه مجموعة من الجمل المتتابعة فحسب لا يسوغ الكلام عن نحو للنص في مقابل نحو للجملة، فعمليات التّحويل

والاختزال تسمح بدمج مجموعة من الجمل في جملة واحدة مما يجعل الحدود بين الجملة ومجموعة الجمل فاقدة لدلالاتها وغير حاسمة. فالنص « كل إطار يزول داخله لبس وإبهام الجمل، لأنه يقدم دلالات أكبر من مجموع دلالات الجمل المكونة له ويحتوي على افتراضات واقتضاءات غير التي في الجمل وله إمكانية إعادة الصياغة بأشكال عديدة بخلاف الجملة ».⁸⁴

وليس معنى ذلك ؛ أن الفرق بين الجملة وما يقدمه نحوها والنص وما يقدمه نحوه فرق في الكم فحسب، وإنما فرق أيضا في المنهج والأدوات وطريقة التحليل التي لا ريب تختلف باختلاف النصوص، فاللسانيات النصية تدعو إلى تطوير وسائل التحليل اللغوي لتكون قادرة على معالجة العلاقات فيما وراء الجملة، وعلى وصف الخواص الأسلوبية التي تحقق الاستمرارية البنيوية للنص.

قائمة المراجع:

- 01- أحمد عفيفي، نحو النّص اتجاه جديد في الدّرس النّحوي، مكتبة زهراء الشّرق القاهرة الطبعة الأولى، 2001م
- 02- أحمد المتوكل، الجملة المركبة في اللغة العربيّة، منشورات عكاظ المغرب الطبعة الأولى، 1988م
- 03- أحمد مؤمن، لسانيات النّشأة والتّطور، ديوان المطبوعات الجامعيّة، السّاحة المركزيّة بن عكنون الجزائر، 2002م
- 04- الأزهر الزناد، نسيج النّص، بحث فيما يكون الملفوظ نصا، المركز الثّقافي العربي الدّار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى ، 1993م
- 05- الإسترابادي، محمد بن الحسن الرّضي الدّين، شرح الرّضي على الكافيّة تحقيق يوسف حسن عمر، مؤسسة الصّادق للطباعة والنّشر، الطبعة الثّانيّة، د. ت طهران
- 06- إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النّص تطبيقات لنظريّة روبرت دي بوجراند وولفجانج دريسلر، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، الطبعة الثّانيّة 1999م
- 07- أندريه مارتينه، مبادئ اللسانيات العامة، ترجمة أحمد الحموم الطبعة الجديدة دمشق 1985م
- 08- تون أ، فان دايك، علم النّص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب القاهرة، الطبعة الأولى 2001م
- 09- جوليا كريستفا، علم النّص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر الدّار البيضاء المغرب، الطبعة الثّانيّة، 1997م
- 10- الجوهري، الصّحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الهدى للملايين الطبعة الثّالثّة، 1984م
- 11- ابن جني، أبو الفتح، الخصائص، تحقيق محمد علي النّجار، القاهرة، الجزء الأوّل 1952م

- 12- حسام أحمد فرج، نظرية علم النص، رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب القاهرة، الطبعة الأولى، 1428هـ، 2007م
- 13- دومنيك مانغونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن منشورات الاختلاف الجزائر، الطبعة الأولى، 2008م
- 14- رابع أبو معزة، الجملة والوحدة الاسنادية الوظيفية في النحو مؤسسة رسلان سوريا الطبعة الأولى، 2008م
- 15- روبرت دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان عالم الكتب القاهرة الطبعة الأولى، 1998م
- 16- زتسيسلاف واورزنيك، مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى 2003م
- 17- زكرياء ميشال، اللسانية التوليدية التحليلية وقواعد اللغة العربية الجملة البسيطة - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1986م
- 18- زكريا ميشال، اللسانية، علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1985م
- 19- الزمخشري، المفصل في علم العربية، دار الجبل بيروت
- 20- ابن السراج أبو بكر، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان، الجزء الأول، الطبعة الأولى، 1405هـ، 1985م
- 21- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2004م
- 22- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء الطبعة الثانية، 2001م
- 23-، تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبيين، المركز الثقافي العربي، د ط 1997م
- 24- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة الجزء الثاني، الطبعة الثانية، 1977م

- 25- عباس حسن، النّحو الوافي، دار المعرفة بمصر، الطبعة الرابعة المجلد الأوّل 1971م
- 26- عبده الرّاجحي، التّطبيق النّحوي، مكتبة المعارف للنشر والتّوزيع، الطبعة الأوّل 1999م
- 27- فرديناند دي سوسير، دروس في اللّسانيّة العامّة، تعريف صالح القرمادي ومحمد الشّاوش ومحمد عجينة، الدّار العربيّة للكتاب ليبيا تونس، 1985م
- 28- كلاوس برينكر، التّحليل اللّغوي للنّص، مدخل إلى المفاهيم الأساسيّة والمناهج ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار القاهرة، الطبعة الأوّل، 1425هـ، 2005م
- 29- المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة الجزء الأوّل 1388هـ
- 30- محمد إبراهيم عبادة، الجملة العربيّة، دراسة لغويّة نحويّة، دار المعارف الإسكندريّة الطبعة الأوّل، 1988م
- 31- محمد الأخضر الصّبيحي، مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيّقه الدّار العربيّة للعلوم ناشرون
- 32- محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربيّة، دار الشّروق القاهرة، الطبعة الأوّل 1996م
- 33- محمد خطّابي، لسانيات النّص، مدخل إلى انسجام الخطّاب، المركز الثّقافي العربي الدّار البيضاء المغرب، الطبعة الأوّل، 1991م
- 34- محمد الشّاوش، أصول تحليل الخطّاب في النّظريّة النّحويّة العربيّة، تأسيس نحو النّص المؤسّسة العربيّة للتّوزيع، كليّة الآداب جامعة منوبة تونس، الطبعة الأوّل 1421هـ 2001م
- 35- محمد مفتاح، ديناميّة النّص، تنظير وإنجاز، المركز الثّقافي العربي، الطبعة الثّانيّة 1990م
- 36- محمود أحمد نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة، كليّة الآداب جامعة الإسكندريّة دار النّهضة العربيّة للطباعة والنّشر.
- 37- ...، نظام الجملة في شعر المعلقات، دار المعرفة الجامعيّة الإسكندريّة، د. ط، 1991م
- 38- مجدي محمد حسين، الجملة الاسميّة، دار ابن خلدون للنشر، 2004م

- 39- مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن، دكتوراه دولة مخطوط، إشراف الحواس مسعودي وزوبير سعدي، قسم اللغة العربية جامعة الجزائر 2007م/2008م
- 40- ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، دار صادر بيروت، الجزء الثالث الطبعة الثانية 1412هـ
- 41- ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله راجعه سعيد الأفغاني، مؤسسة الصادق، الجزء الثاني، الطبعة الخامسة، 1378هـ
- 42- ابن يعيش، يعيش بن علي، شرح المفصل، قدمه إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب .

الهوامش:

- ¹ - روبرت دي بوجراند، النّص والخطاب والإجراء، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب القاهرة الطبعة الأولى، 1998م، الصّفحة 103
- ² - حسام أحمد فرج، نظريّة علم النّص، رؤية منهجيّة في بناء النّص النّثري، مكتبة الآداب القاهرة الطبعة الأولى، 1428هـ، 2007م، الصّفحة 17
- ³ - سعيد يقطين، انفتاح النّص الروائي، النّص والسّياق، المركز الثّقافي العربي الدّار البيضاء الطبعة الثّانيّة، 2001م، الصّفحة 16
- ⁴ - اختلف الباحثون في ترجمة تسمية هذا العلم والمسمى باللغة الفرنسيّة (Linguistique textuelle)، وباللغة الإنجليزيّة (text linguistics) فترجم : نحو النّص، وعلم النّص وعلم لغة النّص وعلم اللغة النّصي، ونظريّة النّص، وأجروميّة النّص، ولسانيات النّص... وتتبني هذه الورقة البحثيّة مصطلح لسانيات النّص لكونه أكثر شيوعاً لدى الدّارسين المحدثين.
- ⁵ - سعيد حسن بحيري، علم لغة النّص، المفاهيم والاتجاهات، مؤسسة المختار للنشر والتّوزيع القاهرة، 2004م، الصّفحة 136
- ⁶ - الأزهر الزناد، نسيج النّص، بحث فيما يكون الملفوظ نصاً، المركز الثّقافي العربي، دار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، 1993م، الصّفحة 14
- ⁷ - تون أيفان دايك، علم النّص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة سعيد حسن بحيري دار القاهرة للكتاب القاهرة، الطبعة الأولى، 2001م، الصّفحة 45
- ⁸ - محمود أحمد نحلة، نظام الجملة في شعر المعلقات، دار المعرفة الجامعيّة الإسكندريّة د. ط، 1991م الصّفحة 12
- ⁹ - محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربيّة، دار الشّروق القاهرة، الطبعة الأولى 1996م الصّفحة 38
- ¹⁰ - الجوهري، الصّحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الهدى للملايين الطبعة الثّالثة 1984م الصّفحة 426
- ¹¹ - ابن منظور، جمال الدّين، لسان العرب، دار صادر بيروت، الجزء الثّالث الطبعة الثّانيّة 1412هـ الصّفحة 203
- ¹² - محمود أحمد نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة، كليّة الآداب جامعة الإسكندريّة دار النّهضة العربيّة للطباعة والنّشر، الصّفحة 11

- 13 - محمد حماسة، بناء الجملة العربية، الصفحة 21
- 14 - سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة الجزء الثاني الطبعة الثانية، 1977م، الصفحة 78/77
- 15 - محمود نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربية، الصفحة 16
- 16 - سيبويه، الكتاب، الصفحة 78
- 17 - محمود نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربية، الصفحة 18
- 18 - المرجع نفسه، الصفحة 19
- 19 - المبرد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، الجزء الأول، 1388هـ الصفحة 7
- 20 - ابن السراج، أبو بكر، الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان الجزء الأول، الطبعة الأولى، 1405 هـ، 1985م الصفحة 70
- 21 - ابن جني، أبو الفتح، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، القاهرة، الجزء الأول 1952م الصفحة 34
- 22 - الإسترابادي، محمد بن الحسن الرضوي الدين، شرح الرضي على الكافية، تحقيق يوسف حسن عمر، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، د. ت طهران الصفحة 33
- 23 - ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغاني، مؤسسة الصادق، الجزء الثاني الطبعة الخامسة، 1378هـ الصفحة 490
- 24 - الزمخشري، المفصل في علم العربية، دار الجبل بيروت، الصفحة 06
- 25 - ابن يعيش، يعيش بن علي، شرح المفصل، قدمه إميل بديع يعقوب، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الجزء الأول، الصفحة 24
- 26 - المرجع نفسه، الصفحة 21
- 27 - المرجع السابق، الصفحة نفسها
- 28 - نقلا عن مجدي محمد حسين، الجملة الاسمية، دار ابن خلدون للنشر 2004م الصفحة 212
- 29 - ابن هشام، مغني اللبيب، الصفحة 492
- 30 - الزمخشري، المفصل في علم العربية، الصفحة 24
- 31 - المرجع السابق، الصفحة نفسها
- 32 - ابن يعيش، شرح المفصل، الصفحة 88
- 33 - عباس حسن، النحو الوافي، دار المعرفة بمصر، الطبعة الرابعة، المجلد الأول 1971م الصفحة 16

- 34- المبرد، المقتضب، الصّفحة 126
- 35- عبده الرّاجحي، التّطبيق النّحوي، مكتبة المعارف للنشر والتّوزيع، الطبعة الأولى 1999م الصّفحة 17
- 36- روبرت دي بوجراند، النّص والخطاب والإجراء، الصّفحة 88
- 37- فرديناند دي سوسير، دروس في اللّسنّيّة العامّة، تعريف صالح القرماضي ومحمد الشّاوش ومحمد عجينة، الدّار العربيّة للكتاب ليبيا تونس، 1985م، الصّفحة 188
- 38- سعيد بحيري، علم لغة النّص، الصّفحة 30
- 39- محمود نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة، الصّفحة 11
- 40- أندرية مارتينه، مبادئ اللّسانيات العامّة، ترجمة أحمد الحموي، المطبعة الجديدة دمشق، 1985م الصّفحة 124
- 41- زكرياء ميشال، اللّسنّيّة التّوليديّة التّحويليّة وقواعد اللغة العربيّة- الجملة البسيطة- المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، الطبعة الثّانيّة، 1986م الصّفحة 24
- 42- نقلا عن محمود نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة، الصّفحة 11
- 43- وهذه الفكرة نجدها عند التّوزيعيين من أمثال هاريس وبلومفيلد وغيرهما
- 44- محمود نحلة، مدخل إلى دراسة الجملة العربيّة، الصّفحة 14
- 45- أحمد مؤمن، لسانيات النّشأة والتّطور، ديوان المطبوعات الجامعيّة السّاحة المركزيّة بن عكنون الجزائر، 2002م، الصّفحة 207
- 46- زكريا ميشال، اللّسنّيّة، علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع الطبعة الثّانيّة، 1985م، الصّفحة 262
- 47- الأزهر الزّناد، نسيج النّص، الصّفحة 6
- 48- محمد الأخضر الصّبيحي، مدخل إلى علم النّص ومجالات تطبيقه، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون الصّفحة 18
- 49- محمد خطّابي، لسانيات النّص، مدخل إلى انسجام الخطّاب، المركز الثّقافي العربي الدّار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى، 1991م، الصّفحة 13
- 50- أحمد عفيفي، نحو النّص، اتجاه جديد في الدّرس النّحوي، مكتبة زهراء الشّرق القاهرة الطبعة الأولى، 2001م، الصّفحة 22
- 51- سعيد يقطين، تحليل الخطّاب الرّوائي، الزمن، السّرد، التّأثير المركز الثّقافي العربي د ط 1997م، الصّفحة 17

- 52 - كلاوس برينكر، التحليل اللغوي للنص، مدخل إلى المفاهيم الأساسية والمناهج ترجمة سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار القاهرة، الطبعة الأولى، 1425هـ. 2005م، الصفحة 27
- 53 - سعيد بحيري، علم لغة النص، الصفحة 110
- 54 - زتسيسلاف واورزنيك، مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى 2003م الصفحة 54
- 55 - محمد الشاوش، أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص المؤسسة العربية للتوزيع، كلية الآداب جامعة منوبة تونس، الطبعة الأولى، 1421هـ، 2001م الصفحة 83
- 56 - نقلا عن سعيد بحيري، علم لغة النص، الصفحة 108
- 57 - زتسيسلاف واورزنيك، مدخل إلى علم النص، الصفحة 56
- 58 - دومنيك مانفونو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن منشورات الاختلاف الجزائر، الطبعة الأولى، 2008م، الصفحة 127
- 59 - محمد الصبيحي، مدخل إلى علم النص، الصفحة 21
- 60 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها
- 61 - المرجع نفسه، الصفحة 22
- 62 - المرجع نفسه، الصفحة 57
- 63 - جوليا كريستفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب الطبعة الثانية، 1997م، الصفحة 21
- 64 - محمد الصبيحي، مدخل إلى علم النص، الصفحة 13
- 65 - الأزهر الزناد، نسيج النص، الصفحة 14
- 66 - تون أ، فان دايك، علم النص، الصفحة 45
- 67 - سعيد بحيري، علم لغة النص، الصفحة 14
- 68 - محمد مفتاح، ديناميّة النص، تنظير وإنجاز، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية 1990م الصفحة 47
- 69 - الأزهر الزناد، نسيج النص، بحث فيما يكون الملفوظ نصا، الصفحة 14
- 70 - محمود نحلة، نظام الجملة في شعر المعلقات، الصفحة 24/23
- 71 - أحمد المتوكل، الجملة المركبة في اللغة العربية، منشورات عكاظ المغرب، الطبعة الأولى 1988م الصفحة 7

- ⁷² - محمد إبراهيم عبادة، الجملة العربيّة، دراسة لغويّة نحويّة، دار المعارف الإسكندريّة الطبعة الأولى 1988م، الصّفحة 153
- ⁷³ - رابح أبو معزة، الجملة والوحدة الاسناديّة الوظيفيّة في النّحو مؤسسة رسلان سوريا الطبعة الأولى 2008م، الصّفحة 69
- ⁷⁴ - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها
- ⁷⁵ - المرجع السّابق، الصّفحة 76
- ⁷⁶ - أحمد المتوكل، الجملة المركبة في اللغة العربيّة، الصّفحة 9/8
- ⁷⁷ - رابح أبو معزة، الجملة والوحدة الاسناديّة الوظيفيّة في النّحو، الصّفحة 78/77
- ⁷⁸ - ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، الصّفحة 437
- ⁷⁹ - محمد حماسة عبد اللطيف، بناء الجملة العربيّة، الصّفحة 170/169
- ⁸⁰ - المرجع نفسه، الصّفحة 30
- ⁸¹ - المرجع السّابق، الصّفحة 49/48
- ⁸² - روبرت دي بوجراند، النّص والخطاب والإجراء، الصّفحة 88
- ⁸³ - المرجع نفسه، الصّفحة نفسها
- ⁸⁴ - مفتاح بن عروس، الاتساق والانسجام في القرآن، رسالة دكتوراه دولة مخطوط إشراف الحواس مسعودي وزويبر سعدي، قسم اللغة العربيّة وآدابها، 2008/2007 جامعة الجزائر الصّفحة 255

جوانب اللسانيات التداولية الحديثة وعلاقتها بالبلاغة العربية

أ. فتحي بوقفطان¹

تاريخ الإرسال: 02-12-2018 تاريخ القبول: 16-04-2019

الملخص: لقد خطى الدرس اللغوي عدّة خطوات منذ ظهور اللسانيات البنيويّة ثم تلتها نظريات ومدارس عديدة اهتمت باللغة ووظيفتها ومعانيها، ومن بين هذه النظريات نجد اللسانيات التداوليّة الحديثة فهي مكملّة للدراسات السّابقة لها وذلك من خلال اهتمامها بالكلام المكتوب والمنطوق، بالإضافة إلى دراسة المعاني والنّوايا التي تحملها هذه الخطابات من خلال ربطها بظروف إنتاجها والسّياق المحيط بها، وهذه الأخيرة ما انفكت تعاني من تداخل وتقاطع مع الحقول المعرفيّة الأخرى كعلم التّواصل وتحليل الخطاب وعلم الاجتماع اللّغوي وعلم النّفس اللّغوي، كما يعتبر علماء اللغة العرب القدامى أوّل من تناول مفاهيم وأسس الدّرس التّداولي منذ عدة قرون في دراستهم للنّحو والبلاغة وتفسير القرآن الكريم وربطه بأسباب التّنزيل، وذلك من خلال ربطهم للنّصوص بسياقاتها ومقاماتها المتعلقة بها، لكن هذه الدّراسات وردت في ثنايا مؤلفاتهم اللّغويّة والبلاغيّة القديمة، فالتّداوليّة هي التي تدرس النّص في سياقه التّخاطبي والتّفاعلي، وذلك بالتركيز على أفعال الكلام، وعمليات التّخاطب والتّفاعل، والافتراض المسبق والسّياق، والمقصديّة، والوظيفة، والتّأويل، والاستلزام الحوارية والحجاج والإضمار... وكل هذه الجوانب كانت موجودة في التّراث البلاغي العربي منذ عدّة قرون بمسمياتها أو مرادفاتها..

الكلمات المفتاحيّة: التّداوليّة، المقصديّة، التّخاطب، السّياق، التّراث.

¹ جامعة مولود معمري، تيزي- وزّو، الجزائر، البريد الإلكتروني: boukoftane@live.fr

Title of the article: aspects of modern pragmatics linguistics and its relation to Arabic rhetoric

Abstract: The linguistic lesson has taken a number of steps since the emergence of structural linguistics. Modern pragmatics linguistics is an extension of the previous linguistic studies. It is complemented by its interest in written and oral speech, in addition to studying the meanings and intentions of these letters by linking them to the conditions of their production and the context surrounding them , And pragmatics linguistics continued to suffer from overlapping and ramifications with other fields of knowledge such as communication, discours analysis, sociology, linguistics psychology. ancient Arab linguists the first to address the concepts and foundations of the pragmatics lesson several centuries ago in their study of the rhetoric and interpretation of the Holly Koran by linking them to the texts in their contexts and positions related to them, but these studies contained in the folds of their old literary and linguistic rhetoric. Pragmatics is a science who study the text in the dialogue and interactive context, the language acts, conversation and interaction, preconceived notions, context, intentionality, function, interpretation, argumentation, implicit etc. .. all of these have been present in Arab rhetorical heritage for centuries with their names or synonyms.

يعدّ الدرس التداولي من أحدث الفروع اللسانية التي تناولت الخطابات والنصوص المكتوبة والشفوية بربطها بالسياق الذي قيلت فيه بغض النظر عن الباث والمتلقي الذين حضيا باهتمام بالغ في الدراسات اللسانية للغة المتخصصة فالتداولية باعتبارها العلم الذي يدرس علاقة العلامات بمؤولّيها حسب شارل

موريس، ويعرفها عبد الرحمان الحاج صالح - رحمه الله - بعلم الاستعمال اللغوي وذلك لاهتمامها بالمعنى والسياق الذين غيبتهما الدراسات اللغوية السابقة لها، فالدرس اللساني التداولي متجذر في التراث اللغوي القديم لدى العلماء والبلاغيين العرب كالجاحظ والسكاكي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم.

وكل هذه الأمور تهتم بها الدراسة التداولية، وتهتم أيضاً بنوعية العلاقة الاجتماعية التي تجمع بين المتكلم والمخاطب، والتي تبتّ عبر وسائل الاتصال فيستعمل المتكلم عدّة طرق للإقناع والتأثير والأمر والإخبار... إلخ¹ وفي ضوء هذا التّصوّر تحاول اللسانيات التداولية الإجابة عن مجموعة من الأسئلة المهمة مثل: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط، حين نتكلم؟ من يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة، أو أخرى؟ وكيف نتكلم بشيء، ونريد شيء آخر؟ وهل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصدٍ ما؟²

هذه جملة من الأسئلة التي حاولت بحث إجابة عنها في التراث العربي من خلال بحث عن المواضيع والمصطلحات المتعلقة بالتداولية التي تناولها الباحثين العرب واختصرت فيه أهم عناصر الدرس التداولي الحديث، وذلك من خلال تقديم التعريفات والمصطلحات التي عرضت للتداولية، وكيف ظهرت وتكونت الدراسة التداولية، وأهم المفاهيم التي تهتم بها الدراسة للتداولية من مفهوم الفعل ومفهوم السياق ومفهوم الإنجاز، ثم انطلقت إلى الغرض الرئيس وهو دراسة مصطلحات جوانب الدراسة التداولية وجذورها في الكتب العربية، وكذلك أفعال اللغة والمعنى الحرفي والمعنى التواصلي.

ولكن على الرغم من الجهود البلاغية والدراسات التداولية لدى العرب حديثاً إلا أنه غلب عليها مسحة الترجمة والاستيراد المعرفي، لذلك سأحاول الانطلاق من الأفكار التي تركز على جذور النظرية التداولية التي أوردها العرب في

كتاباتهم والتي كانت غالباً ما تتميز بالعضوية في الطرح والمعالجة للأفكار لطبيعة التفكير العربي وبساطته في تلك القرون، فنجدهم قد تطرقوا لبعض المصطلحات والمفاهيم في ثنايا كتبهم كمصطلح السياق أو ما يسمى بالمقام لدى الجاحظ، مع الإحالة ما أمكن من الأسس الأخرى التي تخدم الموضوع مستعينا في الدراسة بكتب عربية ناقشت الموضوع مثل كتاب التداولية عند علماء العرب لمسعود صحراوي وكتاب آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر لمحمود نحلة ودراسة عبد الهادي الشهري لاستراتيجيات الخطاب، مع التمثيل بالأمثلة العربية من أجل تقريب الدراسة للغة العربية، وسأعتمد في هذا التقديم إلى تعريفات التداولية لدى بعض الدارسين العرب والغربيين، وأهم عناصر عناصرها، مع التركيز على مصطلحات أهم جوانبها وجذورها العربية: وهي الأدوات الاشارات والافتراضات المسبقة والاستلزام الحواري والأفعال الكلامية والحجاج والسياق والإضمار في ضوء السياقات المختلفة التي ترد فيها، باعتبار أن السياق هو المركز الرئيس لدراسة التداولية.

1- التداولية (Pragmatics): ترتبط التداولية بكثير من العلوم: كالفلسفة واللسانيات والاتصال وعلم الاجتماع وعلم النفس...إلخ. ولكن سمتها الغالبة تتجه إلى التوجه العملي، ونتيجة لتداخلها بكثير من العلوم فقد عرضت لها كثير من الترجمات في اللغة العربية منها: التبادلية والاتصالية والنفعية والذرائعية والمقصدية، والمقامية، إلى جانب التداولية.³ وأفضل هذه الترجمات (التداولية) إذ هي من تداول اللغة بين المتكلم والمخاطب: أي التفاعل القائم بينهما في استعمال اللغة.⁴ وما نلاحظه في هذه الترجمة هو طغيان الجانب التفاعلي الاستعمالي للغة بين المتحاورين أي في الخطابات الحوارية.

ويعود مصطلح التداولية (Pragmatics) إلى الفيلسوف الأمريكي موريس Morris الذي استخدمه سنة 1938م دالا على فرع من فروع علم العلامات

Semiotics غير أن التداولية لم تصبح مجالا يعتد به في الدرس اللغوي إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة هم (أوستين Austin، وسيرل Searle، وجرايس Grice).⁵

مفهوم التداولية عند العرب: لقد ورد مصطلح التداولية في القرآن الكريم عدّة مرّات في مادة (دول) كقوله تعالى "وتلك الأيام نداولها بين الناس 2 7 1 ..".⁶ ويرى المفسرون أن لفظ "التداول" استعمل بمعنى تغيير حال القوم من حال إلى حال أو التّعاقب والتّناوب على أمر ما، وكذلك التداولية في اللغة هي انتقال الكلام من شخص لآخر.

اكتسبت التداولية عدداً من التّعريفات، حسب اهتمام الباحث نفسه فقد يكون اهتمام الباحث اهتماماً بالمعنى في سياقه التّواصلي فيُعرّفها بأنّها: دراسة المعنى التّواصلي أو معنى المرسل، في كَيْفِيّة قدرته على إفهام المرسل إليه، بدرجة تتجاوز معنى ما قاله⁷ أو دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على قدرتها الخطابية⁸.

2- كما قد تعرف من وجهة نظر المرسل بأنّها: كَيْفِيّة إدراك المعايير والمبادئ التي توجه المرسل عند إنتاج الخطاب، بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللغوية، في ضوء عناصر السّياق، بما يكفل ضمان التّوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده، وتحقيق هدفه⁹.

ويرجع مصطلح التداولية إلى مادة "دَوَلَ"، وقد وردت في (مقاييس اللغة) على أصلين أحدهما يدل على تحوّل الشيء من لآخر، فقال أهل اللغة: اندال القوم إذا تحوّلوا من مكان إلى مكان ومن ها الباب تداول القوم الشيء بينهم إذا صار بعضهم إلى بعض.. وإنما سمي بذلك لأنه أمر يتداولونه، فيتحوّل من من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا"¹⁰.

وتلتقي جلّ معاني هذه الكلمة في معنى التحوّل والتناقل الذي يقضي وجود أكثر من حال، ينتقل بينها الشيء وتلك حال اللغة أيضاً، تنتقل بين الناس يتداولونها بينهم، ولذلك كان مصطلح التداولية لدى الدارسين العرب أكثر تداولاً وانتشاراً من المصطلحات الأخرى.

إذن فالتداولية فرع من علم اللغة يبحث في كيفية اكتشاف السامع مقاصد المتكلم وهو دراسة معنى المتكلم فمثلاً حين يقول شخص: أشعر بالإرهاق (فقد يعني أريد قسطاً من الراحة) وليس من الضروري أن يكون إخباراً بأنه متعباً أو طلباً للراحة، فالمتكلم كثيراً ما يعني أكثر مما تقوله كلماته¹.

ومن هنا فإن أشمل تعريف للتداولية هو: دراسة اللغة في الاستعمال أو في التواصل؛ لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئاً متأسلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، وإنما يتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، اجتماعي، لغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما².

ولذلك فإنه يمكن حصر العناصر التي يهتم بها المنظرون للتداولية في: المرسل وقصده ونواياه، والمتلقي، والرّسالة، والسيّاق، ثم أفعال اللغة.³ ومن أجل تأويل العناصر التي ترد في خطاب ما، من الضروري أن نعرف من هو المتكلم، ومن هو المستمع، وزمان ومكان إنتاج الخطاب⁴.

فلمعرفة المعنى المقصود للمتكلم المصرح به أو الضمني للخطاب يجب علينا معرفة المتكلم ومكانته الاجتماعية والمستمع ومكانته طبيعة العلاقة بينهما بالإضافة إلى الظروف المحيطة بهما من زمان ومكان والتي تشكّل السيّاق العام للخطاب .

فمعتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي ومن يشارك في الحدث الخطابي، والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين والوقائع الخارجية ومن بينها

الظروف المكانية والزمنية، والعلاقات الاجتماعية بين الأطراف هي أهم ما تركز عليه التداولية.¹⁵

3- جوانب الدرس التداولي وجذوره في التراث البلاغي العربي: عنت الدراسات التداولية بالاصطلاح على عدة جوانب الخطاب، ويمكن إرجاع هذه الجوانب إلى أربعة مسارات، يتضمن كلاً منها عدداً من الدراسات، وهذه المسارات هي: الإشارات، والافتراض المسبق، والاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية.¹⁶ وجل هذه الجوانب تطرق إليها اللغويون العرب القدامى في دراساتهم وكتبهم سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في كتب البلاغة والنحو والتفسير.

تبدو مبادئ وسمات التداولية واضحة المعالم في أعمال بعض الباحثين القدماء كالجاحظ (ت255هـ) في كتاب البيان والتبيين وابن جني (ت292هـ) في كتاب الخصائص وعبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) في كتابه دلائل الإعجاز والسكاكي (ت626هـ) في كتابه مفتاح العلوم، وكل هذه الأعمال عالجت بعض جوانب التداولية كقضية المقام والتأويل ومقتضى الحال والخبر والإنشاء وغيرها، حيث يرى الفيلسوف "سويرتي" في قوله: "النحاة والفلاسفة المسلمين والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلماً، رؤية واتجاهاً أمريكياً وأوروبياً، فقد وظف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوعة"¹⁷ وهذا السبق العربي رغم بساطة طرحه وخلوه من المنهج العلمي وقواعده وضوابطه إلا أنه تناول كل مستويات اللغة من الناحية الصوتية والتركيبة والدلالية وحتى التداولية الاستعمالية ومن بين القضايا التداولية التي أشار إليها العرب ما يلي:

1- السياق: يعتبر السياق من المكونات الأساسية لعملية التواصل من خلال توليده للوظيفة المرجعية للكلام وذلك لأهميته في كشف المعاني المباشرة وغير المباشرة المحمولة في الخطاب من خلال ربطها بالظروف المحيطة به كحالة

المخاطب والمخاطب وطبيعة العلاقة بينها والزمان والمكان وغيرها مما يساهم في فهم مقصدية الخطاب الحقيقية، وقد كان السياق محور اشتغال البلاغيين العرب من خلال قول بشر بن المعتمر في صحيفته: "ما يجب لكل مقام من مقال"¹⁸ واشتهرت بمقولة: "لكل مقام مقال" عند العرب، وذلك لأن المقال يختلف باختلاف ما يحيط به، وذلك حتى يتسنى له تحقيق وظيفته التواصلية بين المتكلم، وقد اصطلح العرب عليه باسم المقام وهو الموضوع الذي تقيم فيه المجلس والجماعة من الناس كما ورد في معجمي مقاييس اللغة ولسان العرب وهناك من يسميه بمقتضى الحال ويظهر ذلك في تعريف البلاغة بأنها: "مطابقة الكلام لما يقتضيه حال الخطاب مع فصاحة ألفاظه"¹⁹ وهذا التعريف يرى بأن الكلام البليغ هو الذي يتطابق مع السياق والظروف المحيطة به لإيصال المعنى كاملاً للمستمع، كما تكمن أهمية السياق في توضيح الخطابات التي تحتل تأويلات كثيرة والوصول للمعنى الحقيقي بسهولة.

إن عناصر المقام عند البلاغيين تتضح في المخاطب والمخاطب والخطاب وظروف كل واحد منهما، التي تتحكم في تعيين الدلالة والمناسبة التي قبلت فيها، وبتربط هذه العناصر وتفاعلها يتشكل سياق الحال أو المقام الذي يحقق عملية التواصل وقد عمل البلاغيون على ربط الصياغة بالسياق، وأصبح المقياس للكلام وحسنه مترابطاً بحسن مناسبته لما يليق به، فالحال و المقام عند البلاغيين مرتبطان بالبعد الزماني والمكاني، فالأمر الذي يدعو المتكلم إلى تقديم صياغة معينة إما أن تتصل بزمان الصياغة فهو يعبر عنه بـ(الحال)، وإما أن يتصل بالمحل فيسمى بـ(المقام)²⁰.

أمّا السياق عند الدارسين الغربيين فله تعريفات كثيرة تختلف من باحث لآخر، حيث نذكر على سبيل المثال لا الحصر تعريف "جون ديويوا" في "قاموس اللسانيات" على أنه المحيط، أي الوحدات التي تسبق أو تلحق وحدة محددة ويسمى بالسياق الشفوي، ويعرفه كذلك على أنه "جملة الشروط الاجتماعية التي

تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي واستعمال اللغة... وهو المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي والوضعية الثقافية والنفسية والتجارب والمعلومات الشائعة بينهما" ²¹.

لقد ركّز هذا التعريف على العناصر خارج لسانية في تحديده للسياق مركزا في ذلك على الظروف الاجتماعية المحيطة باللغة التي يتحقق بها التواصل بين المتكلم والمستمع.

2- الإشاريات: لا يخلو أي نص لغوي من الإشاريات فهي تساعد المتلقي من فك شفراته وفهم معانيه وهي أنواع: أسماء الإشارة، والأسماء الموصولة والضمائر، وظروف الزمان والمكان،.. وهي العلامات اللغوية التي لا يتحدد مرجعها إلا في سياق الخطاب؛ لأنها خالية من أي معنى في ذاتها، لذلك فقد كان العرب سابقاً يطلقون عليها المبهمات. ²² إلا أنّها عامل هام في تكوين بنية الخطاب فلها دور مهم في الإحالة إلى المعلومات ²³ الإشاريات هي تلك الأشكال الإحالية التي ترتبط بسياق المتكلم مع التفريق الأساس بين التعبيرات الإشارية القريبة من المتكلم مقابل التعبيرات الإشارية البعيدة عنه ²⁴ فكل فعل لغوي يكون ناجحاً إذا علم المخاطب قصد وإحالة العبارة، وإذا كان للمتكلم غرض ينبغي بموجبه أن يشكل المخاطب هذه المعرفة. ²⁵

فالمتكلم يشكل المركز الذي من خلاله يمكن أن نحدد مسألة القرب والبعد المادي والاجتماعي، بالنسبة لأطراف الخطاب ولتوضيح هذا الكلام سنعمد إلى أصناف الإشاريات وسنوضح من خلالها المفاهيم التداولية التي تكتنف كل صنف وهي: الإشاريات الشخصية، الإشاريات الزمانية، الإشاريات المكانية، الإشاريات الاجتماعية، الإشاريات الخطابية.

3. الافتراض السابق: وهو أن يوجه المتكلم حديثه إلى المخاطب على أساس مما يفترض سلفاً أنه معلوم له، وهو ما يسمى عند العرب بالإضمار، لأن العربي

يضمّر الكلام المتعارف عليه بين المتخاطبين للحذف والإيجاز، فإذا قال شخص لآخر: أغلق النّافذة. فالمفترض سلفاً أن النّافذة مفتوحة، وأن هناك مبرراً يدعو إلى إغلاقها، وأن المخاطب قادر على الحركة، وكل هذا موصول بسياق الحال وعلاقة المتكلم بالمخاطب.²⁶ وقد تطرّق إلى هذا علماء البلاغة العرب في أمهات كتب البلاغة إلى هذه المسألة في عدة مواضيع كالنّويرة وغيرها والأغراض البلاغية للخطابات المستعملة.

ويقرر فينيمان بأنّ لأيّ خطاب "رصيداً من الافتراضات المسبقة (يضم معلومات) مستمدة من المعرفة العامّة، وسياق الحال، والجزء المكتمل من الخطاب ذاته" فلدى كل طرف من أطراف الخطاب، رصيد من الافتراضات المسبقة، وهذه الافتراضات في تزايد مع تقدم عمليّة الخطاب.²⁷ وضمن رصيد الافتراضات المسبقة المصاحبة لأيّ خطاب، توجد مجموعة من المسلمات الخطابية.²⁸

والمعلومة المسلمة هي تلك المعلومة التي يعتبرها المتكلم قابلة لأن نحصل عليها، إما بالإحالة إلى ما سبق من النّص أو بالعودة إلى المقام.²⁹ وتشير أداة التّعريف إلى ما يسمى بالمعلومات السّابقة، بينما تؤدي أداة التّنكير وظيفته الإشارة إلى معلومات لاحقة، أي إلى وحدات لغويّة، لم يوضحها المتكلم بعد، مثل حين نقول:

. كان في قديم الزمان فتاة.. (إشارة إلى معلومة لاحقة يتوقّع السّامع أن

يخبر بها)؛

. كانت الفتاة جميلة ومتواضعة. (إشارة إلى معلومة سابقة).

لذلك فإن المتلقي يبني فهمه لمعنى السّياق على ترتيب معين.³⁰

فالتّعريف يعتمد على ما يفترضه المتكلم من علم السّامع بالأمر. والتّنكير على العكس من ذلك فهي أمور لا يعرف السّامع عنها شيئاً، أو لا يعرف أي أمر منها يراد بين أمور عديدة... وقد لا تكون معروفة عند المتكلم أيضاً.³¹

وقد التفت النّحاة العرب إلى دور المخاطب في الاتصال الكلامي، وجعلوا تعريف الشيء أو تنكيره محكوماً بالعلاقة المفترضة بين المتكلم والمخاطب، فإذا قدر علمه بالشيء استخدمه معرفة، وإذا قدر جهله به استخدمه نكرة،^{3 2} فالمنكر لا يحيل إلا على معلومات معجمية أو لغوية مخزونة في ذهن السّامع، أما المعرف فإنه يحيل أحياناً على المعلومات المعجمية واللغوية وأحياناً الاصطلاحية، وأحياناً على معلومات تخص أفراد معينين للسّامع سابق معرفة بهم.^{3 3}

4- الاستلزام الحواري: لقد عمد جرايس أحد المنظرين للتداولية إلى إيضاح الاختلاف بين ما يقال وما يقصد، فما يقال هو: ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية، وما يقصد هو: ما يريد المتكلم أن يبلغه السّامع على نحو غير مباشر، اعتماداً على أن السّامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، ونتيجة لهذا كان يفرق بين المعنى الصريح وبين ما تحمله الجملة من معنى متضمن فنشأت عنده فكرة الاستلزام.^{3 4}

وقد تناول البلاغيون العرب هذه الظاهرة البلاغية ضمن الحذف والإضمار والتقدير من أهم المقتضيات التي تخرج بسائر الجملة عن الظاهر، ويعرف مخلوف بن لعلام التقدير بقوله: "التقدير هي عملية ذهنية يجريها النحوي كلما صادف لفظاً خرج عن أصله وخالف نظائره في بابه فيسأل عما كان ينبغي أن يكون عليه ذلك المعدول عن أصله".^{3 5} ويفهم من هذا القول أنّ التقدير ظاهرة نحوية يلجأ إليها النحوي إذا كان اللفظ خارجاً عن أصله.

وقد اعتبر محمد عبيد أن التقدير من أهم مظاهر التأويل في النحو عند العرب.

5- الأفعال الكلامية: هذه الأفعال هي أفعال ينجزها الإنسان بمجرد التلفظ بها في سياق مناسب، بجملة نعبر بها عن مدلول إنجاز ذلك العمل.^{3 6} فليس التلفظ بالخطاب فعلاً تصويطياً فحسب، بل هو فعل لغوي، فهناك أعمال لا يمكن

إنجازها إلا من خلال اللغة، وهذا ما يجعل الخطاب فعلاً بمجرد التلّفظ به،³⁷ وذلك مثل: نلتمس الموافقة. شكراً. أنت طالق.

وقد فصل العلماء العرب في هذه النظرية (الأفعال الكلامية) في البلاغة عامة وفي علم المعاني خاصة في باب الخبر والإنشاء أثناء تقسيم السكاكي للجمل بين الخبرية والإنشائية، وقد قال القزويني: "وجه الحصر أن الكلام إما خبر وإنشاء، لأنه إما أن يكون له خارج يطابقه أو لا يطابقه، أو لا يكون له خارج، الأول الخبر والثاني الإنشاء" ويرى جلّ علماء البلاغة أن الخبر هو ما يحتمل الصدق أو الكذب وأما الإنشاء فهو ما لا يحتمل الصدق أو الكذب ويرد بصيغ مشهورة كالأمر والاستفهام والنداء والتعجب وهلم جرا ويمكن إدراجه ضمن ظاهرة أسلوبية العربية.

وكذلك تم تصنيف أوستين و سيرل للأفعال الكلامية ولكن بمسميات مختلفة فقط وهذا ما نلاحظه في التقسيم الآتي

تقسيم أوستين هذه الأفعال إلى:

1. أفعال إخبارية: تصف وقائع، وتكون صادقة أو كاذبة.
2. أفعال أدائية: ننجز بها في ظروف ملائمة أفعال، ولا توصف بصدق أو كذب، ويدخل فيها: التسمية، والوصية، والاعتذار، والشكر، والمواساة، والنصح، والوعد، والتّحدي، والإذن.. الخ.³⁸

❖ وقد وجد أوستين - أحد فلاسفة اللغة المنظرين للتداولية - أن الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال، تعد جوانب مختلفة لفعل كلامي واحد، ولا يفصل أحدها عن الآخر:

1. الفعل اللفظي: يتألف من أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي صحيح ينتج عنه معنى محدد وهو المعنى الأصلي، وله مرجع يحيل إليه.

2. **الفعل الإنجازي:** وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي. (كالتحذير من عمل شيء، أو رجاء عمل شيء...)

3. **الفعل التأثيري:** ويقصد به الأثر الذي يحدثه الفعل الإنجازي في السامع (أن يسعد، أن يغضب...)³⁹.

فعلى سبيل المثال: حين تقول أم لطفلها: (الكلب يعض) فإنها تنجز فعلاً قولياً لفظياً منطوقاً، وحين تقول الأم هذه الجملة فإنها تنطق تحذيراً في الوقت نفسه أي تنجز فعلاً إنجازياً، وحين يختار الطفل طريقاً آخر فإن ذلك هو النتيجة والأثر للمنطوق نفسه.⁴⁰

6- **الحجاج:** أصبح الدرس اللساني والنقدي يهتم بالخطاب التداولي والحجاجي لأن الوظيفة الحجاجية تهدف إلى إقناع المخاطب والتأثير فيه بهدف تعديل سلوكه، وهذا لا يتأتى إلا في ظل تواصل حقيقي بين باث ومتلق، أي عبر عملية تواصلية، وهذه الصفة نجدها لازمة في النصوص الروائية، وعلى هذا الأساس يمكن أن نلج إلى الجانب النظري، نحاول من خلاله تسليط الضوء على الدرس الحجاجي، وكذا على أهم المفاهيم والإجراءات الحجاجية، وهذا من خلال الآراء تعريفنا للحجاج لغة واصطلاحاً، ثم نخرج بعد ذلك إلى الأصول العربية التي بني عليها الحجاج، ولا شك في أن العرب كانت لهم الإسهامات والمجهودات الكبيرة في كلامهم وأشعارهم فأثرت وعمقت معرفتها بهذا العلم وأعلامه من أمثال "الجاحظ" و"السكاكي" و"ابن المعتز" و"ابن وابن رشيق" و"حازم القرطاجني" و"عبد القاهر الجرجاني"... وغيرهم.

والحجاج في اللغة : نجد ابن منظور قد أشار إلى مفهوم الحجاج في لسان العرب بقوله : « الحجة هي البرهان، وقيل الحجة هي مادوقع به الخصم، وقال الأزهري الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وحاجه محاجة وحجاجا: نازعه الحجة وهو رجل محجاج أي جدل والتّحاج التّخاصم،

وجمع الحجة : حجج وحجاج، وحجة يحجّه حجاً، غلبه حجته وفي الحديث:
" فحج آدم موسى أي غلبه بالحجة" ^{4 1}

والحجاج عند بيرلمان " Perelman" وتيتيكا " Tyteca": « طائفة من تقنيات
الخطاب التي تقصد إلى استمالة المتلقين إلى القضايا التي تعرض عليهم أو إلى
زيادة درجة تلك الاستمالة » ^{4 2}

والحجاج عند ماس " Maas" سياق من الفعل اللغوي " angh
handlungszusammen" « تعرض فيه فرضيات (أو مقدمات) وادعاءات مختلف
في شأنها، هذه الفرضيات المقدمة في ذلك الموقف الحجاجي هي مشكل الفعل
اللغوي» ^{4 3}. وما نلاحظه في تعريفات الدارسين الغربيين للحجاج أنها مستوحاة
من التراث اليوناني أو العربي، وجلّها ترمي إلى عملية التّواصل مع الطرف الآخر
بغية التأثير فيه.

الخاتمة: ختاماً لكل ما سبق نستنتج:

■ الدرس التداولي له جذور عميقة في التراث اللغوي العربي، ويظهر ذلك
جلياً في وجود كثير من جوانب التداولية في كتب وأعمال اللغويين والبلاغيين
العرب كالسياق والخبر والإنشاء والاستعارة والكناية والإضمار والحذف، وهذا
شيء طبيعي لطبيعة العلوم التي تتميز بالبناء والتراكم المعرفي الذي يبني على
ما سبقه من بحوث ونظريات

■ أنّ للدرس التداولي يعتبر نتاج تلاقح النظريات الفلسفية الحديثة
والدراسات اللسانية المعاصرة، موضوعه دراسة اللغة في الاستعمال مع مراعاة كل
الظروف المحيطة بها التي أهملتها الدراسات اللغوية السابقة.

■ تطرّق العلماء العرب لبعض جوانب التداولية في القرون الأولى لكن ليس
بشكل خاص وممنهج لكل مصطلح، وإنّما في ثنايا كتب اللغة و البلاغة وبصفة
عامة كمصطلح السياق والمقام.

- من أهم أهداف الدراسة التداولية: عدم الاعتماد على المعنى الحرفي لمعرفة مقاصد المتكلم.
- تقوم الدراسة التداولية على دراسة المعنى الذي يرمي إليه المتكلم من خلال ما يقول ويقصد، ودراسة عمليات الاستدلال التي يقوم بها المتلقي، وهو يحلل الخطاب حتى يصل للمعنى المطلوب.
- تتطلب الدراسة التداولية النظر في مضمون كلام المتكلم، وفق اعتبارات مختلفة منها: هوية المخاطب، ومكان الخطاب، وزمن الخطاب، والظروف التي تكتنف الخطاب.
- معتقدات المتكلم ومقاصده، وشخصيته وتكوينه الثقافي، ومن يشارك في الحدث الخطابي، والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين، والوقائع الخارجية ومن بينها الظروف المكانية والزمانية، ونوع العلاقة الاجتماعية التي تربط بين الأطراف، هي أهم ما تركز عليه التداولية.
- ويعتبر الهدف من هذا المقال المتواضع هو التعريف بأهم مصطلحات وأسس وجوانب التداولية وأبعادها، وكذلك أصولها في الدرس اللغوي العربي الذي مزال يُكتشف ويثبت سبقه لكثير من العلوم والمعارف، وكذا تقديم مقارنة بين الدرسين اللغويين العربي والغربي باعتبارهما من النظريات الحديثة التي تجاوزت الدراسات الشكلية للغة المتخصصة كمجال نظري وتطبيقي في الأوساط الجامعية والتعريف بها للأساتذة والطلبة .

الهوامش:

- ¹ بوقره، نعمان، التّصور التّداولي للخطاب اللساني عند ابن خلدون (مجلة الرّافد، يناير، 2006) 83.
- ² أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التّداوليّة، ترجمة: سعيد علوش (الرّباط، مركز الإنماء القومي 1986) 7.
- ³ الرّويلي، ميجان و البازعي سعد، دليل النّاقد الأدبي (الدّار البيضاء، المركز الثّقافي العربي، ط2 2000) 100.
- ⁴ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر (الإسكندرية، دار المعرفة، 2002) 52.
- ⁵ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، 9. و أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التّداوليّة، 13.
- ⁶ القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 140.
- ⁷ الشهري، عبد الهادي، إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغويّة تداوليّة (بيروت، دار الكتاب الجديد، ط1 2004) 22.
- ⁸ أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التّداوليّة، 8.
- ⁹ الشهري، عبد الهادي، إستراتيجيات الخطاب، 22.
- ¹⁰ بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السّلام هارون، دار الجيل ط1 1991، ج2، 314، 02.
- ¹¹ نحلة، محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص6.
- ¹² نفسه، 14.
- ¹³ بوقره، نعمان، التّصور التّداولي للخطاب اللساني، 83.
- ¹⁴ خطابي، محمد، لسانيات النّص مدخل إلى انسجام الخطاب (بيروت، المركز الثّقافي، ط1 1991) 297.
- ¹⁵ فضل، صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النّص (الكويت، عالم المعرفة، أغسطس، 1992) 99. و السّيد، عبد الحميد مصطفى، دراسات في اللسانيات العربيّة (عمّان، دار الحامد، ط1، 2004) 120. و أرمينكو فرانسواز، المقاربة التّداوليّة، 48.
- ¹⁶ الشهري، عبد الهادي، إستراتيجيات الخطاب، 24.
- ¹⁷ - محمد سويرتي، اللغة ودلالاتها، تقرّيب تداولي للمصطلح البلاغي، مجلة علم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، (الكويت)، المجلد 28، العدد 03، مارس 2000، ص30..

- ¹⁸ أبو عثمان عمرو بن الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخابشي مصر، ط135، 1975، 05.
- ¹⁹ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان، المكتبة التجارية الكبرى مصر، ط1960، 12، ص33، 32.
- ²⁰ محمد عبد المطلب، البلاغة الأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974، ص227.
- ²¹ J. Dubois: dictionnaire de linguistique. la rousse.paris 1973.pp120-121.
- ²² بلبع، عيد، التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس (فصول، ربيع، عدد 66، 2005)، 41.
- ²³ أرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، 41.
- ²⁴ الشهري، عبد الهادي، إستراتيجيات الخطاب، 81.
- ²⁵ دايك، فان، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني (الدار البيضاء، أفريقيا الشرق، 2000)، 266.
- ²⁶ نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، 26.
- ²⁷ ج.ب. براون و ج. يول، تحليل الخطاب، ترجمة: محمد الزليطني ومنير التريكي (الرياض، جامعة الملك سعود، 1997)، 96.
- ²⁸ نفسه، 97.
- ²⁹ نفسه، 214.
- ³⁰ مان، وفيهفجر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة: سعيد بحيري، 24.
- ³¹ نحلة، محمود أحمد، التعريف والتشكيك بين الدلالة والشكل (القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، 1999)، 81.
- ³² نفسه، 220.
- ³³ غربية، عبد الجبار، التعريف والتشكيك في اللغة العربية (حوليات الجامعة التونسية، العدد 24، 1985)، 155.
- ³⁴ نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، 33. و ليش، جيفري و توماس، جيني، اللغة والمعنى والسياق: البراغماتية (المعنى في السياق، 179).
- ³⁵ بن لعلام مخلوف (2012م): مبادئ في أصول النحو، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، ص210.

- ³⁶ طالب، عثمان، البراغمية وعلم التراكيب بالاستناد إلى أمثلة عربية (الجامعة التونسية، أشغال الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، 1986) 131.
- ³⁷ صحراوي، مسعود، الأفعال الكلامية عند الأصوليين (الرياض، مجلة الدراسات اللغوية، يوليو-سبتمبر، 2004) 199. وأرمينكو، فرانسواز، المقاربة التداولية، 60.
- ³⁸ أرمينكو، المقاربة التداولية، 61. ونحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، 44. و. ليش، وتوماس اللغة والمعنى والسياق، 175.
- ³⁹ الشهري، إستراتيجيات الخطاب، 75. مان، فولنجانج هانيه و فيهفجر، ديتر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة: سعيد بحيري (القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ط1، 2004) 55.
- ⁴⁰ مان، وفيهفجر، مدخل إلى علم لغة النص، ترجمة: سعيد بحيري، 55.
- ⁴¹ - ابن منظور: لسان العرب مادة (حجج)، دار صادر، بيروت، مج 2، ط1، 1997، ص 28.
- ⁴² Perlman, Olbrechts Tyteca, Traité de L'argumentation, Presses universitaires de Lyon (1981), p 92. 51-
- ⁴³ - Mass, Utz Sprachliches Handeln 2: Argumentation In: Hans Buebler (bersg), Sprache 2. Fische taschenbuch Verlag, Frankfurt (1973), SS. 158-178, S. 158

المحور الرابع

دراسات أدبية ونقدية



التشخيص الأدبي للغة في الرواية " البيت الأندلسي لواسيني الأعرج أنموذجا "

Diagnostic littéraire du langage dans le roman "la maison
andalouse " Waciny laredj.

١. قوادري عمر¹

تاريخ الإرسال: 11- 05- 2019 تاريخ القبول: 12- 09- 2019

الملخص : تكتسي الكتابة الروائية قيمتها ضمن التصور العام للغة الروائية نفسها، وذلك من خلال الاعتناء بخصوصيات البناء السردى العام، وتشخيص اللغة، بغرض إبراز الصيغ المتحركة في العملية التخيلية، وترتبط هذه العمليات كلها بتشكيل لغة السرد، وامتداداتها التشخيصية المتمثلة في الحوارات المتخللة لعملية البناء السردى. ما دامت الرواية تشتمل على مزيج من اللغات بل على أكثر من نسق لغوي .

من هنا يكون التشخيص الأدبي، وتشكله، ضروريا وذلك انطلاقا من البنية اللفظية التي تتوفر عليها الذات القائمة بالتلفظ (السارد أو المؤلف) ومن ثمة المراهنة على التشخيص اللغوي في عملية تشكيل العناصر التخيلية المؤطرة لفعل الحكى، ومستوياته التعبيرية، وتتجاوز اللغة وظيفتها الأولية التي هي نقل الواقع فقط، واستنادا إلى هذا المعطى يمكن طرح إشكالية الدراسة على النحو الآتي : كيف شخص واسيني الأعرج الواقع روائيا ؟ وهل شخصت رواية " البيت الأندلسي " الواقع جماليا وفنيا اللغات الاجتماعية المتعددة استنادا على الواقعية النصية ووفق المبدأ الحوارى لميخائيل باختين؟

¹ جامعة علي لونيسي- البليدة- الجزائر، البريد الإلكتروني: kouadriomar@yahoo.fr

Abstract : L'écriture narrative est valorisée dans la perception générale du langage narratif lui-même, en prenant en compte les spécificités de la structure narrative générale et du diagnostic du langage, afin de mettre en évidence les formules régissant le processus imaginatif, processus qui sont tous liés au langage narratif et à ses extensions diagnostiques. Tant que le roman comprend un mélange de langues, mais plus qu'un format de langue.

Par conséquent, le diagnostic littéraire et sa formation sont nécessaires, à partir de la structure verbale du soi-verbal existant (l'auteur ou l'auteur) et parier ainsi sur le diagnostic linguistique dans le processus de formation des éléments et du cadre imaginaire de l'acte d'expression et du langage expressif, et au-delà de la fonction première qui est Transférer la réalité uniquement, et sur la base de ces données, le problème de l'étude peut être posé comme suit: comment la personne est-elle un romancier en réalité? Le roman "La maison andalouse", à la fois esthétique et artistique, a-t-il été identifié à de multiples dialectes sociaux basés sur le réalisme textuel et le principe de dialogue de Mikhail Bakhtin.¶

Mots clés : écriture كتابة, langage لغة, spécificité خصوصية, structure بناء , réalité واقع

المقدمة : تعدّ اللغة المميز الحقيقي للرواية من باقي الأنواع الأدبية الأخرى كما أنّها المادة الشكلية التعبيرية التي تنبني عليها الرسالة الإبداعية، التي يرسلها المؤلف إلى القارئ عبر جمل سردية ووصفية وبلاغية، لذلك يتم التركيز عليها كثيرا مادام الفكر الحقيقي يكمن فيها ولا يعدوها ومادامت شفرة وسيطة بين المبدع والمتلقي لأنّها تحمل نوايا المؤلف ومقاصده ورؤاه

وتأويلاته المباشرة وغير المباشرة باستعمال مستنسخات تناصية أو أساليب إيحائية وانزياحية ورمزية. فتصير اللغة بذلك: "نواة الخطاب ومنتهاه، وفي الوقت الذي تنقل الحالات وتسرد الأحداث بأشكال متباينة، يقوم بسرد اللغة مانحا إيّاها شخصيتها المستقلة. وهكذا تصبح اللغة خطابا له نظامه وتمفصلاته، وأبعاده التي لا يكشفها النص الظاهر ببساطة، كونها مؤسسة على مرجعيات مركبة ومتشعبة تحيل المتلقي على أنظمة بنيوية ومعرفية ليس من السهل تفكيكها وإعادةتها إلى الأصول اللسانية التي أنتجتها"¹

هذا ما جعل الناقد الروسي "ميخائيل باختين" يعتبر الرواية شكلا تلفيقيا مختلطا وتشكيلا هجيناً، يقبل دخول عناصر شعرية محضّة إلى جانب عناصر بلاغية متعددة ولذلك يمكننا اعتبار الرواية هي التنوع الاجتماعي للغات، وأحيانا اللغات والأصوات الفردية، تنوعاً منظماً أدبياً. وتقضي المسلمات الضرورية بأن تنقسم اللغة القومية إلى لهجات اجتماعية وتلفظ متضع عند جماعات ما، ورطانات مهنية ولغات للأجناس التعبيرية وطرائق كلام بحسب الأجيال والأعمار والمدارس والسلطات، والنوادي والموضات العابرة وإلى لغات للأيام الاجتماعية والسياسية التي أنتجتها."²

نفهم مما سبق أنّ الرواية من وجهة نظر "باختين" ظاهرة اجتماعية تعكس ما يحدث في الواقع الإنساني بين الأفراد والجماعات لذلك فإنّ الروائي يعتمد في العملية الإبداعية على التنوع الكلامي وأساليبه المختلفة، التي تحمل في طياتها أفكاراً إيديولوجية تتصارع لتنشئ الحوار الاجتماعي، "فالحوار ليس مجرد تبادل آلي للكلام بين شخصيتين بشأن موضوع معين... إنّ الحوار هنا يكون بمعنى الحوارية".³

يدل هذا المسعى على أنّ الروائي يجتهد في تفعيل العلاقة الحوارية عن طريق التنوع الكلامي وأساليبه بغرض إنشاء صورة اللغة الروائية في إطار ما اصطلح "ميخائيل باختين" على تسميته بالتشخيص الفني للغة.

وإذا كانت الرواية الجزائرية في حقبة زمنية معينة قد اتخذت اللغة أداة تواصل ونقل الأفكار والرؤى، فإنّ روايات واسيني الأعرج تصبو لإيجاد حركة ضمن إطار تطور الرواية الجزائرية المعاصرة، فهي بحث دائم وأفق مفتوح لهذه التّنويعات ما جعلها متميزة ومستقلة في تنظيم تقنيات اللغة والأساليب والرؤى، إنّها تؤسس لمرحلة الإنسان الجزائري الذي يحمل تناقضات فكرية واجتماعية وايدولوجية تغذيها الخلافات والإحباطات والخيبات والأزمات .

استطاع الخطاب الروائي الواسيني أن يضع لنفسه بنيات جمالية تقوم على تجاوز المؤلف فكان محاولة اعتصرت الواقع الجزائري، مضافا تصورا جديدا للبعد الجمالي في العمل الإبداعي . والكتابة عند واسيني " تأخذ بالمتغيرات وتعاين موقفه من تراثه المعرفي الثري، وكأنّه بذلك يسعى إلى انبثاق الرواية في شكل مغاير، من خلال ضرورة إبداء نوع من البعد عن القيم السائدة، وهذا يمثل جانبا مهماً للحدث الأدبيّة التي تعني قبل كل شيء الاشتغال على اللغة " .⁴

يستثمر الخطاب الروائي عند واسيني الأعرج في التعدد اللغوي والتعدد في الأصوات والأجناس المتنوعة، والتّصورات والأساليب اللغوية، وهذا ما يضمن للرواية الاقتراب من الطابع الحوارية . لذلك سنحاول التّطرق إلى الرّكائز التي يقوم عليها التّشخيص الأدبي للغة في رواية البيت الأندلسي "، والكشف عن تمظهرات هذا التّشخيص في ثنايا الرواية :

أولا- التّهجين: (hybridisation) يعد التّهجين إحدى الطرائق الأساس لبناء صورة اللغة في الرواية وكلما طبقت بطريقة واسعة وعميقة كلما اتخذت اللغة طابعا موضوعيا".⁵ ويعرفه " ميخائيل باختين " قائلاً : " هو المزج بين لغتين داخل ملفوظ واحد، والتّقاء وعيين لسانين مفصولين بحقبة زمنية وبفارق اجتماعي أو بهما معاً داخل ذلك الملفوظ " .⁶

تعتبر هذه الطريقة طريقة أدبية قصديّة إلا أنّ التّهجين اللاإرادي، اللاواعي هو إحدى الصيغ الهامة للوجود التاريخي ولصيورة اللغات، علماً أنّ الكلام واللغات

يتغيران تاريخياً عن طريق التّهجين وعن طريق مزج مختلف اللغات المتعايشة داخل نفس اللغة".⁷

وفي الفصل الرابع من الرواية يحكي السّارد عن حادثة قتل الرّاقصة "سبيلا" قائلاً: "لم تمر حادثة قتل سبيلا بسلام على البيت الأندلسي، فقد ضخمها الإسلاميون الذين كانوا يستعدون للانتخابات أكثر لإظهار فساد النظام أصبحت مثالا للخراب الذي لحق بالأخلاق والمؤسسات"⁸، نلاحظ في هذا الملفوظ تركيباً هجيناً، ينتسب من حيث سماته النحويّة والتأليفيّة إلى متكلم واحد، يمثله في الرواية صوت السّارد، ولكن في حقيقة الأمر فإنّ في طياته يتحد صوتان ونبرتان ولغتان ووعيان، يمكن إيجازهما واختصارهما على النحو الآتي:

أ- لغة السّارد ووعيه: ويتجلى هذا في كلامه وتقديم وجهة نظره إثر مقتل "سبيلا" وما نجم عن تلك الحادثة.

ب- لغة الإسلاميين ووعيه: الذين جعلوا من هذه الحادثة ذريعة للتجريح وانتقاد النظام السياسي للبلاد، ومبرراً لجرائمهم الدّمويّة وما كانوا يمارسونه على الأبرياء من قتل وتعذيب.

امتزجت في المقطع السّابق لغتان في ملفوظ واحد - لغة السّارد ولغة الإسلاميين - ما ولد امتزاج وعين لسانين يفصل بينهما فارق اجتماعي يتصارع على أرضيته وعي المثقف الذي ينظر للعنف نظرة ازدراء وسخط ووعي هاته الجماعة الإسلاميّة التي ترى في العنف طريقة لتغيير الواقع السياسي في الجزائر. إنه تركيب هجين متناهب ومشتت بين إرادتين لغويتين مفردتين.

ومما جاء في الفصل الأول قول السّارد: "أنا ماسيكا. وإذا شئتم بنت السّبنيوليّة، كما سماني أصدقائي في المدرسة. لا لأنّ أُمّي إسبانيّة فهي مثلي نبتة هذه الأرض البحريّة، ولكن لأنّ أصولنا موريسكيّة مثل الآلاف من سكان الجزائر"⁹، تحضر في هذا المقطع لغتان ووعيان يتشابكان ويتحاوران في جوار واحد، هما وعي ماسيكا عبر لغتها كما يبرز ذلك في بداية المقطع، ووعي

الأصدقاء من خلال لغتهم واللافت للانتباه هو غياب تلك الحدود الشَّكلية الفاصلة بين اللغتين وانصهارهما داخل ملفوظ واحد مفصولين بفارق زمني استطاع الكاتب من خلال الجمع بينهما من خلق بنية هجينة مزدوجة اللغة والصوت .

وقد تمكن " واسيني الأعرج " من خلال توظيف هذه البناءات الهجينة إضفاء لمسة التعدد الصوتي الذي أسهم في تشييد تنوع كلامي ينتمي في جوهره إلى فئات متباينة من حيث المستوى الاجتماعي والثَّقافي، ما أكسب الرِّواية ذلك البعد الحوارى وابتعد عنها عن سلطة الصوت الواحد .

ثانيا- الأسلبة : (la stylisation) إنّ الأسلبة صورة أخرى للتنوع اللغوي يعطيها باختين وصفاً آخر حين يجعلها بمثابة إضاءة متبادلة بين اللغات، وهي إضاءة لا يشترط فيها- كما هو الشأن في التَّهجين- حضور لغتين في ملفوظ واحد، وإنَّما تظهر في ملفوظ لغة واحدة، غير أنَّها مقدمة في صورة آنية، ولا يمكنها بالطبع أن تحصل على هذه الصورة الآنية إلا إذا قدمت بواسطة وعي لغة آنية خفية، تعمل بشكل غير مباشر".¹⁰

" إنّ الإضاءة المتبادلة المصاغة في حوار داخليا، التي تنجزها الأنساق اللسانية في مجملها، تتميز عن التَّهجين بمعناه الخاص، ففي الإضاءة المتبادلة لا يكون هناك توحيد مباشر للغتين داخل ملفوظ واحد، وإنَّما هي لغة واحدة محيَّنة وملفوظة إلا أنَّها مقدمة على صورة اللغة الأخرى . وهذه اللغة الثَّانية تظل خارج الملفوظ ولا تتحين أبدا .

تعد الأسلبة الشَّكل الأكثر تميزا ووضوحا لهذه الإضاءة المتبادلة ذات الصيغة الحوارية الدَّاخلية، وفيما يلي بعض الأمثلة من رواية " البيت الأندلسي " التي توضح ذلك :

" نعم أتحمّل ذلك أمام الله، واستطيع أن أقسم على المصحف الكريم " .¹¹

يستحضر السَّارد من خلال هذا القول على لسان " ماسيكا "، في سياق حديثها

عن حادثة دفن "مراد باسطا" في مقبرة ميرامار، أسلوب ولغة الشهود في المحكمة عند استدعائهم للشهادة في القضية المرفوعة، فعبارة " أقسم على المصحف الكريم " تستدعي لغة الشهود الذين ينتمون إلى مجتمع جزائري يقدس القسم ويلجأ فيه المتهم إلى القسم كلما انغلقت في وجهه سبل إقناع الآخر بالحقيقة التي يقولها، حتى يبرئ نفسه ويثبت صدقه، وفي سياق آخر يقول السارد على لسان " الحاج إبراهيم " في حوار مع ابنته التي نبهته إلى صغر الفتاة التي سيتزوجها " لا حياء في الدين يا ابنتي، المرأة هي نصف الدين عندما تصبح قادرة على الفراش والحمل، ليست صغيرة . " ^{1 2}

إذا تأملنا هذا الملفوظ بإمعان فإننا نقف أمام لغتين في ملفوظ واحد، لغة تقف إلى جانب أخرى . واضح أن اللغة الأولى ليست للحاج إبراهيم حين قال " لا حياء في الدين يا ابنتي " بل هي لغة المثل القائل " لا حياء في الدين " ووقوله : "، المرأة هي نصف الدين عندما تصبح قادرة على الفراش والحمل، ليست صغيرة " هي لغة الحديث الشريف " الزواج نصف الدين " . ^{3 1}، قام الحاج إبراهيم بأسلوبها وفق ما يخدم نواياه، حيث نقف على هذه اللغة بوصفها أسلوبية لمادة لغوية تنتمي للغة أجنبية عنه مؤسلة من طرفه . إن المتلفظ في هذا الملفوظ هو من يؤسلب لغة أجنبية عنه، لا يفهم قصد ابنته ولغتها في السياق الذي وردت فيه مع أنهما ينتميان لنفس الديانة، إنه يشكل صورة عن الإرادة الأدبية للمؤسلب التي تكشف اختلافا وعيويا حول الإيديولوجية الواحدة، موقفا معاديا لمن يرى في الزواج بفتاة صغيرة خطأ لا ينبغي الوقوع فيه، يجابهه ذلك الموقف الرافض لفكرة زواج المسنين بالشابات لأنه يلحق ضررا بالزوجة الصغيرة فيلحق ذلك باللغة المؤسلبة فضحا وتفسخا تمارسه اللغة المؤسلبة عبر نبرتها أو تشديدها المتجاوز للوعي المؤسلب "المرأة هي نصف الدين عندما تصبح قادرة على الفراش والحمل، ليست صغيرة " .

و في هذا الملفوظ المؤسلب إشارة ضمنية لأسلوب بعض من رجال الدّين والأئمة وطائفة من المجتمع الجزائري، استحضرها المؤلّف ليعرض تصرفات الكثير منهم إذ يستندون إلى الدّين كوسيلة وذريعة لنيل مبتغاهم . وقد اكتست هذه المقاطع السّردية أهميّة من خلال تشخيصها للأسلوب اللساني لدى الآخرين ، " فالأسلوب هو شكل التّفكير ومادته هي اللغة في ألفاظها وتراكيبها التي تختلف من صوت إلى صوت ومن شخصيّة إلى أخرى صور الفكر ورؤى العالم المتناقضة أو المتضاربة . " 14

فالذي قام بتشخيص هذا الوعي اللساني في هذه المقاطع السّردية هو الكاتب، إذ أعاد خلق الأسلوب المؤسلب، بحيث نلمس وراء لغة هذه المقاطع لغات متخفية هي لغة القدماء، فالكاتب أعاد أساليبها ونقلها في حلة جديدة تعبر عن شكل أني يمثله هذا الملفوظ (أ، ب) أي أنها أصبحت لغة " محيئة " وهي الصفة التي قال عنها "ميخائيل باختين"، إنّ اللغة في هذا الملفوظ تحمل في أحشائها لغات متوارية لكن علامات وجودها ظاهرة في صورة اللغة المشخصة.

هذا الوعي اللساني الثّاني للمؤسلب ومعاصريه يباشر عمله اعتمادا على المادة الأولى للغة المؤسلبة، ولا يتحدث المؤسلب عن موضوعه إلا من خلال تلك اللغة التي سيؤسلبها وهي أجنبية بالنسبة إليه .

لكن هذه اللغة الأخيرة هي نفسها مقدمة على ضوء الوعي اللساني المعاصر المؤسلب، إنّ اللغة المعاصرة تلقي ضوءا خاصا على اللغة موضوع الأسلبة، عبر استخلاص بعض العناصر منها، وترك البعض الآخر في الظل.

وتوجد نبرات خصوصيّة ومقامات تناغميّة بين اللغة موضوع الأسلبة وبين الوعي اللساني المعاصر، وباختصار إنّها تخلق صورة حرة للغة الآخرين لا تترجم إرادة ما سيؤسلب فحسب، بل أيضا الإرادة اللسانية والأدبية المؤسلبة " 15

هكذا فقد عرفنا كيف نقل المؤلّف هذه الأقوال من نصّها الأصلي إلى نصه فاستعار من عدة مناهل، وذلك من أجل أن يتمكن خطاب المؤلّف من تمرير صوته

في إطار تفاعل نصي قصدي يرمي من خلاله المؤلف - باعتباره منظما للأصوات والحكايات داخل الرواية - إلى ردم الحدود بين الخطابات المتباعدة زمنيا، والتعبير عن رؤيته عبر تكثيف الرمزية والإيحاء وتجاوز التوظيف الشكلي للغة".¹⁶

ثالثاً - المحاكاة الساخرة / الباروديا :يتحدث المؤلف في المحاكاة الساخرة بلغة الآخرين، يدخل كلماتهم وفي طياتها اتجاهها دلاليا معارضا للنزعة الغيرية"¹⁷.

ويرى "ميخائيل باختين" أن" المحاكاة الساخرة تشبه الكلمة الغيرية التهكمية، ذات الدلالة المزدوجة التي تنقل النزعات المعادية لها، نجدها في الحوارات اليومية والمحادثات المختلفة، فعندما نكرّر ما أكّده محاورنا نحمل كلامنا قيمة جديدة ونضيف عليها نبرات متعددة، كالشك والاستياء والتهكم، والسخرية"¹⁸

تجلت المحاكاة الساخرة بشكل واضح عند "الأعرج" في " البيت الاندلسي" الذي يمثل محور الصراع والنزاع بين ثنائيتين : إحداهما تنادي بالبقاء والاستمرار لهذا البيت "مراد باسطا" والأخرى تسعى لهدمه وإزالته " أصحاب النفوذ والسلطة ". وقد أتاح هذا الصراع توليد وإنتاج مواقف وأحداث، استحضرت من خلالها الكاتب على لسان شخصياته أسلوب السخرية من واقع ساد فيه الظلم والفساد، وأصبح الجشع والمال هو قانونه الذي يصنعه، ويتحكم في زمام الأمور .

على غرار ما ورد في الرواية على شكل استفهام إنكاري، لا يقصد منه طلب المعرفة، بل يتضمن صفات سلبية تلبست بها ذات السارد . " شايفة يا سيكا ؟ يظنوننا عاشقين هائمين على حافة البحر، ويتساءلون في أعماقهم كيف استطاع شيخ يائس أن يقتنص أجمل امرأة في المدينة ؟ "¹⁹

توضح لغة "مراد باسطا" أنه لا يعتد بلغة الآخرين بسبب تناقض مدلولاتها كما تبيّن ذلك الملفوظات الواردة بين ظفرين ، فلغة الآخرين في

نظر "باسطا" غير منطقية، لذلك تسعى لغته إلى تحطيمها وفضحها "حمقى لو فقط يدرون ولكنهم لا يدرون طبعا" ²⁰ وهذا أيضا ملفوظ يجمع وعين متناقضين تحيل عليهما كلمتان متناقضتان لشخصيتين، فالعلم والدراية هو ما يتصور "باسطا" أنه يتصف بهما مع زوجته، بينما الجهل والحماسة هي ما ينسب لعواذله .

و في ملفوظ " ماسيكا " محاكاة ساخرة للغة " الموظف الجديد " في المكتبة الوطنية بالجزائر : " يا ابن آدم تخاف ممن ؟ السّماء صافية والدنيا هانية . المخطوطة سرقت منذ عهد نوح ومديرك العظيم سجن ولن يخيفك بعد اليوم " . ²¹ تحضر لغة " الموظف " فيما تنقله عنه " ماسيكا " ، وهي تقول أنه خائف من مديره المسجون وتؤسب لغته لكنّ الأسلبة البارودية لخطاب الموظف ولغته تظهر منذ بدء ملفوظ " ماسيكا " بالاستهزاء منه ، فتحول ملفوظ " الموظف " إلى موضوع سخرية لمخالفته الحقيقة التي تؤمن بها ، وفي ذلك اختلاف مطلق بين نوايا اللغة المشخصة ونوايا اللغة المشخصة .

إنّ المحاكاة الساخرة تولّد في كل مرة ثنائية صوتية داخل الكلمة الواحدة مما يجعل الخطاب الروائي ثريا بالتنوع الكلامي ، ويفعل فيه خاصية من خصائص النموذج الحوارى .

رابعا- الأجناس المتخللة : يدخل النصّ الروائي في علاقات تناصية مع نصوص قديمة أو نصوص حديثة ، تعمل على تأثيث النصّ المركزي وتسهم في توسيع دائرة التنوع الكلامي وأساليبه ، وتجدد شكله وبناءه العام وتعمل بذلك على كسر وحدة أسلوبه ، وتساعد على إقامة نمذجة للسرد الروائي .

" ففي الكتابة الفنية المعاصرة عموما نوع من تداخل الأجناس الأدبية فيما بينها ينجم غالبا عن إحساس الكاتب أو عن ثقته بعجز الجنس الواحد على استيعاب ما يريد طرحه ، وعكسه من تجربته الشعورية أو الإبداعية فيختلط الشّع بالحوار ، والحوار بالحكي السوي والنقاش والتّظهير " . ²²

وهنا تستعير الرواية معرفتها من المعارف الأخرى، فتجمع القديم والحديث وتربط بينهما في تفاعل حي ومستمر، لهذا كله تكون الرواية الجنس الأكثر شبابا بين الأجناس الأدبية الأخرى، تأخذ كل ما هو جديد وتلتقط الجديد الذي لم يتكون وتنبئ بجديد لا يراه غيرها، معلنة أنها تخاطب المستقبل قبل أن تحاور الحاضر، الذي تتغير فيه".^{2 3}

وفي " البيت الأندلسي" يدرج المؤلف عن طريق الساردين والشخصيات خطابات وأشكال تعبيرية متنوعة، تصب في شرايين المحكي الروائي، فتغذي سرديته ووصفه وأهمها :

أ- الأجناس الأدبية :

1- الخطابة : إن الخطابة الواردة في رواية " البيت الأندلسي " تعكس الطابع الحوارى للغات، لأن الخطابة هنا تعمل على حث الشعب على العمل والنصيحة والالتزام بالقوة واليقظة، مما كثف الأسلوب اللغوي فيها بالاعتماد على المترادفات والتكرار والتعبير بجمل قصيرة .

وقد تسلل هذا الجنس الأدبي إلى كيان رواية " البيت الأندلسي "، وانصهرت فيه لدرجة يصعب فيها التمييز بينهما، ووردت الخطابة على لسان ممثل الديوان العقاري الجديد، في القاعة البيضاء في اجتماع كبير مع اللجنة الوطنية للتراث و" مراد باسطا " لمناقشة قضية الحريق الذي نشب في البيت الأندلسي ينقل السارد قوله : " بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . وقل لن يصيبنا إلا ما كتبته الله لنا . وبعد، قضية اليوم هي قضية السكن الذي كاد يؤدي احتراقه إلى كارثة، الحمد لله أن رجال المطافئ، العين الساهرة التي لا تنام، كانوا هناك في اللحظة المناسبة " ^{2 4}

ورد هذا المقطع من الخطبة ليؤكد به المؤلف حجة وقناعة وإنارة الخطاب بإضاءات مختلفة، على أساس أن الرواية استعارت من الخطبة أسلوبها وأدوات

زينتها التي تكسر رتابة السَّرد، والأحادية الصوتية واللغوية .

2- الوصية: وظف الأعرج خطاب الوصية لدعم التنوع الكلامي في ضوء تكثيف الكلمة الغريبة، وضمنها يمكن أن نستمتع بلغة بليغة وبأساليب عديدة .
فها هو "مراد باسطا " منادي في أهله وأحبائه، ومحض للنصيحة " حافظت على نرف جدي الرُّوخو ونداءته التي أكلتها البحار وسكنتنا: حافظوا على هذا البيت فهو من لحمي ودمي. ابقوا فيه ولا تغادروه حتى ولو أصبحتم خدما فيه " ²⁵.
إنَّ أساليب هذه الوصية متنوعة تهدف إلى التَّغريب في العمل بها، أو التَّنبية لعاقبة من يترك إرثه يضيع، إرث كان نتيجة تعب وكد للأجداد السَّابقين وجاءت اللغة في هذا المقطع من الوصية التي قدمها "مراد باسطا " امتدادا للسَّلالة الموريسكية في الجزائر، فمزجت بين الدَّاخل والخارج، وبين الماضي والحاضر وتكلفت بعرض الشاعر والأحاسيس التي تجري في العوالم الدَّاخلية للذات. إنَّ المؤلِّف وهو ينتقل من معاناة جده ونداءاته التي جسدت الوصية إلى الأمانة التي صارت في رقبته اليوم، يفجر إمكانات اللغة ليضيء بنية السَّرد . فاكسبت هنا حياة جديدة أكثر حيوية ودلالة، فدخلت معترك الحياة المادية المحسوسة .

3- الأمثال والحكم : تعتبر الأمثال والحكم من أكثر الأشكال التَّعبيرية انتشارا وتداولاً بين عامة النَّاس حيث يتم تناقلها بين الأجيال وكل جيل يضيفها حسب احتياجاته وتفاعله مع الزمان والمكان، ولهذا فإنَّها تعبر عن حياة الجماعة التي تتداولها وترسم هويتها الحضارية ونمط تفكيرها ومنظومة قيمها، إنَّها مرجع مهم لإبراز خصوصية الأمم وتميزها الثقافي ومعاييرها الأخلاقية .
وتجتمع فيها أربع مميزات هي : "إيجاز اللفظ، إصابة المعنى، حسن التَّشبيه جودة الكفاية : فهو نهاية البلاغة." ²⁶

نقرأ في "البيت الأندلسي " بعض الأمثال والحكم، التي تنقل لغة الآخر المتنوعة والمكثفة لمختلف العناصر الروائية التي تتكامل فيما بينها، وأضفت عليها إمكانات

فنية لتفسير وتأويل دلالة الخطاب الروائي، وهذا ما نلمسه في جزئية من الحوار الذي دار بين "مراد باسطا" وحفيده "سليم" يقول السارد: "ألم تفهم يا سليم؟ فاقد الشيء لا يعطيه؟"، يستدعي هذا المقطع مثلاً يضعه المؤلف كمقارنة بين تمكن الإيطاليين في ترميم الأماكن الأثرية والدليل مدينة البندقية وإنقاذها من الغرق، وبين غياب هذه الثقافة العالية عند المسؤولين الجزائريين، التي لا تهمهم ثقافة بلدهم بقدر ما تهمهم مصالحهم الشخصية الضيقة. وهذه المدن الأثرية تعتبر صرحاً تاريخياً للأمة، وذاكرتها، فلا نتصور أمة بلا تاريخ لذلك الواجب عليها أن تعيد تاريخها من جديد.

كما وردت الأمثال بلغة شعبية دارجة منها ما نقله السارد على لسان الحاج إبراهيم: "الرفقة تقتل السبع في هذه الغابة"²⁷، في هذا المقطع إشارة إلى ضرورة التعاون والتكاتف ضد القائمين على مشروع تحويل البيت الأندلسي إلى برج عظيم، فيحضر هنا التراث المتمثل في "البيت الأندلسي" جنباً إلى جنب مع التراث اللغوي المتمثل في هذا المثل الشعبي، وتتخلل هذه الأمثال المقاطع السردية في الرواية وتحضر في سياق الحكي والحوار المتبادل بين الشخصيات على غرار ملفوظ "مراد باسطا": "أنا متألم جداً. أعرف أن الطمع يفسد الطبع".²⁸

كما يظهر المثل في حديث "الرئيس حميدو كروغلي" إذ قال: "أنا كما تعرفني عاش ما كسب مات ما خلى. كنت سعيداً أنني لم أترك شخصاً واحداً يموت حزناً".²⁹ يقدم هذا المثل الرئيس حميدو، إنساناً لا يهاب خوض غمار البحر والمغامرة فيه، ليس لأنه شجاع فقط بل لأنه لن يتأسف إن أصابته مصيبة فهو وحيد في هذه الحياة، لا يملك إلا مالا ولا ولداً يحزن لفقدته، جاء المثل هنا ليعبر عن حالة الشخصية بأوجز الألفاظ وأدقها، مستدعياً لغة تكشف عن المستوى الثقافي لشخصية "الرئيس حميدو".

ويتجلى المثل كذلك في قول "كريمو" أمين البلدية أثناء حديثه عن الحالة السيئة التي تعاني منها البلاد: "خل البئر بغطاه يا عمي مراد خليه"³⁰، يهدف

توظيف المثل في هذه المقاطع باللغة العامية واللغة العربية في الآن ذاته إلى انفتاح النص على الثقافتين الشعبيّة والرسميّة، ونقل رؤية المجتمع للقضايا التي تعترض طريقه، والعقليات المختلفة التي تسهم في بنية مجتمع الرواية .

ب - الأجناس غير الأدبيّة :

1- الخطاب الديني : شكل التراث الديني لدى "واسيني الأعرج" خلفيّة ثقافيّة وإبداعيّة تكون ضمنها النص، فطبع بها ويعرف من خلالها، و" حضور هذا العنصر يسمح لنا بإنتاج طاقة لغويّة ودلاليّة متنوعة، فقد حاورت الرواية المرجعيّات الدينيّة لتسهم في صوغ ملامح المجابهة الحضاريّة والثّقافيّة وللإفادة من حمولتها التّاريخيّة، وإمكاناتها السّرديّة، بصفتها مرجعيّات ولدت في التّاريخ ثم تعالتّ على الزمان والمكان لتظل ممتدة وذات أثر تشكل متفاعلا نصيا فكريا يمارس حضوره في النصوص الأدبيّة".³¹

نلاحظ في "البيت الأندلسي" أشكالا عديدة من الأثر القرآني، نجد الاقتباس من آيات مختلفة من القرآن الكريم، وأخرى في سياق تعبيرى ذي ظلال قرآنيّة. وسنقتصر التمثيل في هذا السياق على نماذج محددة من الرواية، اقتباسا أو تضمينا أو استلهاما . يعتبر النص القرآني أنموذجا في الصياغة الأدبيّة والكلام العام، حاول "واسيني الأعرج" استلهامه بوصفه بيانا إلهيا لا يضاهي بنصه الأفكار والأشياء والأخلاق، وقد تجلّى ذلك في رواية "البيت الأندلسي"، على لسان "الفينيكاس"، في قوله "كنت أريد أن آتي بأمي لتسكن هذه الدّار الصغيرة التي أنت فيها، ولكنّها رفضت، أنت تعرف جيدا أن الله أوصى بالوالدين إحسانا"³²، من خلال تتبع هذا المقطع يحضر "الأعرج" قارئه لولوج النص القرآني (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَهًا إِلَّا هُوَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) وَمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفَ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا)³³ وهذا ما يشي بشكل جلي عن المرجعيّة الدينيّة التي تنهل منها

لغة السارد، فرغم عدم استخدامه في مقطع "الفينيكس" لنص وأسلوب قرآني صريح استعان ببعض الصيغ الكلامية والمفردات القرآنية .

نقرأ صورة أخرى لحضور الخطاب الديني تتمثل في نقل السارد لقصة قابيل وهابيل يشير من خلالها إلى الوضع العربي الممزق في الجزائر حيث يتقاتل فيها أبناء الدّم والدين الواحد : " تقاتلتما مثل هابيل وقابيل لعرش لم يكن لأحد منكما، ثم انتصرتما على بعضكما البعض وانهزمتما في ثمانية قرون، بعد أن ورثتما حروب الإخوة لمن جاء بعدكما من ملوك الطوائف " 34

يبرز الموروث الديني الوارد في هذه الرواية سعة الثقافة الدينية للكاتب، التي ارتبطت أشد الارتباط بمحيطه الفكري والاجتماعي، ذلك أن اشتغال العناصر الدينية في النص يعطي حضورا دلاليا للنظام الفكري الإيديولوجي عبر لغة وأسلوب متعددين. فالكتابة قبل كل شيء هي تجربة لغوية خاضها الروائي بكل عشق، بكل ألم فعرف خبايا اللغة تلهمه كل ما يريده منها، يشعر القارئ بمتعها وبتدققها وحواريتها، وهو يتعامل مع نصوص راقية في استخدام التراكيب وفي رسم صور جمالية، حملت في طياتها دفقات التجربة الجزائرية من آلام وسلام صور تمتع القارئ وتمنح له تنوعا في اللغة والأساليب والصور.

2- الخطاب التاريخي: لقد شغل الخطاب التاريخي مساحة واسعة من الرواية، وقد لعب دورا هاما في تحريك الخطاب الروائي، فيكون حاضرا من أجل إيصال فكرة أو الجواب على سؤال في ثنايا العملية السردية، وقد يكون من أجل إبراز حادثة تاريخية معينة وأخذ العبرة منها .

وقد تظهر الخطاب التاريخي وتجلي في الرواية عبر بنيتين :

1- عنوان الرواية : (البيت الأندلسي) الذي يحيل القارئ مباشرة إلى التاريخ الأندلسي .

2- مخطوطة " سيدي أحمد بن خليل"، والتي وجد فيها الروائي قيمته

الكتابيّة واتخذها معبرا له لولوج عوالم التَّاريخ، فهي ليست مجرد خزان للمعلومات، ولكنّها ذاكرة شعب لم تعط له الحرّية في التَّعبير فلجأ إلى فعل الكتابة للتعبير عما يختلج صدره، لتكون الشَّاهد على ظلم عاشه شعبه، بسبب خطأ اقترفه السَّابِقون ودفع ثمنه الأبرياء الذي لا ذنب لهم فيه، إضافة إلى مقاطع أخرى تحيل على فترة الحكم التُّركي للجزائر، وفترة الاستعمار الفرنسي والحرب الأهليّة في التَّسعينيات .

عاد بنا "الأعرج" من خلال هذه البنيات إلى أزمنة غابرة، وبالتَّحديد إلى نهايات القرن السَّادس عشر، ينقل معاناة مسلمي الأندلس، ونقل الانتفاضة التي قام بها الموريسكيون تنديدا بالظلم الممارس في حقهم " فحاول بعض مسلمي غرناطة الاحتجاج ببنود اتفاقية التَّسليم، فإذا هي لم تعد تساوي الحبر الذي كتبت به . وعندما قرروا المقاومة والتَّصدي لهذا المشروع قتل الجنود كل من اعترض سبيلهم دون تمييز . وتم تقديم رؤوس الفتنة إلى محاكم التَّفتيش " ³⁵ ثم راح يسرد أحداث هجرة الموريسكيين إلى البلدان المختلفة منها الجزائر.

أعاد "الأعرج" من خلال " البيت الأندلسي كتابة التَّاريخ، ولكن على نحو جمالي أضاء من خلاله الكثير من الجوانب الغامضة، التي سكت عنها التَّاريخ وهذا الاشتغال على التَّاريخ وإقحامه في كيان الرواية يعري واقعا مزريا في البيت الأندلسي ويعكس تعدد الأزمان التي يتخبط فيها المجتمع العربي والجزائري " فالبيت الأندلسي هنا معادل موضوعي للأحزان المعاصرة التي يحيها العربي وفيها يكمن السَّؤال الحضاري، والبحث عن الذات في الآخرين وفيها تكمن حقائق التَّاريخ الغائبة . " ³⁶

وقد أنتج إدخال التَّاريخ إلى عالم الرواية، واقعا آخر يختلف عن الواقع التَّاريخي يعمل على تنويع لغة الرواية وتكثيف دلالتها، على اعتبار أنّها لم تدخل الرواية كجنس غير أدبي ولكنها دخلته كلغة تاريخيّة .

3- الخطاب الصحفي والإعلامي : هذا النوع من الخطاب وظفه المؤلف في

سياق الحديث عن اغتيال "ماجد السامرائي" الذي قتل في الفندق "اسماعيل ماجد السامرائي، وجد مقتولا من جنسية في غرفة في نزله، لا يمكن ذكر اسم النزول حفاظا على التحقيق، المقتول من جنسية عراقية" ³⁷

إنّ الهدف من نقل هذا الخبر الصحفي، هو ترك المتلقي يؤول سبب قتل "إسماعيل ماجد السامرائي" ليكشف عنه فيما بعد وهو اشتغال "إسماعيل ماجد" في المفاعل النووي العراقي قبل أن يتحول إلى المفاعل النووي السلمي لعين وسارة بالجزائر. وتحضر لغة الصحافة عبر مسرود آخر يذكر السارد فيه اسم الجريدة "الحقيقة الوطنية" بإيراد إعلان عن شخص مفقود : " خرج الشاب الطيب بتاريخ.... الرجاء من كل من رآه أو التقى به أن يتصل بمقر الدائرة الأمنية منه . " نلمس ممارسة هذا الخبر الصحفي لانفتاح على المستوى الكتابي وفي الوقت نفسه جمع بين الوظيفتين الإخبار والإمتاع، كما جاء توثيقا للواقع الجزائري إبان العشرية السوداء الذي اتسم بكثرة الاغتيالات والاختطافات وممارس متعة فنية جمالية في الخطاب الروائي من خلال الإيهام بواقعية الحدث والشخصية، فكلهما يشي بأحداث وقعت ولا يفترقان إلا في واقعية تلك الأحداث فبينما ينقل الخبر الصحفي أحداثا وقعت بالفعل يسرد الخطاب الروائي أحداثا خيالية .

4- الأغنية الشعبية : وظفت الأغنية الشعبية في سياقات مختلفة من الرواية

مكسبة إياها ثراء دلالي وآخر جماليا، جاءت للتماشى مع تنوع أحداث الرواية ومواقف شخصياتها ووجهات نظرها المعبر عنها من طرفها .

نقرأ في " البيت الاندلسي " :

موت لبحار أبويا ... لمواج هبيلة

والبر بعيد ... بعيد وصباحي طال " ³⁸

تحضر هذه الأغنيّة لتصوّر مرارة الحزن واليأس وألم فراق الوطن والأحباب متجاوزة بذلك هموم الفرد، منفتحة على هموم الذات الجماعيّة للشعب مخترقة السّرد لتكسير رتابته وأحاديّة لغته . وتطلّ الأغنيّة الشّعبيّة في موضع آخر على لسان السّارد : " سير سيري لزررق سير ... المخلوقة تستني، وأنا خايف من الغير 39 ...

إنّ لجوء "الأعرج" إلى هذا الموروث المتداول يهدف إلى خلق مناخ شعبي يتناسب مع مناخ سير الأحداث، وظروف معيشة الشّخصيّة اجتماعيا بشكل خاص. وهذا ما يؤكد إبراز السّمات المميّزة للرّواية الجزائريّة وخصوصيّتها المستمدة من واقع الشّخصيات الحكائيّة، ومن المخزون الشّعبي المتوارث عبر التّاريخ محليا، وهو بمثابة ثورة على اللغة الأدبيّة لتتحرر من خزائن الدّواوين ومجالس البلغاء لترتبط بالحياة اليوميّة لكل الفئات الاجتماعيّة، فتقوم بلاغة حيّة تتفاعل مع كل المعطيات . وتستوعب كل جديد على أنقاض لغة جامدة محبوسة بالمقدس " وهكذا فالاستفادة من هذا المنطوق الشّفهي في الإبداع الرّوائي يسخر في إبداع رويّة الحياة المعيشة المتعددة بلغاها والمتنوعة بأساليبها وتنضيد مستوياتها الكلاميّة. 40

وبحشد هذا التّنوع والتّباين في الكلام الرّوائي، يمكن القول إنّ الرّوائي المغربي عموما والجزائري خصوصا وعبر كل نص يكتبه كان يعمل على خلق صورة للغة الرّوائيّة أو يعمل على تشخيص هذه اللغة أدبيا، مما يقرب هذه الرّواية أو تلك من الطابع والمبدأ الحوارية.

المراجع :

- 1- السعيد بوطاجين، السرد ووهم المرجع، مقاربات في السرد الجزائري الحديث منشورات الإختلاف، ط الجزائر، 2005، ص: 43- 44.
- 2- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع القاهرة 1987، ص 33.
- 3- ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، ط1، دار توبقال، المغرب 1986، ص 154.
- 4- إدريس قصوري، أسلوبية الرواية، مقارنة أسلوبية لرواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ، عالم الكتاب الحديث للنشر والتوزيع، ط1، الأردن، 2008، ص 435
- 5- ميخائيل باختين، الكلمة في الرواية، تر: يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق/سورية 1988، ص 149.
- 6- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 7- المرجع نفسه، ص: 144.
- 8- واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، دار النشر الفضاء الحر، الجزائر، 2010 ص: 351.
- 9- واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 07.
- 10- حميد لحميداني: أسلوبية الرواية (مدخل نظري)، منشورات سال، الدار البيضاء، لمغرب، ط1 1989، ص 87
- 11- واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص 11.
- 12- المرجع نفسه، ص 106.
- 13- حديث نبوي شريف: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (382/4 - 383) حديث (5486) والطبراني في «الأوسط» (332/7) حديث (7647)، من حديث أنس.
- 14- إدريس قصوري، أسلوبية الرواية، مرجع سابق، ص: 20.
- 15- ميخائيل باختين، الخطاب الروائي، مرجع سابق، ص 122.
- 16- سعيد بن هاني، شعرية التعدد اللغوي في رواية "سرايا بنت الغول"، منشورات علامات، جدة 2004 ص 585.
- ميخائيل باختين، شعرية دوستوفسكي، ترجمة جميل نصيف التكريتي، ط1، دار توبقال، المغرب 1986 ص 282 17
- 18- المرجع نفسه: ص 282- 283.

- 19- واسيني الأعرج، البيت الأندلسي، ص 8.
- 20 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 21- المرجع نفسه، ص 21.
- 22- فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت 1999، ص: 81.
- 23- عبد الحميد عقار، الرواية المغاربية تحولات اللغة والخطاب، ط1، دار المدارس، الدار البيضاء 2000، ص: 173.
- 24- واسيني الأعرج : البيت الأندلسي، ص: 438.
- 25- المرجع نفسه، ص 31.
- 26- محمد ابن القيم الجوزية : الأمثال في القرآن الكريم، تحقيق : محمد نمر الخطيب، دار المعرفة بيروت، ص 22.
- 27- واسيني الأعرج : البيت الأندلسي، ص : 219.
- 28- المرجع نفسه، ص : 108.
- 29- المرجع نفسه، ص : 191.
- 30- المرجع نفسه، ص : 115.
- 31- رفقه دودين، توظيف التراث في الرواية الأردنية المعاصرة، وزارة الثقافة، ط1 عمان - الأردن 1997، ص : 61.
- 32- واسيني الأعرج : البيت الأندلسي، ص 363.
- 33- سورة الإسراء : الآية 23.
- 34- واسيني الأعرج : البيت الأندلسي، ص 66 .
- 35- واسيني الأعرج : البيت الأندلسي، ص 79.
- 36- احمد بقار: الرواية والتاريخ عند واسيني الأعرج الاستدعاء والدلالة، جامعة قاصدي مرياح ورقلة العدد 19، جانفي 2014 ص 115.
- 37- واسيني الأعرج : البيت الأندلسي، ص 50.
- 38- الرواية : البيت الأندلسي، ص 64.
- 39- الرواية : البيت الأندلسي، ص 107.
- 40- يمني العيد، فن الرواية العربية، دار الآداب، بيروت، ط1، 1989، ص : 69 - 70.

اللغة الروائية في ضوء الدراسات النقدية المعاصرة

Novelistic language in the light of contemporary critical studies

1 زهر اليوم هطال

2 سليم بتقة

تاريخ الاستلام: 01-07-2019 تاريخ القبول: 18-09-2019

الملخص: تلعب اللغة دور المنبه التحريضي، إذ أن سلطتها تطغى بظلالها على النص الأدبي، فهي ليس هدفها الإيصال اللغوي المؤلف، وإنما تسعى إلى خلق لغة شعرية تداعب وتدغدغ خيال المتلقي لتحول النص إلى عبث لغوي يسعى المتلقي جاهداً إلى القبض على مدلولاتها، هذا ما سنحاول في هذا المقال الوقوف عليه .

كلمات مفتاحية: اللغة الروائية؛ أشكال اللغة الروائية؛ (لغة النسيج السردية؛ اللغة الحوارية؛ لغة المناجاة).

Abstract: Language plays a key role in the construction of the text, as its authority dominates the literary text, and its purpose is not merely the object of the familiar linguistic communication, but it seeks to create a poetic language that enchants and tickles the imagination of the reader, thus turning the text into linguistic nonsense; for this, we will try to stand on it in this article.

¹ جامعة محمد خيضر بسكرة، zahra.elyoum@gmail.com، (هطال زهر اليوم)

² جامعة محمد خيضر بسكرة، salim.betka@yahoo.fr

Keywords: novel language; novel language forms; (The language narrative tissue; dialogue language; the language onologue).

المقدمة: إن الرواية داخل رحيق النسق الروائي امتازت بالتفرد و الاختلاف في ملامسة الواقع، حيث أخضعت الرواية لغتها لتتساق مع متغيرات التجربة الإنسانية لتعبر عن الذات ومشاكلها وصراعاتها، كونها تكشف عن خبايا المجتمع وتعالج مشاكله وقضاياها، فتأتي لتطرح قضايا عديدة محاولة إماطة اللثام عن المسكوت عنه والبحث عن الحلول الممكنة في قالب سردي لغوي محكم .

لذلك تطرح دراستنا إشكالية تتمثل في :

معلقة اللغة بالرواية؟

كيف ينبغي أن نفهم اللغة الروائية؟

الفرضية: تعد اللغة الوسيلة الأساسية للتعبير عن الواقع بكل أطيافه داخل نسق الخطاب الروائي، فاللغة هي الكيان الذي تبني الرواية من خلاله عالمها الجمالي، لتدغدغ - اللغة - خيال المتلقي للإبحار في فك شفرات اللغة الرمزية الروائية للوصول إلى استجلاء مكنوناتها.

الأهداف: تهدف دراستنا إلى تتبع اللغة الروائية وإبراز مدى أهميتها لدى النقاد المعاصرين ، وكذا تبين أشكالها.

اللغة والرواية: في السرد الروائي على وجه التحديد، تكتسب الرواية قيمتها وتميزها عبر نظامها الخاص بها الذي يميزها عن لغات الأجناس الأدبية الأخرى، في إطار التصور النظري العام للغتها⁽¹⁾؛ وذلك من خلال التركيز والاهتمام على لغة الرواية، ومعرفة حدودها وخصوصيتها.

تعد اللغة هي الأداة الأساسية التي تركز عليها الرواية لإظهار أدواتها الفنية وكذلك هي الوجه المعبر عن أدبيتها وهويتها، وتلك الهوية لا تتجسد إلا

باللغة وكذلك أدبيّة الرواية لا تظهر إلا من خلال الاعتناء بفنيّة اللغة، إذ تعد هي الوجه الأول لحركة النص، والمحدد الأساسي لعالمه الأدبيّة.

وتظهر لغة الرواية كصورة خطابيّة، " سواء كان هذا الخطاب يوظف اللغة أو غيرها. ويشكل هذا التّجلي الخطابي من توالي أحداث مترابطة، تحكمها علاقات متداخلة بين مختلف مكوناتها وعناصرها. وأن الحكى بهذا التّحديد متعدد الوسائط التي عبرها يتجلى كخطاب أمام متلقيه، فيمكن أن يقدم بواسطة اللغة أو الحركة أو الصورة منفردة أو مجتمعة بحسب نوعيّة الخطاب الحكائي" (2).

ولعلّ مما سبق الحديث عنه بالنسبة للغة الرواية فإننا نخرج عن اللغة بمفهومها المجرد الذي يعني اللسان أو وسيلة التّخاطب، وإنما وجهتنا ومقصودنا اللغة الوظيفيّة " أي اللغة التي يكتب بها كاتب جنسًا أدبيًا ما، وهي اللغة الخاصة التي يصطنعها هو ويحاول في كثير من الأطوار أن يخرجها من المستوى المعجمي الميكانيكي إلى الدلالة، إلى المستوى الانزياحي الذي يتيح له أن يسخر لغته لمعانٍ جديدة كثيرة تحيي مواتها، وتوسع دلالتها، وذلك بالاضطراب بها مضطربات بعيدة لا عهد للغة المعجميّة بها" (3).

فاللغة هي لغة حياتيّة ملموسة أو بمعنى أدق لغة حيّة " يعيش فيه وعي الفنان بالكلمة، ولم تكن أبدًا لغة وحيدة، إنها لا تكون كذلك إلا باعتبارها نسقًا نحويًا مجردًا مكونًا من أشكال معياريّة ومحوّلًا عن الإدراكات الأيديولوجيّة الملموسة التي تملأه ومحوّلًا عن التّطور التاريخي المستمر للغة الحيّة" (4).

وهذه اللغة الأدبيّة التي يستعملها الروائي ويكتب بها ويتكلم بها، " لكونها فريدة لا فقط استنادًا إلى علاماتها العامة اللسانية بكيفيّة تجريدية، وإنما

طبقاً لأشكال تأويلاتها، هي لغة متعددة لسانيا بمظهرها الملموس الذي هو دلالي وتعبيري في نظر الغير⁽⁵⁾.

ويجدر بنا الحكم بأن لغة الرواية هي الصورة المعبرة عن الازدهار الثقافي لأي أمة أو مجتمع، فينعكس هذا النضج الثقافي ويتمثل إجمالاً في الكتابة الروائية، " فاللغة القومية لشعب متشبع بالثقافة، وأساساً بالثقافة الروائية ومتوفر على تاريخ لفظي وأيديولوجي غني وكثيف تبدو في الواقع، وكأنها عالم صغير منظم، يعكس العالم الكبير للتعدد اللساني"⁽⁶⁾.

أشكال اللغة الروائية :

أ لغة النسيج السردى : الكتابة هي الأساس في الرواية فلا يمكن أن تكون البنية الروائية موجودة إلا بوجود اللغة ومستوياتها، "ومن ثم استعمال جملة من المستويات اللغوية في عمل روائي واحد"⁽⁷⁾. وعلى اختلاف النقاد في استخدام اللغة العامية أم الفصحى في الرواية إلا أنهم متفقون في النهاية على استخدام اللغة الفصحى المعبرة عن أدوات الكاتب الروائي، " فإن كثيراً من الروائيين العرب هم كتاب يسوقون حكايات يسجلونها بلغة بسيطة وفي أطوار كثيرة متعثرة. بينما نظفر بمجموعة قليلة من كتاب الرواية الذين يمتلكون اللغة العربية ويتعشقون جمالها ويحرصون على الاستعمالات السليمة بها"⁽⁸⁾.

وبذلك نستطيع أن نميز بين فئتين من الروائيين، أولهما الكاتب الذي يستخدم ألفاظاً عامية ليكون أقرب من مختلف طبقات وأطياف المجتمع والكاتب الذي يلتزم التزاماً صارماً باستخدام لغة فصحى، فالأول منهما يعتبر محدود الثقافة، فقير الأدوات محدود اللغة ولا يستطيع أن يخاطب فئة أو مجتمعا معينا تبعاً لثقافة معينة أو لديه ثقافة خاصة محكوم بها لا يستطيع الخروج من قالبها، فليس لديه مناص من استخدام اللغة العامية، وأما الثاني فهو يستخدم ألوان ثقافية مختلفة، ونراه يتلون بتلون الثقافة التي أدخل نفسه

فيها، فنراه يحيا بحياة أفرادها، وهذا لا يكون إلا من أديب تجمعت لديه مختلف ألوانا الثقافات ، فيتميز بثرائه الفكري، وجود علينا بما لديه وما في ذاكرته ويتفنن في ذلك دون الاعتماد على لغة متصنعة ينفر منها القارئ وإنما لغة بسيطة فصيحة، تكون قريبة من مختلف فئات المجتمع.

وأن تبني فكرة استخدام اللغة العربية الفصيحة في السرد إنما هي فكرة تحترم ويجب مساندتها ودعمها، " والبساطة لا تتعارض مع أناقتها ورفيع نسجها، خصوصا أن عامة القراء من الجامعيين ولا مفر من ضعفنا في اللغة العربية ونقول أن قراءنا كثروا من جميع المستويات الاجتماعية، ونحن نعلم أن القراءة آخر شيء يمكن التفكير فيه" (9).

فأصحاب الكتابة الفصيحة لغتهم عالية يسعى القارئ المحب للغة أن يقرأ رواياتهم، أما أصحاب الكتابة العامة فكتاباتهم تخلو من جمال الكتابة وتملؤها ركاكة الأسلوب وقلة براعة السرد.

وإذا تحدثنا عن الكتابة الروائية بما أنها "عمل فني جميل يقوم على نشاط اللغة الداخلي، ولا شيء يوجد خارج تلك اللغة وإذا كانت غاية بعض الروائيين العرب المعاصرين هي أن يؤدوا اللغة بتسويد وجهها سائرة في الأرض لعلها أن تصادف كُتَّاباً يحبونها من غير بني جلدتها" (10).

وعليه يمكننا القول بأن بإمكان الكاتب أن يكتب بلغة بسيطة وليس معنى هذا أن تكون كتابته بلغة فجة بل ينبغي عليه التوسط في لغته ، لا يكتب بلغة عالية جداً كلغة الجاحظ الأديب أو لغة مقامات الحريري الأدبية، ولا بلغة وضعية تؤذي القارئ الناقد الذي يريد أن يستمتع بهذا اللون الأدبي.

فإذا كتب "يكتب بلغة أنيقة ومع ذلك تكون مفهومة ، وشعرية ومع ذلك تكون بسيطة ورفيعة النسج ، ومع ذلك تكون في متناول عامة القراء الجامعيين

وقد قصرنا القراءة على الجامعيين لأننا نعتقد أنهم الذين يشكلون السّواد الأعظم لاستهلاك الأدب بعامة والأدب الروائي بخاصة⁽¹¹⁾.

فطبيعة السرد ينبغي أن يكتبه الروائي بلغة عذبة بسيطة لا تكون هذه اللغة عالية جداً تجعل القارئ مستعصياً لفك شفرات هذه اللغة، ولا دنيئة تجعله يبتعد عنها وينفر منها فلا تفيده ولا تمتعه بأسلوبها.

وخلاصة القول في هذا الأمر ما ارتآه الأستاذ عز الدين إسماعيل في أننا حينما "نقرأ القصة تتمثل الحادثة فيها ولكن من خلال تلك النقاط ولكن من خلال تلك الألفاظ المنقوشة على الورق أي من خلال اللغة. والسرد هو نقل الحادثة من صورتها الواقعة إلى صورة لغوية. وهذا من شأنه أن يكسب السرد حيوية ويجعله لذلك فناً"⁽¹²⁾.

اللغة الحوارية: الحوار هو وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي، إذ لا يمكن التواصل إلا من خلاله ولا يبقى إلا به، "وهو اللغة المعترضة التي تقع وسطاً بين المناجاة، واللغة السردية"⁽¹³⁾، وهذا الحوار لا بد أن يجري في الرواية بين الشخصيات "فيجري الحوار بين شخصية وشخصية أو بين شخصيات وشخصيات أخرى داخل العمل الروائي. ولكن ينبغي أن يطغى هذا الحوار على الشّكلين الآخرين فتتداخل الأشكال، وتضيع المواقع اللغوية عبر هذا التداخل"⁽¹⁴⁾.

يقول ميخائيل باختين: "أن العلاقات الحوارية لا يجوز أن تفصل عن مجال الكلمة، أي عن اللغة بوصفها ظاهرة ملموسة ومكتملة، فاللغة تحيا فقط في الاختلاط الحوارى بين أولئك الذين يستخدمونها، وأن الاختلاط الحقيقي هو الذي يكون الجو الحقيقي لحياة اللغة، وإن حياة اللغة مضغمة بالعلاقات الحوارية"⁽¹⁵⁾.

وهذا يعني أن العلاقات الحوارية لا مكان لها ولا تحيا إلا إذا وجد اختلاط حوارى حقيقي، لذلك لابد للحوار الروائي "أن يكون مقتضبا ومكتفا حتى لا تغدو الرواية مسرحية، وحتى لا يضيع السارد والسرد جميعاً عبر هذه الشخصيات المتحورة على حساب التحليل، وعلى حساب جمالية اللغة، واللعب بها" (16).

ولذلك يجب أن تكون "العلاقات الحوارية ممكنة ليس فقط في التعبيرات الكاملة ولكن التناول الحوارى ممكن حتى لأي جزء له قيمته الدلالية داخل هذا التعبير. ومن الناحية الأخرى فإن العلاقات الحوارية ممكنة حتى بين الأساليب اللغوية وبين اللهجات الاجتماعية، وذلك بشرط أن يجري استيعابها بوصفها مواقف ما ذات معنى محدد، وبوصفها وجهات نظر لغوية من نوعها" (17).

ويقصد ميخائيل باختين بهذا العرض أن الحوار يمكن أن يكون في الأساليب واللهجات الاجتماعية فيتعدى بذلك التعبيرات الكاملة، حتى وإن كان لأي جزء من هذا التعبير.

لذلك فإن لغة الحوار تكون " لدى كثير من الدعاة إلى العامية عامية وخصوصا إذا كانت الشخصية أمية، التماساً لواقعيتها، وكأن هذه الشخصية مسجلة في الحالة المدنية، وكأن الأحداث التي تنهض بها، أو تقع عليها، هي أحداث تاريخية بالفعل" (18).

وهذا مؤداه أن لغة الحوار لا بد أن تبتعد عن لغة السرد حتى لا تصاب الرواية بالتشوه وعدم الانسجام في مستويات لغة السرد، " وحتى يظل الانسجام اللغوي قائما بين الأشكال اللغوية الثلاثة مع التزام الذكاء الاحترافي في تقديم الحوار بحيث يكون مقتضبا وقصيرا وقليل في هذا المستوى من البناء الروائي، ومن الملاحظ أن كتاب الرواية الجديدة أن الكثير منهم يجنحون لعدم الإكثار من الحوار" (19).

ولا ينبغي للكاتب أن يكثر من الحوار، لأن الإكثار في الحوار يكون نابعاً من عدم توافر الخبرة الكافية وكذلك عدم اكتمال الأدوات الفنية لدى الكاتب فإن كان الكاتب أكثر من الحوار فيمكننا إرجاع ذلك إلى أمرين لا ثالث لهما: " إما إلى أن الكاتب يتملص من موقف صعب في التحليل والوصف والكشف فيعمد إلى إلقاء المؤونة على الشخصيات لينطقها بأي كلام"⁽²⁰⁾.

ويظهر أن الكاتب الذي يسلك هذه السبيل هو أحد شخصين: إما أنه كاتب يتذاكى في ذلك ويتخذ المراوغة حيلة في سبيل فكرته، أو أنه كاتب لم تتوفر لديه القدرة الفنية اللازمة لإجراء الأحداث بواقعية أقرب إلى عقل القارئ. وهذا ما وضحه عبد المالك مرتاض في الأمر الثاني بقوله:

" وإما أنه مبتدئ محروم فيعمد إلى كتابة هذه المحاورات دون وعي فني كبير فيصول فيها ويجول ولكنه لدى نهاية الأمر، يفسد الشكل اللغوي الأساسي أمره، فتطغو لغة الحوار على لغة السرد"⁽²¹⁾.

وهنا نقف متحيرين في هذا الأمر هل هذه مسرحية أم رواية لغلبة لغة الحوار على لغة السرد، فلا ينبغي أن يحدث هذا الأمر لأنه إنما يكون من كاتب يخادع ويرaug المتلقي القارئ.

وفي نهاية هذه النقطة نشير إلى أمر أصبح منتشراً في بعض الروايات وهو استعمال اللغة العامية أو عبارات كثيرة منها في لغة الرواية، الأمر الذي أدى إلى فساد أذواق كتاب الرواية وفقر لغتهم في الإبداع، ولعل هذا ناجم عن قلة المحصول اللغوي لدى الكاتب، أو طلباً للسهولة، وعدم الانتباه لما تحدثه العامية من أثر بالغ الأهمية في تشويه اللغة الفصيحة خاصة عند عدم الرجوع إلى أصول الكلمات العامية.

والذي يظهر أن هناك أنماط أربعة في لغة كتابة الرواية⁽²²⁾:

1- " لغة فصحي تزواج بين اللغة التراثية واللغة الحديثة التي تتسم بالمرونة والتخفف من قيود البلاغة الكلاسيكية، وقد ظهر هذا الاتجاه منذ نهاية القرن التاسع عشر عند أمثال فرح أنطون والشدياق والمويلحي. وتجدد هذا الاتجاه في الستينات من القرن الماضي في أعمال كل من الزيني بركات والتجليات للغيطاني"⁽²³⁾.

وهذا المزج بين اللغة التراثية واللغة الحديثة ناتج عن الحيوية والمرونة في فكر الكتاب، فقاموا بمزج اللغتين لعلمهم بثقافة مجتمعهم والحفاظ على لغتهم التراثية وكذلك العيش مع اللغة المعاصرة حتى لا يكونوا بعبيدين عن الواقع الذي يعيشونه وهذا مرده التفاعل بين اللغتين، مع الوضع في الاعتبار كما وضحنا سابقاً أن الذوق العام للكتاب وخاصة الروائيين يتحدد بثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، فكلما غلبت الثقافة على المجتمع كانت اللغة قوية وفي نفس الوقت قريبة من مختلف أطياف المجتمع المحيط، لأنه مجتمع مثقف بطبيعته نظراً لأسباب ذكرناها آنفاً، والعكس في هذا الأمر صحيح، فالكاتب الذي يتدنى بلغته إلى العامية فيحكم عليه بأنه معدوم الثقافة، أو تدنى إلى العامية ليساير الذوق العام الذي يحيط به.

2- " لغة فصحي إلا أنها تستعير كلمات أجنبية بلفظها أو محورة إلى صيغة دارجة بدافع عدم وجود معادل معرباً ، أو أن الروائي يحرص على الدقة في التسمية خصوصاً لما يتعلق الأمر بأسماء الآلات والأدوات الإلكترونية والمخترعات"⁽²⁴⁾.

والنوع الثاني إنما مزج مع اللغات الأجنبية لكن استعارة الكاتب فيها لبعض المصطلحات الأجنبية فهو يبقيها على أصلها لأنه يريد الحفاظ على التسمية الأصلية لها ولا يريد الخروج عنها لأنها تعد مجرد اقتباس لها، ونرى أن هذا لا

عيب فيه للكاتب البارع المثقف، لأن هذا في حد ذاته يدل على مدى إلمامه بمختلف الثقافات كما أنه يجعل المتلقي على ثقة بوقوفه على الواقع الذي يسرده الكاتب، بل ويجعله يعيش فيه، وهذا هو عين التفاعل بين المؤلف والمتلقي.

3- " لغة فصحي مرنة ذات تركيبات جميلة حديثة ومستويات قاموسية متسعة تعتمد التوليد والترجمة الضمنية من أجل خلق لغة تحقيق الجمالية في الرواية، مثلما هو الشأن عند نجيب محفوظ، وطيب صالح، وإدوار الخراط⁽²⁵⁾ .

وأما هذه اللغة الحديثة تجمع بين قوة الرواية والقيم الجمالية، وتعلو من إظهار الأدوات الفنية للكاتب وتظهرها للمتلقي أو القارئ، ففي هذه الحالة يلعب الكاتب دور الفنان الذي يرسم بألوان أقرب ما تكون إلى ذهن المتلقين في العصر الحديث، ولا يخفى على كل ذي بال أن هذا النمط حقق نجاحاً كبيراً في مختلف طبقات المجتمع العربي، وساعد على انتشار الرواية المعاصرة، وجعل لها رواجاً لم يتوفر لها في سابق العصور منذ بداياتها.

4- " لغة تمنح من قاموس اللغة اليومية والأمثال والتعابير المألوفة في لغة الكلام⁽²⁶⁾ .

وفي هذه اللغة تكون الكتابة أكثر استعمالاً لأنها لغة يومية وعباراتها مألوفة مستعملة في الحياة اليومية، ولكنها أقرب ما تكون إلى التعابير الصحفية التي نقرأها في المقالات اليومية والإخبارية، فيكون الكاتب وفقاً لهذا النوع الأخير ما هو إلا حاكٍ أو سارد لأخبار ربما يجهلها غيره ولكنها عارية من أهم أدوات الإبداع الروائي وهو اللغة، فاللغة عامل هام في إظهار الإبداع الروائي من خلال قدرة الكاتب على صوغ عباراته ومواءمتها مع الفكرة التي يكتب فيها.

فالنوع الثالث المعاصر هو الأقرب إلى أذهان وعقول الخاصة والعامة، فيجب على الكاتب أن ينتبه من عشرة توجيه روايته إلى فئة معينة دون الأخرى، فغلبة العامية على طابع الكتابة ربما يأنفها المثقف صاحب الحس السليم والذوق

الرّفع، وكذلك الأسلوب الصعب والألفاظ الغريبة تحط من قيمة العمل، فلا بد أن يتوسط الكاتب في أسلوبه فيلتزم بلغته الفصحى التي يستسيغها غالبية أطياف المجتمع المحيط، كما مثلنا لذلك من قبل بروايات نجيب محفوظ وغيره.

ج- الشكل الثالث (لغة المناجاة): وإذا أردنا أن نعرف المناجاة فلن نجد له تعريفاً قريباً منه في المصطلحات النّقدية المعاصرة، وإنما هو يندرج تحت ما يسمى بالمونولوج الداخلي في الرواية، وهو مصطلح دخيل.

وأقرب تعريف للمناجاة هو " خطاب مضمّن داخل خطاب آخر يتسم حتماً بالسردية : الأول جواني والثاني براني. ولكنهما يندمجان معاً اندماجاً تاماً لإضافة بعد حدثي، أو سردي أو نفسي إلى الخطاب الروائي" (27).

وعلى هذا التعريف للمناجاة فيكون هذا الخطاب لطلاقة السردية إلى الخطاب الروائي. " ويبدو أن أول من أنشأ هذا المصطلح هو الأديب الفرنسي إدوار دي جردان. وهو إجراء جديد في الكتابة السردية؛ ولعله استعمل تحت تأثيرات علم النفس" (28).

لا شك أن المناجاة ظهر تحت تأثير علم النفس على الأديب الفرنسي الذي يعزى إليه إنشاء هذا المصطلح، وقد تعددت تعريفات مصطلح المناجاة، ولكن كلها لا يكاد يخرج عن إطار واحد يجمعها، واشتركوا في أن المناجاة هي "حديث النفس للنفس، واعتراف الذات للذات؛ لغة حميمة تندس ضمن اللغة العامة المشتركة بين السارد والشخصيات؛ وتمثل الحميمية والصدق والاعتراف والبوح" (29).

فتظهر المناجاة من خلال اندماج الشخصيات بالسارد، وذلك مع وجود التلون اللغوي الحادث من هذا الاندماج، حتى أصبحت المناجاة " في أي عمل روائي يقوم

على استخدام تقنيات السرد العالية، تنهض بوظيفة لغوية وسردية لا يمكن أن ينهض بها أي مشكل سردي آخر"⁽³⁰⁾

الخاتمة: والذي نخلص إليه في هذا البحث أن لغة الرواية هي لغة حوارية بامتياز، " فلا يجوز وصفها في مستوى واحد، إنما هي نظام مستويات متقاطعة ولهذا ليس في الرواية لغة واحدة ولا أسلوب واحد. لكن يوجد في الوقت نفسه مركز لغوي أو خطاب أيديولوجي للرواية"⁽³¹⁾. وذلك فإن لغة الرواية هي عبارة عن مجموعة من الأصوات والأساليب المتجانسة يشدها معنى واحد وأسلوب متفق نلاحظه من طريقة السارد، فهو لا يعتمد على أسلوب معين أو لغة واحدة.

الهوامش :

1. ينظر : سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي، ط3، بيروت، 1997م
ص 17
2. المرجع نفسه، ص46.
3. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، سلسلة عالم المعرفة، عدد رقم 240، (دط)، (دب)
1998م، 106.
4. ميخائيل باخтин، الخطاب الروائي، تر: محمد برادة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ط1
القاهرة، 1987م، ص 60.
5. المرجع نفسه ، ص 60.
6. ميخائيل باختين ، الخطاب الروائي ، ص 64.
7. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية ، ص 114
8. المرجع نفسه ، ص 115
9. سي أحمد محمود، اللغة وخصوصيتها في الرواية، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
قسم الآداب واللغات ، ع 19، 2018م، ص 108
10. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 106
11. المرجع نفسه ، ص 115
12. عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه :دراسة ونقد، ص 104 - 105
13. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 116
14. المرجع نفسه ، ص 116
15. ميخائيل باختين ،شعرية دوستوفسكي، تر: نصيف التكريتي، مراجعة حياة شرارة، دار توبقال
للنشر، الدار البيضاء ،المغرب، 1986م، ص 267
16. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 116
17. ميخائيل باختين : شعرية دوستوفسكي، ص269
18. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 116
19. المرجع نفسه ، ص 117
20. المرجع نفسه ، ص 117
21. المرجع نفسه ، ص 117

22. سي أحمد محمود، اللغة وخصوصيتها في الرواية، ص 108
23. المرجع نفسه ، ص 108
24. المرجع نفسه ، ص 108
25. المرجع نفسه ، ص 108
26. المرجع نفسه ، ص 109
27. عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص 118
28. المرجع نفسه ، ص 119
29. المرجع نفسه ، ص 120
30. المرجع نفسه، ص 163 - 164
31. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص 272

تيسير النحو العربي (نقد ورؤية)

Faciliter la grammaire (critique et vision)

أ. عبد الوهاب حجازي ♥

إشراف: الأستاذ الدكتور محمد دويس

المركز الجامعي - صالح أحمد - النعامة

تاريخ الاستلام: 2019-03-15 تاريخ القبول: 2019-09-29

ملخص: إن تيسير النحو فكرة قديمة جديدة، لكنها شاعت في العصر الحديث وبشدة نظرا لما يشتركه أهل هذا العصر من صعوبة في تحصيله وعسر كبير في تعلمه، فحاول أهل العلم المحدثين الولوج في عملية بحث واسعة تشمل جميع الأطراف للخروج بحل فيصل لهذه الدعوة، واختلفت الرؤى من دارسٍ لآخر وبكيفية متنوعة وأساليب متباينة بحسب البيئة و الفئة المستهدفة وغيرها.

كلمات مفتاحية: تيسير؛ النحو؛ التجديد؛ رؤية؛ طرائق

Abstract: The facilitation of grammar is a new old idea, but it has become common in the modern era and strongly because of what the people of this era complain of difficulty in learning and difficult to learn. Modern scholars tried to engage in a wide search process including all parties to come up with Faisal's solution to this call. For a variety of different methods and methods depending on the environment and the target group and others.

Keywords: facilitation, grammar, innovation, difficulty, methods

♥ المركز الجامعي، صالح أحمد، النعامة، الجزائر، البريد الإلكتروني:

hadjazi20@gmail.com

المقدمة: إنَّ اختلاف التَّسميات في الدَّعوة لتيسير النُّحو لا يختلف في نمطه عن أصل إعادة النَّظر في الطرائق من حيث التَّلقيُّ والتَّيسيرُ والتَّجديدُ وحتى من حيث المنهجية والتصنيفُ وهذا بدءاً من المشاكل التي يعانيها المعلِّم والمتعلِّم على حد سواء أدَّت إلى حد النَّفور والشكوى والعسر في التَّلقي وهو غير بعيد من حيث ماهية الهدف عن منطلق علم تدريس اللغات Didactique des langues .

ضرورة التَّيسير رؤية تاريخية: إنَّ مصطلح التَّيسير له عدَّة مرادفات عند الدَّارسين المحدثين من التَّبسيط إلى التَّخفيف إلى التَّجديد إلى الإصلاَح وغيرها من المصطلحات القريبة من هذا وذلك نظراً للدَّعوات المتكررة التي تجعل النُّحو مستعصياً ومنغلقاً ومادة جافة وهلم جرا .

وفي حقيقة الأمر فإنَّ فكرة تجديد النُّحو ليست وليدة العصر بل هي فكرة ونظرة لها من الأصالَة والقَدَم الأمر البالغ ولعلَّ الجاحظ صاحب أوَّل رميَّة جريئة لهذه الدَّعوى حين قال في كتاب الحيوان: "قلت لأبي الحسن الأَخفش أنت أعلم النَّاس بالنُّحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلِّها، وما بالنَّا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها، وما بالك تقدِّم بعض العويص وتؤخِّر بعض المفهوم. قال: أنا لم أضع كتبني هذه لله، وليست هي من كتب الدِّين، ولو وضعتها هذا الوضع الَّذي تدعونني إليه قلت حاجتهم فيها إلي، وإنما كانت غايتي المنالَة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم، لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التَّماس ما لم يفهموا"¹.

من الواضح وجود محاولات عديدة لتجديد النُّحو وتيسيره عند العلماء القدامى في الجانبين النَّظري والتَّطبيقي، ويبدو ذلك واضحاً في الجانب الأوَّل عند الجاحظ في القرن الثَّالث حيث نجده يذهب إلى مراعاة مستوى عقل الطالب العقلي والذهني، وبحسب ذلك يُعطى من قواعد النُّحو ما يناسب مستواه وله أثر في تقويم اللسان واليد من الخطأ واللعن. يقول: (أما النُّحو فلا تشغل قلب الصبي منه بقدر ما يؤديه إلا السَّلامة من فاحش اللحن، ومقدار

جهل العوام في كتاب كتبه، وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع²، وقد وعى أئمة النحو وصية الجاحظ، فراحوا منذ عصره إلى العصر الحديث يصنعون في النحو ملخصات ومتوناً للناشئة، وكتباً مطولة للمتخصصين، وفي القرن الخامس الهجري نجد عبد القاهر الجرجاني يطالب بتنقية النحو من فضول القول، وتجاوز المسائل العويصة والمقاييس والتعليقات في معرض نقده لمن يطعن في النحو ويزهد فيه، ويأتي بمسائل لا فائدة كما جاء في قوله: (قلنا لهم: أما هذا الجنس فلسنا نعييكم إن لم تنظروا فيه، ولم تعنوا به وليس يهمننا أمره³).

ويعدّ ابن مضاء النحو من أشهر دعاة التيسير، ومن المناسب إن أفرد بالحديث على النحو الآتي:

أ- ابن مضاء القرطبي (ت 592) يعدّ ابن مضاء القرطبي صاحب أبرز وأشهر دعوة لإصلاح النحو ظهرت في القرن السادس الهجري، ومع أنّه قاض وفقه ظاهري إلا إنّ له عناية فائقة بالنحو، ودراية واسعة وعميقة بدقائقه، وقرأ أمهات مصادره مثل الكتاب لسيبويه، وشرحه للسيرافي وغيرهما، واتّجه إلى إدامة النظر في كتب النحو المشرقي، وغاص في أعماقها متأملاً ومفنداً وناقداً ويهدف من ذلك إلى إصلاح النحو وتيسيره، ويبدو ابن مضاء من خلال كتابه الرد على النحاة عالماً مجتهداً وضع يده على مكن الداء، وحاول إن يضع له العلاج الذي يراه شافياً، وأن ينقي النحو من الشوائب التي لا يرى منها فائدة تحقيق الهدف من دراسته.

وأفصح عن ذلك بقوله: (قصدي من هذا الكتاب إن أحذف من النحو ما يُستغنى عنه، وأنبه على ما أجمعوا على الخطأ فيه⁴ ويمكن عرض ما توصل إليه في هذا الصدد بإيجاز فيما يأتي:

الأول: رفض فكرة العامل رفضاً قاطعاً، وذلك لأن القول به يتطلب إن يكون لكل ظاهرة إعرابية عامل ظاهر أو مقدّر يستدعي إن يلجأ المعرب إلى ضروب من التأويل والتقدير لا موجب له ⁵.

الثاني: اعترض على بعض تقديرات النحويين حيث أنكر تقدير إن المضمرة بعد الواو والفاء في المضارع المنصوب، وأنكر تقديرها بالمصدر.

كما اعترض على تقدير متعلقات المجرورات من قبيل قولنا (زيد في الدار) ⁶ فيزعم النحويون إن قولنا في الدار متعلق بمحذوف تقديره (زيد مستقر في الدار) ويأتي إلى جانب ذلك اعتراضه على تقدير الضمائر المستترة في المشتقات والأفعال ⁷

الثالث: أنكر العلل التي هي من عمل العقل كالعلل الثواني والثالث يقول في ذلك (ومما يجب إن يسقط من النحو العلل الثواني والثالث مثل سؤال السائل عن (زيد) من قولنا (قام زيد) لم رفع، فيقال لأنه فاعل وكل فاعل مرفوع، فيقول ولم رفع الفاعل، فالصواب إن يقال له: كذا نطق به العرب. ثبت ذلك بالاستقراء من الكلام المتواتر ⁸، غير أنه أقرب بالعلل الأول إذ بمعرفتها تحصل لنا المعرفة بالنطق لكلام العرب المدرك منها بالنظر ⁹.

3. يرى الاستغناء عن بعض الأبواب التي لا تدعو الحاجة إليها مثل باب اشتغال الفعل عن المفعول بضميره مثل قولنا (زيداً ضربته) وعرض لمسالتين في الاشتغال عند أبي الحسن الأخفش، وناقشه فيما ذهب إليه، ويرى إن الإطالة في مثل هذه المسائل النظرية لا فائدة منها مادام أنه لا يستفاد منها في تقويم النطق، وهي في نظره مسائل مظنونة غير مستعملة ولا يحتاج إليها ولا تنبغي لمن رأى إن لا ينظر إلا فيما تمس الحاجة إليه وحذف هذه وأمثالها من صناعة النحو مقو لها ومسهل ¹⁰

وقد تأثر بآراء ابن مضاء هذه بعض الباحثين المعاصرين من دعاة التيسير والتجديد في النحو من أمثال الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه إحياء النحو والدكتور شوفي ضيف في كتابه تجديد النحو.

التجديد عند القدماء: وفي القرن التاسع يرى ابن خلدون إن تنمية الملكة اللسانية إنما يكون بحفظ كلام العرب الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وأشعار العرب وأقوالهم، وعلى هذا الأساس انتقد كتب المتأخرين في النحو التي تقتصر على القوانين النحوية يقول: (إما المخالطون لكتب المتأخرين العارية عن ذلك إلا من القوانين النحوية مجردة من أشعار العرب وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة، أو ينتبهون لشأنها، فتجدهم يحسبون أنهم حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد عنه ¹¹).

وإذا جئنا إلى الجانب التطبيقي نجد إن النحاة القدامى عنوا بتأليف كتب في النحو تتوخى الاختصار والتيسير بما يتناسب مع مستوى الطلاب بعيداً عن التعقيد والتعليقات الفلسفية، ومن هذا القبيل الكتب الآتية:

الأول: كتاب التفاحة في النحو لأبي جعفر النحاس المتوس في سنة 339 وضع فيه القواعد الأساسية في النحو للناشئة فيما لا يتجاوز ست عشر صفحة.

الثاني: كتاب الجمل في النحو - لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، ت (340) وهو من الكتب التي حظيت بشهرة كبيرة وانتشار واسع لما يبذره عليه من الاتجاه إلى التيسير والبعد عن التعقيد والتعليقات الفلسفية وعني فيه عناية ملحوظة بالشواهد القرآنية والشعرية والأمثال والأقوال المشهورة، وندرك مدى أهمية هذا الكتاب من خلال إشادة بعض أصحاب كتب التراجم ومنهم القفطي الذي يقول عن الكتاب: (ولعمري إن كتاباً عظم النفع

به مع وضوح عبارته وكثرة أمثله هو جمل الزجاجي وهو كتاب مبارك ما اشتغل به أحد في بلاد الإسلام على العموم إلا انتفع به ^{1 2}

الثالث: كتاب الواضح لأبي بكر الزبيدي الأشبيلي النحوت (379). عني فيه بالجانب التطبيقي من خلال إيراد الأمثلة الكثيرة التي تدور على الالسنة يستعرضها بعناية، ويقوم ما يحتاج إلى تقويم من التراكيب المستعملة، وكان يتوخى في ذلك كله نهج التيسير والسهولة بما يتناسب مع مستوى المتعلمين الذهني والعلمي.

الرابع: الملمع في العربية - لأبي الفتح عثمان بن جنى ت (392) مؤلفه إمام من أئمة العربية في القرن الرابع الهجري اشتهر بكتابه القيم (الخصائص) وحينما ألف كتابه الملمع كان يستهدف به الناشئة من المتعلمين ولذلك لم يتوسع فيه، وإنما اقتصر على الأبواب والمسائل التي تدعو الحاجة إليها نطقاً وكتابة بعيداً عن التعمق في المسائل والتعليقات النحوية التي لا يدركها سوى الضالعين في تخصص النحو.

الخامس: الأجرومية - ابن أجروم الضهاجي المغربي المتوفى سنة 723 اقتصر فيه على بعض القواعد النحوية الأساسية لصغار الطلاب في حدود عشرين صفحة.

ثانياً: التجديد والتيسير في العصر الحديث: في العصر الحديث حظي علم النحو بعناية ملحوظة تصب في السعي إلى تجديده وتيسيره، ولعل من أوائل المبادرات في هذا الصدد ما قامت به اللجنة المشكلة من وزارة المعارف المصرية عام 1938. وتضم كلاً من الدكتور طه حسين، والأستاذ أحمد أمين وإبراهيم مصطفى، وعلى الجارم، محمد أبي بكر إبراهيم، وعبد المجيد الشافعي، وذلك بقصد العمل على تيسير قواعد تدريس اللغة العربية، وقد انتهت إلى اقتراحات عديدة من أهمها الاستغناء عن الإعراب التقديري والمحلي، وجعل بعض علامات

الإعراب أصلية وبعضها فرعية، وأشارت إلى أنّ الجملة تتكون من أساسين مسند إليه ومسند، كما ألغت الضمير المستتر جوازاً ووجوباً ورأت أنّ جل بحوث الصرف من مباحث فقه اللغة التي لا يحتاجها البادئ بل لا تصل إلى فهمه^{3 1} وفي عام 1947 صدر من المؤتمر الثقافي العربي الأول بجامعة الدولة العربية توصيات تؤكد على حاجة اللغة العربية وقواعدها إلى التيسير والتبسيط بما يقربها من مدارك الطلاب على أنّ لا يمس ذلك بحال من الأحوال جوهر اللغة العربية وقواعدها، وأوصى المؤتمر بأن يكون تعليم القواعد النحوية في عبارات وموضوعات حيوية تهتم التلاميذ وتشوقهم، وذلك بأن يعرض المعلم على أنظار تلاميذه قطعة في موضوع ملأهم ويناقشهم فيها، ويستخلص من خلالها قواعد النحو والإعراب، واقترحت اللجنة المعنية بذلك منهجاً دراسياً يشمل على ما تراه من موضوعات ومواد النحو المناسبة لبعض المراحل الدراسية.

وقد كان لمثل هذه التوصيات والآراء^{4 1} أثر واضح في الجانب التطبيقي حيث ألف بعض المتخصصين في النحو كتاباً حاولوا فيها أنّ تسير في اتجاه التجديد والتيسير كما فعل الأستاذ إبراهيم مصطفى، وحفني ناصف، وإبراهيم حسن وعلي الجارم، وأمين الخولي، والدكتور مهدي المخزومي، وأحمد الخوص. ضرورة التيسير: في عصرنا هذا بات الكل يشكو من صعوبة النحو وعسر تعلمه فأضحى التجديد والتيسير أكثر من ضروري فنرى بعض المؤلفات جاءت لهذا الغرض وهي متنوعة من واحد لآخر لكن هدفها واحد ووحد وإن اختلفت الصيغ أثناء الطرح.

الخطوات العلمية لتحديث الدرس النحوي: إنّ المدرسة الحديثة بدأت معالمها تتضح من خلال جملة الاقتراحات والأعمال التي ألفها أصحابها قاصدين بذلك تجديد الدرس النحوي الحديث. ويمكن تلخيص تلك المعالم في النقاط التالية

- 1- ضرورة العمل على الإصلاح الذي أصبح ضرورة في عصرنا هذا وباتفاق الباحثين
- 2- ضرورة تنقية التراث وغازالة الغث عنه ليتجرد الأصيل منه و يظهر على حقيقته
- 3- العمل على دراسة هذه العلوم اللغوية بمنظور علمي نزيه تماشيا مع متطلبات الحياة العصرية
- 4- من حيث الإحتجاج يؤكد أغلبهم على الكلام العربي من حيث صحة الاحتجاج به: القرآن الكريم بجميع قراءاته الصحيحة السند، ثم ما صح أنه كلام الرسول نفسه .
- 5- إن يعود الحديث الشريف إلى مكانته اللائقة وما الحجج التي قدمها القدامى إلا ثغرة عظيمة جدا تتطلب جهدا مضاعفا لإعادة الأمر إلى صوابه
- 6- إعادة ترتيب أبواب النحو على خلاف ما كان عليه الأمر عند القدماء والاستغناء عن طائفة من الأبواب والموضوعات، ومنها إن تضم مجموعة كثيرة من الموضوعات تحت دائرة الأساليب. وهي جميع الموضوعات التي تخضع لصيغ محددة يمكن القياس عليها، بدلا من إن تكون دروسا نحوية موزعة لا جامع لها
- 7- يرى بعضهم (المخزومي - تمام حسان) ضرورة الاستغناء على نظرية العامل التي تعلق بها القدامى، وأراد هذا البعض إقناع الآخرين بذلك ولكنهم فشلوا في ذلك
- 8- إعادة النظر في تقسيم الكلمة وتحديد أنواعها كأن تكون أكثر مما هي عليه عند القدامى الذين جعلوها :اسما وفعلا وحرفا. مقترح ين تقسيما

جديدا يروونه أكثر صوابا وتماشيا مع واقع اللغة العربية. كأن تكون : اسم أو ضمير أو صفة وفاعلا وظرف أو أداة.

بالإضافة إلى كل هذا يرى كل الباحثين إن المطلوب في عصرنا هذا هو تيسير الأساليب التعليمية التي تحبب المادة للتلميذ وضرورة حذف الآراء الشاذة والانفرادية. خراج المادة النحوية بأسلوب شيق بعيد عن التعقيد، تلكم هي مجمل الاقتراحات التي أصبحت تشكل الملامح الحقيقية للمدرسة النحوية الحديثة على غرار المدارس النحوية القديمة

الاستعانة بطرائق التدريس: ثمة علاقة بين التيسير النحوي وطرائق تدريس النحو، فقد تتداخل أحيانا حتى يصعب فرز بعضها عن بعض لأن هدفهما واحد هو تيسير الدرس النحوي للتلاميذ، لكن الأول يتناول المادة النحوية نفسها، ويتناول الثاني طريقة تدريس هذه المادة، وأسلوب عرضها لذلك اتخذها أصحاب التيسير وسيلة من وسائل التيسير النحوي.

أحاول هنا إن أتحديث عن الطريقة التي أحبذ إن أسميها (الطريقة الوعائية أو الظرفية)

والظرف لغة هو الوعاء، هذه الطريقة أراها السبيل لجعل المادة النحوية مهضومة صائغ شاربها إذ إن الأوائل كانت لهم أوعية للحفظ وهذا ما ساعدهم على النبوغ فترى أهل العلم لهم حافظة تجعلهم ستنطقون العلوم في قواص الأرض وأينما حلوا وارتحلوا وهنا يقول الإمام الشافعي رحمه الله :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُمَا يَمُمْتُ يَنْفَعُنِي

قَلْبِي وَعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقٍ

إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيهِ مَعِي

أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ

ويقول ابن حزم الظاهري:

فَإِنْ تُحْرِقُوا الْقِرطَاسَ لَا تُحْرِقُوا الدِّينَ تَضْمُنُهُ الْقِرطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي
يَسِيرُ مَعِيَ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رِكَائِي وَيَنْزِلُ إِنْ أَنْزَلَ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي

من هنا نعلم إنَّ أساس التيسير هو الحفاظ خصوصاً المادة النحوية واللغوية إذ إنَّ العلماء بالأندلس تفتنوا لهذا ووضعوا متونا تعليمية بالدرجة الأولى لكن غرضها التيسير والتجديد في عرض المسائل وهذا من أجل سهولة استظهارها في أي زمن وفي أي مكان وتحت أي ظرف .

وخير دليل ما نراه إلى يومنا هذا من المحاضر خصوصاً في الصحراء الجزائرية وبلاد شنقيط حيث يستظهر طالب العلم متونا علمية لا يمكن حصرها مع الضبط السليم لها من جوانبها على السبيل الصحيح الذي تلقاها عليه.

خاتمة

وفي نهاية المطاف أمل إنَّ أكون قد وفقت في الوقوف على جهود الباحثين والدارسين قديماً وحديثاً حول قضية هامة تتمثل في تجديد النحو وتيسيره ويظهر من خلال ما سبق إنَّ ثمت إجماعاً على ضرورة تيسير النحو وتذليل أصوله وقواعده على النحو الذي يقربه من أذهان الطلاب بعيداً عما يبدوا من كتب بعض النحاة من تعقيد وجنوح إلى الدخول في التعليقات والمحاكمات الفلسفية والمنطقية التي لا تجدي نفعاً في تحقيق الهدف من دراسة النحو بما يعود بالنفع على الدارس لتقويم النطق والكتابة وتبرئتهما من اللحن والخطأ.

ويمكن طرح بعض التوصيات منها :

الأول: توحيد مناهج اللغة العربية في الدول العربية

الثاني: إسناد أمر توحيد مناهج النحو إلى " جامعة الدول العربية "

الثالث: حقا إنّ النّحو العربي يحتاج إلى تطوير حتى يواكب عصر العولمة ، لكن تطوير المنهج يختلف عن تقويضه وهدم أعرافه المشهورة ، فيا حبذا لو شجعت جامعة الدّول العربيّة الباحثين لإكمال المسيرة المباركة الّتي بدأها الأستاذ علي جارم وزميله مصطفى أمين ، لكن أفضل من توجيه التّهم الزائفة إلى النّحو القديم والنّحويين ، هذا للناشئين وكذلك نقترح تشجيعها للباحثين لإكمال المسيرة العلميّة المنفتحة على الطرف الجديد مع الاعتداد بالثّرات، وهي المسيرة الّتي بدأها د/تمام حسان ، ود/عبد الرّاجحي ود/أحمد مختار عمر وغيرهم كثير، وستكون النّتائج مثمرة إن شاء الله

- ¹ - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، الحيوان، دار الكتب العلميّة، المجلد الأول، ط، 01.م 1998 ج 91/01.
- ² - الجاحظ أبو عثمان: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ط، 01، 1399 هـ. ج 38/03.
- ³ - الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، ص 75-77.
- ⁴ - ابن مضاء القرطبي: الردّ على النّحاة، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط 01 1399 هـ - 1979 م، ص 85.
- ⁵ - ينظر المصدر السابق، ص 85، 88، 93.
- ⁶ - المصدر السابق، ص. 91، 92.
- ⁷ - المصدر السابق، ص 99.
- ⁸ - ينظر المصدر السابق، ص 100، 103.
- ⁹ - المصدر السابق، ص. 151.
- ¹⁰ - المصدر السابق، ص. 152.
- ¹¹ - الردّ على النّحاة، ص. 127.
- ¹² - القفطي جمال الدين: إنباء الرّواة على أنباء النّحاة، تحقيق محمد أبو الفضل، دار الفكر العربي بيروت - لبنان، 1406 هـ - 1986 م، ط 01، ج 160/02.
- ¹³ - ينظر المزيد عن هذه المقترحات كتاب النَّحو الجديد للأستاذ عبد المتعال الصّعيد، ص 84 وما بعدها، وانظر مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، الجزء الأول، المجلد 32، 1376.
- ¹⁴ - نشرت هذه التّوصيات كاملة في مجلة مجمع اللغة العربيّة بدمشق، الجزء الأول، المجلد 23 صفر 1367، كانون الثّاني 1948، ص 139 - 142، وتحدث فيها الأستاذ أمين الخولي في كتابه مناهج تجديد في النَّحو البلاغة والتّفسير، ص 31، 32، وناقش ما توصلت إليه من آراء.

حفريات أولية في ذاكرة مصطلح السيرة

د. نبيل حويلي¹

تاريخ الإرسال : 05 - 03 - 2019 تاريخ القبول: 03 - 04 - 2019

الملخص: إن السيرة فنٌ أدبيٌّ بامتياز ينتمي إلى الفنون السردية على مستوى الشكل والبناء، وهو مصدر غني من المعرفة التي تتعلق بتجربة الإنسان وما تتضمنه من أسرار وصراع طويل مع الحياة فهو بذلك نقل مباشر لأحداث الماضي. ويمكن تصنيف مصطلح السيرة في خانتي الخيال والواقع على حد سواء كونه تزاج متعادل بين حقائق تاريخية والقوى المتخيلة البارعة في الحذف والبناء والإثبات. وقد كثرت التعريفات وتفرّع مصطلح "السيرة" إلى معانٍ متباينة، فقليل مثلاً: "إن السيرة فن ترجمة الحياة لشخص ما"، وسنسعى في عملنا هذا التفرقة بين مستويات مصطلح "السيرة" وذلك بالعودة إلى ثلاثة تفرعات نراها تؤسس لهذا المصطلح وهي على التوالي: السيرة النبوية والسيرة الشعبية والسيرة الذاتية.

الكلمات المفتاحية: مصطلح السيرة، السيرة النبوية، السيرة الشعبية، السيرة الذاتية التاريخ، الحياة، التجربة الإنسانية.

¹ جامعة الجزائر - 2- أبو القاسم سعد الله، الجزائر، البريد الإلكتروني:

nabil.haouili@gmail.com

PRELIMINARY FOSSILS IN THE MEMORY

OF THE TERM BIOGRAPHY

ABSTRACT: The biography is the ultimate literary art belongs to the narrative arts at the level of form and construction, it is a rich source of knowledge that relates to human experience, its secrets and a long struggle with life. It is a direct transfer of events of the past. The term "biography" can be categorized in both fiction and reality as a mere mating between historical facts and imagined powers of deception, construction, and proof.

The definitions have abounded and the term "biography" have grown to different meanings, it was said, for example: " The Biography is the art of translating life to someone", and we will seek in our work to distinguish between the levels of the term "biography" by returning to three branches we see establishing for this term, and is respectively: the Prophet's biography, popular biography and autobiography.

Key words: Prophet's biography, popular biography, autobiography, history, life, human experience.

توطئة: أنتجت سائر الأمم نتائج فكرية عبّرت عن تراثها وحاضرها الذي جُسّد في أشكال نظرية والأخرى شعرية بلغة ذات مستوى فنيّ مؤثّر في النفس الإنسانية مفعمة بضروب من الخيال والعاطفة الجياشة والصّور الفنيّة الرائعة ولعلّ السيرة من أهم الوثائق البارزة التي دوّنها الإنسان في نفسه أو غيره بوسائل فنيّة بلاغيّة نظرية ونظميّة ووصفيّة وسردية.

ويمكن تصنيف مصطلح السيرة في خانتَي الخيال والواقع على حد سواء كونه تزاوج متعادل بين حقائق تاريخية وقوى متخيَّلة بارعة في الحذف والبناء والإثبات. وقد كثرت التعريفات وتفرَّع مصطلح "السيرة" إلى معانٍ متباينة: السيرة النبوية والتي تتعلَّق بتاريخ الرسول ﷺ العسكري والغزوات التي قام بها لنشر دعوته السَّمحة، والسيرة الشعبيَّة التي تتحدَّث عن أبطال مجدهم التاريخ بأوصاف عادة ما تكون خارقة كما تتناول حروبهم وقتالهم، وأخيرا السيرة الذاتية التي تتمثَّل في نصٍّ طويل يتناول حياة أحد الأعلام والمشاهير بنوع من التفصيل والتدقيق. وفي البدء وقبل الوقوف عند مستويات مصطلح السيرة وما تحمله من إشكاليَّة اصطلاحية، لا بدَّ من تعريف لفظة "السيرة" تعريفا لغويا معتمدين في ذلك على مجموعة من المعاجم.

التعريف اللغوي: إنَّ المتصفَّح لكلمة السيرة في معجم "لسان العرب" لابن منظور يجد أنَّها وُردت في أنحاء كثيرة منه، ولعلَّ أوَّل الإشارات هذا البيت الشعري للشاعر "الخالد بن زهير":

فلا تجزعنَّ من سنة أنت سرَّتها فأوَّل راضٍ سنة من يسيرها¹

والمراد في هذا البيت الشعري أنَّه لا داعي للغضب من تلك السنة أو الطريقة فأنت من جعلها سائرة بين النَّاس.

ومن المعاني التي يدلُّ عليها تعلُّق هذه المادة بحروف الجرِّ: سَايَرَهُ: سار معه. وتسايير عنه الشَّيْءُ: سار وزال، يُقال: فلانٌ لا تسايير خياله إذا كان كذابا. ويُقال: سرُّ عنكَ أي تغافل واحتمل.

ومن أسماء المفعول: دابٌّ مسيرٌ، إذا كان الرَّجُلُ راكبها أو سائرا لها، والمشيَّة مُسارةٌ، والقومُ مسيرون، وطريقٌ مسورٌ فيه، ورجلٌ مسورٌ به.

وأما دلالات بعض المصادر اللازمة الآنفة: فالمسيرة تستعمل مصدرا بمعنى السَّيْرَةِ كالمعيشة والمعجزة ويستعمل أيضا بمعنى المسافة التي يُسَار فيها من الأرض كالمنزلة والمتهمة، ومنه قول الرسول ﷺ: "نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ" وكذلك قيل عن السَّيْرَةِ بأنها هي الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، كما يُقال: قرأت سيرة فلان أي تاريخ حياته.² ويعرفها "ابن منظور" قائلا: "السَّيْرُ: الذَّهَابُ، وَسَارَ يَسِيرُ سِيراً وَمَسِيرَةً وَسِيرورةً ... والتَّسْيَارُ: تَفْعَالٌ مِنَ السَّيْرِ ... وَسَيْرُهُ مِنْ بَلَدِهِ أَيْ أَخْرَجَهُ وَأَجْلَاهُ ... وَسَيَّرْتُ الْجُلَّ عَنْ ظَهْرِ الدَّابَّةِ: نَزَعْتَهُ عَنْهُ ... وَفِي مَقَامٍ آخَرَ نَجِدُ حَدِيثَ حَذِيفَةَ تَسَايَرٍ عَنْهُ الْغَضَبُ أَيْ سَارَ وَزَالَ، وَالسَّيْرَةُ: الضَّرْبُ مِنَ السَّيْرِ وَالسَّيْرَةُ السَّنَةُ وَالطَّرِيقَةُ وَيُقَالُ: سَارَ بِهِمْ سَيْرَةً حَسَنَةً، وَالسَّيْرَةُ الْهَيْئَةُ، وَجَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ: "قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى" (سورة طه، الآية: 21) وَسَيَّرَ سَيْرَةً: حَدَثَ أَحَادِيثَ الْأَوَائِلِ".³ ونخلص من هذا التعريف الذي قدّمه "ابن منظور" أن السَّيْرَةَ هي السَّنَةُ أو الطريقة أو الحالة التي يكون عليها الشيء وأورد الآية الكريمة في صيغة الهيئة.

وبالعودة إلى تعريف "ابن منظور" نجد أن هنالك اشتقاقاً يجيز صياغة فعل من المصدر -السَّيْرَةِ- وهو سَيَّرَ ويُقصد به من يحدث بأحاديث الأولين فهو أكثر الجذور اللغوية التي تُضارع مصطلح السَّيْرَةِ إنتاجاً ورؤية مع غلبة الجانب الحكائي على المكتوب منه، وبالتالي أخذ مفهومها يعمّ، فأصبحت تعني السَّيْرَ جمع السَّيْرَةِ وهي الطريقة سواء أكانت خيراً أم شراً، لذا قيل فلان محمود السَّيْرَةِ وفلان مذموم السَّيْرَةِ.⁴

ومن التعريفات الرائجة أيضاً لمصطلح "السَّيْرَةِ" ما جاء به "الزمخشري" بقوله: "إنَّ السَّيْرَةَ مِنَ السَّيْرِ كَالرَّكْبَةِ مِنَ الرِّكْبِ، يُقَالُ سَارَ فُلَانٌ سَيْرَةً حَسَنَةً ثُمَّ اتَّسَعَ فِيهِ فَنَقَلْتُ إِلَى مَعْنَى الْمَذْهَبِ وَالطَّرِيقَةِ".⁵ وننتهي من هذا التعريف إلى أن السَّيْرَةَ عند "الزمخشري" يدور معناها حول المذهب والطريقة وهيئة فلان من

حيث مكارمه وعيوبه، ولكنه تعريف ضيق بالمقارنة بما جاء به "ابن منظور" في "لسان العرب".

ونجد في مقام آخر إته عند "الفيروز أبادي" في معجمه "القاموس المحيط" يشير إلى مصطلح السيرة قائلًا: "السَّيرُ هو الذَّهابُ كالمسير والتَّسيار والمسيره والسَّيرورة والسَّيرة: الضَّرْبُ من السَّير والسَّيرة بالكسر: السَّنة والطَّريقة والهيئة". ويتفق هذا التعريف مع التعريف السَّالف في أنَّ السَّيرة هي السَّنة أو الطَّريقة أو النهج أو الهيئة ...

أما اصطلاحاً: فقد كثرت التعريفات وتفرَّع مصطلح "السَّيرة" إلى معانٍ متباينة، فقليل مثلاً: "إنَّ السَّيرة فن ترجمة الحياة لشخصٍ ما"، وسنسعى في عملنا هذا التَّفريق بين مستويات مصطلح "السَّيرة" وذلك بالعودة إلى ثلاثة تفرَّعات نراها تؤسِّس لهذا المصطلح وهي على التَّوالي: السَّيرة النبويَّة والسَّيرة الشَّعبية والسَّيرة الدَّاتية:

السَّيرة النبويَّة: وأوَّل الأشكال "السَّيرة النبويَّة" ويكاد يجمع الدَّارسون للسَّيرة على أنَّ انطلاقتها كانت من رواية الحديث، وكانت تعني في البدايات تاريخ الرِّسول ﷺ العسكري والغزوات التي قام بها لنشر دعوته وأطلق بعد ذلك هذا المصطلح على حياة الرِّسول ﷺ بصورة عامة ليشمل سيرة غيره من الرِّجال ... وتُفيد المصادر أنَّ أوَّل استعمال لهذه اللفظة في اللغة العربيَّة في غير سيرة الرِّسول ﷺ كانت "سيرة معاوية" و"سيرة بني أمية"، وبعدهما ظهرت "سيرة أحمد بن طولون" وسواها ... ومن جهة أخرى أفادت الكثير من الدَّراسات أنَّ لفظة "السَّيرة" إنَّما دخيلة على اللغة العربيَّة وبالتَّحديد جاءت من اللغة الآرامية، ولم يكن الاصطلاح جرى على استعمالها إلاَّ في القرن السَّابع عشر للميلاد على يد "ياقوت الحموي".

وشغلت سيرة الرِّسول ﷺ الكثير من المؤرِّخين المسلمين، وأوَّل من اهتمَّ بها كان فريق من التَّابعين، إذ كانت تُعقد مجالس خاصة تتحدَّث فيها عن مغازي

الرَّسُول ﷺ يسألون العلماء والحفاظ من آبائهم أو ممَّن سمع منهم عنهم، وقاموا بجمع الحقائق والأحداث الصحيحة لا يدخل عليها تشويه أو افتراء، كما وقع اختيارهم أيضا في محاولة تفسير بعض الآيات التي أشارت إلى وقائع غزوات النبي ﷺ وأيضا إلى رصد أقواله وأفعاله حتَّى شملت سيرته وحياته.⁶

ولم تخص الدراسة السيرة النبوية مؤرخي الإسلام فقط، بل تعدت إلى المستشرقين الذين جعلوا من هذه السيرة ميدانا لعديد من الدراسات التي تأصلت واشتهرت وترجمت إلى اللغة العربية، ومن هذه الدراسات ما كتبه كلُّ من "كارليل" و"مارجو ليوث" و"سبرنجر" بالاشتراك مع كلِّ من "نولدك" و"فنسك" عن الرَّسُول ﷺ واليهود وموقفه منهم⁷، وليس من الغريب البتة أن نجد علماء غير مسلمين وغير عرب يدوّنون عن الرَّسُول ﷺ كون شخصيته شخصية عالمية مميّزة حملت رسالة سمحاء لم يخص بها الله عزَّ وجلَّ العرب بل سائر الأقوام والأجناس وفي كلِّ حذبٍ وصوبٍ من حدود المعمورة، ولعلَّ من أروع ما قيل عن الرَّسُول ﷺ الأبيات الآتية:

محمّد سيّد طابت مناقبُه محمّد صاغه الرّحمان بالنعم
محمّد صفوة الباري وخيرُئله محمّد طاهرٌ من سائر التّهم
محمّد يوم بعث الناس شافعنا محمّد نور الهادي من الظّلم⁸

ويرى "إحسان عباس" في شأن سيرة الرَّسُول ﷺ أنّها قد كُتبت في ظلِّ مجموعة من المؤثرات، ويقول في ذلك: "نفرّد منها بالتمييز عاملين كبيرين هما: الأوّل أنّ سيرة الرَّسُول ﷺ جزءٌ من السّنة، فهي والحديث مصدران هامين من مصادر التشريع ومنهما تستفاد الأحكام ... والثاني: أنّ المسلمين كانوا قد ورثوا نظرة الجاهلية للتاريخ وهي نظرة قائمة على الأيام وطبيعة الحرب وشؤون القتال"⁹، ويمكن لنا أن نخلص من هاذين العاملين وأثرهما في سيرة الرَّسُول ﷺ

إلى الخصائص المتراوحة في السيرة العربية وهو ما ذكره نفسه "إحسان عباس" حينما أشار إلى ذلك قائلا: "فلا غراب إذا رأينا السيرة على يد موسى بن عقبة وابن شهاب وغيرهما، ثم على يد ابن إسحاق وريث كتاب المغازي الأولين تسجيلا دقيقا للمعارك الحربية وما دار فيها من فنون"¹⁰. ومن ثمة كانت الانطلاقة الصحيحة للسيرة على يد إسحاق والذي اتبعه الكثير من الكتاب والأدباء ممن جاؤوا بعده.

السيرة الشعبية: وعن مصطلح السيرة الشعبية فهي شكل أدبي عادة ما يصنف في خانة أشكال التعبير في الأدب الشعبي، وقد عرف الأدب العربي هذا الجنس قبل الإسلام، وتواردت الكثير من السير عبر الالسنّة، نحو سيرة "سيف ذي بن يزن" و"عنتر بن شداد"... وكانت تتحدث عن حروبهم وقتالهم، وأطلقوا على هذه الأخبار أيا ما نحو "يوم حليلة" الذي أصبح مثالا فيما بعد و"يوم دار مأسل" و"يوم عين أباغ" و"يوم ذي قار" و"يوم خزار" و"يوم طخفة" و"يوم ظهر الدهناء" و"يوم الكلام الأول"... وهناك من تسمى بأسماء، الأمر الذي أحدث اشتعال الحرب والنيران مثل حرب البسوس وحرب داحس وغبراء، ومن حرم هذه الأحداث ظهرت شخوص حقيقية مطعمة بشخوص خارقة من نسج الخيال،...¹¹

ومن التعريفات الرائجة في مصطلح السيرة الشعبية ما جاء به "فاروق خورشيد" الذي قدم تعريفا مطولا لهذا المصطلح قائلا: "إن السيرة الشعبية عبارة عن تاريخ من حيث تناولها لحياة الفرد، لها أهمية كموجة للأحداث في عصره أو جماعة لعبت في تاريخ الشعب أو الإنسانية دورا ذا أثر بالغ الأهمية... وهي من حيث كونها انطباعات مؤلفة تتلون بثقافته ووضعها الاجتماعي وموقفه من الحياة، أي إنها ليست عملا علميا تاريخيا يعتمد على الوثائق الثابتة القيمة المحققة للوجود، ثم ينهج إلى مناقشتها ومقابلتها ببعضها البعض لاستخلاص الحقائق المجردة التي لا تهتم من الناس إلا أصحاب العلم ودراسة العاملين بل هي قد لا تغني على الإطلاق بهذا التمهيص أو المناقشة، وقد

تختار أضعف الأقوال بما يتفق دون غيره مع موقف المؤلف ووجهة نظره، وهذا يؤكد ذاتية السيرة كعمل، وليست الذاتية من العلم في شيء إنما هي إلى الأدب أقرب".^{1 2} يفيد هذا الاستشهاد للباحث الفولكلوري "فاروق خورشيد" أن السيرة جنس أدبي يعتمد بالدرجة الأولى على الوثائق البارزة وبالتالي فهو جنس أدبي مكتمل له تاريخه الحافل عبر الأزمنة وينصرف من التجسيم والتشخيص صوب التعظيم والتصويب.

ولكن ومن جهة أخرى نجد أن السيرة الشعبية ترتبط أكثر بمواقف التراث العربي الإسلامي وذلك حينما أيد الله عز ذكره نبيه بمعجزة كاملة دائمة مؤثرة في عصرها وبعد عصرها وفي بيئتها وفي غيرها، وإن ذلك أيضا في الأمة التي بعث فيها الرسول ﷺ أو في كل الأمم الأخرى. وبدأ الناس يدخلون أفواجا إلى الدين الجديد بما في ذلك الأعاجم من فرس وبربر وروم ومصريين... فأخذوا يدونون عن الأبطال الذين نشروا هذا الدين الجديد عبر أصقاع وبقاع العالم.

ولعل من أبرز تلك السير: "سيرة سيف ذي بن يزن" و"سيرة الزير سالم" و"سيرة الظاهر بيبرس"... ومن أمثلة السير المتداولة أيضا نجد "سيرة الأميرة ذات الهمّة" هذه السيرة المحكّمة البناء، تتميز بتحديد عصر معين لأحداثها وهو بداية حكم "عبد الملك بن مروان" خليفة الدولة الأموية، وهذا عنصر مهم من عناصر السيرة التي تبين لنا شكلا أو جانبا من جوانب الحياة السياسية في عصر رواية تلك السيرة. كما تتميز بغلبة الطابع الأخلاقي على السيرة من أولها إلى آخرها، فالبطل الذي ينتصر هو بطل متدين يتصف بصفات القوة الجسدية والفروسيّة ولديه ذكاء وفطنة ودهاء، كما لديه شجاعة في اتخاذ المواقف المناسبة...^{1 3} وعادة ما تبتدئ السيرة الشعبية بمقدمة معبرة في قالب أدبي جميل جدا، ومن أمثلة ذلك ما ورد في مقدمة "سيرة الأميرة ذات الهمّة" إذ كتب الرواة قائلين:

"الحمد لله الذي جعل سيرة الأولين عبرة الآخرين، وأحاديث الماضين اعتبارا للقوم الباقين، الذي فضل دين الإسلام على كل دين لأنه حبل الله المتين فقال تعالى وهو أصدق القائلين: "هو اجتباكم... سماكم المسلمين"، وقوله: "إن الدين عند الله الإسلام"، وقوله أيضا: "ومن يبيع غير الإسلام... الخاسرين".
أما بعد:

فقد ذكرت الرواة لهذه السيرة العجيبة، وما فيها من الأحاديث الغريبة، لما رأينا الجهاد حبل الله المتين، ومنزلة المجاهدين عند الله في أعلى عليين، فأحببت أن أجمع سيرة تكون نزهة السامعين، لما فيها من الانتفاع لكل المطالعين، وأنا أسأل الله الإعانة على ترتيب هذا الكلام العظيم، إنه هو السميع العليم.

فأول ما نذكره حديث الحارث وولده جندبة، وبعدهما حديث الأمير الصحاح زائر قبر النبي ﷺ زين الملاح سيدنا محمد ﷺ ما أظلم الدجى وأضاح الصباح، نذكر له ما جرى في الحرب والكفاح، وما يظهر منه من الأولاد الملاح وما يبدو منهم من الأفعال الصحاح، وما نقلته عنهم الرواة الفصاح وما شهدوا منهم من الحرب والطعن في المساء والصباح، وما تمّ لهم من الجهاد في طاعة رب العباد الملك الفتاح من الخير والصالح".^{4 1} ويتّضح أنّه ومن خلال النموذج المقدّم لهذه السيرة الشعبية ملامح أساسية لميلاد البطل، فهو يولد لوالدين مرموقين أو على الأقلّ لهما شأن بين أوساط قبيلتهما، وخاصة والده الذي غالبا ما يكون زعيما أو ملكا، وتلعب النبوءة دورها قبل ولادته وتطلع الأم أو الأب على الدور الخطير الذي سيلعبه الولد في مستقبل أمته، وهو الأمر الذي يجعل والده يُبعده عن أعين الناس خوفا منهم بأن يغدروا به ويقتلوه ويتربّى خارج مملكة أبيه وبعيدا عن حنان أمّه.

وترى الباحثة الجزائرية "ليلى روزلين قريش" أنّ السيرة الشعبية هي نوع أدبيّ يتعيّن من الإمكانيات الشكّلية المتحقّقة، عبر مسار تاريخ الثقافة العربية الإسلامية في نصوص يمكن أن تندرج ضمن أنواع فرعية، ويرتبط مصطلح

السيرة عندها بحياة شخصية بارزة أو قبيلة ما تعرف بأعمالها الخارقة ورحلاتها المستعصية وعن الفروسية والشجاعة والبسالة ومحاربة الشرّ والمكر والخداع كما تُعبّر عن واقعة من الوقائع والذكاء والفتنة وعن الحرب والقتال.¹⁵

نموذج "سيرة بني هلال": تتحدّث هذه السيرة عن نزوح بني هلال من شبه الجزيرة العربية، وهم البدو المشهورون منذ غابر الزّمان في أرجاء الجزيرة، ثمّ أثناء تغريبهم* الطويلة وأخيرا استقرارهم النهائي ببلاد المغرب الكبير عامة وبالجزاير خاصة. وكيف استطاعوا أن يبقوا على قيد الحياة بفضل إرادتهم القويّة وشجاعتهم النادرة في مجابهة العدو والسعي نحو البقاء على قيد الحياة والدّفاع عن كيانهم. وكان دفاعهم يتحقّق حسب إستراتيجية نادرة وماهرة إلى حدٍّ بعيدٍ والتي كانت تتغيّر حسب نوعيّة القتال سواء عن طريق المباشرة أم الاصطدام العام بين جيوشهم القبليّة والجيوش المعاديّة لهم، ومشاركة نسائهم في القتال وكلّ هذه الصنوف إنّما تبرز العبقرية الحربيّة الهلاليّة والتي عملت على انتصارهم الدائم، وكان ذلك بالتركيز على شجاعتهم القويّة ومهارتهم الحربيّة وعصبيتهم القبيلة¹⁶، ولعلّ من أبرز شخوصها الرئيسيّة البطل والفارس الشّجاع "ذياب" صاحب الدهاء والفتنة والذكاء و"الجازية" عاشقته الجميلة والأميرة الأنيقة التي تمتاز بدورها بالذكاء والفتنة والأنوثة الطّاغية.

الرّواية السّير ذاتيّة: تنتشر كتب السيرة الذاتيّة حول العالم وتنال القدر الأكبر من عناية القراء والمهتمين، حيث تؤكد الإحصاءات أنّ كتب السيرة الذاتية للمشاهير هي الأكثر الروايات مبيعة، ويمكن لنا أن نعرّف السيرة كجنس أدبي، ونقول: إنّها ذلك النّصّ الطويل الذي يتناول حياة أحد الأعلام والمشاهير بنوع من التّفصيل والتّدقيق، في حين تكون التّرجمة نصا فقيرا تضمّ إشارات مختصرة عن حياة شخص ما. إنّ الطرح الأوّل يقترب من مفهوم السيرة عند الأوروبيين منذ القرن السّابع عشر حيث دلّت كلمة biographie على الحياة وقصّة حياة واحد، فتكون نصا سرديا طويلا مفردا.¹⁷ ويغلب على السيرة

الذاتية السرد، وغالبا ما يكون منتظما في فضاء مكاني محدد، يهتم فيه الكاتب بتقديم حياة إحدى الشخصيات المعروفة في مجال استراتيجي علمي أو أدبي أو فكري أو ثقافي لديها مؤهلات خارقة، وتكون هذه السيرة الذاتية بمثابة تجربة تستحق أن تكون مثالا يقتدي به المتلقي ويتأثر بمحتواها ولاسيما إذا كان يتمتع بقدرات تعبيرية وبلاغية فيها الكثير من الإقناع.^{8 1} ويكون هذا الجنس الأدبي بذلك مستقلا عن سواه من الأجناس الأدبية.

وعرفت الإرهاصات الأولى للسيرة الذاتية في الأدب العربي القديم مع العصر الإسلامي، إذ وصلت إلينا أول قطعة أدبية "لسليمان الفارسي"، تحدثت فيها عن حياته ودونها "الخطيب البغدادي" في كتابه "تاريخ بغداد"، وتعتبر هذه القطعة أول بذرة للسيرة الذاتية في القرن الأول للهجرة. كما دون "أبو الفرج الأصفهاني" مجموعة من أجزاء سير ذاتية في كتابه "الأغاني"، مثل تلك التي تتعلق بسيرة الشاعر الأموي "نصيب بن رياح" وسيرة "إبراهيم الموصلي" ... وبعدها وجدت أجزاء سير ذاتية أخرى مثل تلك التي أوردها "موفق الدين أبو العباس أحمد القاسم بن خليفة الخزرجي" في كتابه: "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" ووردت فيه سيرتا "ابن إسحاق" و"ابن الهيثم"...

ومن ثم نجد الكثير من الرسائل التي تشتمل على مجموعة من السير الذاتية:

- رسالة "محمد بن زكريا" وفيما كتبه عن سيرته وسلوكه النفسي.
- رسالة "الصداقة والصديق"، "لأبي حيان التوحيدي".
- رسالة "فتنة الكبد إلى نصيحة الولد"، "لابن جوزي".

أما عن الكتب فهي على التوالي:

- كتاب "طوق الحمامة في الألفة والآلاف"، "لابن حزم الأندلسي".
- كتاب "المنقذ من الضلال" للإمام الغزالي، ويرتبط بالقضايا الروحية.
- وصولا إلى "سيرة ابن خلدون" في عصر انحطاط الأدب العربي.^{9 1}

أمّا في الأدب العربي الحديث فيمكن الإشارة إلى بعض الأعمال والتي كانت بدايتها:

- "تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان"، وفي مقدّمة هذا الكتاب سيرة المؤلّف.

- "تخليص الإبريز" لرفاعة الطهطاوي، وفيه سرد رحلته إلى فرنسا.
- "الأيّام" لطله حسين، وفي رأي الكثير من المختصّين يعدّ هذا الكتاب أوّل كتاب في السيرة الذاتيّة الحديثة.

- وبعد ذلك جاء كتاب "حياتي" لأحمد أمين الذي نهج على خطى كتاب "الأيّام" لطله حسين.

- ولا ننسى "محمود العقاد" في سيرته الذاتيّة، ونراه فيها يختلف عن سابقه اختلافا جوهريا، إذ يعتمد على أسلوب تحليليّ تفسيري.²⁰

ويتراوح مفهوم السيرة الذاتيّة (autobiographie) في النّقد الغربي في كونها شكلا من الأشكال الكتابيّة البارزة المرتبطة بالأنّا وأكثر صلة بالسّرد الذاتيّ، وعلى الكاتب حينما يؤلّف لسيرته الذاتيّة أن يلتزم بالصدق وهو الأمر الذي يقربّه أكثر لقارئيه، ولكن رغم ذلك فإنّ الكثير ممن ألفوا لسيرهم لم يلحقوها بصدق كامل، وهو الأمر الذي تنبّه إليه "إحسان عباس" حينما كتب يقول: "الصدق الخالص أمرٌ يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتيّة صدقٌ نسبيّ، مهما يخلص صاحبها في نقلها على حالها".²¹ ومن هؤلاء الغربيين الذين عرفوا السيرة الذاتيّة "فليب لوجان" (Philippe Le jeune) على أنّها قصّة ارتدادية نثرية، يقوم شخص واقعي بقصّ حياته الخاصة، ويوضع مجموعة من الرّكائز تقوم عليها السيرة وتتمثّل في:

1. أن شكل الكلام لا يخرج عن كونه قصّة نثرية.

2. أن الموضوع المطروق هو عرض لحياة الفرد وتاريخه الشّخصي.

3. يجب أن يكون هناك تطابق واضح بين المؤلف والراوي أو السارد.

4. تطابق السارد والشخصية الرئيسية باعتماد النص الارتدادى اللاحق.²²

تتداخل السيرة الذاتية مع مجموعة من العناصر في سرد الأحداث المعروضة في نص السيرة حيث تصوير عبارة عن تاريخ الحياة ووصف ذاتي كثيف من حيث العواطف والمشاعر، مليئاً بالأحداث الخاصة والعامة كذلك، وهنا يلعب الاستدكار دوراً مهماً في استرجاع الماضي العاطفي والأحداث إلى الحاضر أو زمن كتابة السيرة الذاتية، مع أنّ ذاكرة الأحداث أوسع وأعمق من دائرة الشاعر والعواطف ولكن عندما يتوقف السرد ليعلن العودة إلى الوراء ونعني هنا الماضي بهدف عرض مجموعة من الجوانب التي تسهم في إضاءة النص، تتحقق في الوقت نفسه أهدافاً فنية كالتشويق والانسجام والإيهام بالحقيقة.²³

وتتشكل السيرة الذاتية من أجناس يمكن أن نطلق عليها بأجزاء أدبية أو مكونات خطابية تتفرّع منها ولقد لخصها الباحث "عصام عسل"²⁴ على هذا النحو:

أدب الترجمة الذاتية: وهو تاريخ موجز لحياة الفرد أو شخصية من الشخصيات يقدم نفسه للناس ويعرّف بشخصه من أجل هدف معين.

أدب الذكريات: يقوم هذا الجنس الأدبي الصّغير على استرجاع الذاكرة للمواقف والأحداث المثيرة في حياة الكاتب بطريقة تلقائية لا يخضع فيها لترتيب زمني معين.

أدب الاعتراف: يكشف صاحب الاعترافات في هذا الشكل الأدبي الصّغير على فضح أسرارهِ للآخرين كما يقدم تفاصيل خبرته وتجاربهِ في الحياة من كلّ جوانبها سواءً كانت سلبية أم إيجابية. ويمكن لنا أن نمثّل هنا بأعمال الرئيس الجزائري الراحل "الشاذلي بن جديد"²⁵ عن مشوار حياته السياسية.

أدب اليوميات: يقوم الكاتب في هذا الشكل التعبيري بعرض الأحداث اليومية بحسب أهميتها وعلاقتها به وتتميز بالأنية والمباشرة والدقة، فهي ليست من الماضي البعيد أو المستقبل القادم. ولا بأس أن نمثل هنا "يوميات آن فرانك"²⁶ وهي رواية تروي أحداث فتاة تُدعى "آن" في الرابعة عشر من عمرها تعيش رفقة عائلتها وما عانت من السلطات النازية كونها من أصول يهودية، وما تحملته من عذاب خلال تواجدها بهولندا حتى تفرق شمل العائلة وأُحرقت هي وأُمها وأختها في إحدى المحارق الألمانية.

أدب الرسائل: وهو كذلك شكل أدبي صغير يلعب دور الوثيقة في كتابة السيرة الذاتية، يتخذ المبدعون والعلماء كوسيلة للتواصل فيما بينهم، يعتمدونها صاحب السيرة كذريعة لإقناع المتلقي وتعميق درجة الصدق في الحقائق التي يبثها في نص السيرة إبعاداً لأي زيف أو تحريف للحقائق. ونسمي هذا الجنس الأدبي أيضاً بالمراسلات ويرى "فليب لوجون" أن لها صلة بالسيرة الذاتية عندما تكون في صور خطابات متتالية يكتبها شخص ما لصديق له يصف فيها مراحل حياته المختلفة كرسائل "روسو الأربع" إلى "ماليزرب".²⁷ وفيما يخص الأدب العربي نجد مثل هذا النوع من المراسلات في رسائل "توفيق الحكيم" إلى صديقه "أندرية" صور فيها جانباً من حياته اليومية والأدبية وما لاقاه من الصعوبات في سبيل التكيف مع المجتمع المصري بعد عودته من باريس أين مكث فيها سنوات لدراسة القانون، وكتب يقول: "كيف السبيل إلى الخروج عن إطار القضاة؟ كيف أنشر فناً دون أن أتعرض لسخرية الزملاء وخيبة أمل الكاتب العام وفجيرة الأهل والخلصاء. آه يا (أندرية) معذرة إنني أفكر الآن تفكيراً سخيلاً. هذا كلام غير خليق بفنان، ولكن هل أنا فنان؟ أتراها القميعة السوداء هي التي كانت تملأ رأسي بهذه الأوهام، لقد خلعتها كما تعلم منذ زمن بعيد وها أنذا اليوم أتشح بالوسام الأحمر الأخضر".²⁸ ومثل هذه الرسائل بمفرداتها

لا تشكّل سيرة ذاتيّة كاملة للكاتب لأنها خلت من كل ما يتصل بقلبه وعواطفه.

أدب المذكرات: يهتمّ به الكاتب بتسجيل أهم الأحداث السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة التي شارك فيها بشكل مباشر أو غير مباشر، فهو يهتمّ بمن وما حول الذات الكتابي، تقسّم المذكرات إلى نوعين: المذكرات المألوفة والأقصويّة (العامة) والمذكرات اليوميّة (الخاصة)، فالمذكرات العامة يعنى الكاتب فيها بتصوير الأحداث المعاصرة وسيتصرف بوصفه مشاهداً يهتمّ بما أحيط به أكثر من اهتمامه بنفسه بخلاف السيرة الذاتيّة التي يركز الكاتب فيها على الذات الفرديّة ولا يهتمّ بالمحيط الخارجي إلا بقدر تأثير هذا المحيط في حياته. ولعلّ من أبرز الأمثلة حول هذا الجنس الأدبي الصّغير المتفرّع من السيرة الذاتيّة نجد مذكرات الرئيس الجنوب إفريقي الأسبق "نيلسون منديلا" بمذكرات تحت عنوان: "حوار مع نفسي" ^{9 2} حيث رصدت هذه الشّخصيّة العظيمة والتي تعدّ من أهم الشّخصيات السياسيّة في عصرنا وأكثرها إلهاماً، بعدما قضى "نيلسون منديلا" عمراً بأكمله وهو يتأبّط الورقة والقلم لتدوين الأفكار والأحداث والمصاعب والانتصارات، ويمنح هذا الكتاب إمكانيّة التعرّف على الوجه الآخر "لنيلسون مانديلا" من رسائله التي كتبها في أحلك ساعات الحبس بل سنوات الاحتجاز والاعتقال، وهو يتخبّط وسط زنزانة وسط البحار حيث الأمواج التي تتلاطم وحيطان السّجن. ويمكن لنا أن نضع جدولاً لمعجم المصطلحات العربيّة/الفرنسيّة التي تفيد في معنى السيرة:

الأدب الشّخصي	Littérature personnelle	اليوميّات	Autoportrait
الكتابة عن الأنّا	Ecriture du moi	اليوميّات الخاصّة	Le journal intime
الكتابة عن الذات	Ecriture du soi	التّخييل الذاتيّ	L'autofiction

Le récit de voyage	الرحلة	Formes biographiques	الأشكال السيريّة
Les mémoires	المذكرات	Autobiographie	السيرة الذاتيّة
Récit de vie	محكي الحياة	Confession	الاعترافات

أنواع السّير الذاتيّة: قبل أن نشير إلى أنواع الكتابات الخاصة بالسّير الذاتيّة كان لا بدّ أولاً من الإشارة إلى القسم الآخر من السّيرة الذاتيّة أو ما يُقابلها وهي: "السّيرة الغيريّة" وهو ذلك النّوع من السّيرة الذي يدخل ضمن الجنس الأدبي الذي يكتبه بعض الأفراد عن غيرهم من النّاس، سواء أكانوا من الأعلام أم المشاهير الذين عاشوا في الزّمن الماضي أو في الزّمن الحاضر. وفيه يحاول الكاتب الإمام بمختلف جوانب الحياة للشّخص الذي يكتب عنه، ويفصل في المنجزات التي حقّقها، والظّروف التي ساعدته على بلوغ هدفه الأسمى.³⁰ والمتأمّل في هذا الجنس الأدبي يدرك أنّها تقوم على مجموعة من الأنواع المتباينة نحصرها كما يأتي:

السّيرة الذاتيّة الرّوحيّة: يعتمد هذا النّوع من السّير الذاتيّة على تصوير تقلّبات الدّات الكاتبة من حيرة وريب يصلان إلى اليقين في المجالين الدّيني والمذهبي وكذا الفلسفي والعلمي، ويهدف صاحبها إلى استرجاع محطّات حياته الثقافيّة والفكريّة بسليباتها وإيجابياتها من خلال سائر المواقف والرّدود، ولعلّ من أمثلة السّير الذاتيّة الرّوحيّة سير كلّ من "الحكيم التّرميذي" و"محمّد بن علي بن الحسن"، و"أبي حامد الغزالي".³¹

السّيرة الذاتيّة السّياسيّة: يحاول الكاتب في هذا النّوع من السّير الذاتيّة تسجيل الوقائع التي عايشها أو شارك فيها وكذا المعارك السّياسيّة والحربيّة التي خاضها، والمناصب التي تولّاها وكذا الشّخصيات السّياسيّة الحاكمة

لجهاز السلطة في بلده، ولعلّ أبرز سير هذا النوع من السير سيرة "الأمير عبد الله بن بلقين".³²

السيرة الذاتية القصصية: يكون هذا النوع من السير الذاتية عبارة عن سردٍ ثريٍّ سير ذاتيٍّ يسجل فيه القاص تجربته الذاتية في القصة مركّزا على مرحلتين مهمّتين هما النضج والشهرة، كما يمزج بين الفن القصصي بوصفه قصاصا، وسيقصد كذلك مرّة أخرى حياته الخاصة للمتلقّي بلغة فيها الكثير من الإيقاع والشعريّة.³³

السيرة الذاتية الروائية: وهي نوع آخر من السير الذاتية يقوم فيها الروائي بعرض تجربته الروائية متعرّضا إلى حكايته بأدقّ التفاصيل وبطريقة تعتمد على الإقناع سواء كان ذلك بشكل جزئي أم كليّ. ولعلّ من أمثلة هذا النوع من السير الذاتية ما كتبه الرواية "فاطمة أيت منصور" في عملها (Histoire de ma vie)³⁴ أو "قصة حياتي"، وهي أولى رواية سير ذاتية تكتبها المرأة الجزائرية وكان ذلك في القرن الماضي، وفيها سردت حياتها منذ صغرها ومعاناتها الشديدة بسبب الفقر اللاذع الذي كانت تعيش فيه، ناهيك عن المناخ الصّعب الذي تمتاز به منطقة القبائل خاصة أثناء فصل الشتاء، كما تتحدّث الرواية أيضا عن المرحلة التي عاشتها الكاتبة في المعبد مع الأخوات البيض أين تربّت فيه وعانت ظرف اختلاف ثقافتها عن تلك الرّاهبات الأوروبيات واللائي كنّ يحملنّها ما لا طاقة لها به، كنّ يضربنها ويعاملنها بشدّة وقسوة، ولكن رغم ذلك تحدّثت الواقع وتعلّمت مختلف العلوم والفنون، وتروي أيضا في أجزاء أخرى من روايتها ويلات الاستعمار الفرنسي بالجزائر والذي تخطّى كلّ الحدود وناقض كلّ العهود.

السيرة الذاتية العلميّة التأليفية: تتحدّث السيرة العلميّة التأليفية عن النشأة العلميّة والرّحلات الطويلة في سبيل طلب العلم والمعرفة عبر أصقاع وبقاع

العالم بما في ذلك العلماء الذي صادفوه والتّقوا بهم خلال رحلاتهم أو حتّى عاصروهم بالإضافة إلى الكتب التي أطلعوا عليها أو ألفوها^{3 5} ولعلّ من أمثلة هذا النوع من السّير الذاتية: سيرة "أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا"، وسيرة "جلال الدّين السيّوطي" ... أمّا في العصر الحديث فيمكن لنا أن نمثّل بسيرة "الأيّام" لطله حسين وسيرة "حياتي" لأحمد أمين،... أمّا في الجزائر فنمثّل برواية "Le fils du pauvre" "ابن الفقير" لمولود فرعون.

ومن خلال ما قدّمناه أعلاه من تعريفات حول "السيرة الذاتية" يتّضح جليّاً أنّه مصطلح يشتمل على وصف طريقة الكتابة كما أنّها ذلك الفنّ الذي يجمع بين الكاتب والقارئ. ونخلص إلى أنّ مصطلح السيرة يتفرّع إلى مستويات اصطلاحية متباينة هي: السيرة النبوية والتي تتعلّق بتاريخ الرّسول ﷺ العسكري والغزوات التي قام بها لنشر دعوته السّماحة، والسيرة الشعبيّة التي تتحدّث عن أبطال مجدهم التاريخ بأوصاف عادة ما تكون خارقة كما تتناول حروبهم وقتالهم، وأخيرا السيرة الذاتية التي تتمثّل في نصّ طويل يتناول حياة أحد الأعلام والمشاهير بنوع من التفصيل والتّدقيق.

إحالات البحث:

- ¹ ابن منظور، لسان العرب، الجزء الرابع، دار صابر، بيروت، ط3، 1414هـ، ص389.
- ² ينظر: إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1972 ص476.
- ³ ابن منظور، لسان العرب، مادة سير، ص392.
- ⁴ ينظر: الجرجاني، التّعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص378.
- ⁵ الزمخشري، الكشف عن حقائق وغوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتب العربية، بيروت، 2008، ص455.
- ⁶ ينظر: ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ج1، دار الجيل، بيروت، دت، ص23-24.
- ⁷ ينظر: محمد عبد الغني حسن، التراجم والسّير، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1969، ص36.
- ⁸ عبد المقصود محمد سالم، أنوار الحق في الصلاة على سيد الخلق، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة/ الجزائر، 2006، ص125.
- ⁹ إحسان عباس، فنّ السيرة، دار الشروق، عمان، ط1، 1996، ص14.
- ¹⁰ المرجع نفسه، ص23.
- ¹¹ ينظر: عدنان كريم رجب المفرجي، أدب السيرة قراءة في إشكالية المصطلح، أعمال خاصة بالمؤتمر التّقد الدولي الخامس عشر، بعنوان: التراث اللغوي والأدبي والنقدي العربي في الآداب العالمية، 28، 29، 30 تموز 2015، دار جرير للنشر والتوزيع، ج2، عمان، ط1، 2016، ص1079.
- ¹² فاروق خورشيد ومحمود دهني، فنّ الكتابة السيرة الشعبيّة (دراسة فنيّة للسيرة الشعبيّة)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1996، ط1، ص90-91.
- ¹³ ينظر: عصام يوسف، الأميرة ذات الهمّة، مكتبة النافذة، القاهرة، ط1، 2013.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص5-6.

¹⁵ ينظر: روزلين ليلي قريش، إستراتيجية القتال في سيرة بني هلال (نصوص مختارة)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 2009، ص8- 11.

* التّغريبية: مصطلح يُطلق أيضا على السيرة، وهو أمر شائع في سيرة بني هلال، إذ يطلق عليها الكثير من العلماء بتغريبية بني هلال، لأنّ الهلاليين انطلقوا من المشرق صوب المغرب، ونفس التسمية تُطلق على "تغريبية أسديوال" أيضا لأنه دائما ما يتّجه صوب الغرب، ولقد جمع هذه السيرة الباحث الميداني فرانس بواس ودرسها الأنتروبولوجي الفرنسي "كلود ليفي ستراوس" وتروي عن أحد الأبطال من هنود الحمر وبالتحديد هنود الشيسمانيين الذي يسكنون الساحل الغربي للباسفيك جنوب ألاسكا في إقليم يجري فيه نهريْن عظيمين هما ناس وسكينا، وولد أسديوال من أم بشرية وطائر غريب قدم من الأعلى، وكبر وأصبح فتى قويّ الجسد وذكيا يجابه الصراعات حتى صار سيّدا على قبيلته ليتزوَّج من نجمة السماء.

¹⁶ ينظر: روزلين ليلي قريش، إستراتيجية القتال في سيرة بني هلال.

¹⁷ ينظر: مجموعة من الدّارسين والباحثين، معجم السّرديات، الرّابطة الدوليّة للناشرين المستقلين تونس/لبنان/الجزائر/ المغرب/مصر، ط1، 2010، ص257.

¹⁸ ينظر: محمّد صابر عبيد، المغامرة الجمالية للنص السّير ذاتي، عالم الكتب الحديث، إربد/الأردن 2010، ص34.

¹⁹ ينظر: تهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي/فدوى طوفان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس أنموذجا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمّان، ط1، 2002، ص44- 49.

²⁰ ينظر: المرجع نفسه، ص80.

²¹ إحسان عباس، فنّ السيرة، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1996، ص113.

²² ينظر: مجموعة من الدّارسين والباحثين، معجم السّرديات، ط260.

²³ ينظر: نورة بعيو، الرواية السّير - ذاتية استنطاق للمسكوت عنه، عدد خاص بأعمال اليوم الدّراسي بعنوان: من السيرة الذاتية إلى الرواية السّير - ذاتية/كتابات آل عمروش أنموذجا، منشورات مخبر تحليل الخطاب، كلية الآداب واللّغات، جامعة مولود معمري تيزي وزو، ص18.

²⁴ ينظر: عصام العسل، فن كتابة السيرة الذاتية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، ص55- 56.

²⁵ Voir : Chadli Bendjedid, Mémoires, Tome : 1 (1929-1979), Tr : Mehenna Hamadouche, Ed : Casbah, Alger, 2012.

²⁶ Anne Frank, Le journal, Traduit du Hollandais par : Caren et Suzanne Lombard, Préface : de Daniel Rops, Ed : Le livre de poche/Calmann-Lévy, Paris, 1979, p16.

²⁷ ينظر: مجموعة من الدارسين والباحثين، معجم السرديات، ص311.

²⁸ المصدر نفسه، ص317.

²⁹ ينظر: نيلسون مانديلا، حوار مع نفسي، مقدمة بقلم الرئيس الأمريكي: باراك أوباما، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط3، بيروت، 2014.

³⁰ ينظر: عبد اللطيف الحديدي، فن السيرة بين الذاتية والغيرية في ضوء النقد الحديث، دار السعادة للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1992، ص42.

³¹ ينظر: محمد الداهي، شعيرة السيرة الذهنية، منشورات فضاءات مستقبلية، الرباط، ط1، 2000 ص13- 14.

³² ينظر: أسامة محمد البحيري، مقارنات في السرد العربي، وزارة الثقافة والإعلام/الانتشار العربي بيروت، ط1، 2012، ص23.

³³ ينظر: نورة بعيو، الرواية السير - ذاتية استنطاق للمسكوت عنه، ص23.

³⁴ Fadhma Ait Mansour Amrouche, Histoire de ma vie, Ed : Maspero, Paris, 1968.

³⁵ ينظر: أسامة محمد البحيري، مقارنات في السرد العربي، ص216 - 217.

المحور الخامس

دراسات ثقافية



الفهرس الوصفي لمؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلموه المخطوطة والمطبوعة والمفقودة —دراسة وصفية إحصائية—

The descriptive catalog of the works of Algerian scientists
in the Holy Quran and its sciences.

أ. فؤاد بن أحمد عطاء الله¹

تاريخ الاستلام: 23 / 11 / 2018 تاريخ القبول: 23 - 01 - 2018

الملخص: كان لعلماء الجزائر إسهامات بارزة ومشكورة في خدمة القرآن الكريم وعلموه، إلا أن أعمالهم لم تجمع، ولم تحظ بدراسة إحصائية تحليلية تضع بين أيدي طلبة العلم إحصاء دقيقا لمؤلفات علماء الجزائر في علوم القرآن الكريم، وتصنيفا محكما بين مطبوعها ومخطوطها ومفقودها. وقد رام المؤلف في هذا البحث جمع جميع تلك الأعمال والمؤلفات، والتي ألفها علماء الجزائر عبر العصور، مع تصنيفها إلى مخطوطة، ومطبوعة، ومفقودة، وتقريبها إلى طلبة العلم، كما قدم الباحث دراسة تحليلية إحصائية للمؤلفات القرآنية الجزائرية. وقد اشتمل البحث على مقدمة، ومبحثين دراسيين، وخاتمة، عرض من خلالها الباحث ثلاثة وثمانين مؤلفا جزائريا في علوم القرآن، وخرج بنتائج تاريخية وإحصائية دقيقة في هذا الشأن.

الكلمات المفتاحية: فهرس؛ مؤلفات؛ علماء؛ الجزائر؛ القرآن.

¹ كلية الشريعة والقانون جامعة الجوف المملكة العربية السعودية، البريد الإلكتروني

fouadatallah1982@gmail.com

Abstract: The scholars of Algeria served the great service of the Holy Quran, but their works did not study a statistical analytical study, which provides scholars the works of Algerian scholars in the sciences of the Holy Quran, and distinguish between the printed and the manuscript and the missing ones. In this research, the researcher wanted to collect all these works. He presented a statistical analytical study of the Qur'anic writings of Algeria. The research included an introduction, two seminal papers, and a conclusion, in which the researcher presented eighty-three Algerian authors in the sciences of the Qur'an and came out with accurate historical and statistical results.

Keywords: scholars; Algeria; Holy Quran; Qur'anic writings; works.

المقدمة : الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه أجمعين، وبعد أسهم علماء الجزائر بجهد بارز ومشكور في خدمة القرآن الكريم وعلومه، إلا أن أعمالهم ومخطوطاتهم لم تجمع في مصنف واحد ولم تحظ بدراسة إحصائية تحليلية توضع بين أيدي طلاب العلم، كما لم تحظ تلك المؤلفات بتصنيف دقيق يميز بين مطبوعها، ومخطوطها، ومفقودها. وقد رأيت أنه من الواجب المحتم تجاه علماء الجزائر وتراثهم الشرعيّ والقرآنيّ فهرسته ودراسته والعناية به، فأنجزت هذا البحث بعنوان:

الفهرس الوصفي لمؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلومه

المخطوطة والمطبوعة والمفقودة

—دراسة وصفية إحصائية— وهو فهرس وصفي جامع—بمشيئة الله تعالى—
لمؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلومه، قصدت منه الإحصاء والتعريف،
فأسأل الله التوفيق والسداد.

ويمكن أن أعرف بهذا البحث من خلال العناصر الآتية:

أهمية البحث: يكتسي الحديث عن مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم

وعلموه أهمية كبيرة؛ يمكن توضيحها من خلال النقاط الآتية:

• الحديث عن مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلموه هو جزء من الحديث عن تراث الجزائر، وعقيدتها، وتاريخها، وهويتها، وانتمائها الحضاري ولا شك أن هذا الأمر من المواضيع التي تحتاج إلى دراسة وبحث وتأصيل.

• يسعى هذا البحث إلى التعريف بإسهامات علماء الجزائر رحمهم الله في التأليف في القرآن الكريم وعلموه، ومن ثم إبراز جهود علماء الجزائر في خدمة العلوم الشرعية والإسلامية.

• يصنّف هذا البحث مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلموه إلى مطبوعة ومخطوطة ومفقودة.

• أحصيت في هذا البحث ما يربو على ثمانين مصنفاً جزائرياً في القرآن الكريم وعلموه.

• يضع هذا البحث بين أيدي الباحثين فهرساً لجميع العلماء الجزائريين الذين تركوا مؤلفات في القرآن الكريم وعلموه.

مشكلة البحث: يجيب هذا البحث عن جملة من التساؤلات المتعلقة بمؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلموه، والتي يمكن عرضها على النحو الآتي:

- ما هي مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلموه؟
- من هم العلماء الجزائريون الذين صنّفوا في القرآن الكريم وعلموه؟
- هل طبعت جميع مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلموه؟ أم لا يزال جزء منها في خزائن المخطوطات؟
- ما الآمال والطموحات التي تتطلّع لها جامعاتنا تجاه المؤلفات المخطوطة التي صنّفها علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلموه؟ وما أفضل السبل لدراستها وتحقيقها والاستفادة منها؟

منهج البحث :

اعتمدت في إنجاز هذا البحث على مناهج متعدّدة:

المنهج التاريخي: استخدمته في عرض تاريخ المؤلفات الجزائرية في القرآن الكريم وعلومه.

المنهجي الوصفي: استخدمته في وصف المؤلفات الجزائرية في القرآن الكريم وعلومه.

المنهج الإحصائي: استخدمته في دراسة وإحصاء المؤلفات الجزائرية في القرآن الكريم وعلومه.

وقد اتّبع في إنجاز البحث جملة من الخطوات المنهجية منها:

الأولى: جمعت المادة العلمية من كتب ومصنّفات مختلفة، منها:

✓ كتب الفهارس مثل "هدية العارفين".

✓ التّراجم العامة مثل: (الأعلام) للزّركلي، وكذا الخاصة بأعلام

الجزائر مثل: (تعريف الخلف برجال السّلف) للحفناوي، و(معجم أعلام الجزائر) لعادل نويّض.

✓ فهارس خزائن المخطوطات في الجزائر وفي عدد من دول العالم.

✓ فهارس الرّسائل الجامعية في عدد من الجامعات في العالم العربي والإسلامي.

✓ البرامج الإلكترونية الحديثة مثل: (قاعدة بيانات مركز جمعة الماجد

للتّحافة والتّراث بدبي)، و(قاعدة بيانات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض) و(قاعدة بيانات برنامج الموسوعة الشّعريّة).

الثّانية: أحصيت ما يربو على ثمانين مؤلفا صنّفه علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلومه.

الثّالثة: ربّبت تلك المؤلّفات زمنيا حسب سنة وفاة المؤلّف.

الرّابعة: صنفت تلك المؤلّفات إلى مطبوعة، ومخطوطة، ومفقودة:

• أما المطبوعة: فقد ذكرت أماكن حفظها، وبينت المعلومات المتعلقة بنشرها وطبعها.

• وأما المخطوطة: فقد ذكرت خزائن حفظها، مع أرقام الحفظ، ونحو ذلك من المعلومات المتعلقة بالنسخ الخطية.

• وأما المفقودة؛ وهي التي ليست ضمن المطبوعات؛ ولا يعرف لها وجود في خزائن المخطوطات، فقد اكتفيت بالإشارة إلى موضوعها، مع نسبتها إلى مؤلفيها.

وأشير هنا إلى أن تصنيف هذه الأعمال إلى مطبوع ومفقود ومخطوط قد يعتريه شيء من الوهم أحيانا، وذلك أن حركة البحث العلمي في خدمة التراث مستمرة في أكثر الجامعات العربية وغير العربية، وعليه فقد تحسب كتابا ما من المفقودات بيد أنه محفوظ في خزانة تراثية ما، وقد تحسب كتابا ما من المخطوطات بيد أنه حقق في مكان ما.

الخامسة: عرضت عناوين تلك المؤلفات وأسماء مؤلفيها وفق منهجية مطردة يمكن شرحها كما يأتي:

- 0 أثبت رقما تسلسليا أمام عنوان كل مؤلف.
- 0 وضعت العنوان المشهور لكل مؤلف بين قوسين (...).
- 0 أتبع كل عنوان بمعقوفتين [...] كتبت داخلها كلمة: [مخطوط]، أو [مطبوع]، أو [مفقود]، وهو تصنيف يشير إلى حالة الكتاب، ثم أثبت في الحاشية السفلية للمعقوفتين معلومات المؤلف في كل حالة.
- 0 ذكرت اسم مؤلف الكتاب بعد العنوان: فبينت كنيته، ولقبه، واسمه الثلاثي أو الرباعي إن وجد، ونسبته، وحددت في آخر كل اسم الحاضرة العلمية التي ينتمي إليها داخل القطر الجزائري، ووضعت سنة وفاته بين قوسين (ت: ...هـ).

0 أشرت إلى مواطن ترجمة كل مؤلف، وأثبت ذلك في الحاشية السفلية.
السادسة: صوّبت عددا من التّحريفات والتّصحيفات الواقعة في أسماء المؤلفين وعناوين مؤلفاتهم.

السابعة: استدركت أسماء عدد من العلماء الجزائريين الذّي أسهموا في خدمة القرآن الكريم وعلومه، والذين غفل أصحاب التّراجم عن التّرجمة لهم.
الثامنة: استدركت عناوين عدد من المؤلفات التي غفل أصحاب التّراجم عن نسبتها إلى مؤلفيها.

التاسعة: أخضعت تلك المؤلفات إلى دراسة إحصائية يمكن إجمالها كالآتي:

❖ قارنت بين المؤلفات المخطوطة، والمطبوعة، والمفقودة، ومثلتها في دائرة نسبية وذلك لمعرفة مدى نشاط الحركة العلميّة في خدمة التّراث الجزائري.
❖ قارنت بين عدد المؤلفات المصنّفة في كل قرن من القرون الهجرية ومثلتها في منحنى بياني، وذلك لمعرفة فترات النّشاط والفتور في حركة التّأليف في علوم القرآن في الجزائر، وهو أمر يسهم في معرفة أطوار نشأة وتطور الحركة العلميّة في الجزائر.

❖ قارنت بين عدد المؤلفات المصنّفة في كل حاضرة من الحواضر العلميّة الجزائرية مثل: تلمسان، الجزائر، بجاية، قسنطينة، المسيلة، عنابة، توات، وادي ميزاب، وادي سوف... الخ، ومثلتها في أعمدة بيانية، وذلك لمعرفة مدى نشاط الحركة العلميّة داخل كل حاضرة، وهو أمر يسهم في المقارنة بين المدارس العلميّة الجزائرية، من حيث غزارة الإنتاج العلمي.

وغير ذلك من المقارنات الإحصائية المتداخلة التي تهدف إلى الوصول إلى أكبر عدد ممكن من الملاحظات والنتائج.

العاشر: ختمتُ البحث بعدد من النّتائج العلميّة وجملة الملاحظات التاريخية.

خطة البحث:

يشتمل البحث على مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

• مقدمة: وفيها تعريف بالبحث، وبيان لأهميته، وغير ذلك مما يذكر في مقدمات البحوث العلمية عادة.

• المبحث الأول: العلماء الجزائريون المشاركون في خدمة القرآن الكريم وعلومه ولم يؤلفوا فيه.

• المبحث الثاني: مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلومه.

• المبحث الثالث: دراسة إحصائية لمؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلومه.

• خاتمة: وفيها إبراز لأهم نتائج البحث.

المبحث الأول: العلماء الجزائريون المشاركون في خدمة القرآن الكريم وعلومه ولم يؤلفوا فيه.

شارك كثير من علماء الجزائر في خدمة القرآن الكريم وعلومه؛ إلا أنهم لم يؤلفوا فيه، ومنهم:

1. البوني، مروان بن علي الاسدي القطان، أبو عبد الملك البوني، العنابي (439هـ)، مفسر⁽¹⁾.

2. ابن الأشيري، حسن بن عبد الله بن حسن الكاتب، أبو علي، ويعرف بابن الأشيري، التلمساني (569هـ)، عارف بالقراءات⁽²⁾.

3. التلمساني، فتح بن عبد الله، أبو نصر المرادي، التلمساني (أوائل القرن السابع الهجري)⁽³⁾، من جلة المقرئين في المغرب في عصره، وقرأ على ابن هذيل (ت: 564هـ).

4. **ابن الخضار**، علي بن محمد، أبو الحسن، الضرير، الكتامي، يعرف بابن الخضار، التلمساني (9... - 677هـ)، إمام مقرئ، معروف بإحكام القراءات وحفظها⁽⁴⁾.
5. **ابن الإمام**، أحمد بن عبد الله بن عمر عبد المعطي الجزائري، أبو العباس عرف بابن الإمام، ونعت بالشرف، (610 - 683هـ)، رحل إلى المشرق وأخذ عن الإمام الكبير علي بن هبة الله بن سلامة المعروف بابن الجميزي أعلى أهل زمانه اسنادا في القراءات⁽⁵⁾.
6. **الميلي**، يحيى بن موسى بن سعيد بن أحمد، أبو زكريا الغماري، المعروف بالميلي، البجائي (9... - 760هـ)⁽⁶⁾، مقرئ بجاية في وقته.
7. **البسكري**، عبد الله بن إبراهيم البسكري (9... - 829هـ)، من كبار المقرئين في وقته، رحل إلى المشرق ونزل بيت المقدس بفلسطين، وأقرأ القرآن بالمدرسة السلامية⁽⁷⁾.
8. **ابن سرور**، سرور بن عبد الله بن سرور، أبو الوليد، ويقال أبو الفرج القسنطيني (791 - 845هـ)⁽⁸⁾، عارف بالقراءات.
9. **المصعصع البجائي**، إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن يحيى بن أحمد بن سليمان الصداقوي، الزواوي الأصل، ثم البجائي، ويعرف بالمصعصع، البجائي (816 - 882هـ)، له إمام بالتفسير⁽⁹⁾.
10. **ابن فاكهة**، أحمد بن محمد بن علي بن أحمد اللياني البسكري، ويعرف بابن فاكهة، البسكري (846 - بعد 890هـ)، له مشاركة في علوم القرآن⁽¹⁰⁾.
11. **السلكسيني**، علي بن يحيى السلكسيني الجاديري، أبو الحسن التلمساني (9... - 972هـ)، عارف بالتفسير⁽¹¹⁾.

12. **الراشدي**، علي بن عيسى الراشدي التلمساني (9... - 980هـ)، أستاذ القراءات، استوطن مدينة فاس واستهل عمله فيها بتدريس الكرايس، وهي المنظومات الأوليّة المتعلقة بضبط القرآن ورسمه وتجويده، ثم أسند إليه كرسي الشاطبيّة الكبرى بمسجد الشرفاء، فدرسها زمنا طويلا وختمها مرات (12).

13. **ابن الوقاد**، محمد بن أحمد بن محمد، المعروف بابن الوقاد، التلمساني (9... - 1001هـ) (13)، كان عالما بالتفسير.

14. **ابن مقداش**، أحمد بن مقداش، أبو العباس، الجزائري (9... - 1247هـ) مقرئ كبير، كان آية زمانه في علم القراءات بالروايات السبع (14).

15. **عباس بن حمّانة** (... - 1332هـ) (15)، أنشأ في تبسة مدرسة (1913م) فلم يرق ذلك للاستعمار، وأغلقت المدرسة بعد ستة أشهر من تأسيسها.

16. **ابن بكير**، محمد بن بكير التاجر، الميزابي (9... - نحو 1358هـ)، أنشأ مدرسة قرآنية في ورجلان (16).

المبحث الثاني: مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلومه .

ألف علماء الجزائر عددا كبيرا من الكتب والمصنفات في القرآن الكريم وعلومه، هذا ما يسر الله تعالى الوقوف عليه:

القرن الثاني الهجري

1. (تفسير القرآن) [مفقوداً].

المؤلف: عبد الرحمن بن رستم بن بهرام، الإباضي، التيهرتي (9... - 171هـ).

القرن الثالث الهجري

2. (تفسير القرآن الكريم) [مخطوطاً] (17).

المؤلف: هود بن محكم الاوراسي الهواري، الإباضي، التيهارتي (9... -

250هـ).

القرن الخامس الهجري

3. (أحكام القرآن) [مطبوع] (18).

المؤلف: الباغائي، أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله، أبو العباس
الرّبيعي الباغائي، الأوراسي (345 - 401هـ) (19).

4. (الكامل في القراءات) [مطبوع] (20).

5. (الوجيز) [مفقود].

6. (المهادي) [مفقود].

المؤلف: الهذليّ، يوسف بن علي بن جبارة بن محمد أبو القاسم، الهذليّ
البيسكري (403 - 465هـ)، مقرئ، كان كثير التّرحال في طلب القراءات
المشهورة والشّاذة عينه نظام الملك مقرئاً في مدرسته بنيسابور سنة 458هـ
فمكث فيها ناشراً علمه بها إلى أن توفي (21).

القرن السادس الهجري

7. (تفسير القرآن الكريم) [مفقود].

المؤلف: الوريّجلاني، يوسف بن ابراهيم بن مياذ السّدراتي، أبو يعقوب الإباضي
الوريّجلاني (500 - 570هـ) (22).

القرن السابع الهجري

8. (تفسير القرآن الكريم) [مفقود].

المؤلف: الوهراني، علي بن عبد الله بن ناشر بن المبارك، أبو بكر، ويقال: أبو
الحسن، الوهراني (... 615هـ) (23).

9. (فرقان الفرقان وميزان القرآن) [مفقود].

المؤلف: التّلمساني، محمد بن عبد الحق بن سليمان الكومي اليعفري
التّلمساني (526 - 625هـ) (24)، مقرئ.

10. (منظومة في القراءات) [مفقود].

المؤلف: الزّواوي، يحيى بن عبد المعطي بن عبد النّور الزّواوي، أبو الحسين زين الدّين، البجائي (564 - 628هـ).

11. (تفسير القرآن الكريم) [مفقود].

المؤلف: التّلمساني، يحيى بن محمد بن موسى التّجيبى، أبو زكريا، التّلمساني (... - 652هـ)⁽²⁵⁾، مفسّر.

12. (جلاء الأبصار في القراءات) [مفقود].

المؤلف: ابن القلال، علي بن عبد الله بن أبي بكر الطّيب، زين الدّين، أبو الحسن بن القلال، الجزائري (... - 668هـ) ⁽²⁶⁾، من كبار المقرئين في وقته.

13. (عدد الآي) [مفقود].

14. (التّنبّهات على معرفة ما يخفى من الوقوفات) [مفقود].

المؤلف: الزّواوي، عبد السّلام بن علي بن عمر بن سيّد النّاس، أبو محمد الزّواوي البجائي (589 - 681هـ)⁽²⁷⁾، شيخ مشايخ الإقراء بدمشق، قرأ بالاسكندرية على أبي القاسم بن عيسى، وبالقاهرة على أبي العز محمد بن عبد الخالق، ثم انتقل الى دمشق سنة 617هـ، فقرأ على شيخها أبي الحسن السّخاوي وباشر مشيخة الإقراء الكبرى بالتّربة الصّالحية، فانتهدت اليه رئاسة الإقراء بالشّام.

15. (مختصر كتاب التيسير في القراءات السّبع لأبي عمرو عثمان بن سعيد الدّاني) [مفقود].

المؤلف: المعافري، أحمد بن محمد بن عبد الله المعافري، أبو العباس المسيلي (القرن 7هـ)⁽²⁸⁾.

القرن الثامن الهجري

16. (فهرست مقروءاته ومروياته)، في مجلد [مفقود].

المؤلف: أحمد بن محمد بن علي، أبو العباس، الزواوي، القسنطيني (٩...- 750هـ)⁽²⁹⁾، شيخ القراء بالمغرب في وقته، قرأ بالمغرب علي مقرئ فاس، علي بن سليمان القرطبي، ومالك ابن المرحل إمام وقته بالقراءات، وروى عن أبي جعفر ابن الزبير وغيره، روى القراءة عنه أحمد بن مسعود بن الحاجة التّونسي لقيه سنة 748هـ بقسنطينة، قال ابن خلدون: "كان إماما في القراءات لا يجارى وله صوت من مزامير داود".

17. (تقييد في التفسير) [مفقود].

المؤلف: المسيلي، أحمد بن محمد بن أحمد المسيلي (٩...- بعد 780هـ)⁽³⁰⁾.

18. (تفسير القرآن) [مفقود].

المؤلف: محمد بن علي الخروبي الطّابلسي أو السّفاقسي، أبو عبد الله الجزائري (710 - 789هـ)⁽³¹⁾.

القرن التاسع الهجري

19. (تفسير سورتي الأنعام والفتح) [مفقود].

المؤلف: التلمساني، سعيد بن محمد بن محمد بن محمد التّجيبّي، العقباني التلمساني (720 - 811هـ)⁽³²⁾.

20. (تفسير سورة الفتح) [مفقود].

المؤلف: التلمساني، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الحسني أبو يحيى، التلمساني (757 - 826هـ)، عالم بالتفسير⁽³³⁾.

21. (اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة) [مفقود]، في الفقه والتفسير.

22. (أرجوزة الفية في محاذاة الشاطبية) [مفقود].

23. (تفسير سورة الإخلاص) [مفقود].

المؤلف: ابن مرزوق الحفيد، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق، العجيسي التلمساني، أبو عبد الله، المعروف بالحفيد (766 - 842هـ) ⁽³⁴⁾.

24. (أبحاث في التفسير) [مفقود]، تكلم فيها مع الإمام المقري في مسأله التفسيرية.

المؤلف: ابن الإمام، محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام، أبو الفضل، التلمساني (... - 845هـ) ⁽³⁵⁾.

25. (تفسير الفاتحة) [مفقود].

26. (مقدمة في التفسير) [مفقود].

المؤلف: ابن زاغو، أحمد بن محمد بن عبد الرحمن، الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني (782 - 845هـ) ⁽³⁶⁾.

27. (تفسير القرآن) [مفقود].

المؤلف: الزواوي، إبراهيم بن فائد بن موسى بن عمر بن سعيد، أبو إسحاق الزواوي، القسنطيني (796 - 857هـ) ⁽³⁷⁾.

28. (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) [مطبوع]، في أربعة أجزاء مذيلاً بمعجم لغوي لشرح غريبه.

29. (الذهب الإبريز في غريب القرآن العزيز) [مفقود].

30. (تحفة الاخوان في إعراب بعض آي من القرآن) [مفقود].

31. (الدّر اللوامع في قراءة نافع) [مفقود].

32. (المختار من الجوامع في محاذاة الدّر اللوامع) [مطبوع] ⁽³⁸⁾، في القراءات.

33. (نفائس المرجان في قصص القرآن) [مخطوط] ⁽³⁹⁾.

34. (معجم مختصر في شرح ما وقع في كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن من الألفاظ الغريبة) [مخطوط] (40).

المؤلف: الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، أبو زيد الجزائري (786 - 875 هـ) (41)، من كبار المفسرين.

35. (تفسير سورة ص وما بعدها من السور) [مفقود].

36. (مختصر في القراءات السبع) [مفقود].

37. (شرح الشاطبية الكبرى) [مفقود]، لم يكمله.

38. (تفسير القرآن إلى قوله: {أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}) [مفقود].

المؤلف: التلمساني، محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب أبو عبد الله السنوسي الحسني، التلمساني (832 - 890 هـ) (42)، عالم في التفسير.

القرن العاشر الهجري

39. (البدر المنير في علوم التفسير) [مفقود].

المؤلف: المغيلي، محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني، أبو عبد الله (909 - ؟ هـ) (43).

40. (تفسير القرآن الكريم) [مفقود].

المؤلف: ابن أبي العيش، محمد بن عبد الرحمن بن أبي العيش الخزرجي أبو عبد الله، التلمساني (911 - ؟ هـ) (44).

41. (تقييد على مورد الظمان) [مخطوط] (45).

المؤلف: شقرون، محمد شقرون بن محمد بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي أبو عبد الله، المعروف بشقرون، الوهراني (929 - ؟ هـ) (46).

القرن الحادي عشر الهجري

42. (الحكمة حاشية على تفسير الزمخشري وتفسير ابن عطية) [مفقود].

المؤلف: الملياني، يحيى بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى، أبو زكريا الشاوي، الملياني (1030 - 1096هـ) ⁽⁴⁷⁾.

القرن الثاني عشر الهجري

43. (إتحاف الأقران ببعض مسائل القرآن) [مفقود].

44. (تحفة الأريب بأشرف غريب)، اختصر فيه غريب العريزي للقرآن [مفقود].

المؤلف: البوني، أحمد بن قاسم بن محمد بن ساسي التميمي، أبو العباس البوني العنّابي (1063 - 1139هـ) ⁽⁴⁸⁾.

45. (تفسير القرآن الكريم) [مفقود].

المؤلف: ابن العنّابي، حسين بن محمد، المعروف بابن العنّابي (...- 1150هـ) ⁽⁴⁹⁾.

46. (حاشية على فتح المنان بشرح موارد الظمان) [مفقود] ⁽⁵⁰⁾.

47. (المقاصد النامية في شرح الدالية) [مخطوط] ⁽⁵¹⁾.

48. (تخفيف الهمزة في الوقف) [مخطوط] ⁽⁵²⁾.

49. (حاشية على تقريب الكلام في تخفيف حمزة وهشام) [مخطوط] ⁽⁵³⁾.

50. (حاشية على كنز المعاني في شرح حرز الأمان) [مخطوط] ⁽⁵⁴⁾.

51. (حاشية على شرح التنسي لذليل مورد الظمان) [مخطوط] ⁽⁵⁵⁾.

52. (فتح الباري على بعض مشكلات أبي اسحاق الجعبري) [مخطوط].

53. (القول الشهير في تحقيق الإدغام الكبير) [مخطوط] ⁽⁵⁶⁾.

54. (الأجوبة الشريفة في المباحث اللطيفة بالأدلة الكثيفة) [مخطوط] ⁽⁵⁷⁾.

55. (الفتح الرباني على بعض ألفاظ النظم وابن غازي والمرادي) [مخطوط] ⁽⁵⁸⁾.

المؤلف: المنجرة، عبد الرحمن بن إدريس بن محمد بن أحمد المنجري الإدريسي الحسني، ثم الفاسي، أبو زيد، المعروف بالمنجرة، التلمساني (٩...- 1179هـ)، مقرر له مشاركة في علوم التفسير (59).

56. (منافع القرآن) [مفقود].

المؤلف: البوني، عبد الرحيم بن علي بن إسحاق بن مروان القرشي، محي الدين، البوني (٩...- ٩٠٠) (60).

القرن الثالث عشر الهجري

57. (حاشية على البيضاوي) [مفقود]، في التفسير.

المؤلف: يوسف بن عدون بن الشيخ حمّو والحاج اليزقني، أبو يعقوب الميزابي (1158- 1223هـ) (61)، مفسر.

58. (تفسير القرآن) [مفقود].

المؤلف: أبو راس، محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي العسكري، المعروف بأبي راس (1150- 1238هـ) (62).

59. (إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن) [مفقود].

60. (نزهة الجنان في أوصاف مفسر القرآن) [مفقود].

61. (إزاحة الأكنة في العمل بالكتاب والسنة) [مفقود].

62. (شرح البسملة) [مفقود].

63. (لوامح الخذلان على من لا يعمل بالقرآن) [مفقود].

المؤلف: الإدريسي، محمد بن علي السنوسي، الخطابي، الحسني الإدريسي أبو عبد الله، المستغامي (1202- 1276هـ) (63).

65. (كتاب إعراب القرآن) [مفقود].

المؤلف: ابن أبي العيش، أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش أبو العباس، المقرئ التلمساني (٩...- 1247هـ) (64).

66. (تحفة الاحباب" في تفسير قوله تعالى "ثم أورثنا الكتاب) [مفقود].

المؤلف: علي بن محمد الجمالي، الميلي (...- 1248هـ) (65).

67. (التفسير الكبير للقرآن الكريم) [مفقود].

68. (التفسير الصغير للقرآن الكريم) [مفقود].

المؤلف: المستغامي، عثمان بن سعيد المالحقي، أبو سعيد، المستغامي (القرن 13هـ) (66).

القرن الرابع عشر الهجري

69. (منة المتعال في تكملة الاستدلال) [مفقود]، في القراءات السبع.

70. (الدقائق المفصلة في تحديد آية البسملة) [مفقود].

المؤلف: ابن الحفاف، علي بن عبد الرحمن بن محمد، المعروف بابن الحفاف الجزائري (...- 1307هـ) (67).

71. (هميان الزاد ليوم المعاد) في التفسير ستة أجزاء [مطبوع].

72. (التيسير) في التفسير سبعة أجزاء [مطبوع].

73. (داعي العمل ليوم الأمل) في التفسير، في أربعة أجزاء، فسّر فيه القرآن من سورة الرحمن إلى سورة الناس [مخطوط] (68).

74. (أرجوزة في القراءات) [مخطوط] (69).

المؤلف: أطفيش، محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح أطفيش، الميزابي (...- نحو 1310هـ) (70).

75. (النثري لمن كان بعجائب القرآن حفيّا) [مطبوع] (71)، رسالة في التفسير.

76. (الماس في احتباك يعجز الجنة والناس) [مطبوع] (72)، تفسير قوله تعالى: {وَمَنْ يُكْرِهْنُ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

المؤلف: الجزائري، محمد بن عيسى الجزائري (1243 - 1310هـ) (73)

عارف بالتفسير.

77. (التبَيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن) [مفقوداً].

78. (تفسير القرآن) [مفقوداً]، في أربعة مجلدات.

المؤلف: **طاهر الجزائري**، طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب، السّمعوني الجزائري (1228 - 1338هـ)⁽⁷⁴⁾.

79. (مجالس التذكير) في التفسير، اشتغل به تدريسا زهاء أربعة عشر عاما [مطبوعاً].

المؤلف: **ابن باديس**، عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي ابن باديس القسنطيني (1308 - 1359هـ)⁽⁷⁵⁾.

80. (نشر "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" لعبد الرحمن النّعالبي) [مطبوعاً] بعد مقابلته على سبع نسخ مخطوطة.

المؤلف: **الشيخ الكمال**، محمد بن مصطفى بن محمد بن باكير بن الخوجة الملقب بالمضربة، والمشهور بالشيخ الكمال، الجزائري (1281 - 1333هـ)⁽⁷⁶⁾.
81. (القول الوجيز في كلام الله العزيز) [مخطوطاً]⁽⁷⁷⁾، في التفسير، لم يكمله.

المؤلف: **صالح بن عمر بن داود بن صالح بن محمد الأعلى الإباضي الميزابي** (1287 - 1347هـ)⁽⁷⁸⁾.

82. (تفسير سورة والعصر) [مفقوداً].

المؤلف: **ابن عليوة**، أحمد بن مصطفى بن محمد بن أحمد، المستغانمي، أبو العباس، الشّهير بالعلوي. وبابن عليوة (1291 - 1353هـ)⁽⁷⁹⁾.

83. (تفسير القرآن الكريم) [مفقوداً].

المؤلف: **عمر راسم بن علي بن سعيد بن محمد البجائي** (1300 - 1379هـ)⁽⁸⁰⁾.

المبحث الثالث: دراسة إحصائية لمؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلومه.

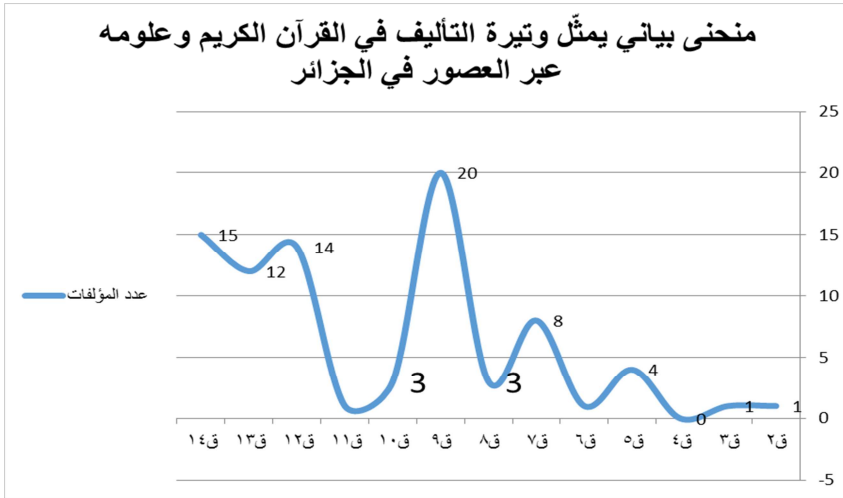
بعد إمعان النظر في مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وعلومه، والتي مضى عرضها في المباحث السابقة يمكن تقديم النتائج الآتية:

النتيجة الأولى: تنوعت مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم وشملت أغلب العلوم القرآنية كالتفسير، وآيات الأحكام، والقراءات، وإعراب القرآن والرسم القرآني، ونحو ذلك.

النتيجة الثانية: بدأ التأليف في القرآن الكريم وعلومه في الجزائر في القرن الهجري الثاني، وهي بداية مبكرة تدلّ على شدة تعلق الأمة الجزائرية بالقرآن الكريم.

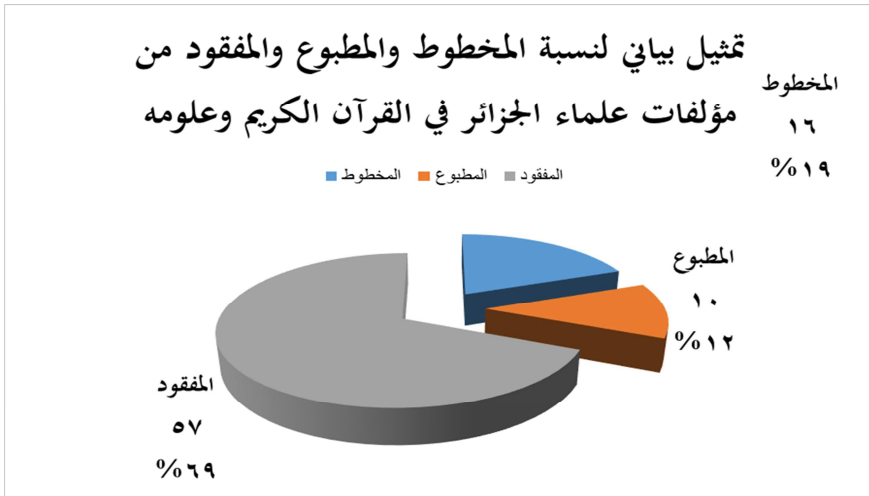
النتيجة الثالثة: وأما عن وتيرة العطاء العلمي في خدمة القرآن الكريم وعلومه في الجزائر فقد أخذت في الانتعاش منذ القرن السابع الهجري إلى أن بلغ العطاء ذروته في القرن التاسع الهجري، ثم أخذ يتراجع تدريجيا، ووصل إلى مستوى متوسط في القرون الهجرية المتأخرة.

ويمكن أن يعزى هذا التذبذب في حجم العطاء العلمي لعلماء القطر الجزائري إلى الحالات السياسية والعلمية والثقافية والفكرية والاجتماعية التي كانت سائدة في كل قرن من القرون الهجرية.

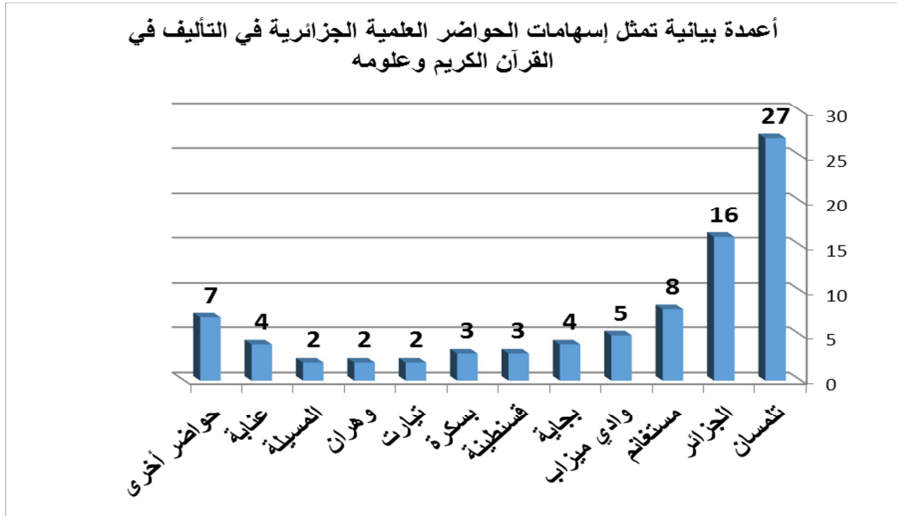


النتيجة الرابعة: تمثل المصنفات المفقودة نسبة عالية في تراث علماء الجزائر في علوم القرآن، حيث بلغت بنسبتها (57%). وهي بلا شك خسارة كبيرة من عطاء الأمة وتراثها.

بينما يمثل التراث المخطوط نسبة (19%) من العدد الإجمالي للمصنفات، وأما المطبوع فنسبته (12%). وهي أرقام تشير إلى تواضع العناية بالتراث وخدمة المخطوطات.



النتيجة الخامسة: أسهم علماء الحواضر العلمية الجزائرية بنسب متفاوتة في خدمة القرآن الكريم وعلومه، حيث كان لعلماء مدينة تلمسان النصيب الأكبر من المؤلفات القرآنية، ثم مدينة الجزائر العاصمة.



النتيجة السادسة: مؤلفات علماء الجزائر في القرآن الكريم مبعثرة في خزائن حفظ المخطوطات في أنحاء مختلفة من العالم، في القرويين وخزانة الرباط في المغرب، وفي المكتبة الوطنية في تونس، وفي الأزهرية ودار الكتب في مصر وفي مركز جمعة الماجد في الإمارات، وفي مكتبتي الحرمين الشريفين في السعودية، وفي السليمانية في تركيا، وفي الإسكوريال في إسبانيا، وغير ذلك.

خاتمة: وفي الختام، أستعرض أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، وأوصي ببعض التوصيات.

النتائج:

1- أحصيت ما يربو على ثمانين مصنفا في خدمة القرآن الكريم وعلومه خطت بمحابر علماء الجزائر.

- 5- وضعت بين أيدي طلبة العلم دليلا ببلديوغرافيا يرشدهم إلى مواطن المخطوطات، ويعينهم على التمييز بين المخطوط والمطبوع والمفقود.
 - 6- قمت بدراسة إحصائية متأنية توصلت من خلالها إلى عدد من النتائج العلمية والتاريخية.
 - 7- تتميز مؤلفات علماء الجزائر في خدمة القرآن الكريم وعلومه بالتنوع، فهي موزعة على جميع فنون علوم القرآن.
 - 8- يعتبر القرن التاسع الهجري الفترة الذهبية في العطاء العلمي لعلماء القطر الجزائري في خدمة القرآن الكريم وعلومه.
 - 9- خسرت الأمة جزءا كبيرا من مؤلفات علماء الجزائر في علوم القرآن بفقدان المؤلفات وضياعها.
 - 10- أسهمت تلمسان والجزائر العاصمة بالقسط الأكبر من التأليف في علوم القرآن في القطر الجزائري.
- التوصيات: وبناء على النتائج الأنفة الذكر أحببت أن أقدم التوصيات الآتية:**
- 1- الحرص على توجيه أنظار طلبة الدراسات العليا إلى العناية بالتراث وخدمة المخطوطات.
 - 2- أقترح العناية بجهود علماء الجزائر في خدمة العلوم الشرعية واللغوية والتاريخية.
- وأسأل الله تبارك وتعالى التوفيق والسداد، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه أجمعين.

قائمة المراجع:

- الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب، مصر: (1973م).
- الأعلام، لخير الدين الزركلي، بيروت: دار العلم للملايين، ط: 5 (1980م).
- أعلام الإصلاح في الجزائر، لمحمد علي دبور، قسنطينة: (1974).
- اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، لفنديك، مصر: (1896م).
- إيضاح المكنون، لإسماعيل باشا البغدادي، تركيا: (1945م).
- البستان، لابن مريم التلمساني، الجزائر: (1908م).
- تاريخ الجزائر العام، لعبد الرحمن الجيلالي، بيروت: (1965).
- تاريخ الجزائر في القديم والحديث، لمبارك الملي، قسنطينة.
- تعريف الخلف برجال السلف، للحفناوي، الجزائر: (1906م).
- الرحلة الورتيلانية، للحسن الورتيلاني، الجزائر: (1908).
- شجرة النور الزكية، لمحمد مخلوف، مصر: (1349هـ).
- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، مصر: (1949م).
- معجم أعلام الجزائر، لعادل نويهض، بيروت: مؤسسة نويهض، ط: 2 (1980م).
- معجم المطبوعات، لسركيس، (1928م).
- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، بيروت: دار إحياء التراث العربي دت.
- نفح الطيب، للمقري، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: (1968هـ).
- نيل الابتهاج، للتنبكتي، مصر (1329هـ).
- هدية العارفين، للبغدادي، تركيا: (1955هـ).
- قاعدة بيانات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. الرياض-السعودية.
- قاعدة بيانات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث. دبي- الإمارات.

8. هوامش¹:

- (¹) انظر ترجمته في: "ترتيب المدارك للقاضي عياض: (259/7)، و"تاريخ الإسلام" للذهبي: (602/9)، و"سير أعلام النبلاء" للذهبي: (174/7)، و"معجم المؤلفين" لكحالة (221/12)، و"شجرة النور الزكية": (170/1)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 52).
- (²) انظر ترجمته في: "تاريخ الإسلام" للذهبي: (407/12)، و"معجم المؤلفين" لكحالة: (238/3)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 16).
- (³) انظر ترجمته في: "غاية النهاية في طبقات القراء" لابن الجزري: (6/2)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 74).
- (⁴) انظر ترجمته في: "غاية النهاية في طبقات القراء" لابن الجزري: (579/1)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 73).
- (⁵) انظر ترجمته في: "الإحاطة في أخبار غرناطة": (312/2)، و"بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة": (318/1)، و"معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 97).
- (⁶) انظر ترجمته في: "غاية النهاية في طبقات القراء" لابن الجزري: (379/2)، و"معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 331).
- (⁷) انظر ترجمته في: "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للسّخاوي: (4/5)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 42).
- (⁸) انظر ترجمته في: "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للسّخاوي: (245/3)، و"معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 366).
- (⁹) انظر ترجمته في: "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للسّخاوي: (149/1)، و"معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 32).
- (¹⁰) انظر ترجمته في: "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للسّخاوي: (145/2)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 19).
- (¹¹) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 73).
- (¹²) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 72).

- (13) انظر ترجمته في: "معجم المفسرين" لعادل نويهض: (795/2)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 343).
- (14) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 309).
- (15) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 123).
- (16) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 44).
- (17) منه نسخ مخطوطة بالعطوف.
- (18) يوجد منه نسخة في (مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية) الرياض - السعودية رقم الحفظ: (1292 - ف).
- وقد طبع جزء منه يتضمن تفسير سورتي "الفاتحة" و"البقرة" بتحقيق: سليمان بن عبد العزيز السليمان، برعاية جامعة الملك سعود.
- (19) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 362).
- (20) طبع بتحقيق: جمال بن السيد رفاعي الشايب، مؤسسة سما للنشر، مصر 2008م.
- (21) انظر ترجمته في: "تاريخ دمشق" لابن عساكر: (247/74)، "تاريخ الإسلام" للذهبي: (135/10)، و"معرفة القراء الكبار" للذهبي: (ص: 239)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 43).
- (22) انظر ترجمته في: "معجم المفسرين" لعادل نويهض: (808/2)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 342).
- (23) انظر ترجمته في: "تاريخ الإسلام" للذهبي: (461/13)، و"ديوان الإسلام" لابن الغزي: (218/2)، و"الأعلام" للزركلي: (304/4)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 349).
- (24) انظر ترجمته في: "تاريخ الإسلام" للذهبي: (751/13)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 77).
- (25) انظر ترجمته في: "تاريخ الإسلام" للذهبي: (737/14)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 83).
- (26) انظر ترجمته في: "معرفة القراء الكبار" للذهبي: (ص: 356)، و"معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 265).
- (27) انظر ترجمته في: "تاريخ الإسلام" للذهبي: (451/15)، و"معجم المؤلفين" لكحالة: (228/5)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 162).

- (28) انظر ترجمته في: "معجم المؤلفين" لكحالة: (124/2)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 306).
- (29) انظر ترجمته في: "غاية النهاية في طبقات القراء" لابن جزري: (125/1)، و"الدّر الكامنة في أعيان المئة الثامنة" لابن حجر: (342/1)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 161).
- (30) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 299).
- (31) انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي: (292/6)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 132).
- (32) انظر ترجمته في: "طبقات المفسرين" للداودي: (189/1)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 236).
- (33) انظر ترجمته في: "معجم المفسرين" لعادل نويهض: (275/1)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 70).
- (34) انظر ترجمته في: "شجرة النور الزكية" لمحمد مخلوف: (326/1)، "الأعلام" للزركلي: (331/5)، و"معجم المؤلفين" لكحالة: (317/8)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 291).
- (35) انظر ترجمته في: "شجرة النور الزكية" لمحمد مخلوف: (366/1)، "الأعلام" للزركلي: (330/3)، "معجم المفسرين" لعادل نويهض: (793/2)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 74).
- (36) انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي: (227/1)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 157).
- (37) انظر ترجمته في: "نيل الابتهاج": (ص: 52)، "تعريف الخلف": (5/2)، "الأعلام": (57/1)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 160).
- (38) طبع بتحقيق: محفوظ بوكراع وعمار بسطة، عالم المعرفة - الجزائر، 2016م.
- (39) محفوظ في: المكتبة العبدلية بجامع الزيتونة، رقم الحفظ: (128.127/1) ورقم الحفظ: (376,377).
- (40) محفوظ في: الخزانة العامة في الرباط في المغرب، رقم الحفظ: (D 892).
- (41) انظر ترجمته في: "نيل الابتهاج": (ص: 173)، "شجرة النور": (67/1)، "تعريف الخلف": (67/1)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 91).

- (42) انظر ترجمته في: انظر ترجمته في: "البستان" (ص: 237)، "تعريف الخلف": (176/1)، "شجرة النور": (266/1)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 181).
- (43) انظر ترجمته في: "نيل الابتهاج": (ص: 330)، "تعريف الخلف": (166/1)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 308).
- (44) انظر ترجمته في: "تعريف الخلف": (233/2)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 246).
- (45) مخطوط في جزء واحد ضمن كتاب "اللائل الفريدة" رقمه في الخزانة التيمورية: (213).
- (46) انظر ترجمته في: "نيل الابتهاج": (ص: 340)، "شجرة النور": (ص: 285)، "تعريف الخلف": (491/2)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 189).
- (47) انظر ترجمته في: "شجرة النور": (ص: 216)، "تعريف الخلف": (187/2)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 186).
- (48) انظر ترجمته في: "شجرة النور": (ص: 329)، "الأعلام": (199/1)، "تعريف الخلف": (515/2)، "معجم المؤلفين": (49/2)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 49).
- (49) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 244).
- (50) يوجد منه نسخة محفوظة في: الخزانة العامة في الرباط بالمغرب، رقم الحفظ: (D 938).
- (51) يوجد منه نسخة محفوظة في: الخزانة العامة في الرباط بالمغرب، رقم الحفظ: (D 1649).
- (52) يوجد منه نسخة محفوظة في: الخزانة الملكية في الرباط بالمغرب، رقم الحفظ: (مجموع (2) 12259 ن).
- (53) يوجد منه نسخة محفوظة في: الخزانة الملكية في الرباط بالمغرب، رقم الحفظ: (مجموع (2) 10416).
- (54) يوجد منه نسخة محفوظة في: الخزانة الملكية في الرباط بالمغرب، رقم الحفظ: (6468).
- (55) يوجد منه نسخة محفوظة في: الخزانة العامة في الرباط بالمغرب، رقم الحفظ: (D 1532).
- (56) يوجد منه نسخة محفوظة في: خزانة تطوان بالمغرب، رقم الحفظ: (881 م).
- (57) يوجد منه نسخة محفوظة في: خزانة تطوان بالمغرب، رقم الحفظ: (861 م 586).
- (58) يوجد منه نسخة محفوظة في: خزانة ابن يوسف بالمغرب، رقم الحفظ: (54 ن).
- (59) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 69).
- (60) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 51).

- (61) انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي: (241/8)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 230).
- (62) انظر ترجمته في: "تعريف الخلف": (232/2)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 307).
- (63) انظر ترجمته في: "شجرة النور": (ص: 399)، "الأعلام" للزركلي: (299/6)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 180).
- (64) انظر ترجمته في: "تعريف الخلف": (44/1)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 311).
- (65) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 324).
- (66) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 297).
- (67) انظر ترجمته في: "تعريف الخلف": (260/2)، "معجم أعلام الجزائر": (ص: 121).
- (68) يوجد منه نسخ محفوظة خزائن وادي ميزاب بمدينة غرداية في الجزائر.
- (69) يوجد منه نسخ محفوظة خزائن وادي ميزاب بمدينة غرداية في الجزائر.
- (70) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 42).
- (71) طبعت بتونس عام 1307 هـ.
- (72) طبعت بتونس عام 1306 هـ.
- (73) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 112).
- (74) انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي: (221/3)، "معجم المؤلفين": (35/5)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 112).
- (75) انظر ترجمته في: "الأعلام" للزركلي: (289/3)، "معجم المؤلفين": (105/5)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 28).
- (76) انظر ترجمته في: "معجم المؤلفين": (28/12)، "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 138).
- (77) يوجد منه نسخ محفوظة خزائن وادي ميزاب بمدينة غرداية في الجزائر.
- (78) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 194).
- (79) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 367).
- (80) انظر ترجمته في: "معجم أعلام الجزائر" لعادل نويهض: (ص: 243).

البعد الثقافي والديني لدول المغرب العربي، ودوره في تعزيز الوحدة المغاربية والصمود أمام التحديات الإقليمية والدولية

أ. خليفة البشاري*

تاريخ الإرسال: 23- 01- 2018 تاريخ القبول: 23- 11- 2019

الملخص: لم يستثن المؤرخون والباحثون في كتاباتهم حول "التراث الثقافي والديني لدول المغرب العربي" دورها الهام في تجاوز الاختلافات والسير قدما لتحقيق الإنجازات والارتقاء بفضلها إلى مصاف الحضارات، فلطالما ارتبطت شعوب المغرب العربي بعدة مقومات ثقافية ودينية عميقة المستوى، كاللغة والدين والتقاليد والتاريخ والمصير المشترك، وما عزز تلك الروابط الموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي تعاقبت عليه عدة حضارات مهدت لأن يتبوأ المغرب العربي مكانة مرموقة على الصعيدين الإقليمي والدولي.

وإذا كانت المقومات الثقافية والدينية تستند في خلفياتها إلى عدة أصول ونماذج مختلفة، إلا أن الحديث عن خصوصياتها في بلدان المغرب العربي له أسس تاريخية وعلمية لا يمكن إغفالها، فهي نبراس للباحثين والدارسين عند ولوجهم للكتابة عن هذا الموضوع بشتى تفرعاته، لأن السمات الثقافية والدينية لشعوب المغرب العربي قد تحدد معظم الأنساق التي يمكن دراستها، كالاقتصاد والعلم والتربية والفنون... الخ فمن ارتبط بتاريخ وأصالة ونمط حياة معين كالفرد المغربي لا يمكن في كل حال من الأحوال أن يعزل عن هذه العناصر عند محاولة دراسة وتحليل "موضوع المغرب العربي بشتى أنساقه وتفرعاته" خلال ظروفه العادية والاستثنائية.

* جامعة الجزائر 3، الجزائر، البريد الإلكتروني: khalidakhelfaoui@gmail.com

فكيف أسهم البعد الثقافي والديني في دعم وحدة دول المغرب العربي، وما السبيل للحفاظ عليه والاستثمار فيه وسط تداعيات التحديات الإقليمية والدولية؟

أولاً: التاريخ والمصير المشترك لشعوب المغرب العربي: الاستعمار وتدابيره
الموقع الجغرافي وتحدياته: ارتبطت شعوب دول المغرب العربي بعدة أواصر ثقافية وحضارية وما أسهم إلى حد بعيد في تعزيز هذا الارتباط الموقع الجغرافي الهام الذي يربط تلك الدول ويسهل من نشاطاتها المختلفة خاصة "التجارة" والتي ظلت لعقود مضت مظهراً من مظاهر الثقافة والحضارة، فلم تعبر التجارة فقط عن حالة السوق المغربية ومظهرها العام، إنما جسدت عدة نماذج ثقافية واتصالية شأنها شأن سوق عكاظ المشهورة في تاريخ العرب، حيث أفرز نشاط القوافل التجارية وسفر العلماء بين المغرب والمشرق.

ولعل من أهم ما يوثق علاقة شعوب ودول المغرب العربي بعضها ببعض خضوعها في فترة زمنية معينة ومتقاربة إلى الاستعمار حيث تأثرت الثقافة بشكل كبير بكل النماذج التي ساقها معه إلى الشعوب المغربية، ورغم ما يسرده الباحثون حول أن الاستعمار فرق أبناء المغرب العربي الواحد إلا أن هناك إيجابية واضحة تخللت وقائع الكفاح والنضال معاً لدحر المستعمر الغاشم، فتجلت الوحدة المغربية في أجمل صورة لها وزاد الاهتمام أكثر بالمقومات الثقافية والمؤسسات الدينية حيث التفت شعوب دول المغرب العربي بالمتدينين لجعلهم قادة يرفعون عنهم الظلم وكانت الزوايا والمساجد المؤسسات الحاضنة لمختلف الانتفاضات الشعبية عبر العصور.

"...وهي دولة المرابطين تحظى بمكانة هامة في المغرب بسبب التزامها بالدين الإسلامي...فسياسة المرابطين تنبثق من صميم الشريعة الإسلامية حيث تبنتها كمنهج إستراتيجي لوحدة الأمة وحمائتها، وكانت رجالاتها لا تجد صعوبة البتة في شحذ همم القبائل للاجتماع والقيام بالجهاد".¹

كما أن استعانة الجزائر بالدولة العثمانية لدحر الاستعمار الإسباني كان ينبع من القيم الدينية والإسلامية التي حافظ عليها ودافع عنها الجزائريون خاصة والشعوب المغاربية عامة، حيث إن الدولة العثمانية هي دولة إسلامية وبطبيعة الحال سيكون تواجدها في الجزائر تواجدا متميزا وعادلا وأهم شيء ستحافظ الدولة العثمانية على مبادئ الدين الإسلامي الحنيف في بلاد المغرب العربي وكانت محاربة نماذج عديدة وأخرى من الاستعمار، كالاستعمار الفرنسي نابعة أساسا من رفض ديانتته وثقافته لذلك اعتبر المؤرخون بروز النزعة التحررية في أواخر القرن دليلا على حب الحفاظ على الدين ورفض كل بديل عنه، وهذه الميزة تحلت بها شعوب المغرب العربي منذ أن عرفت الإسلام وهي قبائل تعيش هنا وهناك:

"ظهر رد الفعل على الغزو الأجنبي بنهوض ديني وطني حيث التفت المغاربة حول الأسرة السعدية التي قادت الجهاد ضد الغزاة منذ بداية القرن السادس عشر حتى أوائل القرن السابع عشر، ثم بقيادة أسرة الأشراف العلويين... وظهر رد الفعل في الجزائر بالاستعانة بالدولة العثمانية..."²

ثانيا: الدين الإسلامي في بلدان المغرب العربي ودوره في تعزيز الشعور بالانتماء والوحدة المغاربية: من خلال عدة مظاهر حضارية تجلت منذ بزوغ شمس الإسلام على أرض المغرب العربي على يد الفاتحين المسلمين، أقبلت شعوب المغرب العربي على الإسلام وامتثلت لتعاليمه السمحة ودافعت عنه بشراسة وحب كبيرين لأنه كان أكثر من دين عادي تقليدي، فقد جمع الإسلام عدة قبائل متفرقة وانسجمت معه عدة فرق وطوائف نظرا لأنسجامه مع التقاليد والأعراف المغاربية خاصة والإنسانية عامة، لذلك فإن تدين المغاربة بالإسلام عبرت عنه عدة إسهامات فكرية كثيرة أشهرها ما كتبه العلامة ابن خلدون عن أهل المغرب واحتضانهم للقرآن الكريم فهي خاصية أساسية ميزت أبناء المغرب، وهو العالم

الجليل الذي أسس علم الاجتماع بفضل ما شاهده ولفّت انتباهه من كنوز ثقافية وحضارية تميزت بها بلاده التي ترعرع فيها ووصفها وصفا علميا دقيقا: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم، إلا أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة، وكذا مذهبهم في الكبير إذا راجع مدارس القرآن بعد طائفة من عمره".³

كما تجلّى هذا الحب الكبير من خلال عدة مظاهر ومنها: الاهتمام بالمساجد بيوت الله، وكذلك الزوايا التي تخلصت معظمها من مكبلات دينية عويصة وسارت في ركب الدين الإسلامي الحنيف فأعطته بذلك صبغة ثقافية متميزة جدا ومنقطعة النظير داخل البلاد المغاربية، وكان للزوايا والمساجد عظيم الدور في ترسيخ مبادئ الدين الإسلامي الحنيف والدفاع عنه وعن "ثقافة التدين في بلاد المغرب العربي":

أ- المساجد: كان للمساجد في بلدان المغرب العربي طابعا خاصا فقد تلونت بنايتها بألوان مغاربية غاية في الجمال والازدواجية الثقافية التي عبرت منذ سنوات خلت على ثقافات متنوعة وحضارات إسلامية تعاقبت على بلدان المغرب العربي ولكل حضارة هندسة معمارية خاصة بها، لذلك كان بناء المساجد وتشييدها في البلاد المغاربية رمزا من رموز الدين والحضارة والثقافة، وكان منبع هذا الاهتمام الحب الكبير للدين الإسلامي وشعائره المقدسة من طرف أهل المغرب، فالمسجد هو بيت الله:

"ويعتبر المسجد الأساس الركين الذي قامت عليه الدولة الإسلامية⁴، فهو مؤسسة استراتيجية لقيام دولة إسلامية، فدولة المرابطين والموحدين وغيرهم بنت

المساجد قبل بناء المنازل، يقول العلامة ابن تيمية، رحمه الله: "وكانت مواضع الأئمة ومجامع الأمة هي المساجد فإن النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، أسس مسجده المبارك على التقوى، ففيه الصلاة والذكر والقراءة وتعليم العلم والخطب وفيه عقد الأولوية وتأمير الأمراء وتعريف العرفاء، فيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم"⁵، ويعتبر المسجد رمزا من رموز الحضارة والانتماء، فهو إلى جانب تعبيره عن الإسلام، شهد منذ زمان على امتزاج الثقافات المتنوعة التي أثرت هندسته الشكلية والمعمارية، ويعتمد الباحثون في العالمين العربي والغربي في كتاباتهم حول موضوع "التلاقح الحضاري بين الشرق والغرب الأوروبي على الشواهد المصورة والرسم المنقولة انطلاقا من نمط وطرز المساجد، والمسجد يحمل عدة معاني فوجوده يعبر عن وجود الإسلام وتاريخه يروي قصص وانجازات المسلمين أما بناؤه فيعبر عن فن العمارة الأصيل الذي أبدع فيه المسلمون وكل هذه المقومات والدلالات تجعل المسجد يحتل مكانة هامة داخل البلاد الإسلامية، وحتى خارجها فباستطاعتنا كمسلمين استغلال فرصة وجود هذه المؤسسة في البلاد الأجنبية لتقديم صورة حقيقية وأنموذج تتجلى من خلاله معالم تعاملاتنا وتقاليدينا كمسلمين، ومتى أحسنا إلى هذه الصورة وجعلناها أجمل تخلصنا من مكبلات الحضارة وسرنا في ركب الرقي والنمو.

"إن طراز العمارة في الولايات العثمانية مصر والشام وبلاد المغرب تميزت بطرازين معماريين أولهما الطراز المحلي الموروث و كان أوسع انتشارا، والطراز الثاني وهو الطراز العثماني الذي اقتصر انتشاره على العواصم العربية مثل القاهرة ودمشق ومكة وتونس وبرقة، فنجد في تونس جامع سيدي محرز الذي شيده الباي محمد المرادي ما بين عام 1692 – 1699هـ".⁶

ب_ الزوايا: كان للزوايا المغربية دور كبير في كل المراحل التاريخية التي مرت بها شعوب هذه البلدان، حيث رسخت معالم الهوية المغربية من خلال كل أعمالها الرائدة فقد حافظت على القرآن الكريم والتراث الفكري لعلمائنا وكونت المشايخ وخرجت خيرة أبناء الأمة المغربية من باحثين وعلماء كما سنت لنفسها عادات وتقاليد ضاربة في عمق تاريخ المغرب العربي، ومنها قراءة القرآن الكريم على طريقة الحزب الراتب، وهي قراءة جماعية تتسم بعدة خصائص اتصالية واجتماعية غاية في الأهمية، فعبرت الزوايا ولا تزال عن الوجود والهوية المغربية :

"...وتتمحور أطروحة الاندماج حول فكرة جوهرية وهي أن تاريخ المغرب هو تاريخ الزوايا، وأن الدول الكبرى التي قامت في ربوعه تأسست انطلاقاً من الزوايا، بل إن أطروحة الاندماج لم ترأي إمكانية للوصول إلى السلطة إلا انطلاقاً من "الزوايا" فوراء كل زاوية يكمن مدع العرش.⁷

وظل المغرب العربي لعصور من الزمن مهداً لنيل العلم ونشره بين أبناء الأمة بفضل مؤسساته الدينية والثقافية:

"كانت مكتبة فاس من أغنى المكتبات الإسلامية، فارتقت بذلك معارف ابن خلدون، يقول وعكفت على النظر والقراءة ولقاء المشيخة من أهل المغرب وأهل الأندلس الوافدين في غرض السفارة، أي في السفارة بين أمرائهم وسلطان المغرب الأقصى".⁸

ثالثاً: اللغة في بلدان المغرب العربي ودورها في تعزيز روح الانتماء: تعتبر اللغة من بين أهم العوامل الثقافية التي من شأنها أن تزيد في انسجام المجتمعات لذلك فإن لغة ورموزها أبعاداً غاية في الأهمية، وتحتوي بلاد المغرب العربي على كم هائل من الرموز اللغوية حيث تنتشر بها اللغة الأمازيغية والتي هي لغة عريقة لا طامأ عبرت عن وجود الأمازيغ وحضارتهم وثقافتهم كما أن وجودها والمحافظة عليها هو أمر مهم لأنها تمثل تاريخ الإنسان الأمازيغي الذي ارتبط

ببلاد المغرب العربي حيث ناضل وكافح لأجل أرضه وعرضه، ورغم أن اللغة الأمازيغية مازالت موجودة إلى يومنا هذا إلا أنها لم تلغ وجود اللغة العربية التي هي لغة الدين الإسلامي الحنيف، حيث تعايشت اللغتان في انسجام تام ومنقطع النظير، وتخللت هذه الصورة عدة مظاهر ثقافية وحضارية إستراتيجية، "...وتبيان أن المغرب ذو هوية أمازيغية واحدة، لا ينفي وجود تعدد لغوي وثقافي وعرقي وحتى ديني، كما في كل بلدان العالم... وهذا ما ينبغي أن يكون في خدمة الهوية الأمازيغية الواحدة للمغرب المستمدة من هوية الأرض الأمازيغية لهذا البلد... ذا هوية واحدة تجتمع فيها الهوية الأمازيغية والجنسية القطرية الوطنية".⁹

والجدير بالذكر أن انتشار اللغة العربية على حساب اللهجات المحلية زاد اللحمة بين أبناء البلاد المغاربية فنجد العديد من السّكان قد أتقنوا جميع هذه اللغات بحكم العلاقات الاجتماعية التي كونها المغاربة فيما بينهم عبر سنين خلت، لذلك فإن هذا التنوع اللغوي أثرى رصيد المغرب الثقافي فتنوعت بذلك الكتابات والخطابات واستجابت كلها لنداء الوحدة المغاربية، لذلك فإن للغة في المغرب رموزا ودلالات ذات أهمية بالغة:

يشرح العالم اللغوي Saussure الدلالات اللغوية وارتباطها بالمجتمع وفق خلفيات ومنهج علم الرموز، ويقول " ونستطيع في هذا الصدد أن نتصور علما يدرس حياة الرموز والدلالات المتداولة في الوسط المجتمعي وهذا العلم يشكل جزءا من علم النفس العام ونطلق عليه مصطلح علم الدلالة: sémiologie¹⁰ " الرمز اللغوي هو صلة بين الذات والأشياء بحيث تولد الإيحاء والإحساسات عن طريق الآثار النفسية وهو ليس أداة مصنوعة تصدر عن قصد إرادي بل رؤيا تنفذ عبر الواقع إلى الحقائق الخفية التي تكمن وراءه.

ولقد حفظ أهل المغرب العربي القرآن الكريم بلغته الأم "العربيّة"، ولو أن ابن خلدون يعتبره خطأ كبيراً حيث جعل أهل المغرب وإفريقيا لا يتلذذون بجمال اللغة العربيّة إلا من خلال القرآن الكريم. ولم يعيشوا بها كرمز لغوي اجتماعي، و"ملكة" إلا أن هناك العديد من الكتابات والمؤلفات العلميّة تذكر أن القرآن الكريم واللغة العربيّة قد شكلا قطبا حضاريا في بلاد المغرب رغم المعوقات التي لحقت بهما، ومن بينها الاستعمار الغاشم ومحاولاته الشرسة لطمس معالم وهويّة الفرد المغربي.

يقول عالمنا الجليل محمد الصّالح الصّديق في هذا الشأن:

"...وللحقيقة والتّاريخ نسجل أن الأستاذ "محمد الفاضل بن عاشور" لم يأل جهداً في مناصرة قضايا المغرب العربي التّحريريّة، وكان يدعو إلى وحدة المغرب العربي ويرى أن إحياء اللغة العربيّة وإعزازها أقوى عامل على تمتين روابط الإتحاد،

وأواصر القرابة"^{1 1}، والجدير بالذّكر أن للمغرب العربي مؤلفات وتراثاً فكرياً متنوعاً وكبيراً، حيث لفت انتباه العديد من الباحثين، ومنهم العلامة ذو الأصول المغربيّة عبد الرّحمان بن خلدون:

"ذكر ابن خلدون في كتابه "التّعريف" أنه درس في صباه وشبابه في تونس وفي المغرب الأقصى طائفة كبيرة من أمهات المؤلّفات في اللغة العربيّة قواعدها وآدابها وفقهها على عدد كبير من أئمة علماء اللغة وذكر من بين هذه الكتب التّسهيل لابن مالك والمعلقات وكتاب الحماسة وغيرهم.^{1 2}

رابعا: أعلام وعلماء المغرب العربي وأعمالهم الدّاعيّة إلى الوحدة المغاربيّة:

حرص علماء المغرب العربي من خلال أعمالهم العلميّة التي خلدها التّاريخ على تكريس مبدأ "الوحدة المغاربيّة والدّفاع عنها بشتى السّبل والطرق، وها هو العلامة محمد الصّالح الصّديق يشرح في كتابه "أعلام من المغرب العربي" الدّور الرّائد لعلماء المغرب العربي في كثير من القضايا الاستراتيجيّة مثل: اللغة

والدين والاستعمار والوحدة المغاربية ويعدد أسماء وأعمال هؤلاء العلماء، رحمهم الله جميعا.

ويذكر شيخنا الفاضل محمد الصالح الصديق في كتابه المواقف الهامة والشخصية رموز الوحدة المغاربية بفضل تلك الصفات المتشابهة والجهود الجبارة والدعوة الفاضلة والنصيحة الموحدة التي أساسها "الدفاع عن وحدة بلدان المغرب العربي وتراثه المجيد" فضمنوا بذلك تعاقب أجيال وأجيال محملة بأمانة ثقيلة واستراتيجية وهي أمانة المغرب العربي الكبير وهذا رغم اختلاف الفترة الزمنية التي عاشوا فيها، يقول شيخنا الجليل محمد الصالح الصديق:

"...كانت الفترة التي عاشها الشيخ السعيد اليجري (1873-1951) غنية بالدعاة المصلحين وخاصة في أوائل العشرينات، فقد عرفت الساحة أمثال عبد الحميد بن باديس، والإبراهيمي، والتبسي، والعقبي، وأبي يعلى الزواوي وباعزيز بن عمر، والمولود الزريبي، والشرفاوي، والحافظي...ورغم الضغوط الاستعمارية. كان هؤلاء العلماء يتفقون في الهدف، والهدف هو إنارة الطريق إلى غد مشرق بالإسلام الصحيح".¹³

وقد اهتم علماء ودعاة المغرب العربي بالدعوة كمنهج استراتيجي لتعزيز ارتباط الشعوب المغربية بدينها، فلم تكن البلاد المغاربية عقيمة لإنجاب رجالات دين وعلم رفعوا رايات محو الجهل وإشاعة نور العلم والدين وكانت العقيدة التي هي من أهم ركائز الدين الإسلامي:

" فالإسلام يقوم على عقيدة وشريعة، والعقيدة هي جوهر الإسلام لأنها تتعلق بالإيمان بالله تعالى، ورسله وكتبه واليوم الآخر، أما الشريعة فهي كل ما يتعلق بالذنوبيات كالتنظيم السياسية والاقتصادية، ولو أن الأديان الأخرى تهتم بالعقيدة فقط إلا أن الإسلام اهتم بالعقيدة والشريعة معا".¹⁴

وما يلفت انتباهنا في هذا المقام قدرة هؤلاء العلماء على استقطاب الرأي العام المغربي: حيث أسهمت عدة عوامل في بروز هذا الأخير وتأثيره في الجماهير ولما كانت العناصر الآتية هي المسؤولة عن تشكيل الرأي العام، فقد نجح هؤلاء العلماء في مسعاهم النبيل: ¹⁵

التراث الثقافي والتعليم، الأسرة والدين والأحداث الهامة، والقيادة، والولاء الوطني والقومي، والأوضاع الوطنية والدولية، حيث توفرت هذه العوامل مجتمعة في علماء المغرب العربي فاستطاعوا تحقيق الإنجازات.

وهذه المحاور الثلاثة هي التي تؤسس لعلم الاتصال والإعلام فلا وجود لاتصال أو إعلام خارج نطاق هذه الأصول وهذا المجال هو الذي أبدع فيه علماء وأعلام المغرب العربي فذاع صيتهم خارج أقطار المغرب ليتنقلوا بين المشرق والمغرب وينتج بفضل هذا النوع من الاتصال: أدب الرحلات.

ورغم أن المغرب العربي شهد العديد من المشاكل السياسية والاقتصادية والثقافية التي أثرت على تقدمه وثقافته حيث تعرضت الكثير من معالمه الثقافية إلى الطمس والتخريب من قبل الأعداء، إلا أنه عاش مراحل مزدهرة من حياته واستغل هذه الصّراعات للم الشمل من جديد والمحافظة على الأرض والعرض:

"ورافق النهضة الاقتصادية وثبة فكرية فقد ازدهرت المعارف وتنوعت بفضل الطابع الفكري للدولة وتشجيع الخلفاء والسادة من بني عبد المؤمن بما أجزلوا من عطاء لأهل العلم وشادوا من مساجد وأسسوا من مدارس وأقاموا من خزائن للكتب فقد حرصوا على اقتناء النادر منها وبذلوا في سبيل ذلك الأموال، فكثر العلماء في كل فن، الأمر الذي تصوره كتب التراجم التي صنفت هذه الفترة 588 هـ باستواء الشخصية العلمية للمغرب الإسلامي". ¹⁶

خامسا: ضرورة الصمود أمام التحديات الإقليمية والدولية المهددة لثقافة الشعوب المغاربية:

1- **التحديات الثقافية:** أنهكت التطورات الهائلة في مجال تكنولوجيا علوم الإعلام والاتصال وما انجر عنه من أزمات ثقافية وحضارية، الضرد المغاربي ثقافيا وسلبت منه الكثير من أسس الهوية المغاربية، حيث احتوتها العولمة بكل إرهاباتها وتجاذباتها، وغدا الضرد العربي عموما والمغاربي خصوصا مبرمجا حسبما تمليه تلك التطورات فهو مجد منفذ وليس فاعلا في هذه التكنولوجيا وتدعم نظرية الحداثة هذا التوجه الخطير.

2- **التحديات المادية:** لا بد من ذكر أن الإرهاب أضحى مشكلا عالميا يمكنه تهديد وحدة المغرب العربي، بالإضافة إلى بروز أقطاب اقتصادية متصارعة تحاول دمج الشعوب الضعيفة ضمن ثقافتها العالمية ليسهل استغلالها اقتصاديا، كما أن تموقع بلدان المغرب العربي ضمن قائمة الشعوب الفقيرة واعتمادها على مصادر محدودة في اقتصادها جعلها خاضعة للبلدان الكبرى التي تحاول استغلال هذه الثغرة لفرض هيمنتها الاقتصادية، رغم استطاعة بلدان المغرب العربي تحقيق الإكتفاء الذاتي، والتخلص من التبعية الاقتصادية.

3- **التراث الفكري** وكتابات المؤرخين حول المغرب العربي وتميزه بالضعف مقارنة بالكتابات والمؤلفات حول المشرق العربي:

4- **السياسات الثقافية الحكومية المتبعة،** والتي تهمش في كثير من الأحيان هذه المقومات الإستراتيجية خاصة على المستوى الإعلامي، فتشتت الفكر السياسي وانشغال البلدان المغاربية بمشاكلها الداخلية والسياسية فقط أعاق في كثير من الأحيان بروز مجالات حيوية للتعاون الثقافي، فتركزت الجهود على الجوانب السياسية فقط دون الاهتمام بالجوانب الثقافية والدينية، وإن بروز

تكتلات ثقافية في العالم يجعل من تعزيز التعاون المغربي الثقافي والديني خيارا استراتيجيا لا بد منه ولا بديل عنه.

5- الهجمة الشرسة التي تطال اليوم "الإسلام" باعتباره من أهم العوامل التي تجمع الشعوب المغربية، واستغلاله لتعزيز الصراع وتشويه صورته لضمان تفرقة شعوب المغرب العربي ثقافيا، فلم يعد الإسلام في هذه البلدان مجرد دين بل هو أبعد من ذلك بكثير فهو رمز من رموز وهوية الشعوب المغربية نظرا للمكانة الهامة التي حظي بها الدين الإسلامي من جهة، ونظرا لتغلغله في عمق ثقافة الأسر المغربية وتشكيله أحد أهم المعالم الحضارية داخلها من جهة أخرى.

خلاصة: رغم أن المكون الثقافي والديني للشعوب المغربية كان له عظيم الدور في استقرار الشعوب المغربية وتماسك شعوبها عن طريق إقامة العديد من العلاقات الاجتماعية، كالزواج والمصاهرة والعيش معا بحكم التقارب في العادات والتقاليد والاقتصادية: كمختلف التبادلات التجارية بين بلدان المغرب العربي ومحاولة تحقيق "الاكتفاء الغذائي المغربي"، والسياسية: كالمصير المشترك وتشكيل وحدة مغربية ضد الاستثمار بكل أنواعه وأشكاله، ودحضها لمختلف التهديدات الأمنية والثقافية، إلا أن التحديات الإقليمية والدولية تضعها اليوم في "خانة التهديد"، حيث أن هذه العناصر الاستراتيجية لم تسلم المحاولات المتكررة لطمس معالمها، بل أصبح يعول عليها في اختراق ثقافات الشعوب لتمرير استراتيجيات اقتصادية وثقافية لا تمت بصلة لأصالة وتراث الشعوب المحافظة خاصة المغربية ما يجعلها هشة في استقبال مختلف الرسائل المهددة لكيان الأمم والحضارة.

إن الإمام بكل ما يزخر به المغرب العربي من تراث أصيل وفكر راق وتاريخ مجيد هو أمر مستحيل ولا يسعه هذا المقام، إلا أن التذكير بأمجادنا وحضارتنا المغربية ولو بشيء بسيط هو كاف لتقليب صفحات التاريخ في كل وقت وحين

وخاصة أثناء تسطير البرامج السياسية والاقتصادية والتي هي بالأصل برامج ثقافية

ضرورة الصمود أمام التحديات الإقليمية والدولية بالتشبيث بقيمنا المغاربية الأصيلة ودعوة المؤسسات الاستراتيجية لتبني هذا الخيار الذي لا بديل عنه وذلك من خلال الاهتمام بالعناصر التالية:

- البحث العلمي " المغاربي " وضرورة دعمه والأخذ بتوصياته ونتائجه.
- الاهتمام الإعلامي بالشؤون المغاربية، وخاصة دعمه للوحدة المغاربية بكل الأشكال ومن خلال كل المناسبات.

_ التعاون الديني المغاربي من خلال عديد المجالات: القوانين، عمل الأئمة النشاط المستجدي.

- الاهتمام أكثر بالإعلام المغاربي وضوابطه ليعترجم آمال الشعوب المغاربية وتطلعاتها، فعصر اليوم هو عصر الصورة، ونعتقد أن المغرب العربي لم ينل حقه من الفضاء الإعلامي بالشكل المطلوب فلاتزال الصورة غامضة وغير واضحة بل مقصرة في العديد من الأحيان لتعبر عن مجد وكنوز المغرب العربي الثقافية والدينية.

لذلك فإن اية محاولة لتنفيذ استراتيجية في بلاد المغرب العربي دون مراعاة الخصوصيات الثقافية والدينية لهذه البلدان مآلها الفشل، حيث إن العولمة وان استطاعت أن تدمج شبابنا في دوامة لا متناهية من التجاذبات الغير عقلانية، إلا أنها رغم ذلك لن تنجح أبد في دحر المخاطر والتحديات المحيطة بشعوب المغرب العربي لأنها ببساطة لن تفقه ومهما اجتهدت العوامل المؤثرة في هذه الشعوب في الظروف العادية عموما وخلال الأزمات خصوصا.

قائمة المراجع:

- * - حامد محمد الخليفة، انتصارات يوسف بن تاشفين، الطبعة الأولى. مكتبة الصحابة 2004م ص 95.
- 2- محمود علي عامرو محمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث النّشر: 20 مارس 2016 الإطلاع: 2 جويلية 2018 <http://www.education20.eklablog.com>
- 3- لشيخ طرألوني، المساجد في الإسلام، الطبعة الأولى، لبنان 1911م ص 2.
- 4- الشيخ ابن تيمية تقي الدّين، مجموع الفتاوى، (دار الكتب العلميّة، المملكة العربيّة السّعوديّة 1999م) ص 35.
- 6- علماء الآثار، النّشر 12 سبتمبر 2012م، الإطلاع أكتوبر 2017 الموقع <http://www.archaeology.land>
- 7- محمد ضريف، مؤسسة الزوايا بالمغرب، منشورات المجلة المغربيّة، الطبعة الأولى 1992.
- 8- عبد الرّحمان بن خلدون، دراسة وتحقيق علي عبد الله وايفي، المقدمة، دار النّهضة مصر 2014 الطبعة 7 ص 51.
- 9 محمد بودهان، في الهوية الأمازيغيّة للمغرب الطبعة الثّانيّة 2013 ص 25، النّشر 9 أفريل 2014، الإطلاع 5 أوت 2018، <Http://www.abudrar.com>.
- 10- جميل حمداوي (منتديات ستار تايمز) مدخل إلى المنهج السّيميائي تاريخ الإطلاع: 11 نوفمبر 2017
- 11- محمد الصّالح الصّديق، أعلام من المغرب العربي، دارموقف للنشر الجزء الثّاني، الطبعة الثّانيّة، الجزائر 2008 ص 154.
- 12- المقدمة ص 151
- 13- محمد الصّالح ص 33
- 14- جمال البنا، الإسلام يجابه تحديات العصر (دار الفكر الإسلامي، القاهرة مصر 2007م) ص 29.
- 15- عبد اللطيف، عابد زهير، الرّأي العام وطرق قياسه (دار اليازوري للنشر والتّوزيع الأردن الطبعة 3 2014م) ص 9.
- 16- عز الدّين عمر أحمد موسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق لبنان الطبعة الأولى 140هـ 1983 ص 76، 77.

نشأة الخط العربي، بين التوقيف والاصطلاح

د. سمير ربوذي*

تاريخ الإرسال: 10- 08- 2019 تاريخ القبول: 04- 03- 2019

الملخص: الكتابة الخطية نعمة إلهية، ومعلم من معالم الحضارة الإنسانية فلا غرابة إذن أن أقسم الله تعالى بها في قوله: ن والقلم وما يسطرون، وحثَّ عليها النبي ﷺ في باب عظيم من أبواب حياة الإنسان، ألا وهو العلم، حيث قال: "قيدوا العلم بالكتاب"، ولا غرابة أيضا في أن نجد كمًّا هائلا من أقوال الحكماء، ووصايا العلماء والأدباء، تنوّه بأهمية الخط، وتشدد على ضرورة تعلّمه وإتقانه.

إنّما الغرابة ألا نجد قولاً مقنعاً، ومذهباً يطمئن القلب إليه في بيان مبدأ ظهور ملكة الخط، وأغربُ من ذلك أن نجد أصحاب أشهر قولين في هذه المسألة يعتمدون - أحيانا - في عرض مذهبهم على أدلة واهية، وأخرى أشبه ما تكون بالقصص الخرافية، والأخبار الأسطورية، على الرّغم من أهمية هذا الموضوع وحاجة الإنسانية لجمعاء الشديدة إليه.

نحاول في هذه الورقة أن نناقش أدلة هذين الفريقين، ونقدّم رأياً نرجو أن يشكل إضافة في مباحث الخطّ عامة، والخطّ العربيّ على وجه الخصوص.

Abstract: Foundation of Arabic writing ; between inspiration, convention

Written is a divine blessing and a mark of civilization. It is not surprising when ALLAH swears by written: "NOUN, I swear by pen and

* كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية، تخصص علوم اللسان، جامعة الجزائر 2، البريد

الإلكتروني: s.rabouzi@gmail.com

what they write by it" and the prophet insists in science by writing when he says: "save knowledge by writing." Also it is not surprising when many great scientists and writers noting the importance of writing with the obligation to learn it.

The stranger matter is the absence of a persuasive and convincing theory about the writing first appearance. Further the most both theories hereby relay on flimsy arguments that could be considered much more as fairy tales and mythical piece of information. This last is found regardless of the importance as well as the need to it.

We attempt to analyze and criticize both theories to found a fair idea that could be useful for writing especially for Arabic writing.

Keywords: Foundation – writing – Arabic – inspiration – convention.

مدخل: ليس مفاجئاً أن يعجّل علينا بعض القراء الأكارم بإصدار حكم، أو على الأقل رأي سابق لأوانه بخصوص جدّة هذا المقال، وما إذا كان فيه شيء يستحقّ الالتفات إليه، بسبب الاقتصار على النّظر في عنوانه، وعدم التّمهّل وقراءة مباحثه ومطالبه، والوقوف على الإشكاليّة التي دعت إليه، وغدّت الرّغبة في تتبّع جزئياته وتفصيله، لن يكون ذلك مفاجئاً لنا، ولا حتى محلّ استغراب أو أسف عندنا؛ لأنّنا نعذر كلّ مطّلع على بعض ما كُتب في نشأة الخطّ عموماً والخطّ العربيّ على وجه الخصوص، فضلاً عن أن يكون ملماً بكثير منه أو أكثره، نعذره - ولو تجوّزاً - في بناء قناعة ذهنيّة صلبة، مفادها أنّ مسألة نشأة الخطّ، ومبدأ ظهوره، لا يمكن أن يأتي فيها كاتبٌ بجديد، ما لم يكن منطلقه ومستنده دليلٌ ملموس محسوس، كحفريات لم يتمّ العثور عليها فيما مضى، أو نقوش لم يطّلع عليها أحد من الباحثين السّابقين.

ولقد تعمّدت أن أثير في بداية هذا المقال مسألة الحفريات والنقوش، وأعترف أنني لم أعتد على شيء منها فيه، ولا فكرت في ذلك أصلاً؛ وذلك أن الذي دعاني إلى البحث في موضوع مبدأ ظهور الخط هو ما يمكن إجماله في الأسباب الثلاثة الآتية:

- قلة الكتابات المستقلة في هذه المسألة خاصة؛ إذ الملاحظ أن جلّ من تعرّض لها من القدماء والمحدثين كان إما معتمداً على عدد قليل من الأقوال المأثورة عن أخبار بني إسرائيل، ومعلوم ما عُرف به أكثر هذه الأخبار من الغرابة والخرافية، أو مستنداً على حفريات ونقوش قليلة هي الأخرى، ما أدى إلى قلة الكتابات في هذا الموضوع، وفقرها إلى الأدلة الكافية، والحجج المقنعة الشافية.
- الغياب النسبي في بعض الكتابات، والكلّي في أكثرها، للأدلة الشرعية التي تنأى بالقارئ عن كلّ مواضع الشك والريبة، وتضعه أمام حقيقة واضحة ومذهب يطمئن القلب لاعتماده، والميل إليه، لاسيما فيما يتعلق بلبّ هذا الموضوع، وهو مسألة هل الخط العربي وقفي أم اصطلاحى.
- عدم قدرة المعتمدين على الأدلة الملموسة، المتمثلة في الحفريات والنقوش على الجزم بأنّ ما في أيديهم منها يشكّل لوحده صورة واضحة، وحقيقة راسخة بخصوص منشأ الخط عموماً، والخط العربيّ على وجه الخصوص؛ فلسنا نجزم ولا غيرنا في وسعه ذلك، أنّ قابل الأيام أو الأعوام لا يحمل في طياته الجديد حول ما يتعلق بهذه النشأة، ناهيك عن اللوحات الضائعة، والنقوش التي غيّبتها التغيّرات المناخية، أو ألفتها أيادي الإنسان أو غيرها من المتلفات المختلفة الأخرى.

من أجل ذلك كلّه أحاول في هذه الورقة أن أسهم، ولو بالشّيء القليل، في إمطة ما تبقى من اللثام المضروب على وجه هذه المسألة، وأبذل ما في الوسع للموازنة بين قولين شهيرين لأهل العلم من العلماء والباحثين، أو التّرجيح بينهما، هما القول بتوقيفية الخط، والقول بأنه من جملة الصنائع الإنسانية

التي لا مبرّر - كما يزعم أصحاب هذا القول - لاعتباره من خوارق العادات التي لا سبيل للإنسان إلى تعلّمها إلا عن طريق الإلهام والتّعليم الإلهي.

ولأنني سأتجنب الحديث عن تعريف الخطّ، وفضله، وكثير من المسائل المرتبطة به، لكونها - حسب رأيي - نالت حظّها الكافي من العناية والدّرس فإنني أبدأ بالتّنبية على مسألة غاية في الأهميّة، اخترت لها هذا الموضع لظنيّ الغالب أنّ ما سبق من هذا البحث قد يثير تساؤلاً هو: أيهدف هذا البحث لبيان نشأة الخطّ عموماً، أم الخطّ العربيّ على وجه التّحديد؟

وهذا التّساؤل الوجيه هو ما نشأ لديّ بسببه، ويسبب ما لاحظته على أكثر الكتابات في هذا الشّأن، تساؤلٌ جوهري هو: لماذا يعمد كثير من الباحثين إلى الفصل بين نشأة الخطّ عموماً، والخطّ العربيّ على وجه الخصوص؟، هل عندهم من الأدلة ما يثبت أنّ الخطّ العربيّ لم يكن أوّل خطّ ظهر على وجه الأرض، أو على الأقل من أوائل ما ظهر من أنواع الخطوط؟

الحقيقة أنّ كوني ضنينا جدّاً بهذه الكلمات والسّطور، ومعتقداً أنّ مناقشة هذه المسألة أقرب ما يكون إلى السّفسطة والرّجم بالغيب، يجعلني أصرف النّظر عنها وأنتقل إلى ما اعتبره أولى منها، وأجدراً بالمباحثة والمناقشة، وهو مسألة التّوقيف والاصطلاح في نشأة الخطّ، ولكنّ إجابة عن سؤال متوقّع في هذا الموضع هو: مادام لم يتبيّن كون الخطّ العربيّ أوّل الخطوط نشأة، فلماذا عُنون لهذا البحث بنشأة الخطّ العربيّ، مع أنّه يبحث عن نشأة الخطّ عموماً؟، فإنني أقول: إنّ مبرّر اعتبار نشأة الخطّ عموماً، وهي التّوقيف والإلهام كما سيتبيّن في هذا البحث، نشأة للخطّ العربيّ أمور، اختار منها اثنين لأهميّتهما:

الأول أنّ القول بتوقيفيّة الخطّ عموماً قولٌ بتوقيفيّة الخطّ العربيّ، بل هو كذلك من باب الأولى؛ لأنّ للخطّ العربيّ خصوصيات وميزات يقلّ، بل ينعدم وجودها في غيره من الخطوط، ولما كان أقوى ما يُعتمد عليه في إثبات توقيفيّة الخطّ، إضافةً إلى ما سنعرض من الأدلة والإثباتات، هو أنّ الخطّ ملكة خارقة

وصنعة ليس في مقدور أي إنسان كائنا من كان، أن يخترعها دون الاعتماد على مثال سابق، فإن أيسر ما يُستدل به في اعتبار الخط العربي تابعا للخط الأول نشؤا في مسألة كيفية النشوء هو القول بأن الخط العربي امتداد للخط، فما كان على العرب إلا أن يضاهوا ما قام به سابقوهم إلى استعمال الخط، فيكون الخط العربي فرعاً اصطلاحياً عن أصل توقيفي فيكون توقيفياً من هذه الجهة. الأمر الثاني أن أدلة تؤكد أن الخط العربي، ولو لم يكن أول الخطوط ظهوراً فإن أحداً لا يمنع أن يكون هو الآخر ظهر بالوقف، وهذا ما نلج من خلاله إلى مسألة نحسب أنها لم تنل عناية الباحثين بها، ولا حتى إشارة أكثرهم إليها أعني مسألة تعدد أوقات وأشخاص الوقف، فليس بالضرورة عندما نقول إن أول ظهور الخط كان بالإلهام، أن ينتفي ظهور خط، أو خطوط أخرى كثيرة بعده بأزمنة قريبة أو بعيدة، بالإلهام أيضاً، الأمر الذي يعني أن تأخر ظهور الخط العربي إن صح فإنه لا يلزم منه أنه ظهر بالاصطلاح والتواضع، فقد يكون ظهر بالتوقيف والإلهام، وسيأتي معنا مزيد بيان لهذا المعنى.

المطلب الأول: متى بدأ عهد الكتابة بالقلم؟

من اللطيف هنا أن نذكر حديثاً للنبي ﷺ يضعنا أمام حقيقة لا أحسب كثيراً من الباحثين إلا غفل عنها، أو تغافل عن دلالاتها ورموزها، هي أن الكتابة الخطية لها شأن عظيم في حياة الإنسان وغيرها، كيف لا وهي أول حدث عرفه الكون بأسره! فعن عبادة بن الصّامت رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر: ما كان وما هو كائن إلى الأبد»⁽¹⁾، وقد ورد هذا الحديث بروايات عديدة، وألفاظ متقاربة، كلها تجمع على أن أول مخلوق لله تعالى هو القلم، وأول أمرٍ لأول مخلوق كان الكتابة، فأَيّ منزلة هذه للكتابة، وأي أهمية لها وللقلم..!

وليس هذا وحسب، بل إن في صحيح البخاري ومسلم، وغيرهما، أن الله تعالى كتب بيده كتاباً قبل أن يخلق الخلائق أجمعين، كتابةً تليق بجلاله

وعظمة سلطانه؛ ف"عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق: "إن رحمتي سبقت غضبي"، فهو مكتوب عنده فوق العرش»⁽²⁾.

ولا تقتصر منزلة القلم على أن كان أول مخلوق لله تعالى، وأول مأمور ممثّل لأمره سبحانه، بل تتعدّى ذلك فتشمل كونه ممّا أقسم به سبحانه، وأمر بالعناية به واصطحابه، والانتفاع بخدماته الكثيرة، ووظائفه الجليلة؛ ففي التنزيل قوله سبحانه: ن والقلم وما يسطرون⁽³⁾، "فأقسم به، وذلك في غاية الشرف، والله أبو الفتح البستي حيث يقول:

إذا أقسم الأبطال يوماً بسيفهم وعدّوه مما يُكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزّاً ورفعة مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم
وقيل: البيان اثنان: بيان لسان، وبيان بنان؛ ومن فضل بيان البنان أن ما تثبته الأقلام باق على الأبد، وما ينبسه اللسان تدرسه الأيام"⁽⁴⁾.

أفيُعقل بعد هذا الكلام أن يقال إنّه "كان على الإنسان أن ينتظر ردحاً من الزمن، مقداره خمسون ألف سنة قبل أن يبدأ في تمثيل كلامه المسموع إلى رموز خطيّة مرئيّة"⁽⁵⁾؟.

وأعجب من هذا الزعم ما ادّعاه أحد الباحثين في قوله: "وقد مضت قرون عديدة كان البشر فيها يتفاهمون كالأنعام والبهائم، إما بالإشارة أو بالأصوات الغامضة"⁽⁶⁾!!، إلى غير ذلك من الأقوال الغريبة، والأحكام التي لا يقبلها عقل ولا يرضى بها بحث علمي رصين.

إن الذي جرّ أصحاب هذه المجازفات الفجّة هو ما اغترّوا به من الحفريات والنقوش، التي تدلّ - حسب زعمهم - على أن الكتابة جاءت متأخرة جداً عن زمن ظهور الإنسان، ومن الواجب أن نقول إنّه لا يحقّ لأحد من هؤلاء المكتشفين والباحثين، فضلاً عن غيرهم، أن يجزم، من خلال ما توفّر لديهم من هذه الأدلة

بأن الكتابة لم تكن لتتجاوز هذا الحد من التاريخ، أعني التاريخ المحدد لوقت ظهور هذه الآثار المكتوبة؛ وذلك أن قولاً كهذا يفتقر:

إمّا إلى شهادة على أن هذه الآثار هي أول ما خطته يد الإنسان، وهذا محض تخمين ورجم بالغيب؛ فلا أحد في إمكانه العلم بمثل ذلك؛ فقد تكون هنالك لوحات أخرى خطها الإنسان، ولم يكتب لها البقاء، لأنها تعرّضت للتلف، أو ضاعت مع الضائعات.

وإمّا إلى جزم بأن هذه الأرض لا يمكن أن تكون مخبئة تحتها، أو في بعض مناكبها وزواياها التي لم تطأها أقدام هؤلاء المستكشفين ولا غيرهم منذ آلاف السنين ما يثبت أن الخطّ البشري بدأ في وقت سابق، أو سابق جداً للوقت الذي أوشكت أن تتفق عليه كلمة الباحثين والمنقبين المعاصرين.

وبعيداً عن هذه التخمينات والآراء البشرية، تحسّن الإشارة إلى أمر لا ينبغي إغفاله ولا استبعاده، وهو أن بين أيدينا - نحن المسلمين - من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، ما يُعتبر من حيث الحجية أقوى من الأدلة الحسية نفسها أعني الوحي الإلهي، ممثلاً في آيات القرآن العظيم، وأحاديث الرسول الكريم ﷺ الصحيحة الثابتة والتي لا يمكن أن تتعارض معها الحقائق الحسية، ولا المسلمات العقلية، إلا لدى من غلا في تحكيم عقله، فحاد به عن المسار الصحيح أو زاغ به الهوى، فكابر، وخالف الحق الواضح الصريح.

هذا، وأودّ أن أقول - تمهيداً لبحث فكرة أول خط عرفته البشرية - إنني أطلت البحث والتنقيب في كتب التاريخ، والحديث، والأدب، والبحوث الاستشراقية، وفي نتائج الدراسات الحضرية، والآثار المكتوبة التي عُثر عليها أثناء عمليات التنقيب والبحث عن أدلة على عمر الكتابة، ومراحل تطورها، وأي الكتابات كانت أصلاً لغيرها، أطلت البحث في ذلك كله فلم أجد دليلاً صريحاً على بيان اللغة التي نطق بها الإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام (7)، غير حديث واحد طويل منسوب إلى النبي ﷺ، فيه قوله: «يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم، وشيث

وأخنوخ، وهو إدريس، وهو أول من خط بالقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود وشعيب، وصالح، ونبيك محمد..»⁽⁸⁾ وهذا الحديث فيه مما يخصنا إشارتان اثنتان، بالغتا الأهمية والخطر:

الأولى ما يتعلق بسريانية آدم والأنبياء الثلاثة الباقين، عليهم السلام، وهذا ما قد يجري البعض على القول بأن أول لغة نُطق بها، وربما أول قلم خُط به، هو الخط السرياني.

والثانية مسألة أولية الخط؛ ففي الحديث أن إدريس عليه السلام هو أول من خط بالقلم وهذا ما من شأنه أن يبعثر أوراق كثير من الباحثين، ويقلب الطاولة على كل من أطلق الكلام على عواهنه، وراح يجزم بأن الإنسان لم يعرف الكتابة إلا بعد آلاف السنين، ونحو ذلك مما مضى معنا قريبا طرف منه، ولا بد لنا، وقد أخذنا على أنفسنا أن لا نصدر إلا عن دليل صحيح، وحجة قوية، أن نُعلق على هذا الحديث، بما يثبت من خلاله ما انطلقنا منه قبل قليل، من أن الجزم بمعرفة اللغة التي تكلم بها آدم الأولى محض تحكم وادعاء، فنقول:

أولا: بالنسبة لثبوت هذا الحديث، ودرجة صحته، فقد أعلاه أكثر نُقاد الحديث؛ لأن فيه إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني، اتهمه أهل الحديث بالكذب⁽⁹⁾، فالحديث لا يثبت عن النبي ﷺ، ولا عن غيره ممن يُعتد برأيه فنضع مسألة السريانية جانبا.

بقيت مسألة الخط، وأن إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم، وهذه فيها حديث آخر عن النبي ﷺ، أنه قال: «أول الرسل آدم، وآخرهم محمد، وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول من خط بالقلم إدريس»⁽¹⁰⁾، وقد حكم عليه بعض أهل الحديث بالضعف أيضا، بل بالضعف جدا⁽¹¹⁾، وحتى على فرض ثبوته، فإن فريقا من أهل العلم⁽¹²⁾ قالوا بأن الخط المذكور في هذا الحديث غير الخط الذي هو الكتابة، وإنما هو خط الرمل⁽¹³⁾ المذكور في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه

قال: قال رسول الله ﷺ: «كان نبيُّ من الأنبياء يخطُّ، فمن وافق خطه فذاك»⁽¹⁴⁾، ولو أن في النفس شيئاً حيال ذلك، من جهة استعمال لفظ القلم في حديث أبي ذرٍّ، مما يستبعد، والله أعلم، احتمال كونه خط الرمل، إلا أن ضعف الحديث، مع عدم اتفاق كلمة أهل العلم على صحة ما فيه من المعلومات والأخبار كافيان لترك الاحتجاج به، وبناء شيء من الأحكام عليه.

وقد يفهم البعض أن في تشكيكنا في كون إدريس عليه السلام أول من خطَّ بالقلم انتصاراً لمذاهب كثير من المحدثين في أن الخطَّ جاء متأخراً عن هذه الفترة؛ إذ نفى الأوليّة عن هذا النبيّ يعني القول بتأخرها عن زمانه، وانتقاله إلى من يليه ممن لا بد أن يكون داعيهم إليها مقتضيات المدنيّة، وحاجة الحضارة الإنسانيّة المتمثلة في نظام الحكم، ومتطلبات التجارة، ومقتضيات المعاملات الماليّة والأقضيّة، والمراسلات المختلفة، وهو مذهب طائفة من العلماء، أشهرهم ابن خلدون، الذي بسط القول في ذلك في الفصل الثلاثين من مقدّمته، الموسوم بقوله: "في أن الخطّ والكتابة من عداد الصنائع الإنسانيّة"⁽¹⁵⁾، قلت: قد يفهم البعض من هذا التشكيك أننا نروم القول بتأخر الخطّ عن هذه الفترة، والميل إلى مذهب القائلين باصطلاحيته، لا بتوقيفه؛ إذ لو كان توقيفياً لما تأخر عن كمّ غفير من الأنبياء والمرسلين، وهم أحوج ما يكونون إليه، لاسيما إذا صحّ مذهب القائلين بأن إدريس عليه السلام متأخر عن نوح عليه السلام، لا سابق له كما هو شائع بين الإخباريين وكثير من أهل التفسير⁽¹⁶⁾، والحقيقة أننا على العكس من ذلك تماماً؛ إذ لم نزل شبه مقتنعين بأن الخطّ سابق لهذه الفترة، أو على الأقل غير متأخر عنها، وقبل عرض هذا المذهب الذي أحسب أن أحداً لم يلتفت إليه، ولا بنى أقواله عليه، إلا من قبيل الافتراض والإشارة، أذكر، في عجالة، أشهر قولين لأهل العلم في نشأة الخطّ الإنساني، وأقوى ما استندوا في ذلك عليه، ثم مناقشة ذلك وتقديم ملخص بحثنا في المسألة، مع أدلّته، بحسب ما يحتمله المقام من ذلك كله:

المطلب الثّاني: نظريّة القول بالتّوقيف⁽¹⁷⁾ في نشأة الخطّ العربيّ

مضادّ هذه النّظريّة أنّ الله تعالى علّم الخطّ نبياً، أو أكثر من أنبيائه، وهو مذهب كثير من اللّغويين والإخباريين العرب، لاسيما المتقدمين منهم، ولازلتُ أستغرب مبالغة الدّكتور محمود عباس حمودة في اعتبار القائلين به أكثرية غالبية، حين قال: "تكاد تجمع المصادر العربيّة الأدبيّة على أن الخطّ الذي كتب به العرب توقيفي، علّمه آدم ﷺ، فكتب به الكتب المختلفة"⁽¹⁸⁾؛ فلم يزل اللّغويون، والإخباريون، والأدباء.. في خلاف حول هذه المسألة، وإن تعجب فعجب قولُه بعد ذلك: "ولقد فطن إلى ما في هذا الرّأي من غثاثة المؤرّخ الاجتماعي ابن خلدون، الذي يقرّر أنّ الخطّ من جملة الصّنائع المعاشيّة.." ⁽¹⁹⁾، فهاتان مبالغتان، ما إحدهما بأبعد من الأخرى عن الصّواب وسداد الرّأي.

وإذ نعترض على هذا الأسلوب المشتغل على هاتين المبالغتين الجائرتين، فإننا لا ننفي أنّ كثيرا من الروايات التي اعتمد عليها أشهر القائلين بمذهب التّوقيف في نشأة الخطّ عموما تشبه في طرحها أسلوب الخرافة والأسطورة، كتلك الرواية المنسوبة إلى كعب الأحبار، أنه قال: "يروى أن أول من كتب الكتاب العربيّ، والسّرياني، والكتب كلّها آدم ﷺ قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبها في طين وطبخه، فلمّا أصاب الأرض الغرق وجد كلّ قوم كتابا فكتبوه، فكان إسماعيل ﷺ وجد كتاب العرب"⁽²⁰⁾، والتي لا نجد مندوحة عن التّعليق عليها لما في ذلك من إنصافٍ لهذا المذهب من جهة وتفنيد ما تضمّنته من المغالطة والمبالغة من جهة أخرى، وسأكتفي بالتّعليق على هذه الرواية الشّهيرة في ثلاث نقاط تخرجها من دائرة الوثائق المعتمدة، والأدلة المعتمدة:

الأولى أنّ نسب هذه الرواية مجهول؛ فلم أعثر عليها في واحد من كتب الأحاديث والآثار، ولا في كتب التّاريخ والأخبار، وإنّما وردت في بعض كتب اللغة والأدب، وقد تقرّر في أصول الكتابات العلميّة وجوب الرّجوع في كل مسألة إلى

الكتب المتخصصة فيها، لاسيما إذا تعلقت بمسألة شرعية، أو أمر غيبي مستتر عن عقول الناس، واستنباطاتهم القاصرة.

والنقطة الثانية أن كعباً لم يصرح بصحة هذه الرواية، ولا حتى بمن نقلها عنه، بل عزاها إلى غير معلوم: "يروي"، وهذا الأسلوب لا يثبت به علم، ولا تقوم عليه حقيقة تاريخية ولا غيرها، على أن الغالب أن يكون المروي عنه هنا هو كتب بني إسرائيل؛ فقد عُرف عن كعب رحمه الله الإكثار من ذلك، قال ابن كثير: "كعب الأخبار من أجود من يُنقل عنهم، وقد أسلم في زمن عمر، وكان ينقل شيئاً عن أهل الكتاب، فكان عمر رضي الله عنه يستحسن بعض ما ينقله لما يصدقه من الحق، وتأليفاً لقلبه، فتوسّع كثير من الناس في أخذ ما عنده، وبالغ أيضاً هو في نقل تلك الأشياء التي كثير منها ما يساوي مداده" ⁽²¹⁾، ومعلوم أن الإسرائيليات لا تُصدق ولا تُكذب لما لحق أكثرها من التحريف والتزييف ⁽²²⁾.

وأما النقطة الثالثة فهي أن العقل المنصف يستبعد أن يكون آدم عليه السلام علم آنذاك كل أنواع الخطوط التي يمكن أن يتعلمها إنسان في هذه الدنيا، والتي تعدّ بالآلاف فضلاً عن أن يكون كتبها في طين، وطبخه، وأي حكمة إلهية تتحقق من ذلك؟ مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى قادر على أن يقول لذلك كن فيكون ولكنه سبحانه وتعالى منزّه عن اللغو والعبث، ربط الأسباب بمسبباتها، وخلق كل شيء فقدره تقديراً.

وأود أن أضيف هنا مسألة تتعلق باللغة والخط كليهما، وقد تقدّم معنا الإشارة إليها، وهذا هو الموضع المناسب لبسط القول فيها، وهي أن الكلام عن التوقيف لا ينبغي أن ينحصر في آدم عليه السلام، وإن كان ورد النص بذكره في قوله سبحانه: فَفَقَّحْهُمْ ⁽²³⁾؛ إذ جائز شرعاً، وعقلاً، وواقعاً، أن يُلهم الله من يشاء من عباده، ما يشاء من الصنائع والعلوم، كيف لا وقد ألهم النحل كيف تبني بيوتها وتدبر أمر معيشتها؟، قال جلّ وعلا: يُؤْتِيهِمُ الْحِكْمَ كَمَا يَشَاءُ ⁽²⁴⁾.

وحتى لا يُقال إنَّ هذا الكلام غيرُ ما نحن فيه من توقيفية اللغة والخط، فإنني أذكر دليلاً لم أجد من استند إليه في تقرير حقيقة نشأة الخط، ولا من اعتبره حجةً للمقائلين بتوقيفه، منهم ولا من غيرهم، وإن كنا لا نعدم له ذكراً في مثل هذه الدراسات والمباحث، لكن في سياقات ثانوية، لا يفهم منها أن أصحابها يعتبرونه دليلاً على توقيفية الخط، فضلاً عن أن يستدلوا به على أنَّ التوقيف ليس بالضرورة أن يكون خاصاً بآدم، أو بغيره من الأنبياء عليهم السلام، هذا الدليل هو قول الحق سبحانه مخاطباً نبيه عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَ لَهُمُ الْيَلِينَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (25)، ولقد تعمّدت أن أذكر الآية بتمامها بياناً لأنَّ تعليم الكتاب، الذي هو الخط عند عامة المفسرين ذكر ضمن جملة من الآيات المعجزة، والدلائل الباهرة على نبوة ابن مريم عليه السلام، وهذا ما يفهم منه أنَّ الخط لا يمكن اعتباره مجرد صناعة بشرية دعت إليها الحاجة، أو اخترعها أحد الأذكى اختراعاً، وإلى قريب من هذا المعنى أشار القلقشندي بقوله: "ليس من الصنائع ما يلحق بصناعة الكتابة، ولا يساويها في هذا النوع، ولا ما يكسب ما تكسبه من الفوائد والمعاون مع حصول الرفاهية والتّنزه عن دناءة المكاسب، ولا ما يوصل إليه من الحظويّة ورفاهيّة العيش ومشاركة الملوك في اقتناء المساكن الفسيحة، والملابس الرفيعة، والمراكب النّبيلة..، وكفى بالكتابة شرفاً أن صاحب السّيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه.." (26)، ثمّ عدّ فضائل للكتابة وقال: "وليس من الصنائع صناعة تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة" (27) وكلّ من اعترض على هذا الكلام، أعني أنَّ الكتابة عصيّة على أن يستحدثها إنسان ولو ألحّت عليها ضرورته، فإننا

نطالبه بأن يتخيل كيف يحدث منه ذلك فقط، فضلاً عن أن يقوم به، أو يزعم أنه قادر عليه.

ولذلك فإننا نستنكر من أحد الباحثين قوله، تعقيباً على مذهب القائلين بالتوقيف: "هذا الرأي لا يقوم على حقيقة علمية ثابتة، بل قام على التخمين والتأويل الفاسد حيث كان أصحابه يعتبرون الخط من الأمور الجبارة التي لا يمكن ابتكارها إلا بقوة خفية"^(8 2)، على الرغم من أن القائلين به أجلة وعلماء كابن فارس، وابن عبد ربه والصولي، والقلقشندي في أحد قوليه، وغيرهم، ومن المؤسف أن كثيراً من الباحثين والمؤلفين في هذا المجال لا يسلم أحدهم من التناول على هذه النظرية، نظرية التوقيف، والإزدراء بأصحابها، وهذا أمر غير مقبول في أعراف البحث العلمي، ولعله راجع إلى الوله الشديد بمنتوج الغرب من المستشرقين وغيرهم، أو إلى التعلق بالملموس، وعدم الاعتراف إلا به.

ومن عجب أن يطالعنا الدكتور غانم قدوري الحمد، وهو ممن برز في ساحة التنظير لتاريخ الخط، ورسم المصحف، ونحو ذلك، وعُرف بهدوء قلمه، وسعة اطلاعه، فيبيدي رأيه حول القول بتوقيفية الخط، فيقول: "وهذه الروايات بشكلها السابق - يقصد آراءً مختلفة منها القول بالتوقيف - لا يقرها البحث السديد، أما قضية التوقيف فيبدو أنها سيقَّت في باب تفسير الآيات المشار إليها أن السياق الذي وردت فيه الآيات لا يوحي بشيء من الحديث عن أصل الخط..^(9 2) والآيات التي يقصدها الدكتور غانم هي قوله تعالى من سورة البقرة: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" وقوله: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)" إلى قوله "الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)" من سورة العلق، وقوله سبحانه: "ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1)"، والحقيقة أننا نوافق الدكتور على ما قال بخصوص الآيات من سورتي العلق والقلم، بينما نخالفه فيما يتعلق بالآية من سورة البقرة، وإن كنا لا نجرؤ على القول بأن فيها إشارة واضحة إلى توقيفية الخط لكننا في المقابل لا

ننفي ذلك أيضاً، فتعليم الله تعالى آدم الأسماء كلّها قد يعقبه، أو يترتب عليه أو يلزم منه تعليمه الخطّ، لأهميّة هذا الأخير، ولكانه من اللفظ، ولأمر ثالث يتعلّق بأمور النبوة والرّسالة يأتي بيانه لاحقاً، وهو قريب.

ولعلّ ممّا يؤكّد هذا التّساؤل عمّا إذا كانت توقيفيّة اللغة تتبعها، أو ترافقها توقيفيّة الخطّ، ما فسّر به السّعدي قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ ۙ الْإِنْسَانَ ۙ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ﴾ (30)، حيث قال: "علّمه البيان، أي: التّبيين عمّا في ضميره، وهذا شامل للتعليم النّطقي والتّعليم الخطّي؛ فالبيان الذي ميز الله به الادمي على غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه" (31).

ومما نعترض به، أيضاً، على الدّكتور غانم قصّره الآيات المتعلقة بنشأة الخطّ على هذه الثلاثة، مع أنّ في كتاب الله تعالى آيات أخرى تثبت تعليم الله تعالى لبعض عبادّه أموراً منها الخطّ، أصرّحها الآية المتقدّمة من سورة المائدة وفيها: "وَإِذْ عَلَّمْنُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ"، "أي الخطّ والفهم" (32)، وعلى كلّ حال فإنّنا نكتفي بهذا القدر من عرض نظريّة التّوقيف في نشأة الخطّ، ونرجئ ذكر موقفنا منها إلى ما بعد عرض ملخّص النّظريّة الثّانية، وهي نظريّة الاصطلاح لنخلص في النّهاية إلى مختار البحث من ذلك كلّه، وهو الجمع والتّفصيل وسيأتي مع شرحه وأدلّته.

المطلب الثّالث: نظريّة الاصطلاح والتّواضع في نشأة الخطّ العربيّ.

إذا كانت أقوال المنتصرين لمذهب التّوقيف قد اختلفت بين أن يكون أوّل من أخذ الخطّ آدم، أو إدريس، أو هود، أو إسماعيل، عليهم السّلام، أو أن يكون الله تعالى لم يقصر تعليم الخطّ على واحد من الأنبياء، على اعتبار أنّه سبحانه فعّال لما يريد ومن خلال ما دلّت عليه الآية أنفة الدّكر من سورة المائدة، وما فيها من ذكر تعليمه تعالى نبيّه عيسى عليه السّلام، فإنّ هذا الاختلاف لا يكاد يعدل معشار ما وقع فيه القائلون باصطلاحيّة الخطّ؛ فقد ذكروا أقوالاً متضاربة، وروايات

عديدة، لا يسلم كثير منها هي الأخرى، من الطابع الأسطوري الخرافي، وحتى لا نثقل ورقتنا هاته بعرض كل ما قيل في ظروف الاصطلاح على الخط واختراعه، فإننا نكتفي بعرض أشهر هذه الروايات، بشكل موجز، ونشير إلى أننا سنقصر الكلام على الخط العربي، لكثرة ما كتب في ذلك من جهة ولاختصاص المقال به دون غيره من جهة ثانية، ولأننا ذكرنا سابقا، وسنعيده مرة ثانية، وثالثة، أنه ليس بين أيدينا دليل واحد ينفي أن يكون الخط العربي هو أول ما ظهر في حياة الإنسان، وليس في أيدينا أيضا ما يثبت، ولذلك فإن أقل قدر من مراعاة هذه الحقيقة أن لا نجزم بوجود خط آخر سابق للخط العربي بحيث نبدأ به ونثني بالعربي، من جهة ثالثة، والمسألة احتمالية، لا ينبغي أن تنال أكثر من هذه الإشارة العابرة.

بداية ينبغي التنبيه على أن بعض ألفاظ الروايات المتضمنة ذكرا لأول من وضع الخط من الأنبياء قد يمكن اعتبارها من أدلة القائلين بالتوقيف؛ فمن هذه الروايات مثلا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: "أول من وضع الكتابة العربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان أول من نطق بها، فوضعت على لفظه ومنطقه" (3)، وقد يقول قائل: لا دليل على أن إسماعيل عليه السلام لابد أن يكون تلقى علما بالخط من السماء، والحق أن هذا القول وإ من عدة جهات، أكتفي منها بواحدة، هي أن إسماعيل عليه السلام توسط أنبياء ثبت بالدليل القاطع تلقيهم علم الخط بطريق الوحي عيسى وكل رسول سبقه، على ما سيأتي معنا من استلزام الرسالة للكتابة، فما الداعي إلى خصه بكونه وضع العربية بالاصطلاح لا بالتوقيف؟

ولا أريد أن تفوتني هنا مسألة كون إسماعيل عليه السلام أول من نطق بالعربية؛ فهي هامة جدا، وفي صحتها تقريب لما ذكرناه من احتمال قدم العربية، والخط العربي وهذه المسألة هي أن إسماعيل لم يكن أول من نطق بالضاد كما يتوهم كثير من الناس، وإجابة عن الاعتراض بمقولة ابن عباس الأخيرة، والتي لم

نعثّر على ما يثبت صحة نسبتها إليه، فإنّنا نورد حديثاً ثابتاً عن النّبي ﷺ، قال فيه: «أول من فتق لسانه بالعربيّة المبيّنة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة»⁽³⁴⁾، ولا بدّ لنا مع هذا الحديث، الهامّ جدّاً في تاريخ العرب والعربيّة، من وقفين اثنتين:

الوقفه الأولى لها علاقة بالقول بالتوقيف في نشأة الخطّ العربيّ، وبالاعتراض السّابق قريباً على من اعتبر إسماعيل هو من وضعه بوحى من الله تعالى، وريّما يكون لهذه الوقفة إسهام في تقويّة مذهب القائلين بتوقيفيّة اللغة أيضاً، أو على الأقلّ التّوقيفيّة النّسبيّة للغة، وهو مختارنا في هذا البحث وغيره، هذه الوقفة هي على فاء لفظة فتق؛ فهي مضمومة، أي مبيّنة لغير المعلوم، والمعنى أنّ إسماعيل عليه السلام لم يتوصّل إلى ذلك بنفسه، بل بإعانة من غيره، ولا بدّ أن يكون الفاتق للسان إسماعيل هو الله ﷻ، كما ذكر ذلك المناوي وغيره⁽³⁵⁾.

وأما الوقفة الثّانية فهي المتعلّقة بعدم صحّة كون إسماعيل أوّل ناطق بالعربيّة، بل حتى كونه أبا للعرب، ولإثبات هذه الحقيقة التّاريخيّة أنقل كلاماً فيه بعض الطّول تقتضيه ضرورة المسألة، للحافظ ابن حجر العسقلاني من كتابه الفتح، يقول فيه: "قوله: وتعلّم - يقصد نبيّ الله إسماعيل - العربيّة منهم، فيه إشعار بأنّ لسان أمه وأبيه لم يكن عربيّاً، وفيه تضعيف لقول من روى أنّه أول من تكلم بالعربيّة وقد وقع ذلك من حديث ابن عباس عند الحاكم في المستدرك بلفظ أول من نطق بالعربيّة إسماعيل... وبهذا القيد يجمع بين الخبرين؛ فتكون أوليته في ذلك بحسب الزيادة في البيان، لا الأوّلية المطلقة فيكون بعد تعلّمه أصل العربيّة من جرّهم، ألهمه الله العربيّة الفصيحة المبيّنة فنطق بها... ويحتمل أن تكون الأوّلية في الحديث مقيدة بإسماعيل بالنسبة إلى بقيّة إخوته من ولد إبراهيم، فإسماعيل أول من نطق بالعربيّة من ولد إبراهيم وقال ابن دريد في كتاب الوشاح أول من نطق بالعربيّة يعرب بن قحطان ثم إسماعيل، قلت وهذا لا يوافق من قال إن العرب كلّها من ولد إسماعيل"⁽³⁶⁾ هـ.

وفي الفهرست لابن النديم أن مكحولاً "روى عن رجاله أن أول من وضع الكتاب العربي نفيس، ونضر، وتيما، ودومة، من ولد إسماعيل" (37)، واكتفى ابن عبد ربه بذكر الثلاثة الأوائل، وأضاف أنهم "وضعوه متصل الحروف بعضها ببعض حتى فرقه نبت، وهميسع وقيدر" (38)، وأغرب من ذينك ما نقله السيوطي وابن النديم، وغيرهما، عن كثير من المؤرخين القدامى، أن أول من وضع الخط العربي "أبجد هوز وحطي وكلمن وسعفس وقرشت، وهم قوم من الجيلة الأخيرة، وقيل إنهم بنو المحصن بن جندل بن يصعب بن مدين، وكانوا نزولاً مع عدنان بن أدد فكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز، وكلمن وسعفس وقرشت ملوكاً بمدين، وقيل ببلاد مضر، فوضعوا الكتاب على أسمائهم، ثم وجدوا بعد ذلك حروفاً ليست من أسمائهم، وهي التاء والخاء، والدال، والطاء، والضاد، والغين فسموها الروادف" (39).

فتأمل ما في هذا الكلام من التكلف والاصطناع، ثم تصور كيف يقوم خمسة نفر أو عشرة، أو عشرون، بتأسيس نظام كامل من الحروف، والكلمات، وهم متباعدون ليس في أيديهم وسائل كافية، ولا أدوات معينة، وإن أردت أن تزداد استغراباً وتعجباً فاقرأ إن شئت ما في فتوح البلدان للبلاذري، والفهرست لابن النديم، وغيرهما، من خبر اجتماع "ثلاثة نفر من طيء ببيعة، وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدره، وعامر بن جدرة فوضعوا الخط، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار، لينقله بعد ذلك بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك، صاحب دومة الجندل، وكان نصرانياً، إلى مكة، ويتعلمه منه سُفْيَانُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وأبو قيس بن عبد مناف، إلى آخر القصة، التي يصعب على العقل أن يقبلها، وفي رواية ابن النديم أن الذي حكى هذا الخبر هو ابن عباسؓ، وليس هذا وحسب، بل فيها إضافة ترفعه في مراتب الغرابة درجة، وهي أن هؤلاء الثلاثة

تقاسموا مهامّ وضع الخطّ العربيّ، وأجهزوا عليها كلّها لوحدهم، "فأما مرامر فوضع الصّور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإعجام" (40).

ولا نريد أن نزيد على هذا الحدّ من عرض ما عرفه مذهب القائلين بالاصطلاح من تضارب بين الأقوال، ومبالغة في التّساهل والتّنازل عن اشتراط صحّة الأخبار، أو على الأقلّ عقلانيّتها؛ فقد بلغنا مبلغاً كافياً في إثبات أنّ هذا المذهب أبعد بكثير عن الصّواب، إذا ما قيس بالمذهب السّابق، ولذلك أفضل أن أختتم الكلام عنه برواية أخيرة، أعتبرها بمثابة نقطة انطلاق إلى بيان ما خلصتُ إليه من مناقشة أدلة الفريقين، ونقد آرائهم:

هذه الرواية هي ما أورده السيوطي وغيره، من أن سائلاً سأل ابن عباس رضي الله عنهما فقال: "معاشر قريش، من أين أخذتم هذا الكتاب العربيّ قبل أن يُبعث محمد صلى الله عليه وآله تجمعون منه ما اجتمع، وتفرقون منه ما افترق، مثل الألف واللام؟ قال: أخذناه من حرب بن أميّة، قال: فممن أخذه حرب؟ قال: من عبد الله بن جدعان، قال: فممن أخذه ابن جدعان؟ قال: من أهل الأنبار، قال: فممن أخذه أهل الأنبار؟ قال: من أهل الحيرة قال فممن أخذه أهل الحيرة؟ قال: من طارئ طراً عليهم من اليمن من كندة، قال: فممن أخذه ذلك الطارئ؟ قال: من الخفلاجان بن الوهم، كاتب الوحي ليهود الكندة" (41).

وانّما اعتبرت هذه الرواية مبدأً لعرض ما أراه راجحاً في مسألة نشأة الخطّ العربيّ ومبدأ ظهوره، لأنّها اشتملت على دعامتين اثنتين لهذا المذهب، الأولى هي أنّ من أهل التّاريخ والأدب من ذكر أنّ هوداً عليه السلام أوّل من خطّ بالقلم العربيّ (42).

والدّعاة الأخرى هي ذكر حقيقة، ما أكثر ما غفل عنها المختصّون في تاريخ الخطّ، قدماؤهم ومحدثوهم، أعني كتابة الوحي، على الرّغم من اتّصالها الوثيق بهذه المسألة، ولأجل ذلك، فإنّه يتحتّم علينا في هذا الموضع الكلام عن

ثلاث نقاط لها بالغ الأهمية والاتصال بهذه الحيثية من جهة، وبنشأة الخط وتطوره من جهة أخرى هذه النقاط هي:

- استلزام الرسالة للوحي وكتابته.
- عربية هود عليه السلام.
- هود عليه السلام لم يكن أول رسول بعثه الله تعالى في قومه.
- الكلام عن النقطة الأولى: استلزام الرسالة للوحي وكتابته.

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ (3 4)، عن ابن عباس عليه السلام، قال: «كان بين نوح وأدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»، قال: وكذلك في قراءة عبد الله: «كان الناس أمة واحدة فاختلفوا» (4 4)، وهذه الرواية عن ترجمان القرآن اتفق على إيرادها عامة أهل التفسير، ومنها استنبطوا أن أول الرسل نوح عليه السلام، وأن بينه وبين آدم عشرة قرون قيل إنها شهدت مبعث عشرة أنبياء، والمسألة فيها خلاف لا يعنينا في هذا الموضع إلا أن ما يهمننا أن أكثر أهل العلم على أن كل رسول يكون معه كتاب فيه شريعة رسالته، واستدلوا بهذه الآية من سورة البقرة، وبقوله تعالى أيضا: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (5 4)، ومن هذا المعنى استنبط كثير من العلماء فرقا بين النبي والرسول، هو أن كليهما مأمور بالتبليغ، غير أن الرسول يبعث بكتاب خاص فيه شريعة قومه، وفي هذا يقول الشنقيطي في أضواء البيان: "وأنهما - يقصد النبي والرسول - مع ذلك بينهما تغاير، واستظهر بعضهم أن النبي الذي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل، مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أوحى إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول

قبله، كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا يُرْسِلُونَ وَيُؤْمَرُونَ بِالْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَةِ..” (46).

وممّا يؤكّد لنا ذلك أنّ نبينا ﷺ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وخاتمهم
أُرسل بشريعة الإسلام، وأنزل معه القرآن الكريم، وكذلك موسى وإبراهيم، ثبت
في قوله تعالى: چننئچ (7 4)، أنّ معهما صحفا، ومثل ذلك عيسى وإنجيله وداود
وزبورته، وهكذا، وعليه فإنّ اليقين متحقّق من أنّ مع كلّ رسول كتاباً، وهذا ما
يجعلنا ندير ظهورنا لما يتمسّك به أكثر باحثي تاريخ الخطّ ونشأة العربيّة،
ويستدلّون له بما في أيديهم من النّقوش القليلة، واللوحات الصّخرية المحدودة،
وحروفها المحدودة، وننطلق لنطوّف في سماء النّبوة قليلاً ونعزّز ما اخترناه في
بحثنا هذا من أنّ الخطّ قديم جدّاً، وهو إلى حدّ هذه السّطور لا يفصله عن نشأة
الجنس الإنساني إلا عشرة قرون، على قول ابن عباس ؓ الذي لا يُعرّف له
مخالف فيه.

إِنَّ الْقَوْلَ بِأَنَّ الرَّسُولَ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ كِتَابٌ يُلْزَمُ مِنْهُ أَنَّ زَمَانَ الرَّسُولِ لَا بَدَّ أَنْ يَعْرِفَ كُتَّابًا، وَلَوْ كَانُوا قَلَّةً، وَلَوْ كَانَ الرَّسُولُ هُوَ مَنْ يَكْتُبُ كِتَابَهُ بِنَفْسِهِ فَالْمُهْمُّ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ خَطٌّ، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْخَطَّ عَمُومًا ظَهَرَ فِي وَقْتٍ بَاكِرٍ جَدًّا مِنْ عَمْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَهُوَ عَلَى الْأَقْلَ زَمَانُ نُوحٍ عليه السلام، وَسَنُناقِشُ بَعْدَ قَلِيلٍ مَا إِذَا كَانَ الْخَطُّ سَابِقًا لِهَذِهِ الْفِتْرَةِ، وَلَكِنْ بَعْدَ الْكَلَامِ عَنِ النَّقْطَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ هَذَا الْعَرَضِ، وَهِيَ:

عربيّة هود عليه السلام: يُجمع النّسابون، والمؤرّخون، وغيرهم، على أنّ هوداً عليه السلام من الأنبياء العرب واختار كثير منهم أنّه عابرُ الدّنيّ يُنسب إليه قحطان ⁽⁴⁸⁾ ومعنى هذا أنّ هذا النّبيّ الرّسول كان يتكلّم العربيّة، وقيل إنّّه أوّل من نطق بها ⁽⁴⁹⁾ وقيل أيضاً إنّّه أيضاً أوّل من خطّ بالقلم العربيّ، وقد مرّ معنا قريباً الإشارة إلى هذا القول، وأيّاً كانت صحّته، فالهمّ أنّ الدّنيّ ينبغي أن لا نشكّ فيه هو أنّ زمن هود عليه السلام، وهو ليس زمناً بعيداً عن زمن جدّه نوح عليه السلام، كان قد عرف العربيّة

لفظاً وخطاً، لفظاً لما تناقلته الأجيال المتعاقبة، واتفقت عليه كلمة أهل العلم وخطاً لما تقدم معنا من شأن الرسالة واستلزامها - في اعتقادنا - للكتاب والقلم.

وعليه، فما نحن نصل في مسيرنا نحو نقطة انطلاق رحلة الخط العربي إلى هذا الزمان الضارب في التاريخ، ولم يبق لنا بعد ذلك، إلا أن نناقش النقطة الثالثة والأخيرة، وهي مسألة تقدم اللفظ العربي وخطه على زمان هود عليه السلام، على اعتبار أن نوحاً عليه السلام سبق له إلى مقام الرسالة، وبالتالي إلى خط الكتاب، والحق أن هذا الذي سنناقشه في ما تبقى من هذا المطلب لا يستند على أدلة قطعية، ولا على نصوص صريحة، وإنما هي أقوال لبعض الأئمة، أوردوها على سبيل الاحتمال والتخمين وربما رجحها بعضهم بمحض النظر والتأمل، ولكننا سننسخ، إضافة إلى ذلك، على منوال ما انطلقنا منه في مطلبنا هذا، وهو ارتباط الخط بالرسالة من جهة، واحتمال أن يكون اللفظ العربي هو أول الخطوط من جهة أخرى.

هذا، وإن النفس تميل إلى أن يكون ظهور الخط أسبق من ذلك بكثير، ولولا ما حصل من خلاف بين أهل العلم حول رسالة آدم عليه السلام، ونزول كتاب عليه من عدمه، لجزمت بأن الخط رافق الإنسان منذ بدايات وجوده على هذه الأرض وعدم الجزم هذا لا يفهم منه القول بخلافه؛ فلا يزال الاحتمال قائماً أن يكون آدم عليه السلام خط بالقلم، على اعتبار أن ما ترتضيه النفس من أقوال أهل العلم في مسألة تعليم الله تعالى إياه الأسماء كلها هو أنه سبحانه أقدره على النطق بجميع اللغات، يتكلم بأيها شاء، ولا يشكل على هذا القول ما قد يعترض به من يتعاضم علم آدم عليه السلام بلغات هذا الزمان مثلاً، أو الذي يليه، أو ما سبقه من قرون طويلة؛ لأن قولنا إن آدم عليه السلام علم جميع اللغات لا يستلزم أن يكون تكلم بها جميعاً، بل غاية ما في ذلك أنه قادر على ذلك بإقدار الله له، وتعليمه إياه قانون أي لغة يحتاج التكلم بها، ومعلوم أنه عليه السلام لم يكن يعاصر أهل لغات كثيرة، بل

يمكن القول إنّه هو المؤسس الأوّل لهذه اللغات، ثم تعاقب على تنويعها وتفرعها ذريّته من بعده، وهذا هو القول الذي تتصالح في دائرته مختلف المذاهب والله أعلم.

فكذلك مسألة الخط، ومدى أهميتها في الأعمال الضرورية، والشؤون العامة وفي مقدمتها مسألة سياسة الأمة، وتنظيم أمور حياتها، فإن الحاجة إليها ماسة والنفع باستعمالها كبير، إلا أن يُقال إن طبيعة الحياة الأولى لم تكن تحتاج إلى شديد عناية بالتراسل، والتوثيق، والتدوين، ونشر العلوم، ففي هذه الحالة يمكن أن نتراجع قليلاً - وعلى مضض - في سلسلة تاريخ البشرية، ولكن لا إلى الحد الذي ذكره كثير من الباحثين المعاصرين، حيث بلغوا به إلى آلاف السنين، بل هو في اعتقادي متراوح بين عشرات السنين، وبضع مئات منها، اعتماداً على النصوص الشرعية الصحيحة والحقائق التاريخية الثابتة، الدالة على أن نوحاً عليه السلام لم يتأخر عن آدم عليه السلام إلا بنحو من عشرة قرون، وانطلاقاً من قناعة راسخة هي أن أهل هذه الفترة الممتدة بين زمني آدم ونوح عليهما السلام لم يكونوا أقل حاجة إلى الخط من الأمم التي أكرمها الله تعالى به بواسطة الوحي والإلهام.

المطلب الرابع: توجيه القول بأن الكتابة الخطية بدأت بالمرحلة التصويرية.
يكاد يجمع الباحثون المعاصرون، عربهم وغربيهم، على أن الكتابة أول ما ظهرت كانت تصويرية، حتى بلغ الأمر بالدكتور غانم الحمد أن قال: "من المسلم به.. أن الكتابة بدأت تصويرية منذ أقدم العصور.."⁽⁵⁰⁾، ولم يعد من حاجة إلى إعادة ما سبق بيانه من أن معتمد القوم الأول في هذه المسألة وغيرها من مثيلاتها المتعلقة بنشأة الخط هو ما في أيديهم من الحفريات والنقوش، غير أنني، وبعد أخذ صورة عن كيفية الكتابة التصويرية، والتي ليس هذا المقام المناسب، ولا الكافي لعرضها، وما يظهر من خلالها من التفكير الساذج الذي كان عليه أصحابها، والترقي البطيء جداً في درجاتها ومراحلها، بان لي أن

هنالك معتمداً آخر استند إليه هؤلاء الباحثون في القول بهذه النظرية، هو ذلك التصور الذي ظلّ يتلقاه الصغار عن الكبار، في كثير من المدارس التعليمية، والبرامج التلفزيونية، وغيرها، حتى صار قناعة راسخة لدى كثير منهم، وهو أنّ الإنسان الأوّل (البدائي، الحجري...) كان عبارة عن مخلوق لا يفضل كثيراً عن البهائم العجماوات^(5 1)، فهو عارٍ إلا من أوراق الشجر وجريد النخل، وليس في يده من عناصر المدنية إلا ما لا يكاد يُعرف، فضلاً عن أن يُذكر وربما أكل اللحم نيئاً، وساكن الوحوش وعائشهم، ونحو ذلك من التصورات والظنون.

وهذا في الحقيقة يعدّ إساءة غير مبرّرة لهذا المخلوق العظيم، الذي ميّزه الله بنعمة العقل، وشرّفه بالوحي منذ البدايات الأولى لتاريخه الطويل، الأمر الذي يستوجب الردّ على هذه المزاعم، وتوجيه ما تضمنته من الحقائق العلمية والتصوّرات السليمة، التي لم تتلطّخ بأدران التطاول على مقام إنسان ذلك العهد، ولم ينبعث أصحابها من خلفيّة مغرضة، أو وهم ظلّ كثير منهم يعتقدون أنّه من الحقّ الذي لا يشكّ عاقل فيه فأقول مستعينا بالله تعالى:

إنّ فترة البشرية الأولى، وهي على أقلّ تقدير أكثر من عشرة قرون، تُعدّ من أحسن الفترات التي عاشها الإنسان طيلة تاريخه العريق، بشهادة أصدق وثيقة عرفها التاريخ، وهي القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾^(5 2)، وقد مرّ معنا قول ابن عباس رضي الله عنهما وهو حبر هذه الأمة، وترجمان القرآن، الذي فسّر فيه هذه الآية بقوله: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين^(5 3) وهو موافق لقراءة ابن مسعود، وأبيّ بن كعب: "كان النَّاسُ أمةً واحدة فاختلفوا فبعث الله النَّبِيِّينَ مبشرين ومنذرين"^(5 4)، وكون أهل هذه الفترة كانت على شريعة من الحقّ يستلزم بالضرورة أنّهم كانوا على

قدّر كافٍ من المدنيّة والحضارة؛ لأنّ الشّرع الإلهي الحكيم إنّما نزل على العباد لتحقيق مصالحهم الدّينيّة والدّنيويّة، وعندما نقول مدنيّة فإنّنا نستبعد أنّ يتصوّر أحد من النّاس ناطحات السّحاب، وأجهزة الاتصال، ونحو ذلك من معالم الحضارة الحديثة، ومظاهرها المختلفة، وإنّما هي مدنيّة ذلك الوقت بإمكانياتها المتوفّرة، وبحاجات أهلها اللازمة، والتي لا بدّ وأن يكون الخطّ، والله تعالى أعلم من أهمّها وأولى أولوياتها.

وحتى وإن تعيّن علينا التّوقّف في ذلك، أعني في إثبات أنّ الخطّ كان ممّا عرفه أهل ذلك الزمان البعيد، فإنّ أحداً لا يمكنه إلزامنا بأن نتصوّر أنّ ذلك الإنسان هو من اخترع الكتابات التّصويريّة، ولا أن نتقبّل أنّه لم يعرف الخطّ بأشكاله المختلفة، ومراحله المتتاليّة، ولذلك، ولكي نصل إلى وفاق في هذه المسألة، فإنّنا نرى أنّ هذه الكتابات "البدائيّة" جاءت متأخّرة بعشرات القرون، ومن طرف أناسٍ لم يكن معهم أثارة من علم، ولا خيط يربطهم بالوحي، كأن يكونوا وثنين أباً عن جدّ، أو في أمكنة وأزمنة متباعدة عن العلم والوحي، أو أن يكونوا من أقوام الأنبياء لكن بعدما تنسخ العلم، واندرست معالم الحضارة والدّين، وهذا ما يشهد له تاريخ العصور القديمة وتؤكدّه النّصوص الشّرعيّة: أنّ البشريّة عرفت عصوراً مظلمة، ومراحل بدائيّة، بسبب البعد عن حياض العلم، ومواطن الوحي، وعليه، فإنّنا نخلص إلى الآتي:

إنّ الخطّ نعمة إلهيّة عظيمة، وحاجة إنسانيّة قصوى، لا يمكن الاستغناء عنها بحال، ولا يمكن أن تستقيم أمور العباد، وينتظم عيشهم، وتنضبط علاقاتهم التّجاريّة والسّياسيّة، والأدبيّة، إلّا بها، ولذلك فإنّها لا تقلّ بشكل كبير عن نعمة اللغة، التي بها يتواصل النّاس، ويعبرون عن أغراضهم ومآربهم، وبما أنّ هذه اللغة كانت هبة إلهيّة من الله تعالى لنبيّه آدم بالوحي والإلهام، ثمّ لذريّته من بعده بالوضع والاصطلاح فإنّنا نرى أنّ الخطّ كذلك، غير أنّنا لا نجزم أنّ آدم هو أوّل من ألهم الخطّ، ولا نستبعده أيضاً، بل هو الأقرب والأصوب والله أعلم

لاسيما وأن الخطّ، كاللغة، ملكة جبّارة وصُنعة خارقة، لا يمكن أن يخترعها إنسان اعتمادا على نفسه، أو على غيره، كائنًا من كان.

وأما هذه النقوش التّصويريّة، والرّمزيّة، والمقطعيّة، فلا نملك إلا أن نثبت من خلالها أنّ أهل زمان ما قد تدرّجوا في تعلّم الكتابة عبرها، ولكن لا باختراع المحض كما جزم بذلك الكثيرون، فقد يكون بعضهم اطلع على لوحات مكتوبة فلم يحسن فهمها، وراح يتّخذ لنفسه طريقة يستعين بها على قضاء مصالحه وقد يكون بعضهم أدرك أقواما يحسنون الخطّ، أو على الأقلّ يقرؤون الكتب المقدّسة، التي لا بدّ أن تكون مخطوطة، أو على الأقلّ يحفظون بعض نصوصها التي قد تحمل دلالات على وجود الخطّ، أو الحثّ عليه، كما هي عادة الشّرائع السّماويّة، وموقفها منه.

ويمكن أيضا أن يكون أحدهم ألهم ذلك، أو توصّل إليه بذكائه الخاصّ، لكن في حال الكتابة التّصويريّة فقط، أمّا أن يتعدّى ذلك إلى المراحل الأخرى وأخصّ منها المرحلة الهجائيّة، فأمرٌ لا يقبله - حسب رأينا - عقلٌ، ولا تثبته أدلّة قاطعة، وإنّما هي مجرد تخمينات وتوقّعات، والله أعلم.

نتيجة البحث: يمكن اختصار ما وصل إليه البحث في نتيجة واحدة، هي أنّ الخطّ عموما، والخطّ العربيّ على وجه الخصوص إنّما وصل إليه الإنسان بطريق التّوفيق الإلهي، وإلهام الله تعالى من شاء من أنبيائه عليهم السّلام، وإنّما لم نكتف بالقول إن الله تعالى ألهم فلانا أو غيره من الأنبياء لأننا وقفنا على أدلة شرعيّة من القرآن الكريم، والسّنة النبويّة، تعضدها شواهد تاريخيّة وعقليّة تثبت أنّ عمليّة تعليم الله تعالى الكتابة الخطيّة لم تكن مع نبيّ واحد، بل استمرّ ذلك إلى زمنٍ غير متقدّم جدا عن أمتنا هاته، وهو زمن عيسى عليه السّلام، حيث قال عزّ من قائل مخاطباً إياه عليه السّلام: وَمِمَّنَّا عَلَيْهِ: وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، قال عامة أهل التّفسير: الكتابُ هو الخطّ.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم
2. ابن النّديم، محمد بن إسحاق، أبو الفرج: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان دار المعرفة بيروت، لبنان، ط2، 1417هـ - 1997م.
3. ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، أبو عمر: العقد الفريد، دار الكتب العلميّة بيروت، ط1 1404هـ.
4. ابن كثير الدّمشقي، إسماعيل بن عمر، أبو الفداء: البداية والنهاية تحقيق علي شيري دار إحياء التّراث العربيّ، ط1، 1408هـ - 1988م.
5. ابن كثير القرشي، إسماعيل بن عمر، أبو الفداء: تفسير القرآن العظيم تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتّوزيع، ط2، 1420هـ - 1999 م.
6. اللّيباني، محمد بن نوح، أبو عبد الرّحمن: ضعيف الجامع الصّغير وزيادته أشرف على طبعه: زهير الشّاويش، المكتب الإسلامي، د.ط، د.تا.
7. البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصّحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر النّاصر دار طوق النّجاة، ط1، ص1422هـ.
8. البستي، محمد بن حبان، أبو حاتم: صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرّسالة، بيروت، ط2، 1414هـ - 1993م.
9. البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1988م.
10. التّرمذي، محمد بن عيسى، أبو عيسى: الجامع الصّحيح (سنن التّرمذي) دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
11. الحاكم النّيسابوري، محمد بن عبد الله، أبو عبد الله: المستدرک على الصّحّاحين تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1411هـ - 1990م.
12. الذّهبي، محمد بن أحمد، شمس الدّین: سير أعلام النّبلاء، دار الحديث - القاهرة، د.ط 1427هـ - 2006م.
13. السّعدي، عبد الرّحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان تحقيق عبد الرّحمن بن معلا اللويحق، مؤسّسة الرّسالة، ط1، 1420هـ - 2000م.

14. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1418هـ 1998م.
15. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، د.تا.
16. الشنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1415هـ - 1995م.
17. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أدب الكتاب، اعتنى به محمد بهجة الأثري المطبعة السلفية، بمصر، والمكتبة العربية، ببغداد، د.ط، 1341هـ.
18. الطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت ط2 1387هـ.
19. العسقلاني ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة بيروت، د.ط، 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
20. العيني، محمود بن أحمد، أبو محمد: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.تا.
21. غانم قدوري الحمد: رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ط1، 1402هـ - 1982م.
22. القرطبي، محمد بن أحمد، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964م.
23. القزويني، أحمد بن فارس، أبو الحسين: الصحابي في فقه اللغة العربية، قام بنشره محمد علي بيضون، ط1، 1418هـ.
24. القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، د.ط، د.تا.
25. محمد فهد عبد الله الفعر: تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، دار النشر تهامة في جدة بالسعودية، ط1 1405هـ - 1984م.
26. محمود عباس حمودة: تطور الكتابة الخطية العربية، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة ط1، 1421هـ - 2000م.

27. مسلم بن الحجاج النّيسابوري، أبو الحسن: المسند الصّحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، د.ط، د.تا.
28. المناوي، عبد الرّؤوف: فيض القدير شرح الجامع الصّغير، المكتبة التّجاريّة الكبرى، مصر ط1، 1356هـ.
29. والتّراونج: الشّفاهيّة والكتابيّة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة الكويت 1994م.

الهوامش:

(1) البخاري، محمد بن إسماعيل: الجامع الصحيح، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، ص1422هـ، رقم: 7554، ج9، ص160.

(2) الترمذي، محمد بن عيسى، أبو عيسى: الجامع الصحيح (سنن الترمذي) دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، رقم: 2155، ج4، ص457.

(3) القلم: 1.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، د. ط، د. تا، ج2، ص474، والبيتان من الطويل.

(5) انظر: والتراونج: الشفاهية والكتابية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت 1994م، ص165.

(6) محمود عباس حمودة: تطور الكتابة الخطية العربية، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ط1 1421هـ - 2000م، ص13.

(7) خلافا للأراء الغربية، التي قالت بوجود بشر قبله!

(8) أخرجه ابن حبان، انظر: البستي، محمد بن حبان، أبو حاتم: صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1414هـ - 1993م، رقم: 361، ج2، ص76، ويأتي قريبا بيان درجته.

(9) ذكر ذلك كثير من العلماء والمحدثين، قال الشيخ شعيب الأرنؤوط رحمه الله: "إسناده ضعيف جدا، إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغساني الدمشقي، قال عنه أبو حاتم: كذاب، كما في «الجرح والتعديل» 2/ 142، 143، وقال الذهبي: متروك، وكذبه أبو زرعة، كما في «ميزان الاعتدال» 1/ 73 و4/ 378، انظر المرجع السابق، الجزء والصفحة نفسهما.

(10) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير، انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين: الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ط، د. تا، ج1 ص437.

(11) انظر: اللباني، محمد بن نوح، أبو عبد الرحمن: ضعيف الجامع الصغير وزيادته أشرف على طبعه: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، د. ط، د. تا، رقم: 2127، ج1 ص311.

(12) منهم ابنُ كثير، وعلي القاري، والمناوي، والشَّوكاني، والمباركفوري، وغيرهم، راجع شروحهم للحديث الآتي ذكره.

(13) ضربٌ من الشَّعوذة، وقد ذهب أكثر العلماء إلى تحريمه، وهو معروف بهذا المصطلح حتى في زماننا هذا.

(14) انظر: مسلم بن الحجاج النيسابوري، أبو الحسن: المسند الصَّحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التَّراث العربي، بيروت، د. ط، د. ت، رقم: 121، ج4، ص1749.

(15) ابن خلدون: مقدمته، ج2، ص119.

(16) اختلف أهل الأخبار والتفسير في من كان قبل الآخر، إدريس أم نوح عليهما السَّلام، والحقيقة أن من يتأمل أدلة الفريقين، وأسلوب القرآن الكريم في عرض قصص الأنبياء، كما في قوله تعالى: "إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ" [النساء163]، يميل إلى قول من اعتبر نوحا ﷺ أسبق، وفي هذا يقول الإمام القرطبي: "إدريس بعد نوح على الصَّحيح"، انظر: القرطبي، محمد بن أحمد، أبو عبد الله، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البَّردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ - 1964م، ج3، ص31.

(17) لا ينبغي أن تنحصر صورة التوقيف لدى القارئ الكريم في مسألة كيفية رسم الحروف، واختيار الحرف المناسب للصوت المناسب، ولا نحو ذلك من آليات الكتابة والخط وحسب، بل المقصود قبل ذلك كله أصل فكرة الكتابة، أي كيف خطر للإنسان الأول فكرة تجسيد الكلام المنطوق على ألواح وأوراق ونحوها من وسائل الكتابة المعروفة.

(18) محمود عباس حمودة، تطور الكتابة الخطية العربية، ص62.

(19) نفسه.

(20) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص9، والقزويني، أحمد بن فارس، أبو الحسين: الصَّاحبي في فقه اللغة العربية، قام بنشره محمد علي بيضون، ط1، 1418هـ - 1997م، ص15، والسَّيوطي عبد الرَّحمن بن أبي بكر: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1418هـ 1998م، ج2، ص293، وغيرهم، ولإلنصاف، فإن أكثر من أورد هذه الرواية ذكرها على سبيل النَّقل والإخبار، لا على سبيل الجزم والاستدلال.

(21) انظر: ابن كثير الدَّمشقي، إسماعيل بن عمر، أبو الفداء: البدَّاية والنَّهَّاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التَّراث العربي، ط1، 1408هـ - 1988م، ج2، ص159.

(22) ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تصدقوهم ولا تكذبوهم...»، أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، تحت رقم: 1492، ج2، ص803.

(23) البقرة: 31.

(24) النحل: 68.

(25) المائدة: 110.

(26) القلقشندي، مرجع سابق، ج1، ص66. (بتصرف يسير)

(27) نفسه، ج1، ص67.

(28) انظر: محمد فهد عبد الله الفعر: تطور الكتابات والنقوش في الحجاز منذ فجر الإسلام حتى منتصف القرن السابع الهجري، دار النشر تهامة في جدة بالسعودية، ط1، 1405هـ - 1984م، ص: 118.

(29) انظر: غانم قدوري الحمد: رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر الهجري، ط1، 1402هـ - 1982م، ص29.

(30) الرحمان: 1 - 4.

(31) انظر: السعدي، عبد الرحمن بن ناصر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م، ص828.

(32) الطبري، جامع البيان، ج11، ص215.

(33) انظر: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، أبو عمر: العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1404هـ، ج4، ص239، والصولي، أبو بكر محمد بن يحيى: أدب الكتاب، اعتنى به محمد بهجة الأثري المطبعة السلفية، بمصر، والمكتبة العربية، ببغداد، د. ط، 1341هـ، ص28.

(34) أخرجه السيوطي، في الجامع الصغير، رقم: 2837، ج1، ص436، والحديث صححه الالباني في صحيح الجامع، رقم2581، ج1، ص504.

(35) انظر: المناوي، عبد الرؤوف: فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر ط1، 1356هـ، رقم: 2837، ج3، ص92.

- (36) العسقلاني ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، د. ط. 1379هـ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، ج6، ص403.
- (37) ابن النّديم، محمد بن إسحاق، أبو الفرج: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت لبنان، ط2، 1417هـ - 1997م، ص14.
- (38) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4، ص240.
- (39) انظر: السيوطي: المزهري، ج2، ص294، وابن النّديم: الفهرست، ص13.
- (40) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1988م، ص452، وابن النّديم: الفهرست، ص13.
- (41) السيوطي، المزهري، ج2، ص299.
- (42) نقل ذلك عن بعضهم القلقشندي في صبح الأعشى، ج1، ص480.
- (43) البقرة: 213.
- (44) أخرجه الحاكم النّيسابوري، محمد بن عبد الله، أبو عبد الله: المستدرک على الصّحاحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1411هـ - 1990م، رقم: 4009 ج2 ص596. وقال: حديث صحيح على شرط البخاري.
- (45) الحديد: 25.
- (46) انظر: الشّنقيطي محمد الأمين بن محمد المختار: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 1415هـ - 1995م، ج5، ص290.
- (47) الأعلى: 15.
- (48) انظر مثلاً: الطبري، محمد بن جرير، أبو جعفر، تاريخ الرّسل والملوك، دار الثّراث، بيروت، ط2 1387هـ، ج1، ص216، وغيره. ومن أهل العلم من يقول: قحطان بن عامر (بالميم) وهو هود عليه السلام، انظر: العيني، محمود بن أحمد، أبو محمد: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء الثّراث العربي بيروت، ج3، ص25، والذهبي، محمد بن أحمد، شمس الدّين: سير أعلام النّبلاء، دار الحديث - القاهرة، د. ط. 1427هـ - 2006م، ج13، ص291.
- (49) ابن كثير: البدایة والنّهایة، ج1، ص138.

(50) انظر: غانم قدوري الحمد: رسم المصحف، ص77.

(51) وانظر في الصفحة من هذا البحث كيف أن أحد الباحثين زعم أن البشر الأوائل كانوا يتفاهمون كالأنعام والبهائم!.

(52) البقرة: 213.

(53) راجع الصفحة 39.

(54) انظر: ابن كثير القرشي، إسماعيل بن عمر، أبو الفداء: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ - 1999 م، ج1، صص569.

نظام الشخصيات في رواية

"التبر" لإبراهيم الكوني _ مقارنة سمائية _

Système Des Personnages dans le roman _el tibr_ de
Ibrahim el kony _ Approche sémiotique _

قناوي عبد الحق¹

زويش نبيلة²

تاريخ الاستلام: 24- 04- 2019 تاريخ القبول: 22- 07- 2019

الملخص: حاولنا في هذا البحث بعد تقديم ملخص لمشروع "فليب هامون" كجانب نظري الكشف عن نظام الشخصية في رواية "التبر" لإبراهيم الكوني وهذا من خلال ثلاث مستويات رئيسية، أولاً: مدلولات الشخصيات: وفيه نركز على طريقة تقديم السارد للشخصيات وأهم الصفات والسمات التي منحها إياها، أما ثانياً: مستويات وصف الشخصيات: حيث عملنا على كشف البنية العميقة للشخصيات من خلال مقارنة محاورها مع نظيراتها وفق إجراءات المربع السميائي، وأيضاً دراسة الأدوار العاملة التي مثلتها داخل المسار السردى ثم ثالثاً: دوال الشخصيات: وتعرضنا فيه لدراسة البطاقة السميائية. **الكلمات المفتاحية:** مدلول الشخصية، دال الشخصية، العامل، المربع السميائي.

Résumé: Après avoir présenter L'aspect théorique du projet de philippe hamon, Nous avons essayé d'analysés le système du

¹ جامعة مولود معمري تيزي وزو، abde01kenaoui@gmail.com، (المؤلف المرسل)

² جامعة مولود معمري تيزي وزو ، zouiche-nabila@hotmail.fr

personnage Dans le roman **_el tibr_** de Ibrahim al Kony en suivant trois niveaux principaux. premièrement on a commencé par définir le concept du personnage littéraire.

Deuxièmes, Nous avons étudié les niveaux de description des Personnages pour passer leurs à structures profondes en utilisant le carré sémiotique et étudier les Rôles actantielles au niveau de la structure narrative. A fin de terminer L'analyse de l'étiquette sémiotique de chaque personnage.

Les mots clés: Signification des personnages, Signifiante des personnages, rôle actantiel, carré sémiotique.

تقديم: في تطورات دراسة الشخصية كثرت وتعددت النظريات التي اهتمت بدراسة الشخصية في المتخيل السردى، ونتيجة لذلك اختلفت الدراسات النقدية باختلاف زوايا النظر، فكان من النقد من اهتم بجانبها الشكلي وبنائها ومنهم من ركز على فعاليتها ودورها في تلك المسارات السردية، وزاد اهتمام الباحثين بموضوع الشخصية كعنصر في السرد الروائي منذ أن اتجه الشكلاونيون الروس إلى دراسة نصوص الحكايات الشعبية، وركز "فلاديمير بروب" في تحليله على الوظائف فاشتهرت دراسته بعد أن راجعها "غريماس" وأثارت اهتمام الكثير من النقد البنيويين "كتيزفتيان تدوروف" و"كلود بريمون" فكانت نتائج جهود هؤلاء النقطة التي انطلق منها "فليب هامون" في تحديده لمفهوم الشخصية، إذ يرى أن هذه الأخيرة وليدة مستوى عميق، ولا يمكن الوصول إلى مدلولاتها وملء بطاقتها إلا

بوجود عناصر مهمة تسهم في بنائها مثلها مثل العلامة اللسانية التي تحمل دلالة في ذاتها ولا قيمة لها إلا من خلال وجودها ضمن سياق دلالي محدد في مسار الحكاية، وبين عملية التأويل التي يقوم بها القارئ لإدراك مدلولات الشخصيات وعملية الإبداع التي يقوم بها المؤلف لتحديد الشخصية كإسقاط

لصورة سلوكية معينة داخل مجال ثقافي محدد، وهو المعنى الذي استغله "فانسون جوف" ليضيف للمعنى النصي الذي يتشكل في حدود المتلقي وحضوره بمخزونه الذي يسهم في اكتمال صورة الشخصية.

لم يلغ "فليب هامون" معطيات "غريماس"، وحافظ على الية الترسيمية العملية التي تُعرف الشخصية فيها من خلال دورها الذي تؤديه بفضل كفاءتها التي حصرتها في أربعة عناصر ترتبط مباشرة بالفعل، ولذلك أضاف هامون البطاقة الدلالية التي تجمع بين دالها ومدلولها، الأمر الذي أكدته "فانسون جوف" بالجمع بين المعطى النصي ومعطى المتلقي لتكتمل الصورة الشخصية وأخذاً بالآليات السميائية التي أشرنا إليها ارتأينا دراسة الشخصية في رواية "التبر" لإبراهيم الكوني، ويعود سبب اختيارنا لهذه الرواية أنها تدخل ضمن المدونة المختارة لإعداد رسالة شهادة الدكتوراه وأيضاً لأهمية عنصر الشخصية في بناء وتكوين متنها السردية، وأسسنا لإشكالية دراستنا من خلال الأمثلة الآتية:

— ما هي مميزات عنصر الشخصية في رواية "التبر" لإبراهيم الكوني؟ وكيف تجلت بدال ومدلول؟ وما طبيعة علاقة هذه الأخيرة بدوالها؟ وكيف تشكلت صورتها في هذا المسار السردية؟

لقد استثمر "فليب هامون" في الدرس اللساني وتعامل مع الشخصية "كالعلامة اللسانية إلا أن نقطة الاختلاف بينهما تعود إلى طبيعة العلاقة بين مكوني هذه العلامة الدال والمدلول فهي في اللسانيات اعتبارية في حين أنها في الشخصية تكون سببية وتتكون عن طريق سير أحداث النص⁽¹⁾، وبناء على هذا فقد ميز بين ثلاثة أنواع من العلامات:

(1) علامات تحيل إلى معطى في العالم الخارجي.

(2) علامات إلى بؤرة تلفظية.

3) علامات تحيل إلى علامة منفصلة عن الملفوظ نفسه.

واستعان من خلال هذا التقسيم الثلاثي للعلامات في تحديده أنواع الشخصيات وحصرها في ثلاث فئات:

أ- فئة الشخصيات المرجعية: وتتمثل في الشخصيات التاريخية والمجازية والأسطورية والاجتماعية.

ب- فئة الشخصيات الإشارية: وتتمثل في حضور الألفاظ التي تنوب عن الشخصيات (الضمائر مثلاً) "أي" أنها دليل على حضور المؤلف أو القارئ أو من ينوب عنهما في النص: شخصيات ناطقة باسمه... شخصيات عابرة، رُواة ومن شابهم⁽²⁾.

ت- فئة الشخصيات الاستدكارية: تقوم هذه الشخصيات بنسج شبكة من التّداعيات والتّذكير بأجزاء ملفوظة... إنها علامات تنشط ذاكرة القارئ،... إنها شخصيات للتبشير... الاستشهاد بالأسلاف والمشروع وتحديد برنامج⁽³⁾

نستنتج من خلال هذا التقسيم الثلاثي أنّ الشخصيات تتحدّد من خلال علاقات التشابه والتّقابل والتّراثب والتّوزيع التي تربطها بالشخصيات الأخرى وبقيّة عناصر النصّ، سواء في مستوى الدّالّ أم في مستوى المدلول⁽⁴⁾، وعليه يمكن أن تدخل النصّ ببياض دلاليّ وتمتلئ شيئاً فشيئاً عبر مسارها السّردي من خلال العلاقات التي تكونها مع الشخصيات الأخرى (تشابه، تقابل، توزيع).

يبني فليب هامون نظريته للشخصية على أساس مدلولها ومستويات وصفها ودالها:

1- مدلول الشخصية: يدرك المتلقي هذا المدلول من خلال المعطى النصي القابل للوصف ويتولد... من الجمل التي تتلفظ بها الشخصية عن نفسها أو من الألفاظ التي تقال عنها من قبل شخصيات أخرى في النصّ⁽⁵⁾، وبهذا يكون اكتشاف القارئ لمدلول الشخصية بالتدرّج لأنه يلزم بإنهاء قراءة النصّ ليجمع

من خلال ما تلفظت به الشخصية ذاتها والسارد والشخصيات الأخرى وكل ما يمكنه من التعرف عليها، وهذا ما يظهر جلياً في أغلب الخطابات السردية حيث تتشكل حياة السرد من السارد والشخصيات الممثلة للأدوار في مسار الحكاية.

ويعتبر "هامون" أن صفات الشخصية ووظائفها من أهم الموضوعات التي يتحدد من خلالها مدلولها، "وحدد صفاتها... بأربعة محاور هي: الجنس، الأصل الجغرافي الإيديولوجيا، والثروة"⁽⁸⁾، أي أننا من خلال هذه المحاور الأربعة يمكننا معرفة صفات شخصيات رواية "التبر"، وفي هذه النقطة يجب علينا الإشارة إلى إمكانية الباحث التغيير في المحاور الأربعة التي حددها "فليب هامون" وفق ما يجده في مدونة بحثه فقد لا يعثر على أحد المحاور المحددة سابقاً لكنه يجد ما يخلفه ويؤدي دوره في تحديد صفة من صفات الشخصية.

وكأول خطوة يلزم القيام بها هي تحديد شخصيات رواية "التبر" وذلك في مسرد نكتفي فيه بذكر أسمائها أو الضمير الذي يعوض عدم وجود اسمها: أوخيد، الأبلق، موسى، أيور، دودو، الراعي، شيخ القبيلة، الآلهة تانيت...، تأتي بعد استخراجها لوضعها في جدول نحدد فيه الشخصية والمخبر عن بطاقتها الدلالية سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة على النحو الآتي:

الطريقة المباشرة	الطريقة غير المباشرة		المُخبر الشخصيات
	الشخصية نفسها	الشخصيات أخرى	
	- "الآن أستطيع أن أقول أنك شاب لا ينقصك الكمال" (10) - "يسرُّنا أن نستقبل ابن الشيخ إمْنَعَسْتَنُ في ديارنا فله يرجع الفضل في صَدِّ الغزات" 17 - "أبلغ الأحمق أن إيموهاغ¹ على حقَّ عندما سَنُّوا النِّسب إلى الأم" 19 - "لا بارك الله لكَ فيها" 23	- هو. - نحيل الجسد بعض الشيء (11) - "العينان العميقتان الصَّافيتان كمياه عين الكرمه" 12 - "انهال على رأسه بكعب البندقية، سقطت العمامة" 13 - "أخفى جرحه بلثامه" 14 - "السدر اقتطع قماشه الفضفاض" 15 - "لم يستطع أن يصبر فانتزع نعله الجلدي" 16 - سليل "إخْئُوخَنُ" العظيم "زعيم أَرْجَرْشِيخ قبيلة إمْنَعَسْتَنُ في القرن التَّاسع عشر" 18 - "لم يعيش مع والدّه ولم يعرفه" 20 - " فأوخيد الذّي تربّى مع البعير" 21 - "الشيخ موسى" الذّي	أوخيد

*إيموهاغ = التَّوَارِقُ.

		كان يعود اليه ليستشيره ويأخذ من حكمته لمجابهة الحياة القاسية في الصحراء، وغالباً ما يردد: "الشيخ موسى يقول إنّ الكمال لله"²² - "ورث العناد عن أبيه...أخذ منه العناد وترك له حبّ الزعامة"²⁴ "هرب من العرش...اختار الأنثى"³⁵ "جاءت حواء ففرقتة عن القبيلة والأبلق"³⁶ أوخيد فأفشى سرّ تعلقه بالأبلق"³⁷	
	- "مهري أبلق رشيق مثل الغزال هذه سلالة انقرضت"²⁶	"هدية من زعيم قبائل أهجار وهو لا يزال مهرياً صغيراً"²⁷ - فهو من "الإبل المهرية التي تسبق الخيل المنسوبة إلى قبيلة مهرة ابن حيان من اليمن"²⁸ - الأبلق الآن ليس أبلقا ...اختفت النظرة الذكية ...والقوام الرشيق... تحول إلى هيكل أسود"²⁹	الأبلق
	"سنجرب حيلة الشيخ الحكيم"³⁰ "جاء من غرب فاس	"يقرأ الكتب ويتلو القرآن ويؤم الناس في الصلاة"³¹	الشيخ موسى

	بلاد الفقهاء وعلماء الشريعة ³² "لم يتزوّج ولم يلد ولم يُربّ قُطعان الأغنام والإبل" ³³		
		"وبالرغم أن البلاء كان باديا على الحيوانات ... إلا أنّ الحسناء لم تنقصها النّضارة ولم يفقدها طول الطريق البهاء" ³⁴ "جاءت حواء ففرقته عن القبيلة والأبلى" ³⁶	أيور
"فكيف لا تحتاج إليه؟ دخلت بسببه الحبس، ووقعت في الأسر، ونكّل بي زنج بامبارا" ⁽⁶⁾	"جئد العسّس بماله وجاء له الذّهب بالخدم والحشم والعبيد والرّعاة" ⁽⁷⁾	"أخرج من صندوق الحديد جرابا...موسوما بإشارات السّحرة، غرف منه بفنجان الشاي مرتين فتلاّ التّبر وأعمى العيون" ³⁸ "أذناه الكبيرتان، المتدلّيتان كأذني الجحش، ورأسه أصلع، ولحيته مثل التيس، وعظام صدره بارزة وجسده نحيل، لا يبدو بهذا التّحول عندما يكوّن لابساً ثيابه الفضفاضة" ³⁹ "جاء مرافقا بقافلة محمّلة بالذّهب والعاج وريش النّعام" ⁴⁰	دودو:

		آيور"عشيقها منذُ كان طفلاً"41	
		"بفم خالٍ من الأسنان"42	الرأعي
		"عجوزٌ نحيلٌ طويلُ القامة يمسك بعكازٍ أنيق من السدر... في وجنتيه تُنثني غُضُون عميقة ولكن في نظرتِه تلوح عفوية وعافية ومرح مجهول"43	شيخ القبيلة
		"قاعدة صخرية مثلثة الرؤيا، في نهاية المثلث تجسم صورة الإله مباشرة بصخرة كبيرة، فوق الصدر ارتفع الرأس، فتمَّ الاستغناء عن الرقبة أيضاً، ملاحه خفية تنطلق بعبادات آلاف السنين"44	الالهة ثاني

تحليل الجدول: نلاحظ من خلال الجدول أنّ كل الشخصيات التي شاركت في مسار الحكاية قدمها لنا السارد بطريقة غير مباشرة، فكان هناك دائماً وسيطاً بين الشخصية والقارئ، يتمثل هذا الوسيط إمّا في السارد العالم بكل أمور وأحوال الشخصيات أو في إحدى الشخصيات التي تقدّم نظيرتها، ما عدا شخصية "دودو" التي قدمها بطريقة مباشرة في موضع واحد من مسار الحكاية فمنح لها الكلمة لتعبر عن مرحلة معينة من حياتها.

أُوحيد: تعدّ هذه الشخصية الأكثر حضوراً في المسار السردى للرواية حيث انطلقت المسرودة منه وانتهت بموته، وهو الشخصية التي تدور جُل أحداث الحكاية حولها، إذ تروي قصته مع الأبلق الذي شكل وجوده ثنائياً هيمن على

المسار السّردي، وعليه فأوخيد شخصية ذكورية فارس يملك مهرها أبلق يتمتع بالفحولة ويعشق الحسان وهو قوي ناضج، دخل أوخيد الحكاية بضمير الغائب واقترن وجوده من البداية بمهره الذي كان لا يزال صغيراً، ويدرك القارئ أنه هو الآخر كان صبياً يتباهى بين أقرانه بمهره الذي كان يتبعه كالكلب حتى أثار سخرية الأهالي منه "يقتضي أثره كالكلب ... يرافقه حتى عندما يسرح في الخلاء كي يقضي حاجته"⁴⁵، ويلاحظ القارئ أنّ السارد لا يريد التّركيز على هذا الضّمير ويتم التّركيز على المهري الذي يبئره بلسان صاحبه بفتح مزدوجات يعطي من خلالها الكلمة لهذا الضّمير ليعرف في شبه حوار بهذا المهري لدرجة يتحول فيها مسار الحكاية للتعريف به ومن ذلك: "هل سبق لأحدكم أن شاهد مهرها أبلق، ويجب نفسه: لا، يواصل يطرح الأسئلة والإجابة نفيّاً عنها إلى أن يجمل خصاله في قوله: الأبلق: أبلق رشيق ممشوق القوام، نبيل، شجاع وفيّ..."⁴⁶.

ولا يعود السارد للحديث عن هذا الضّمير إلاّ عند الحديث عن الأبلق، ولم يذكر اسمه إلاّ بعد أن تعرّف القارئ على أنّه صاحب المهري وأنه يغدو بذلك فارساً يسعى لترويض دابته وتدريبها على الرقص في حضرة الحسان⁴⁷.

ينتقل بعد ذلك سرد الحكاية إلى مرحلة عمرية أخرى من حياة أوخيد حيث يفهم القارئ أنه بلغ مرحلة الشّباب وصار يزور ديار المعشوقات الأمر الذي يخبرنا به السارد نفسه في قوله "تعود أن يقوم بغزواته العاطفية الليلية إلى النّجوع المجاورة"⁴⁸، والملفت للانتباه أن هذا السارد يعطي الكلمة مرة أخرى لأوخيد ليقدّم معلومات أخرى عن مهره من ذلك: "لماذا تخبئ عني؟ اعترف أنك تطير إلى محبوبتك ولا تطير بي إلى محبوبتي"⁴⁹.

وينتقل السرد مرة أخرى إلى شخصية شيخ القبيلة الذي يعرفه السارد كما سنرى عند انتقالنا للحديث عنه كشخصية شاركت في الأحداث وتكفلت بالسرد في بعض مستويات الحكاية، فمن كلامه يعرف القارئ أن أوخيد "ابن شيخ امنغاستن وأنه فتى نبيل سليل النبلاء"⁵⁰، ويصف السارد عينيه ولباسه نستنتج من وصفه أن "أوخيد" يرتدي التارقي المتمثل في العمامة على الرأس والثام والملابس الفضفاضة والتعل الجلدي، فهو يتميز بالأناقة وحسن المظهر أما أصل سلالته فهو عريق ذو تاريخ كبير في الصحراء من قبيلة امنغاستن.

يرجع النسب في قبيلة أوخيد إلى الأم، وهي عادات قبائل التوارق، عاش وحيدا فجعل المهري الأبلق صديقه، كما أنه عاش بأفكار وعقيدة صوفية نهلها من معين الشيخ موسى الحكيم.

تزوج أوخيد من "بأيور" وأنجبت له ولدا، رحل عن القبيلة بسبب عدم مباركة والده لزواجه، له شخصية عنيدة، وهي صفة ساعدته على مجابهة قساوة الصحراء، كما أنه تميز بالتمرد على عادات القبيلة وقدااسة الحياة في المجتمع الصحراوي، وتم التعريف ببطاقته الدلالية على لسان السارد المجهول وشيخ القبيلة ولم يعرف بنفسه سوى من خلال تعريفه لمهرية.

الأبلق: لا يقل الجمل قيمة في هذه الرواية عن بقية الشخصيات المهمة فهو يقاسم البطل بطولته حتى في صورته وقيمه داخل المتن السردية، فالأبلق لا يقل قيمة في نسبه عن "أوخيد"، فإن كان الرجل الرجل سليل النبلاء فالأبلق مهري نادر ومن سلالة منقرضة، تحمل سيرورة الأحداث في مسار الحكاية تشابها كبيرا بين أوخيد وأبلقه حيث يتعرض كلاهما للعقوبة نتيجة نزواتهما الغريزية تجاه الأنثى، فيصاب الأبلق بالجرب بسبب علاقته الجنسية مع النوق الأخريات وتقوى علاقتهما ببعضهما خاصة بعد رحلة الشفاء الشاقة التي خاضها ولم ينفصلا إلا في بعض المراحل السردية، ولا تنتهي الرواية إلا وهما معاً.

طغى حضور أُوخيد والأبلق على مسار الحكاية وذلك بسبب حضورهما في كل المسار السردى ومشاركتهما في جلّ أحداث الرواية، وجعل السارد كل الأحداث تدور حولهما منذ البداية حتى النهاية، أضف إلى أن السارد ميّزهما بمميزات عن الشخصيات الأخرى، بقيم حميدة مثل التّبر والشّهامه والنّسب العريق وغيرها من الصّفات، كما نلاحظ تغييب لسارد للصفات الجسديّة لأُوخيد والتّركيز على صفات الجمل الذي يكون بجماله مرآة لصاحبه الفارس.

الشيخ موسى: لقد فاز الشيخ موسى بإعجاب أُوخيد لذا نجده يثني عليه في العديد من المرات، فهو حكيم يستعين به أُوخيد، وهو أيضاً شخصيّة صوفيّة زاهد في الحياة عاش منعزلاً، أي أنّه عديم الثّروة ذو أصول جغرافيّة بعيدة وبايديولوجيا دينيّة صوفيّة.

أيور: هي زوجة أُوخيد كانت جميلة ساحرة بأنوثتها، جاءت هاربة من صحراء "أير" التي ضربها القحط والجفاف والمجاعة فكانت "أيور" بسبب حبّ أُوخيد لها العامل الذي جعله يتخلّى عن الزعامة، تزوّجها ورحل معها عن قبيلته وكانت بمثابة المنافس للأبلق في علاقته بأُوخيد وكادت أن تفرق بينهما لكن الخيار الأخير كان للبغير على حساب الزوجة والابن الأمر الذي عدّ مشينا في شخصيّة أُوخيد وكان سببا في تحول مسار حياته من السّعادة إلى الحزن نتيجة اختياره.

دودو: تدخل شخصيّة "دودو" في المسار السردى لحظة تأزم أوضاع البطل ومعاناته من المجاعة، وهي شخصيّة معيقة تعمل على عرقلة مسيرة البطل "أُوخيد" بسبب إطلاعه على سرّه، وتميزت هذه الشخصيّة بصفة الثّراء والقوة حيث برز بظهورها موضوع التّبر كعنصر فاعل في المسار السردى، وظلت تتردّد هذه اللفظة في مقاطع سردية مكررة كانت الغاية منه على أن الفقر والحاجة كانتا السّبب في تحول حياة أُوخيد وأبلقه.

وقد ورد قبل دنو أجله بلحظات وصفت لحالته الفيزيولوجية، ينتمي إلى قبيلة "أير" التي جاءت منها زوجة أوخيد، وهي ابنة عمه، ولقد نجح بحنكته ومكره أن ينتزع من البطل ما جاء لأجله ألا وهو "أيور" حبيبة الطفولة، ولهذا ورد على لسان أوخيد أن المرأة هي دوماً السبب يظهر ذلك في قوله: "الأنثى هي السبب هي السبب دائماً"⁵¹ يلاحظ القارئ علامات التعجب التي انتهت بها كلام أوخيد والذي كان يقصد به الأبلق، لكن تلك المسلمة كانت تنطبق عليهما ولهذا يمكن أن يعتبر القارئ بأن مسار حكاية الأبلق هو نفسه مسار حكاية أوخيد ويتضح ذلك في قول السارد كتعقيب على اختيار أوخيد "لأيور" بدلاً من المشيخة والانصياع لرغبة والده: "الأنثى نفسها هي التي كانت سبباً في بلاء الأبلق، والمهري الذي نذره لولي الأولين وتركه في المراعي حتى يسمن ويعقل ويتكامل، كان المهري الذي نحره ليلة العرس"⁵².

الراعي: شخصية عملت كهزمة وصل بين "أوخيد" و"دودو" وهو راع وخادم لسيده "دودو" الذي اشتراه بماله.

شيخ القبيلة: شخصية نحيلة تحكم القبيلة التي اعتاد أوخيد أن يزور فتياتها ليلاً للمغازلة، أعطيت له الكلمة ليعرف القارئ بأوخيد، فمن لسانه يعرف القارئ أن أوخيد سليل النبلاء وأنه فارس عاشق ومالك لمهري يعكس صورة صاحبه كما يلاحظ القارئ أن شيخ القبيلة قد تمنى لو أن أوخيد يتزوج من بنات القبيلة وقد دعاه بطريقة مباشرة لذلك في قوله: "فطالما يتأفف الفارس من الدخول إلى بيوتنا من أبوابها فلا بأس أن يفعل المهري ذلك"⁵³، كما أن شيخ القبيلة هو الذي يعلم القارئ بأن فرصة أوخيد في تولي رئاسة القبيلة بعد أبيه ضعيف لأن: لدى الشيخ أبناء أخت ثلاثة/ ويهمش المؤلف للفكرة بقوله: "يرجع الطوارق في النسب إلى الأم، فابن الأخت هو الذي يرث وليس الابن"⁵⁴.

الآلهة تأنيت: صنمٌ موجود في أحد أودية الصحراء، بكى عنده أوخيد يتوسل شفاء الأبلق مقابل أن ينذر لها جملاً سميناً، لكنّه لم يف بنذره ما تسبب له بالهلاك.

خلاصة قراءة الجدول: نستنتج من المعطيات التي أوردها نص رواية "التبر" أنّ الحكاية جمعت في مسارها السردى بين قصة أوخيد ومهرية الأبلق، وقد تم التعريف ببطاقتيهما الدلالية بشكل رئيس من قبل السارد العليم وذلك لأنّ الرواية منولوجية، وقد هيمن هذا السارد الخارج والمتباين حكاياً على كل معطيات القصة ورواها بروية من خلف وقد بار فيها الأبلق لكنّه جعل مساره يتقاطع مع مسار أوخيد وكل التجارب التي مر بها المهري قد عاشها وشاركه فيها أوخيد، ومن ثمّ فإن كان المهري أبلقاً ومن سلالة نادرة فأوخيد نبيل وسليل نبلاء، والأبلق مثل الغزال ومتميز ومختلف عن غيره من الجمال كذلك كان حال أوخيد ابن سيد قبيلة ولكنّه تميّز واختلف عن أبيه وأقرانه وعاش الحياة مع أبلقه كما يريد.

يلاحظ القارئ أنّ دخول الشخصيات الأخرى كان ضرورياً لإكمال الرسالة التي يخدمها خطاب الحكاية لم يهزم أوخيد اختياره ولا سلالته ولكن المال والغنى يرفعان من مكانة الرجال وغالباً ما تكون الظروف المرتبطة بالأنثى/ الزوجة والأبناء هي المانع من الرئيس في تحقيق كل الآمال وضاعت سعادة أوخيد بسبب الأنثى.

وبعد إيرادنا لأهم الشخصيات الفاعلة في المسار السردى للرواية، يمكن لنا أن ندرسها من خلال الجدول الذي اقترحه "فليب هامون" الذي يحتوي على "أربعة محاور هي: الجنس، الأصل الجغرافي، الايدولوجيا، الثروة"⁵⁵، ولا نرى ضرورة استبدال أي محور أو إضافة آخر لأنّ ما قدمه هامون يفي بالغرض في دراستنا.

المحاور الشخصيات	الجنس	الأصل الجغرافي	الإيديولوجيا	الثروة
أُوخيد	+	+	+	0
الأبلق	+	+	0	0
الشيخ موسى	+	+	+	0
أيور	+	+	0	0
دودو	+	+	0	+
الراعي	+	0	0	0
شيخ القبيلة	+	+	0	0
الآلهة تانيت	+	0	0	0

__ نلاحظ من خلال الجدول أن شخصية أُوخيد والشيخ موسى محددة بنفس المحاور الدلالية المتمثلة في: الجنس، الأصل الجغرافي، الإيديولوجيا، وقد تجلّى على مستوى مسار الحكاية أن أُوخيد كان تابعا للشيخ موسى الذي كان بمثابة مدرسته التي أخذ منها كل دروس الحياة، في حين أننا نلاحظ أن شخصية (الأبلق أيور شيخ القبيلة) محددة بنفس المحاور المتمثلة في الجنس والأصل الجغرافي وبهذا فهي تنتمي إلى نفس المحاور الدلالية وقد تجلّى ذلك في قيمة علاقتهما بأُوخيد، فالأبلق هو بؤرة شخصية أُوخيد وأيور هي النقطة الحاسمة التي توقف عندها مسار سعادة أُوخيد.

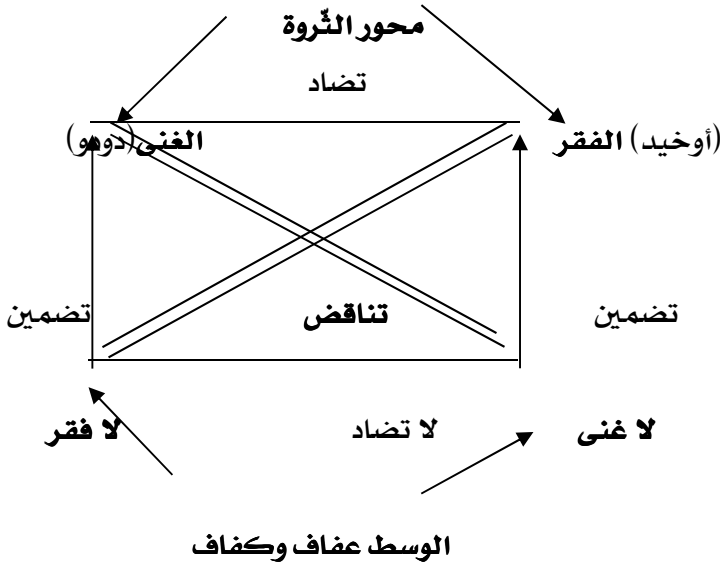
وتبقى شخصية "الراعي" و"الآلهة تانيت" في قسم واحد محددة بنفس المحاور المتمثلة في محور الجنس وحده.

__ نستنتج مما سبق في الجدول انقسام الشخصيات حسب محاورها الدلالية إلى أربعة، تتقابل من خلالها شخصية "دودو" مع (أُوخيد+الشيخ موسى)+ (الأبلق+ أيور+شيخ القبيلة).

__ كما تتقابل شخصية (الراعي + الآلهة تانيت) مع (أوخيد + الشيخ موسى) إذ تعتبر هذه الأخيرة أكثر تحديدا من خلال المحاور الفاعلة في النص بالمقابل مع شخصية (الراعي + الآلهة تانيت) التي تحدد من خلال محور واحد ألا وهو "الجنس" ولهذا فالتقابل الحقيقي في مسار الحكاية كان بين أوخيد / الشيخ موسى وشخصية "دودو" لأنه تفرد في امتلاكه الثروة (التبر)، وقد تفرد بشكل خاص في تغيير مسار الحكاية على الرغم من كون الأبلق وآيورا أكثر حضوراً في قصة أوخيد.

وعليه يبدو أن رواية "الكوني" يكشف عنها هذا التقابل الدلالي بين محوري الشخصيتين أوخيد ودودو.

أيضاً "من الأمور التي تكشف عن مدلول الشخصية عند "هامون" علاقة الشخصية بالشخصيات الأخرى عن طريق عقد مقارنة بين صفات هذه الشخصيات... اعتماداً على فكرة مخطط غريماس في المربع السيميائي"⁵⁶، فمثلاً نأخذ محور الثروة ونخضعه لهذا المخطط، ويعود سبب اختيارنا لهذا المحور عن باقي المحاور الأخرى لاختلاف شخصية البطل "أوخيد" عن شخصية "دودو" في هذا المحور ودور هذا الأخير في تأجيج الصراع بين البطل والبطل الضديد.



علاقة التضاد تجمع "أوخيد" و "دودو" في محور الثروة، (الفقر VS الغنى) تجلى في المسار السردى أنّ أوحيد لم يكن غنياً وأنّ دودو هو من امتلك التبر.

أمّا علاقة التناقض فهي تبين أنّ "أوخيد" في تناقض مع محور "الوسط عفاف وكفاف" لأنّه كان يملك ما يمنعه من الفقر وهو الأبلق وقد تجلى ذلك في جمل نطقت بها شخصيات أخرى عن أوحيد من ذلك: "لا يجوع من يملك الأبلق" وقد تأكد هذا لأنه الوسيلة التي تجاوز بها الجوع.

فمن خلال علاقته التضادية مع محور الثروة وعلاقة التناقض مع محور "الوسط عفاف وكفاف" تثبت لنا صفة من صفات هذه الشخصية ألا وهي صفة العفاف لأنّ الرجل من أصل نبيل وابن سيد القبيلة ولم يكن يصنف ضمن طبقة الفقراء لأنه من سادة قومه وأنّ حاجته إلى المال كان بالإمكان أن تستبدل بالغنى باستبدال الأبلق، لكن أوحيد قد رفض التخلي عن جملة لأنّه يحمل الصفة التي تمنع من تصنيفه ضمن فئة الفقراء، وبالتالي الفقر كان صفة

عارضة لارتباط أوخيد بأيور التي لعن علاقتها به والدّه حين قال له: لا بارك الله لك فيها، ومن ثمّ أخذاً بالمعتقد الديني افتقر أوخيد نتيجة عصيانه للوالدّ الذي كان يريد له الغنى بتزويجه بالزيجة التي تحقق له الثروة، ورفضها لأنه يرى الأمور بطريقة أخرى ولهذا أوخيد لم يكون من فئة الفقراء ولا يوجد تضاد بين لا فقر ولا غنى وبينهما الوسط العفاف والكفاف، فكان يكفيه نسبه النبيل وأصله ليرفعان من شأنه خاصّة وأنّ السارد قد برّر لفقره بلعنة والدّه ووجود المستعمر الذي أفقر كل أهل المنطقة وعندما احتاج أوخيد استطاع بأبلقه أن يتجاوز الفقر، فالفقير لا يملك ألقاً مثل مهرية ولم يكن الفقر الذي أهلكه. ولهذا كان ضمن علاقة تضمين مع قطب اللاغنى.

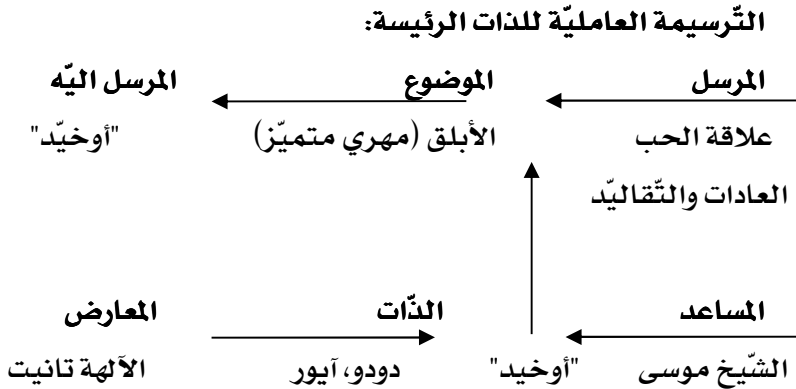
أما شخصيّة "دودو" والتي هي على علاقة تضاد مع قطب "الفقر" في "محور الثروة" وفي علاقة تناقض مع قطب "اللاغنى" في محور "الوسط"، والسبب في ذلك أنّ دودو رجل يعرف السارد بنسبه وأصله ومكانته في المجتمع وأنّ ثروته تنحصر في امتلاكه التبر الذي جمعه بطريقة لا ترفع من مقامه وفي علاقة تضمين مع "قطب اللافقر" في محور "الوسط"، يثبت لنا من خلال هذه العلاقات صفة الغنى والثروة في شخصيّة "دودو".

خلاصة تطبيق إجراء المريع السيميائي: كشف هذا الإجراء عن الرؤية الخفية التي أراد أن يمررها إبراهيم الكوني من خلال مسار حكاية أوخيد حين يدرك القارئ أنّ أصل البطل ومقامه بين أهله وامتلاكه للأبلق وتمكنه من الصبر على صعوبة العيش في الصحراء بمثابة الغنى الذي لم يملكه "دودو" كبطل ضديد وذلك لأنّ امتلاكه للتبر لم يمكنه من الزواج من أيور ولم يمكنه من امتلاك الأبلق وعلى الرغم من ثروته كان يفتقر لأسباب السعادة التي كان يملكها أوخيد، فهو من ملك أيور والأبلق الذي حاول أن يشتريه دودو بماله لكنه عجز، ولما خير أوخيد بين أعزّ ما يملك الزوجة والولد مقابل الأبلق

اختار أبلقه، وانتهى في الأخير من دودو لأنه كان السبب في كل معاناته وتعاسته ولم تكن صعوبة العيش هي السبب لأنه كان يؤمن بفضيلة الصبر إيماناً قاطعاً ونصح بها أبلقه مرات عديدة.

مستويات وصف الشخصية:

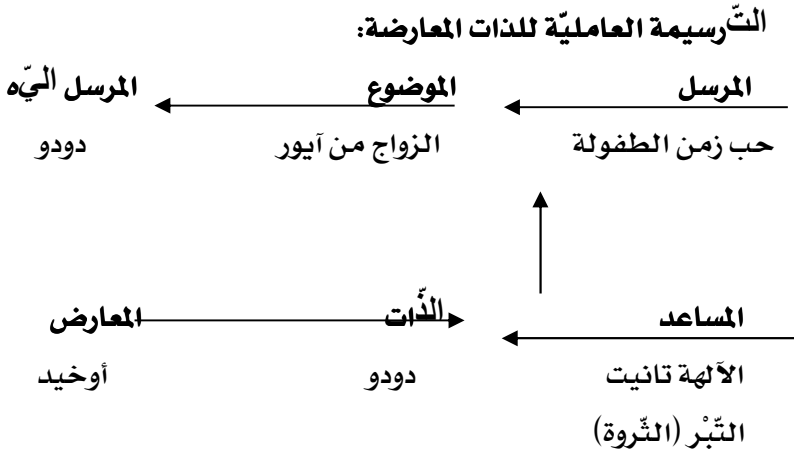
إن المعطيات التي يكشف عنها إجراء المربع السميائي لا تفصح من خلال العلاقات بين الشخصيات عن كل المعنى الذي يمكن معرفته بواسطة الأدوار المنوطة بالشخصية في مسار الحكاية وعليه نستعين بالترسيمة العملية التي حاول من خلالها " كريماس أن يخرج بخطاطة أكثر دقة وأبعد في الاختزال والتجريد عن طريق الدراسة والمعاينة للوظائف"⁵⁷، فمن خلال هذه الترسيم العملية التي نطبقها على البرنامج السردى يمكننا الوصول إلى فهم أكثر وضوحاً حول الأدوار والوظائف التي يؤديها كل عامل في بناء مسار الحكاية.



تنبني داخل هذه الترسيم العملية ثلاثة أنواع من العلاقات، حيث تحكم كل علاقة اثنين من العوامل المكونة لهذه الخطاطة ونوضحها كالتالي:

- 1) علاقة الرَّغبة = أُوخيد (الذَّات) مع الأُبلق (الموضوع).
 - 2) علاقة التَّواصل = العادات والتَّقاليد، علاقة الحب (المرسل) مع أُوخيد (المرسل اليه).
 - 3) علاقة الصِّراع = الشَّيخ موسى (المساعد) مع دودو، آيور، الآلهة تانيت (المعارض).
- ونستنتج من هذا أن في علاقة الرَّغبة عامل الذَّات (أُوخيد) البطل يرغب في الموضوع وهو (الأُبلق) ويدفعه إلى ذلك عامل المرسل (العادات والتَّقاليد، وحالة الحب بينهما) من أجل تحقيق علاقة التَّواصل والاحتفاظ أُوخيد بالأُبلق.
- أمَّا في علاقة الصِّراع فنلاحظ (المساعد) الشَّيخ موسى يعمل كمُرشد ودليل بفضل حكمته ليساعد (الذَّات) أُوخيد على الاحتفاظ بالأُبلق (الموضوع) وتحقيق رغبته، أي استمرار حالة الاتِّصال بين الذَّات والموضوع، عكسه (دودو+ آيور+ الآلهة تانيت) (المعارض) الذي يسعى إلى تحويل حالة الاتِّصال بين الذَّات والموضوع إلى حالة انفصال.
- أي أن الذَّوات المعارضة لها برامجها السَّردية الضَّديدة التي تسعى إلى تحقيقها، حيث يعتبر الممثل "دودو" الذَّات الأبرز التي لها الكفاءة اللازمة لتحقيق رغبتها إذ يقول عنه خادمه الراعي: "جند العسس
- بماله وجاء له الدَّهَب بالخدم والحشم والعبيد والرعاة"⁵⁸، إضافة إلى هذا "فالآلهة تانيت" تشغل في برنامج السَّرد دور المساعد له، أمَّا "آيور" الفتاة الحسنة فهي تمثل الموضوع الذي يسعى راغباً في تحقيقه، وهو الزواج منها بعد أن يطلقها زوجها "أُوخيد" وهذا الأخير شرط فرضه عليه "دودو" مقابل تسليمه الأُبلق المرهون عنده.

"ولتوضيح كيفية تمفصل العوامل وانتظامها في الترسيمية العاملية"⁵⁹ التي يؤدي فيها "دودو" وظيفة الذات و"أيور" وظيفة الموضوع نقترح هذه الترسيمية:



مثلما وضعنا سابقا الأمر نفسه مع هذه الخطاطة التي تحكمها ثلاث علاقات تتضمن كل واحدة منها عاملين وهي كالآتي:

- (1) علاقة الرغبة = دودو (الذات) الزواج من أيور (الموضوع).
 - (2) علاقة التواصل = حب زمن الطفولة (المرسل) مع دودو (المرسل اليه).
 - (3) علاقة الصراع = الآلهة تانيت (المساعد) ضد أوخيد (المعارض).
- نلاحظ أنّ عامل الرغبة يضم عامل الذات "دودو" الذي يرغب في تحقيق الموضوع وهو (الزواج من أيور) ويحفزه على ذلك في طابع ترغيبي عامل المرسل المتمثل في (حب زمن الطفولة) فهو الذي "عشقها منذ أن كانا طفلين"⁶⁰ وبالتالي العمل على الانتقال من الحالة الأولى حالة الانفصال بين الذات والموضوع إلى حالة الاتصال كحالة ثنائية معاكسة.

أما بالنسبة لعلاقة الصراع نلاحظ أن (المساعد) "الآلهة تانيت" بضغطها على "أوخيد" للتخلي عن زوجته و"أبلقه" هي تقدم خدمة للذات "دودو" وتعيّنه على تحقيق رغبته، أي تغيير الحالة الأولى حالة الانفصال بين "دودو" (الذات) "أيور" (الموضوع) إلى حالة ثانية وهي حالة الاتصال، وعكس هذا تماماً يسعى "أوخيد" (المعارض) إلى استمرار الحالة الأولى وهي حالة الانفصال والتي يعتبر فيها المستفيد الأول لأنه في حالة اتصال "بأيور" زوجته التي يحبها.

- دوال الشخصيات:

وكما هو معروف "يتمّ تقديم الشخصية ووضعها على خشبة النص اعتماداً على دالّ منفصل، أي على مجموعة متناثرة من الإشارات التي يمكن تسميتها سمة الشخصية"⁶¹، أي أنّ سمتها (مجموعة الإشارات) يمكن أن تتجلى على مستوى اسم العلم الذي يُعطى للشخصية ولقبها وكنيتها ومكانتها الاجتماعية ودورها وعلاقتها بغيرها من الشخصيات.

إنّ دوال شخصيات رواية "التبر" لها خلفيات ذات أبعاد لها جذورها في أعراف الصحراء، "أوخيد" اسم الشخصية البطلة التي دار الخطاب السردى حولها من الصفحة الأولى للرواية إلى الصفحة الأخيرة، وهو اسم لم نعر عليه في القواميس والمعاجم العربية، ولا حتى قواميس الأسماء إلا أن الشخصية التي منحها السارد هذا الاسم تحمل صفة النبيل والنسب الشريف، كما أنّها شخصية شبابية تميزت بالعناد وشدة الصبر والتحمل خاصة في لحظات الكرب التي أصابتها، قد يكون الاسم مأخوذاً من التراث التارقي والثقافة الصحراوية الخاصة بقبائل التوارق والتي لم نحصل على معجم لأسمائها المتداولة في مجتمعهم، ولعله يحمل معنى ينطبق مع الدور والصفات التي أُعطيت لهذه الشخصية في مسار الحكاية.

أما "الأبلق" فهو اسم استوحاه السّارد من صفات هذا الحيوان الجميل "هل سبق لأحدكم أن رأى مهرّياً في رشاقتة وخفته وتناسق قوامه"⁶²، وهو من سلالة نادرة ومن يملكه يحصل على المرتبة الرفيعة لأن يكون فارساً.

أما اسم "الشيخ موسى" فله خليفة في التراث العربي والديني وهو اسم لنبي من أنبياء الله، فهو رمز ديني بامتياز، وهذا الاسم هو مركب من لفظين "الشيخ" دلالة على الحكمة والعلم والخبرة في الحياة ولا يلقب به إلا كل من خير الحياة وأوتي الحكمة، أما اسم "موسى" فله طابع ديني محض فهو اسم النبي موسى عليه السّلام، وقد كانت كذلك شخصية "الشيخ موسى" ذات أبعاد دينية في الحكاية.

ومن الأسماء المركبة كذلك نجد "العرافة التّبّاوية" فكلمة العرافة تعني التّكهن وممارسة طقوس السّحر أمّا كلمة "التّبّاوية" فهي تدل على أصلها الجغرافي، فهذه الكلمة ملحقة بباء النسبة مشدّدة وكان لهذه الشخصية بعد ديني جغرافي كان يسود مكان سرد الأحداث .

أما اسم الفتاة "أيور" فهو امتداد للمكان الذي جاءت منه وهو صحراء "آير" كما جاء في الرواية "جاءت الحسناء من "آير" مع أقاربها "⁶³، وتعني كلمة "آير" في اللغة العربية الريح الحارة الجنوبية و "أيور" جمع رياح جنوبية، وبالفعل فهذه الفتاة جاءت من الجنوب في الصحراء تحمل الدّلالة السّلبية التي تحملها الريح الجنوبية الحارة المفسدة لأن وجودها أفسد حياة أوخيد مع أبلقه، ولهذا كانت كالريح التي عصفت بسعادته.

كما أن اسم "الآلهة تانيت" من الأسماء المركبة وهو اسم يتكون من كلمتين "الآلهة" و "تانيت" وهو اسم الآلهة عند قدماء الليبيين والبونيقين، وله بعد ديني وثني ذو قيمة في التاريخ الاجتماعي للمنطقة .

أمّا "الراعي" اللقب الذي ارتبط بممارسته الرّعي فهو يدل على مهنته ومكانته في مجتمع شخصيات الرواية، فهو راعي غنم يعمل لدى سيده، ويتوسط له عند "أوخيد" في مرحلة الصراع والتّفاوض بينهما .

أيضا احتوت الحكاية على ألقاب أخرى مثل "شيخ القبيلة" فكلمة الشيخ تدل على كبر السنّ والتّجربة والحكمة، أمّا كلمة "القبيلة" فهي معنى يدل عن حيّز مكاني في زمان معين يقطنه مجموعة من البشر تحكمهم علاقة نسّاب ومصاهرة، واسم "شيخ القبيلة" دلالة على مكانة سلطويّة تُمنح لشخص واحد لقيادة شؤون القبيلة، وهو ما يعرف عن قبائل الصّحراء العربيّة والليبيّة.

خاتمة:

لقد تضمنت رواية "التبر" لإبراهيم الكوني عددا من الشخصيات التي أسهمت في سيرورة وبناء المسار السّردي لها، ومن خلال دراستنا لعنصر الشخصيّة ونظام بنائها ضمن مسارها السّردي توصلنا إلى مجموعة من النّتائج نوجزها على التّحوّلات الآتي:

(1) ظهور شخصيّة البطل في استهلال الحكاية ثم توالي ظهور الشخصيات المساعدة لتزدهر بعدها الشخصيات المعارضة مع بداية تأزم الأحداث واشتداد العقدة.

(2) تميزت كل الشخصيات باشتراكها في محور الجنس، فقد صرّح السّارد بجنس كل شخصياته سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

(3) لم تظهر شخصيات الرواية دفعة واحدة، بل ظهرت بالتّدرج وامتألت بطاقتها الدّلاليّة بشكل تدريجي مع سيرورة الأحداث، وبخاصة على لسان السّارد الخارج حكائيّا المتباين حكائيّا والذي أعطى معرفة كاملة بكل الأحداث

والنتيجة الممثلة للأدوار التي أنيطت بها، كما تدخلت بعض الشخصيات في السرد وتعرفنا من خلالها عن شخصيات أخرى.

(4) تميزت الأدوار التي قام بها بالثبات العاملي، فلا توجد شخصية كانت مساعدة ثم تحولت إلى معارض، الأمر نفسه بالنسبة لدال هذه الشخصيات فهو ثابت في حالة سكون إذ لم يتغير اسم أي شخصية.

(5) تعدد دوال أسماء وألقاب الشخصيات بتعدد الخلفيات المصادر التي اعتمدها السارد في اختيار دوال شخصياته والتي حملت دلالات ارتبطت مباشرة بالمنطقة والحياة الصحراوية.

(6) تميزت علاقة السارد بشخصيات روايته بالنظرة الفوقية العالمية بكلّ خبايا الشخصيات من جميع الجوانب وحتى النفسية أوحيد كان يجهل مال الذي يعني رهن في لغة التجار.

(7) تشكل مسار حكاية "التبر" على ثنائية بين شخصيات انفصلت ببطاقتها الدلالية وبخاصة (أوخيد+ الشيخ موسى) و(دودو+ أيور+ تانيت+ الراعي)، ويمكن إيجازه في الصراع بين: دودو/أوخيد، الأبلق/أيور.

(8) تشكلت شخصيات التبر وفق رؤية قائمة على خلفيات عرفية خاصة بالمجتمع الصحراوي وعلى رأسها علاقة التارقي بمهره ووجود الأنثى في حياة الرجل.

(9) طغى على مسار الحكاية أن الأصل النبيل والشريف لا يمكن تحصيله بالثروة ولها امتلاك دودو للتبر لم يمكنه من الغنى الحقيقي.

(10) يمكن في الأخير وأخذاً بمعطيات النص: البطاقة الدلالية والأدوار التي أدتها شخصية أوخيد أن تكتمل صورته لدى المتلقي الذي يملك خلفية عن صفات وحياة أهل الصحراء، ولهذا يمكن أن نقول بأنه مثل من خلاله لشخصية الرجل التارقي الذي يكون سليل الأسرة الحاكمة يبدو قويا جسديا عنيدا حراً

شجاعا يعرف الصّحراء ويدرك أنها لا تقاوم إلاّ بالصّبر على صعوبة مناخها والحياة القاحلة فيها فالصّبر هو الكنز الحقيقي في الصّحراء وليس المال أو الذهب، وتكتمل الصّورة بالعلاقة التي أسّس لها المؤلّف من خلال علاقة الرجل بمهرية الذي يكون بمثابة التّمثيل الدّقيق للصّورة،— الشّخصيّة التي يمكن أن تُعطى لرجل الرمال.

الهوامش:

1. محمد فليح الجبوري، الاتجاه السّمِّيائي في نقد السّرد العربي الحديث منشورات الاختلاف ط1، 2013، الجزائر، ص97.
2. فليب هامون، سمبولوجية الشّخصيات الروائيّة، تر: سعيد بن كراد، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، دار الحوار، ط1، 2013، سوريا، ص36.
3. المرجع نفسه، ص37.
4. عز الدين بونيت، الشّخصيّة في المسرح المغربي _ بيانات وتجليات _ مطبعة المعارف الجديدة دط، دت، الرباط، ص136.
5. محمد فليح الجبوري، ص98.
6. إبراهيم الكوني، الثّبر، تاسيلي للنشر والإعلام، ط3، 1992، لبنان ص124.
7. الرواية، ص104.
8. محمد فليح الجبوري، ص99.
9. إبراهيم الكوني، ص39.
10. الرواية، ص16.
11. انظر، الرواية، ص53.
12. الرواية، ص121.
13. الرواية، ص122.
14. الرواية، ص123.
15. الرواية، ص38.
16. الرواية، ص79.
17. الرواية، ص15.
18. الرواية، ص119.
19. الرواية، ص73.
20. الرواية، ص69.
21. الرواية، ص92.
22. الرواية، ص69.
23. الرواية، ص68.

24. الرواية، ص 81.
25. الرواية، ص 15.
26. الصَّفحة نفسها.
27. الرواية، ص 07.
28. الصَّفحة نفسها.
29. الرواية، ص 25.
30. الرواية، ص 26.
31. الرواية، ص 20.
32. الرواية، ص 26.
33. الرواية، ص 157.
34. الرواية، ص 67.
35. الرواية، ص 72.
36. الرواية، ص 95.
37. الرواية، ص 75.
38. الرواية، ص 124.
39. الرواية، ص 141.
40. الرواية، ص 74.
41. الرواية، ص 108.
42. الرواية، ص 104.
43. الرواية، ص 14، 15.
44. الرواية، ص 29، 30.
45. الرواية، ص 20.
46. الرواية، ص 08.
47. ينظر: الرواية، الصَّفحة نفسها.
48. الرواية، ص 13.
49. الرواية، الصَّفحة نفسها.
50. ينظر: الرواية، ص 15.
51. الرواية، ص 13.

52. الرواية، ص72.
53. الرواية، ص16.
54. الرواية، الصّفحة نفسها.
55. محمد فليح الجبوري، الاتجاه السّمائي، ص99.
56. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.
57. فليب هامون، سمبولوجيّة الشّخصيات الروائيّة، ص58.
58. الرواية، ص104.
59. السّعيد بوطاجين، الاشتغال العاملي دراسة سمياييّة "غدا يوم جديد" لابن هدوقة، منشورات الاختلاف، ط1، 01، 2000، الجزائر، ص86.
60. الرواية، ص107.
61. فليب هامون، سمبولوجيّة الشّخصيات الروائيّة، ص
62. الرواية، ص07.
63. الرواية، ص67.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

المجلس الأعلى للغة العربية



جائزة اللغة العربية لوسائل الإعلام

لقد عمل المجلس الأعلى للغة العربية على مرافقة الإعلاميين، والرفع من حسن استعمال اللغة العربية عبر الملتقيات والندوات ومختلف الدراسات؛ تشجيعاً لوسائل الإعلام في خدمة اللغة العربية؛ لذا فقد أطلق المجلس، جائزة لوسائل الإعلام يهدف من ورائها إلى:

- تشجيع الصحافيين على الكتابة باللغة العربية؛ تحريراً وتحليلاً وبحثاً؛
- التشجيع على إيلاء العربية الفصيحة أهمية كبيرة باعتبارها أداة للتفكير وسلامة التفكير من سلامتها؛
- تشجيع الكتابة بالعربية الفصيحة والنشر بها، واستعمالها في الإعلام الإلكتروني؛
- إعادة الاعتبار لأهمية التكوين في اللغة العربية؛
- الاعتزاز باللغة بحسبانها مكوناً أساسياً من مكونات الهوية الوطنية؛
- الحفاظ على نضارة العربية، وطمأننة الإعلاميين بأنّ هناك مؤسسات لغوية رسمية معتمدة تتابع تطورات اللغة وتسهر على الحفاظ عليها؛ وفي مقدمتها المجلس الأعلى للغة العربية.

— **المعنيون بالجائزة:** تشجيعاً لوسائل الإعلام الوطنية، فإنّ الجائزة مفتوحة لمختلف الإعلاميين العاملين في الصحافة المكتوبة والإلكترونية والمسموعة والمرئية المعتمدة.

— **مجالات الجائزة:** تُمنح الجائزة لأحسن عمل إعلامي (مقال، تحقيق روبرتاج، بورترية) عن اللغة العربية في المجالات الآتية:

- 1- اللغة العربية والمجتمع.
 - 2- مواكبة اللغة العربية للعلوم والتكنولوجيا.
 - 3- تحديات اللغة العربية ورهاناتها..
 - 4- اللغة العربية من خلال المضامين الموجهة للطفل.
 - 5- اللغة العربية والإنترنت في شبكات التواصل الاجتماعي..
 - 6- اللغة الهجينة وأثرها السلبي.
 - 7- شخصيات خدمت اللغة العربية.
 - 8- أخرى تتعلق باللغة العربية.
- **شروط الجائزة:**

- 1- أن يكون الصحفي من جنسية جزائرية.
- 2- أن يقدم العمل باللغة العربية.
- 3- أن يثبت الإعلامي انتسابه لوسيلة إعلامية وطنية بصفة رسمية.
- 4- ألا يكون عضواً من أعضاء لجنة التحكيم.
- 5- أن يصل العمل المقترح في الحيز الزمني المطلوب.
- 6- أن لا يكون العمل المقدم حصل على جائزة.
- 7- أن يكون العمل قد نُشر أو بُثّ من تاريخ بثّ الإعلان إلى غاية 30 سبتمبر 2019.

- 8- حدّد يوم 10 أكتوبر آخر أجل لتسلّم الأعمال.
- 9- تسلّم الجائزة في 18 ديسمبر 2019، بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية.

- قيمة الجائزة: تمنح الجائزة لأحسن عمل إعلامي مكتوب، وإذاعي وتلفزيوني وإلكتروني.

1- قيمة مالية، وعينية معتبرة

- المسهمون:

- المجلس الأعلى للغة العربية؛

- وزارة الثقافة؛

- وزارة البريد والمواصلات السلكية واللاسلكية والتكنولوجيات والرقمنة؛

- وزارة السياحة والصناعات التقليدية؛

- شركة سونالغاز؛

- كوندور (CONDOR)؛

- أريدو (OOREDOO)؛

- اتصالات الجزائر .

- روابط الاتصال:

- الهاتف: 021.23.07.11 / المحمول: 0559937484؛

- البريد الإلكتروني: razzakghit@yahoo.com

العنوان: 08، شارع فرانكلين روزفلت، الجزائر.

ص.ب. 575، ديدوش مراد، الجزائر.



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



رئاسة الجمهورية

المجلس الأعلى للغة العربية

إعلان عن جائزة اللغة العربية 2020

يعلن المجلس الأعلى للغة العربية عن تنظيم (جائزة المجلس للغة العربية لسنة 2020) التي تهدف إلى تشجيع الباحثين من داخل الوطن، وتنميين منجزاتهم العلمية والمعرفية والإبداعية، ذات المردود النوعي الهادف إلى إثراء اللغة العربية، والإسهام في نشرها وترقيتها، سواء أكانت هذه الأعمال مؤلفة باللغة العربية، أم مترجمة إليها.

1 - شروط الترشح للجائزة:

- أن يقدم العمل باللغة العربية؛
- أن يتوفر العمل على قواعد المنهجية العلمية؛
- أن يكون العمل موثقاً وأصيلاً، وفي مجال الترجمة ترفق نسخة للنص بلغته الأصلية؛
- أن يكون العمل المقدم بين مائة/ مئة (100) صفحة وخمسمائة (500) صفحة (مكتوبة بخط simplified arabic حجم 14)؛
- ألا يكون العمل قد نال به صاحبه جائزة أو شهادة علمية؛
- ألا يكون العمل قد نُشر؛
- أن يندرج العمل في أحد المجالات المذكورة أدناه؛
- قرارات لجنة التحكيم غير قابلة للطعن؛

- لا ترد الأعمال إلى أصحابها؛ سواء فازت أم لم تفز؛
- لا يحقّ للحائز على جائزة المجلس للغة العربية، أن يتقدم بعمل آخر إلا بعد مرور دورتين من حصوله عليها.
- تعرض الأعمال المرشحة على لجنة تحكيم؛ مكونة من ذوي الاختصاص والذين لا يسمح لهم بالمشاركة في الجائزة.

2 - مبلغ الجائزة: حدّد مبلغ الجائزة بـ 2.000.000 دج، يوزّع بمقدار 500.000 دج لكلّ مجال من المجالات الأربعة التالية:

- 1/ 2 - جائزة المجلس في العلوم والتقانات.
- 2/ 2 - جائزة المجلس في علوم اللسان.
- 3/ 2 - جائزة المجلس في الترجمة إلى العربية.
- 4/ 2 - جائزة المجلس في وسائل الاتصال والتواصل الاجتماعيّ باللغة العربية.

في حالة وجود جائزتين: استحقاقية- تشجيعية؛ يوزّع المبلغ الماليّ في كلّ مجال من مجالات جائزة المجلس للغة العربية على النحو التالي:

- 70% لجائزة الاستحقاق؛

- 30% للجائزة التشجيعية.

وفي حالة حجب جائزة في مجال من المجالات، يمكن للجنة التحكيم أن تقترح جائزة تشجيعية، تقطعها من المجال المحجوب إلى مجال آخر، على ألا تتجاوز قيمتها 50% من مبلغ الجائزة الثانية.

- تنشر الأعمال الفائزة، ضمن منشورات المجلس باستثناء الجائزة التشجيعية التي تُحال على هيئتي تحرير مجلتي: اللغة العربية، ومجلة معالم للترجمة؛ للتداول بشأن إمكانية نشرها في عدد من أعدادهما.

- تصبح الأعمال الفائزة بجائزة المجلس مُلكاً للمجلس، إلا أنه يمكن لمؤلفها استعادة حقوقه بعد انقضاء ثلاث (03) سنوات من نشر العمل.

3 — طلب الترشّح: يتكوّن طلب الترشّح للجائزة من الوثائق الآتية:

- طلب خطي؛
- نسخة من وثيقة الهوية (بطاقة التعريف أو رخصة السياقة)؛
- السيرة العلمية للمشاركة؛
- نسختين/02 من البحث المقدم لنيل الجائزة:
- * النسخة الأولى/ مسجلة على قرص؛
- * والنسخة الثانية/ توجه عن طريق البريد المسجل، ويكون تاريخ الختم البريدي شاهداً على ذلك.

4 — للتذكير؛ إن باب الترشّح مفتوح إلى غاية 31 مارس 2020.

للاستفسار: الاتصال بالروابط: الهاتف: 09 07 23 021 / 99 88 021 23.

البريد الإلكتروني: majljaiza@gmail.com

5 — يوجّه ملف الترشّح إلى العنوان الآتي:

السيد رئيس المجلس الأعلى للغة العربية

شارع فرانكلين روزفلت، الجزائر.

أو

ص.ب : 575 شارع ديدوش مراد الجزائر العاصمة

(جائزة المجلس الأعلى للغة العربية 2020).

تم إخراج وطبع بـ :

دار الخلدونية للطباعة والنشر والتوزيع

05، شارع محمد مسعودي القبة القديمة-الجزائر

الهواتف: 05.42.72.40.22-021.68.86.48-021.68.86.49

البريد الإلكتروني: khaldou99_ed@yahoo.fr